

صوت الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة

العلامة الشهيد

السيد حسن السيد علي القبانجي النجفي (ره)

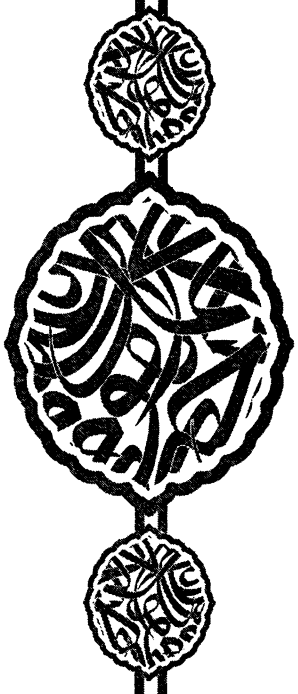
١

صوت الإمام علي (ع) في نهج البلاغة

السيد حسن القبانجي (ره)

صوت الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة

الجزء الأول



تأليف

العلامة الشهيد

السيد حسن السيد علي القبانجي النجفي قدس سره



مؤسسة إحياء التراث الشيعي

www.turathshiai.com

النجف الأشرف



مؤسسة إحياء التراث الشيعي

النجف الأشرف ـ شارع الرسول ﷺ ـ محلة الحويش

رقم الزقاق ٥٤ ـ رقم الدار ٢

هاتف: ٣٣٢٨١١ و٣٣٢٨١٣

ص.ب ٥٨٨

http://www.turathshiai.com
http://www.turathshiai.net
http://www.turathshiai.org

صوت الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة ج ١

العلامة السيد حسن القبانچي رحمه الله

الناشر : دليلنا

المطبعة : نقارش

الطبعة : الأولى

سنة النشر : ربيع الأول ١٤٢٦ هـ

عدد النسخ : ٢٠٠٠ نسخة

السعر : ٥٠٠٠ دينار

ردمك : ٣ ـ ٠٩٧ ـ ٣٩٧ ـ ٩٦٤ ISBN

الدورة : x ـ ٠٩٩ ـ ٣٩٧ ـ ٩٦٤ ISBN

جميع الحقوق محفوظة للمؤسسة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله على إنعامه وإفضاله، وصلّى الله على جوهر الوجود محمّد وآله، ونخصّ بالذكر منهم أخاه وصهره وابن عمّه ووزيره وخليفته في أمّته أمير المؤمنين وقائد الغرّ المحجّلين، الذي أكرمه ربّ الخلائق بأن قرن نوره في الخلق بنور نبيّه، وجعله له أخاً بنصّ آية المباهلة وحديث المؤاخاة، وأبى أن يزوّجه إلاّ من سيّدة نساء العالمين، وأكرمه بأن جعل نسل نبيّه ﷺ في صُلبه، فرزقه سبطي نبيّ الرحمة وسيّدي شباب أهل الجنّة الحسن والحسين عليهما السلام شنفي العرش.

لا يُماري أحد أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام قد ارتفع _ بالمسحة الإلهيّة التي تعلوه _ عن أن يُشبه كلام المخلوقين، وبأريج العبق النبويّ الذي يفوح منه عن أن يمازج كلام أحد من أرباب الفصاحة المشهورين.

رغم أنّ أمير المؤمنين ومولى الموحّدين عليه السلام في متانة بلاغة كلامه وقوّة حجّته وبيانه لم يتكلّف _ وهو يدير اللغة كيف يشاء _ انتقاء الألفاظ، ولا تعمّد _ وهو يسوق جحافل الفصاحة أنّى أراد _ اختيار العبارات؛ فقد تحدّث هذا العقل النورانيّ الذي لم ير شيئاً إلاّ ورأى اللهَ قَبْله ومعه وبعده، تحدّث لعباد الله عزّ وجلّ ليرفعهم إلى مشهد النور الأعلى، وينتشلهم من ظلمات النفس ومزالق الهوى.

ارتفع أمير المؤمنين عليه السلام بالفصاحة العربيّة عن أن تنصبّ _ كما هو حال معظمها _ في التوافه، فتكون مسوقة لبيان صفة فَرَس أو بعير أو حمار وحشيّ؛ وسما بها عن أن تتلخّص في نوازع البشر المخلوق من الطين.

لم يعهد العرب فصيحاً يسوق الكلام في توحيد الله تعالى، ولم تعرف في فصحائها من يتحدّث في صفات الملائكة وعبادتها، فحقّ لها أن تدهش وتعجب وهي تُصغي إلى رجلٍ هو أعرف بطُرق السماوات منه بطرق الأرض...

لكنّ العجب سيزول، والاستغراب سينحسر حين يعي المرء أنّ هذا المتكلّم هو باب مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله وخازن علمه، وأنّه من رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة هارون من موسى عليه السلام، وأنّه الأُذن الواعية التي صبّ فيها رسول الله صلى الله عليه وآله بأمر ربّه العِلم صبّاً، فحقّ لها أن تعي وتحفظ.

ولقد قيّض الله تبارك وتعالى في الأعصر المختلفة مَن نظم عقوداً مختارة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يبهر سنا بريقها الناظر، وهيّأ من عباده من تصدّى لاستثارة غوامض حِكمه ودقائق مواعظه المُرزئة بالدرّ والجواهر.

ومن هؤلاء الذين قيّضهم الله سبحانه في عصرنا الحاضر رجلٌ من هذه السلالة الطاهرة، وُفّق في الجمع بين منهج الحوزة العلمية ومنهج الممارسة الخطابيّة والمنبر الحسينيّ، وكانت النجف يومذاك لم تألف بعدُ ظاهرة العالم الخطيب والخطيب العالم.

بلى، شُغف العلاّمة الشهيد السيّد حسن القبانچي رحمه الله بأهل البيت عليهم السلام شغفاً ملك عليه نفسه، فنذر حياته في إحياء آثارهم، فحاز بذلك القدح المعلّى... وهاتيك مؤلّفاته تشهد له بالسعي الدؤوب في هذا الشأن، وتلك تقريظات العلماء الأعلام لمؤلّفاته تُغني عن كلّ مقال.

وصف العلاّمة الحجّة المحقّق السيّد محمّد صادق بحر العلوم كتاب «الجواهر الروحيّة» للمؤلّف قدس سره بأنّه غرّة في جبين الدهر، وجوهرة ثمينة لا يقدّرها إلاّ عباد الله المخلصون، والعلماء العارفون بالحقائق.[1]

---

(١) خطيب العلماء: ٣٠.

وكتب العلاّمة آية الله السيّد محمّد جواد الطباطبائي التبريزي في مقدّمته لكتاب «عليّ والأُسس التربويّة» يقول: «ومن أبدع ما أشرقت علينا شمسه في أسفاره الجليلة النافعة كتاب «علي والأسس التربويّة في شرح الوصيّة»، فإنّك بالنظر في صفحات هذا السفر الجليل تعرف قيمة ما يُسديه إلى أمّته من وقتٍ لآخر بتلك المؤلّفات القيّمة والصحف الخلقيّة العظيمة التي تهديها سواء السبيل، وتسمو بها إلى الحياة الطيّبة، حياة الحكمة والرشد والفضيلة والمروءة وغيرها من الخلال التي تكفل للأمّة السعادة والهناء».[١]

أمّا كتابه «مسند الإمام علي عليه السلام» الذي أنفق على تأليفه أكثر من عشرين عاماً من عمره الشريف، فقد وصفه المفكّر الإسلامي آية الله العظمى السيّد الشهيد محمد باقر الصدر بأنّه من أهم مصادر المعرفة الإسلاميّة.[٢]

وكتب عنه آية الله العظمى الشيخ مرتضى آل ياسين:

«...شاء التوفيق الإلهيّ أن يدفع بمؤلّف هذا السفر القيّم فضيلة السيّد الجليل والخطيب الفاضل النبيل الألمعي الزكي السيّد حسن القبانچي أيّده الله إلى الإلمام بما يسع الإلمام به من تلك الأحاديث ليجمعها في إطار واحد، فنهض ـ حفظه الله ـ بهمّة لا تعرف الكلل، ورغبة عارمة لا يعتريها الملل، فسجّل كلّ ما ظفر به من الأحاديث العلوية على صفحات هذا الكتاب... فجاء الكتاب ـ ولله الحمد ـ كتاباً فائقاً في ترتيبه وتبويبه، ورائقاً في تأليفه وتصنيفه، كلّ ذلك بفضل الجهد العظيم الذي عاناه في سبيل جمعه ووضعه».[٣]

وقد مُنح الكتاب المذكور جائزة أفضل مؤلّف لسنة ١٣٨٠ هـ ش (١٤٢٢هـ) التي دُعيت في الجمهورية الإسلامية في إيران بسنة الإمام عليّ عليه السلام.

---

(١) خطيب العلماء: ٣١ و٣٢.

(٢) خطيب العلماء: ٣٥ و٣٦.

(٣) خطيب العلماء: ٣٦ و٣٧.

كتاب «صوت الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة»:

يقول خطيب العلماء رحمه الله في رسالة بعثها إلى نجله سماحة العلاّمة الحجّة السيّد صدر الدين القبانچي:

«وبعد، إنّ كتابنا «صوت الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة» هو مختارات من خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كنّا نحاضر بها في بعض المناسبات مع شرحٍ واف أخلاقيّ وأدبي وتاريخي، وردّ ونقد، وأمام الكتاب أقوال وآراء لجمهرة من عباقرة العلم والأدب حول نهج البلاغة».[1]

جمع المؤلّف رحمه الله في كتابه هذا فأوعى، فقد ضمّنه كلمات أقطاب العلم وعباقرة الأدب في نهج البلاغة تكشف عن شغفهم به وإذعانهم بعظمته، ونِعم ما قيل في حقّه.

كلامُ عليٍّ كلامٌ عليّ ... وما قاله المرتضى مُرتضى

ثمّ أفرد رحمه الله باباً أسماه «نهج البلاغة في الشعر العربي»، وعقّب عليه بايراد مختارات من خطب الإمام عليّ عليه السلام وشرحها، في انتقاء بديع لتلك الشروح للعبارة الأجزل والأجمل، لا يشغله ذلك عن التوسّع ـ حيثما أحسّ بذلك ضرورة ـ في البحث، فقد رأيناه يورد أبحاثاً موسّعة قرآنيّة وعلميّة وتاريخية وأدبية وأخلاقيّة، يحدو به شعوره بمسؤوليته ـ كعالمٍ عامل وخطيب واعظ ـ في وضع البلسم على الجرح، امتثالاً منه لأمر مولاه مولى الموحّدين عليه السلام الذي افترض على العالِم أن يكون طبيباً دوّاراً بطبّه، متحرّياً في خُطاه وعظ الناس وهدايتهم إلى مرضاة الله تعالى، في وعيٍ كامل منه قدس سره بأنّ الفقيه ـ كلّ الفقيه ـ من لم يُقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله.

وكان من ديدنه أن تزدان أبحاثه المختلفة بعدد كبير من الشواهد القرآنية والأحاديث المعتبرة عن المعصومين عليهم السلام.

---

(١) خطيب العلماء: ٣٧ و٣٨.

ولأجل أهميّة هذا الكتاب وقيمته العلميّة ارتأت مؤسسة إحياء التراث الشيعي تحقيقه ونشره ووضعه بين أيدي القرّاء الأعزاء، مساهمةً منها في نشر التراث الشيعيّ المتميّز.

نشاطات مؤسسة إحياء التراث الشيعي:

تأسّست هذه المؤسسة في ١٥ جمادى الآخرة لسنة ١٤٢٤هـ في النجف الأشرف بعد زوال النظام البعثي الحاقد، وتركّزت نشاطاتها منذ ذلك الحين في عدّة محاور:

١ ـ صيانة التراث الشيعي من خلال جمع واقتناء الكتب الخطيّة، واستنساخ المخطوطات في داخل العراق وخارجه.

٢ ـ نشر التراث الشيعي: من خلال إعداد فهارس المخطوطات وطباعتها، علاوة على إنجاز مشروع نفائس التراث الشيعي الذي تكفّل بإعداد أقراص ليزرية تخصّصيّة عن النفائس الخطيّة في أهم مكتبات النجف الأشرف وتقديمها للباحثين عبر برنامج كمبيوتري علمي وفنّي.

٣ ـ قسم التحقيقات الذي يتولّى مهمة تحقيق وطباعة كتب التراث الشيعي، وإصدار مجلّة التراث الشيعي الفصليّة، وتهيئة مكتبة عامّة للباحثين، فضلاً عن حقل الدراسات الكومبيوتريّة.

٤ ـ قسم الانترنيت الذي يتضمّن إنشاء بنك للمعلومات يتكفّل بتبادل المعلومات والنسخ الخطّيّة مع المكتبات العالميّة عبر الانترنيت، إضافة إلى إنشاء صفحة خاصّة بالمؤسسة على الانترنيت.

ناهيك عن الخدمات العامّة التي تقدمها المؤسسة من خلال دعم المكتبات ومراكز التحقيق، والتعاون الثقافي مع كبار الباحثين والمحقّقين.

عملنا في الكتاب:

قامت المؤسسة بتحقيق هذا السفر النادر وتصحيحه وتخريج آياته وأحاديثه وأشعاره وشرح بعض كلماته المبهمة، وقمنا بإضافة بعض العناوين حيثما وجدنا لذلك ضرورة، وكلّنا أمل في أن نكون قد قدّمنا الكتاب للقارئ الكريم في حلّة قشيبة تجمل بأمثاله ونظائره.

وإذ تبادر مؤسسة إحياء التراث الشيعي إلى نشر هذا السفر القيّم ووضعه بين يدي القراء الكرام، تأمل أن تواصل الخطى الحثيثة الجادّة في مجال إحياء تراث أهل البيت عليهم السلام، والله تعالى نسأل أن يوفّقنا لخدمة الدين وأهله، إنّه خير ناصر وخير مُعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

شكر وتقدير:

تتقدم المؤسسة بالشكر الجزيل إلى الاخوة الافاضل في لجنة التحقيق ونخص بالذكر سماحة الشيخ رحيم مبارك لجهدهم الكبير في تحقيق الكتاب. كما نشكر الأخ الفاضل ياسر الصالحي مسؤول قسم الكمبيوتر سائلين المولى تعالى أن يوفقهم ويسدّد خطاهم.

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

النجف الأشرف

السيّد محمد القبانچي

تقديم

بقلم نجل المؤلف سماحة السيد صدر الدين القبانچي

بسم الله الرحمن الرحيم

سياسة الإمام علي عليه السلام:

هل نجح الإمام علي عليه السلام في سياسته مع الأحداث التي عاصرت حكومته أم أخفق؟

رغم وجود وجهتي نظر مختلفة لدى الباحثين والمحللين إلا أن هناك إجماعاً لدى كل الدارسين لشخصية الإمام علي عليه السلام وسيرته قديماً وحديثاً وسواء من الخصوم أو الأصدقاء، مسلمين وغير مسلمين على أن الإمام علي عليه السلام استطاع أن يجسد النموذج المثالي للحكم الدستوري والمبدئي العادل.

لقد استطاع الإمام علي عليه السلام _ ليس على مستوى النظرية فحسب وإنما على مستوى الممارسة والتطبيق _ أن يضع أصولاً ثانية لحكم دستوري حرّ بما لم تستطع التجربة البشرية المعاصرة أن تصل إلى مثله.

الأصول الثلاثة:

ويستطيع الباحث في سياسة الإمام علي عليه السلام ومواقفه، والقارئ لخطبه ورسائله في نهج البلاغة خاصة أن يلتمس ثلاثة أصول اعتمدها الإمام في سياسته هي العدالة، والمبدئية، والحرية.

إن موقفه من أخيه عقيل حين طلب منه أكثر من استحقاقه من بيت

المال يمثل صورة رائعة لالتزام العدالة في التوزيع، والتعالي على جميع المحسوبيات والمنسوبيات في إدارة البلاد، حيث رفض الإمام أن يعطيه أكثر مما يعطي سائر المسلمين واستعد أن يتحمل خسارة سياسية بانسحاب عقيل من صفوفه دون أن يتراجع عن مقتضيات العدالة المرّة.

كما أن موقفه من معاوية حين عزله عن ولاية الشام يمثل صورة بطولية رائعة لالتزام المبدئية في التحرك السياسي بعيداً عن الخضوع للمصالح المؤقتة والمكاسب السياسيّة.

كما أن موقفه من طلحة والزبير حينما أجازهما بالذهاب إلى المدينة المنوّرة وهو يعلم أنهما لا يريدان العمرة بل يريدان الغدرة _ كما قال عليه السلام _ يدلل بشكل واضح مدى التزام الإمام علي عليه السلام الشديد بالحرية السياسية في التحرك.

هذا الكتاب:

إن كتاب (صوت الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة) لمؤلفه العلامة الكبير والباحث المحقق السيد حسن القبانچي قدس سره هو محاولة لالتقاط صور جميلة لمواقف الإمام علي عليه السلام التي يجسّد فيها قيم العدالة، والحرية والمبدئية.

ومن الحق أن نشيد هنا بالجهود العلمية الكبيرة لمؤلف هذا الكتاب وخاصة ما يتعلق منها بالإمام علي عليه السلام وقد لاحظنا لدى ترجمتنا لحياة المؤلف في كتابنا (خطيب العلماء) مدى العلاقة الوثيقة والانشداد الروحي المستحكم للمؤلف مع جدّه الإمام علي عليه السلام والتي برزت بشكل واضح في مجمل خطاباته ومؤلفاته.

كتابات المؤلف في الإمام علي عليه السلام:

لقد كتب عن الإمام علي عليه السلام ثلاثة مؤلفات:

الأول: «علي والأسس التربوية»:

وهو أول كتاب صدر للمؤلف ويتضمَّن شرحاً وافياً لوصية الإمام علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام.

ويبدو أن المؤلف قد انفرد بهذا الكتاب، وسجّل السبق في مجال شرح وصية الإمام علي عليه السلام.

الثاني: «مسند الإمام علي عليه السلام»:

وهو موسوعة ضخمة جمع فيها المؤلف أكثر من أحد عشر ألف نصّاً للإمام علي عليه السلام.

ويرى المؤلف أن هذه الموسوعة هي حصيلة عمره والتي أفنى في إنجازها أكثر من عشرين عاماً في ظروف معقّدة وصعبة عاشها العراق وعاشتها الحوزة العلمية في النجف الأشرف في ظل عهد البعث الأسود البائد.

حيث آثر المؤلف أن يعكف في منزله لإنجاز هذه الموسوعة بعيداً عن ملاحقات السلطة الغاشمة التي كانت تقطع الطريق على حركة علماء الدين وتحدّد أدنى مستوى من فعالياتهم.

فمنذ عام ١٩٧٤ ميلادياً حيث ارتكبت سلطة البعث جريمة إعدام الشهيدين العلامة السيد عز الدين القبانچي رحمه الله (ابن المؤلف) والعلامة السيد عماد الدين الطباطبائي رحمه الله (ابن أخت المؤلف) في أول ظاهرة إعدام لعلماء الدين.

منذ ذاك التاريخ عاش المؤلف حصاراً وملاحقةً وتهديداً متواصلاً من قبل أزلام السلطة اضطره أن يكون حبيس داره عاكفاً على إنجاز هذه الموسوعة المباركة (مسند الإمام علي عليه السلام).

الثالث: «صوت الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة»:

وهو هذا الكتاب الذي بين يديك.

وقد كان والدي الشهيد مؤلف هذا الكتاب قد طلب مني وأنا في بلاد الهجرة (إيران) عبر رسالة خطيّة رفعها إلي أن أكتب مقدمة لهذا الكتاب.

وشاءت الأقدار أن لا نلتقي، ولا يطبع هذا الكتاب إلا بعد شهادة مؤلفه عام ١٩٩١ ميلادياً إبان الهجوم الإجرامي لسلطات البعث على مدينة النجف الأشرف واقتحامها بالدبابات وقصفها بصواريخ أرض أرض واعتقال أكثر من مائة من علمائها وفضلائها ثم قتلهم جماعياً حيث لم تزل أجسامهم مفقودة تحت الثرى ضمن عشرات المقابر الجماعية التي لم يعثر عليها بعد.

كلمة شكر:

والآن حيث تصدى أخي العزيز سماحة السيد محمد القبانچي لتحقيق ونشر هذا الكتاب من خلال مؤسسته الموقرة «مؤسسة إحياء التراث الشيعي» ورغب إليّ أن أقدّم له مقدمة استجبت له في ذلك شاكراً جهده وعمله في إخراج هذا الكتاب إلى النور سائلاً الله تعالى أن يجعله في الباقيات الصالحات من أعماله، وأن يتقبل هذا الكتاب من مؤلفه، ويزيد في درجاته، ويحشره مع أجداده الطيبين محمد وآله الطاهرين.

النجف الأشرف

ليلة ٥ شوال / ١٤٢٥هـ

صدر الدين القبانچي

«مقدمة وذكريات»

بقلم الدكتور الشيخ محمد حسين الصغير

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد حسن السيد علي الحسيني القبانچي النجفي... أحد أعلام النجف البارزين علماً وعملاً وأدباً ومعرفة. وهو أستاذ جليل، وخطيب كبير، ومبلّغ يقظ، يتمتع بحسن السيرة ونقاء السريرة، ذو خلق رفيع، وتواضع جمّ، وسمتٍ روحي، مبتسم الثغر، صبيح الوجه، عفيف اليد، رقيق اللسان، ظاهر الأناقة، يخضب كريمته بالسواد، حتى إذا أمتحن باستشهاد أولاده ترك الخضاب.

ولد كما أعرفه في النجف الأشرف عام ١٣٢٨هـ = ١٩٠٧م ونشأ بين أحضان العلماء وأكناف الخطباء، وأندية الأدباء.

فقرأ مبادئ العلوم العربية والشرعية لدى أساتذة متخصصين، من أبرزهم: الشيخ علي ثامر، والسيد حسن الحكيم، والشيخ زين العابدين العاملي وتخرج في الخطابة بعناية الشيخ محمد حسين الفيخراني أشهر خطباء عصره، وأفاد من صلته بآية الله العظمى السيد محمد جواد الطباطبائي التبريزي قدس سره الشريف، فهو صهره على إبنته العلوية الصابرة المحتسبة.

درس على يديه الفسلفة والحكمة وحضر بحثه الخارج فقهاً وأصولاً، واقتبس من صفاته الكريمة العليا الشيء الكثير، فهو بحق خريج مدرسته، وساعده الأيمن في إدارة شؤونه الحوزوية.

إمتدت صلتي بالسيد القبانچي ﷺ طيلة أربعين عاماً، فما رأيته إلا باسماً متفائلاً،

وعاملاً صامتاً، ورائداً متحفزاً. امتهن الخطابة فأبدع فيها بعرض جديد، وأسلوب جديد، وبصيرة نافذة، فأطلّ بها على المستمعين في العالم الإسلامي ـ العراق ـ إيران ـ الخليج، بمعلومات قيمة، وبيان رصين، ومنهج هادف.

وكان لمسيرته العلمية الهادئة أثرها الكبير في معارفه المتحضرة، وكان لانفتاحه الذهني دوره في آرائه الأنسانية، وذلك بتأثير بيئة النجف الأشرف المتنورة التي خلقت منه داعية إصلاحياً، وخطيباً مجدداً في ميدان المنبر الحسيني الشريف.

كان السيد القبانچي نور الله مرقده، يجمع بين نشاط الشباب الثائر، ووقار الشيوخ المهيب، يجتمع بعلية القوم فيأخذ عنهم تجاربه في الحياة والعلم والإجتماع والسلوك، ويعنى بالشبيبة الصاعدة فيمنحهم الحبّ والودّ الخالص في قابلية تجذب إليه القلوب وتستهوي الأفئدة، فيقبلون عليه إفادة وإستزادة وتوجيهاً نادراً، وكان هدفه من هذا وذاك إعداد كلمة الله في الأرض، والأنخراط في تأييد الخط المرجعي المستقيم، لأنه يمثل أطروحة أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وهكذا نجد السيد القبانچي مناضلاً في ميادين الجهاد، ومحاضراً على أعواد المنبر، ومتفتحاً يحتضن الجيل الجديد، وإنسانياً يلقاك بالأبسامة الصادقة، ويحدثك بسكينة ووقار، وأنت تجد في ذلك متاعاً أيّ متاع، وتنعم بلذة ماوراءها لذة.

يسعى إلى الخير بأمكاناته المتيسرة، ويعمل جاهداً للحق بطاقاته كلها، وهو بطبيعته قوي العزيمة، طيب الضمير، صادق اللهجة، يفيض لطفاً وحناناً، ويصدر عنك وفي نفسك شوق لحديثه، وتعلقٌ بشخصيته، يعظم إخوانه في الدين، دون تكلف في السيرة، أو أنانية في المسيرة.

كان كما وصفه الحكيم المتألـه آية الله السيد محمد جواد الطباطبائي التبريزي (عالم الخطباء وخطيب العلماء) وهو تقييم موضوعي، فالعلم سبيل المتألهين، والخطاب طريق العاملين.

كافح ظلم الطغاة وعسف السلطان، فبعّد وشرّد، وسجن وأعتقل، وحوصر وروقب، وهو ثابت الجنان، قوي الأعصاب، إعتبرته في مبحث سابق أحد سبعة من النجف الأشرف ممن جاهدوا جور الحاكمين، ورؤوس الطائفية، وإرادة الشر لم يرد في ذلك إلاّ خير البلاد ووحدة المسلمين، وتلاحم الصف العراقي.

وكان رائده أن ينعم المجتمع بثقافة الإسلام وتعاليمه بما فجّره القرآن العظيم من ثروة فكرية تمثل تعاليم السماء وتنشر رسالة الإسلام الخالدة في ظل ذلك البحر المتلاطم من معارف الأئمة المعصومين عليهم السلام.

وقد ظفر في هذا التوجه الفريد بأستقطاب عنصر الشباب والطبقة الواعية المثقفة، فلهم عليه إقبال شديد، وله معهم مطارحات رائعة، أكسبته ذلك الشيء الثمين الذي يحدب عليه الأخلاقيون، وهو الحب الخالص في ذات الله تعالى.

وليس حديثي عن السيد القبانچي بدافع من الصداقة العريقة، فالصداقة شيء والبحث الموضوعي شيء آخر، وإنما ينطلق الحديث عنه للتعبير عن حقائق الأشياء الكامنة في تلك الضمائر العامرة بالإيمان والمثل العليا، وهي تسعى بأزاء ذيوعها بين الناس.

لقد أدرك السيد القبانچي أن الزمن يسرع بالتطور والتجديد، ويحث الخطى إلى التكامل المعرفي بما أتاحت له التقنيات الصناعية من وسائل النقل الثقافي المرئي والمسموع والمستخرج، فبادر إلى إستثمار ذلك عملياً، فأكب

على البحث العلمي والتأليف، فحقق بذلك هدفاً مزدوجاً في توعية الجيل المعاصر من جهة، وأداء الرسالة من جهة أخرى.

ولقد إستعان في مخزونه الثقافي من خلال مكتبته الحافلة بأمهات المصادر والمراجع ونفائس الآثار، وأنا سعيد جداً لإحتفاظ هذه المكتبة وحتى اليوم بكيانها رغم الظروف المأساوية التي عانى منها السيد القبانچي في أيامه الأخيرة.

لقد عكف هذا العلم الشامخ على البحث الجدي المثمر، فأتحف المكتبة العربية بمؤلفات تعتبر في الطليعة من تراث النجف الأشرف.

وكان أبرز هذا المؤلفات:

١ ـ الجواهر الروحية في ثلاثة مجلدات.

٢ ـ شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام في مجلدين.

٣ ـ علي والأسس التربوية.

٤ ـ مسند الإمام علي عليه السلام في عشرة مجلدات.

عدا مؤلفاته الخطية التي أرجو أن تأخذ طريقها للنشر.

وبين يديك اليوم هذا الكتاب القيم:

(صوت الإمام علي في نهج البلاغة).

وهو عبارة عن إختيار دقيق لخطب الإمام أمير المؤمنين من نهج البلاغة، ألقاها محاضراً في المحافل العامة والمآتم الحسينية، شرحها ما أستطاع إلى ذلك سبيلاً، وفصل القول فيها بالأدب والسياسة والتأريخ والدين والإجتماع.

وقد اشتمل هذا السفر على عدة أراء قيّمة لأساطين العالم في نهج البلاغة وصاحب نهج البلاغة، والكتاب لايحتاج إلى إطراء:

(سبوح لها منها عليها شواهد)

وأناخ الدهر بكلكله أوائل السبعينات، فأعدم أعز أبنائه، وتبعه بعد ذلك ثلاثة آخرون من ولده، وعدد من أرحامه فكانت المأساة في ذروتها، وقد جاوز آنذاك السبعين عاماً، فهدت هذه المصائب كاهله، وأودت بصحته، فبدأ عليه الانهيار والانكماش، لا يشكو إلا إلى الله ما نزل به، ولا يستعين بسواه، فكان بذلك رمز الصابر الصامت.

وللتأريخ، فأن الغريب في الأمر أن الناس تحاشت لقاءه والسلام عليه، لأنه في رصد ورقابة من أجهزة الأمن، وكنت لا أعبأ بذلك، وأستقبله استقبال الأحباء، وأجلس إليه فيبث إليّ لواعجه وأشجانه، ويدعو لي بالحفظ والسلامة، ويشكرني على ما يجد عندي من مواساة ومشاطرة الأسى.

وبعد حرب الكويت بقليل هجمت جلاوزة الطاغية عليه داره، وإستلته من سرير المرض، وهو طريح الفراش من عملية جراحية كبرى، وأخذ مخفوراً لا يدرى إلى أين، والى يومك هذا.

والذي أعتقده جازماً أنه دفن حياً، شأنه بذلك شأن مائة وثمانين مظلوماً من أساتذة الحوزة العلمية في النجف الاشرف.

فوا أسفاه على ذلك المحيا الطلق، ووالهفاه على تلك النفس الزكية.

محمد حسين علي الصغير

النجف الأشرف

كلمات أقطاب العلم وعباقرة الأدب
حول نهج البلاغة

كلمة السيّد كاظم القزوينيّ:

جاء في كتاب شرح نهج البلاغة للسيّد كاظم القزويني: «قرأت في بعض الكتب الحديثة أنّه قد كُتب حتى اليوم مائة ألف كتاب في ترجمة حياة نابليون الفرنسي بشتّى اللغات الدارجة، فإن صحّ هذا القول فقد ظلم المسلمون علياً صلوات الله عليه بتقاعدهم وتكاسلهم وعدم القيام بما يلزم تجاه هذا الإمام صلوات الله عليه، فإنّ ما كتب عن نابليون أكثر عدداً ممّا كُتب عن الإمام علي بن أبي طالب، مع العلم أنّ نابليون لم تكن فيه فضيلة إلاّ الثورة ضدّ حكومة الوقت، ولم ينقل إلينا عن نابليون شيء من العلوم والاكتشافات والروحانيّات والزهد والعدالة والمساواة والتواضع وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

أفلا تستحقّ عظمة الإمام علي صلوات الله عليه أن يُكتب عنه مقدار ما كُتب عمّن هو دونه في الفضل والدرجة، مع الالتفات أنّ الفضيلة التي اشتهر بها نابليون وطار صيته بها إنما هي فضيلة واحدة من آلاف الفضائل التي اجتمعت في الإمام علي.

أو ما كان علي جندياً ثائراً على الكفر والشرك من عنفوان شبابه بين يدي رسول الله ﷺ؟

أوَ ما كان علي قائداً مجاهداً طيلة أيام حياته وخاصّة في عهد النبي؟

وعلى الأخصّ بعد مقتل عثمان حينما أفضت الخلافة إليه، فيوماً قاتل المتمرّدين ـ أصحاب الجمل ـ ويوماً جاهد الدكتاتوريّين ـ أهل صفّين ـ ويوماً كافح الفوضويّين ـ الخوارج ـ وهل حياة الإمام إلاّ ثورة وجهاد وانقلاب وكفاح؟

أضف إلى ذلك بقيّة مناقبه ومواهبه التي كلّ واحدة منها فضيلة تُذكر وتشكر وتليق بكلّ مدح وإطراء وإعجاب وثناء.

ولا أريد أن أقيس نابليون بالإمام علي صلوات الله عليه، فإنّ علياً لا يُقاس به أحد، بل المقصود أنّ هواة نابليون وأتباعه كتبوا عنه هذا العدد الهائل من المؤلّفات، والمسلمون لم يراعوا حقّ علي، بل قصّروا بما يجب عليهم حول علي، إلاّ القليل ممّن وفى لرعاية الحق، ولعلّ الله تعالى يبعث في علماء المسلمين وكتّابهم وحملة الأقلام ومفكّريهم روح النشاط في العمل وإدامة الجهاد المتواصل في سبيل الله وسبيل المبدأ والعقيدة والحق، إنّ الله على كلّ شيء قدير».

كلمة الحجّة آغا بزرك الطهراني:

قال الشيخ الحجّة آغا بزرك قدّس الله روحه في المجلّد الرابع من «الذريعة» تحت عنوان (ترجمة نهج البلاغة): لم يبرز في الوجود بعد انقطاع الوحي الإلهيّ كتاب أمسّ به ممّا دُوّن في نهج البلاغة، نهج العلم والعمل الذي عليه مسحة من العلم الإلهيّ، وفيه عبقة من الكلام النبويّ، وهو صدف لئالي الحكم وسفط يواقيت الكلم!

المواعظ البالغة في طيّ خطبه وكتبه تأخذ بمجامع القلوب، وقصار كلماته كافلة لسعادة الدنيا والآخرة، ترشد طلاّب الحقائق بمشاهدة ضالّتهم، وتهدي أرباب الكياسة لطريق سياستهم وسيادتهم، وما هذا شأنه حقيق أن

يعتكف بفنائه العارفون، وينقّبه الباحثون، وحريّ أن تُكتب حوله كتب ورسائل كثيرة حتّى يُشرح فيها مطالبه كلاً أو بعضاً، ويترجم إلى لغات أخر ليغترف أهل كلّ لسان من بحاره غرفة.

وقال في المجلد الرابع عشر منه أيضاً تحت عنوان «نهج البلاغة»: هو كالشمس الطالعة في رائعة النهار، في الظهور وعلوّ الشأن والقدر وارتفاع المحلّ، قد جُعلت رؤيتها لجميع الناس مرأى واحداً لا تخفى على أحد، فيقبح من العاقل البصير سؤال ما هي الشمس الطالعة؟ وهي ممّا يقتبس من إشراق نورها كافّة الكائنات في البرّ والبحر، كذلك النهج قد طبّقت معروفيّته الشرق والغرب، ونشر خبره في أسماع الخافقين، ويتنوّر من تعليمات النهج جميع أفراد نوع البشر لصدوره عن معدن الوحي الإلهيّ، فهو أخ القرآن الكريم في التبليغ والتعليم، وفيه دواء كلّ عليل وسقيم، ودستور للعمل بموجبات سعادة الدنيا وسيادة دار النعيم، غير أنّ القرآن أنزله حامل الوحي الإلهيّ على قلب النبي الأمين ﷺ، والنهج أنشأه باب مدينة علم النبي وحامل وحيه، سيّد الموحّدين وإمام المتّقين علي أمير المؤمنين صلوات الله عليه من رب العالمين، وقد قيل فيه:

نهج البلاغة نهج العلم والعملِ ... فاسلُكه يا صاح تبلغ غاية الأملِ

وقد لمحّنا في ج٤، ص١٤٤ إلى سيادته على سائر الكتب وكونه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، ونِعم ما قيل فيه:

كلامُ عليٍّ كلامٌ عليٌّ ... وما قاله المرتضى مرتضى

لقد صارت الكلمات التي يلقيها أمير المؤمنين صلوات الله عليه في خطبه، أو يُمليها إلى كاتبه مخزونة في صدور جمع من أصحابه، على موجب السيرة العربيّة، ثم قيّد ما في تلك الصدور إلى الكتابة في الأصول الأوّليّة، ومنها ما أُلفّ في عصر الأمير عليه السلام، مثل (كتاب الخطب) تأليف أبي سليمان

زيد الجهني الذي شهد حروب الأمير عليه السلام، ثمّ نقل منها إلى سائر الكتب التي أُلّفت في جمع خطبه عليه السلام إلى عصر الشريف الرضي رحمه الله ممّا لا يُستهان به، وكانت تلك الأصول المعتبرة والكتب المعتمدة في مكتبة الوزير سابور بن أردشير وغيرها في بغداد تحت نظر الشريف الرضي رحمه الله يستفيد منها في كلّ حين، حتّى أخرج منها ما اختاره من منشئآت أمير المؤمنين عليه السلام وجعلها بين الدفّتين مرتباً على ثلاثة أقطاب (١) الخطب (٢) الكتب (٣) الحكم، وبعد ذلك سمّى ما دوّنه من المنشئات بـ(نهج البلاغة)، وبيّن وجه التسمية في مقدّمة الكتاب بقوله: لأنه يفتح للناظر في تلك المنشآت أبواب من البلاغة، فكلّ واحد من الخطب والكتب والحكم مصداق نهج البلاغة، أي طريقها الواضح، يفتح للناظر فيه أبواب من البلاغة، وبما أنّ ما اختاره ودوّنه في الأقطاب قد رقى في الجزالة والبلاغة أعلى الدرجات، وعجزت عن إدراك مزاياه أفهام كثير من الطبقات، كان محتاجاً إلى التعليق والتحشية والشرح والبيان والترجمة إلى سائر اللغات نظماً ونثراً، لتعميم نفعه لجميع أفراد نوع الإنسان، فقيّض الله جلّ جلاله جمعاً من أعلام المسلمين من العرب والعجم والسنّة والشيعة وغيرهم، فقاموا بتلك الوظائف كلّ على مبلغ وُسعه وجدّه ومقدرته، وتوفيقه وسعادته، وهم بين مَن شرح جميعه، أو علّق عليه كذلك، أو شرح مشكلاته فقط، أو شرح خطبه، أو شرح كتبه أوجمعها، أو شرح كلماته القصار أو بعض أجزائه، أوترجمه كلاً أو بعضاً إلى لغة أخرى، أو نظمه كلاً أو بعضاً بالفارسية أو غيرها، أو ألّف في بعض ما يتعلّق به من تعداد خطبه وكتبه أو فهرس ألفاظه، أو التعريف له أو غير ذلك ممّا ألّفوه من هذا القبيل حسب ما اطّلعت عليه طيلة السنين، نسأل الله لهم جزيل الأجر والثواب ونشكر جميل مساعيهم، انتهى.

كلمة العلاّمة السيّد هبة الدين الشهرستاني:

وقال العلاّمة الحبر (رئيس محكمة التمييز الجعفريّة في العراق) السيّد هبة الدين الشهرستانيّ رحمه الله في كتابه (ما هو نهج البلاغة): نهج البلاغة كتاب عربي اشتهر في مملكة الأدب الأمميّ اشتهار الشمس في الظهيرة، وهو صدف لئالٍ من الحِكَم النفيسة، ضمَّ بين دفّتيه ٢٤٢خطبة وكلاماً، و٧٨ كتاباً ورسالة، و٤٩٨ كلمة من يواقيت الحكمة وجوامع الكلم لإمام الكلّ في الكلّ أمير المؤمنين علي عليه السلام، وذلك المختار من لفظه الحرّ وكلماته الغرّ وما جادت به يراعته الدفّاقة من لؤلؤٍ رطب ودرٍّ نضيد، وإنّ لسامعي هذه الخطب والكلم اهتزاز وَجدٍ وتمايل طربٍ محسوسين، وذانك برهانان لتفوّق الغناء الروحي على نغمات قيثارة ماديّة، بل إنّ النغمات الموسيقيّة وأغانيها تتلاشى وتبيد بمرور الزمن، ورنّة النغم من كلم الإمام خالدة الأثر عميقة التأثير، ومن شآء أن يعرف أنّ الحروف كيف تُطرب، وأنّ الكلمة كيف تجذب، وأنّ الكلام كيف يُكهرب، فليقرأ نهج البلاغة، وهذه الجمل أمثولة منه، إذ يقول في وصف الجنّة بعد وصف الطاووس وعجيب خلقته:

«فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا وَلَذَهِلْتَ بِالْفِكْرِ فِي اصْطِفَاقِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ» الخ.

كلمة الحجّة العلاّمة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء:

ولحجّة الاسلام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء رضوان الله عليه كلمة حول نهج البلاغة في كتابه (جنّة المأوى) ص: ١٣٦ جاء فيها:

«ما جادت العصور، ولا انجلت الدهور عن كتاب ـ بعد كتاب الله العظيم ـ أنفع ولا أجمع ولا ألمع وأنصع من نهج البلاغة في إقامة براهين التوحيد ودلائل الصنعة وأسرار الخليقة وأنوار الحقيقة وتذهيب النفس، وسياسة المدن، وحكمة التشريع والعظات البليغة، والحجج الدامغة، وإنارة العقول، وطهارة النفوس، بينا تراه يفيض بينابيع الحكمة النظريّة والعمليّة، ويرهق على توحيد الصانع، ويغرق في وصف الملائكة والمجرّدات بياناً، ويمثّل لك الجنة والنار عياناً كفيلسوف إلهي، وملاك روحيّ، وإذا به يعطيك قوانين الحرب وسوق الجيوش وتعبئة العساكر، كقائد حربي ومغامر عسكريّ، لا تلبث أن تجد فيه ما يبهرك من عجيب وصف الطاووس والخفّاش والذرة والنملة، فيصفها دقيقاً، ويستوعب فيها من عجائب التكوين وبدائع القدرة، حتى يُخيّل لك من دقّة الوصف أنّه هو الذي أبدع تصويرها، وقدّر مقاديرها، وركّب أعضاءها، وربط مفاصلها، هو صانعها ومبدعها، وصوّرها وقدّرها وشقّ سمعها وبصرها».

كلمة ابن أبي الحديد المعتزلي في نهج البلاغة:

قال في المجلد الثاني من شرحه ص ١٦٧: «لو سمع هذا الكلام ـ يعني كلام علي عليه السلام ـ النظر بن كنانة لقال لقائله ما قاله علي بن العباس بن جريح لإسماعيل بن بلبل:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ... كلاّ ولكن لعمري منه شيبانُ

وكم أبٍ قد علا بابنٍ ذُرا شرفٍ ... كما علا برسول الله عدنان

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان، بل كان يقرّ به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن، ويقول له: إنه لم يُعفَ ما شيّدتُ من معالم التوحيد، بل أخرج الله تعالى من ظهري ولداً ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب ما لم

تبتدعه أنت في جاهليّة النبط، بل لو سمع هذا الكلام أرسطوطاليس القائل بأنّ الله تعالى لا يعلم الجزئيّات لخشع قلبه ووقف شعره واضطرب فكره، ألا ترى ما عليه من الرواء والمهابة والعظمة والفخامة والمتانة والجزالة، مع ما قد أُشرب من الحلاوة والطلاوة واللطف والسلاسة، لا أرى كلاماً يشبه هذا إلاّ أن يكون كلام الخالق سبحانه، فإنّ هذا الكلام نبعة من تلك الشجرة، وجدول من ذلك البحر، وجذوة من تلك النار، وكأنّه شرح قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.[1]

ويعود ثانياً فيقول ص ١٥٠ منه:

هذا موضع المثل «إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل»[2] يعني إذا جاء هذا الكلام الربّاني واللفظ القدسي بطلت فصاحة العرب، وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه نسبة التراب إلى النضار الخالص، ولو فرضنا أنّ العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة والمقاربة لهذه الألفاظ، من أين لهم المادة التي عبّرت هذه الألفاظ عنها، ومن أين تعرف الجاهليّة ـ بل الصحابة المعاصرون لرسول الله ﷺ ـ هذه المعاني الغامضة السمائية ليتهيّأ لها التعبير عنها.

أمّا الجاهلية فإنّهم إنّما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعير أوفرس أوحمار وحشي أو ثور فلاة أو صفة جبال أو فلوات ونحو ذلك.

وأمّا الصحابة فالمذكورون منهم بفصاحة إنّما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة، إمّا في موعظة تتضمّن ذكر الموت أو ذمّ الدنيا، أو ما يتعلّق بحرب وقتال من ترغيب وترهيب أو نسب.

---

(١) الأنعام: ٥٩.

(٢) تاج العروس ٨: ٣٠. ونهر معقل بالبصرة، نُسب إلى معقل بن يسار المزني.

فأمّا الكلام في الملائكة وصفاتها وصورها وعباداتها وتسبيحها ومعرفتها بخالقها وجماله وولهها إليه وما جرى مجرى ذلك، فإنّه لم يكن معروفاً عندهم على هذا التفصيل، نعم ربّما علموه جملة غير مقسّمة هذا التقسيم ولا مرتّبة هذا الترتيب بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم، وأمّا من عنده علم من هذه المادة كعبد الله بن سلام، وأمية بن أبي الصلت، وغيرهم، فلم تكن لهم هذه العبارة، ولا قدروا على هذه الفصاحة، فثبت أنّ هذه الأمور الدقيقة في مثل هذه العبارة الفصيحة لم تحصل إلاّ لعلي وحده، وأُقسم أنّ هذا الكلام إذا تأمّله اللبيب اقشعرّ جلده ورجف قلبه واستشعر عظمة الله العظيم في روعه وجلده، وهام نحوه، وغلب الوجد عليه، وكاد أن يخرج من مسكه شوقاً، وأن يفارق هيكله صبابة ووجداً.

ولاستجلاء هذه الحقائق بأرقامها لا بدّ من ذكر نكتة تؤيّدها وتضمن وجودها: من العلم بالنسب وأنّ معرفة الصحابة محدودة.

حدّث المعتزلي في المجلّد الأول من (شرح النهج) ص ٣٧٨ ط الاولى، ونقل القصة أيضاً المحبّ الطبري في المجلد الأول من كتابه (الرياض النظرة) ص ١٠٢ في أحوال أبي بكر، ونحن ننقلها عن المعتزلي:

روى المعتزلي عن المدائني في كتاب الأمثال عن المفضّل الضبي: أن رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا خرج عن مكّة يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج إلى ربيعة ومعه علي عليه السلام وأبوبكر، فدُفعوا إلى مجلس ربيعة، فتقدّم أبوبكر ـ وكان نسّابة ـ فسلّم فردّوا عليه السلام فقال: ممّن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: أمن هامّتها أم من لهازمها؟ قالوا: من هامتها العظمى، فقال: من أيّ هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: من ذهل الأكبر، قال: أفمنكم عوف الذي يُقال له لا حر بوادي عوف؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم جسّاس حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم المزدلف

صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: أفأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: فلستم إذاً ذهلاً الأكبر، أنتم ذهل الأصغر. فقام إليه غلام قد بقل وجهه اسمه دغفل فقال:

إنّ على سائلنا أن نسألهْ والعِبء لا تعرفه أو تحمله

يا هذا إنّك قد سألتنا فأجبناك ولم نكتمك شيئاً، فممّن الرجل؟

قال: من قريش. قال: بخٍ بخٍ أهل الشرف والرياسة، فمن أيّ قريش أنت؟ قال: من تيم بن مرة، قال: أمكنت _ والله _ الرامي من الثغرة، أمنكم قصيّ بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر فكان مجمّعاً؟ قال: لا، قال: أفمنكم هاشم الذي هشم لقومه الثريد؟ قال: لا، قال: أفمنكم شيبة الحمد مُطعم طير السماء؟ قال: لا. قال: أفمن المفيضين بالناس أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الوفادة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل السقاية؟ قال: لا. قال: فاجتذب أبوبكر زمام ناقته ورجع إلى رسول الله ﷺ هارباً من الغلام، فقال دغفل: صادف درء السيل درأً يصدعه،[1] أما والله لو ثبت لأخبرتُه أنّك من زمعات قريش _ أي من أرذالها _ فتبسّم رسول الله ﷺ، وقال علي عليه السلام لأبي بكر: لقد وقعت يا أبا بكر من الأعرابي على باقعة، أي داهية، قال: أجل «إنّ لكل طامة طامة، والبلاء موكل بالمنطق» فذهبت مثلاً.[2]

قال ابن أبي الحديد «فهذا الذي تعلمه الصحابة لايتجاوز السطرين أوالثلاثة، أمّا في موعظة أو نسب أو غير ذلك ممّا ذكرنا من صفات الإبل والخيل أو حمار وحشي».

---

(١) يقال للسيل اذا أتاك من حيث لا تحتسبه: سيل درء، أي يدفع هذا ذاك وذاك هذا. النهاية في غريب الحديث لابن الاثير ٢: ١١٠.

(٢) الأنساب للسمعاني ١: ٣٧.

ويعود ابن أبي الحديد ثالثة فيقول في المجلّد الثاني من شرحه ص٥٤٦، في دعم من زعم أنّ خطب نهج البلاغة للشريف الرضي رحمه الله. تحدّث، بعد ذكر خطبة ابن أبي الشحماء العسقلاني الكاتب فقال:

هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب، وهي ـ كما تراها ـ ظاهرة التكلّف، بيّنة التوليد، تخطب على نفسها، وإنّما ذكرت هذا لأنّ كثيراً من أرباب الهوى يقولون: إنّ كثيراً من نهج البلاغة كلام مُحَدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربّما عزوا بعضه إلى الرضي أبي الحسن وغيره، وهؤلاء قوم أعمت العصبيّة أعينهم فضلّوا عن النهج الواضح، وركبوا بنيات[1] الطريق ضلالاً وقلّة معرفة بأساليب الكلام، وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط، فأقول: لا يخلو إمّا أن يكون كلّ نهج البلاغة مصنوعاً منحولاً أو بعضه، والأوّل باطل بالضرورة، لأنّا نعلم بالتواتر صحّة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقل المحدّثون ـ كلّهم أو جلّهم ـ والمؤرّخون كثيراً منه وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك، والثاني يدلّ على ما قلناه، لأنّ من قد أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفاً من علم البيان، وصار له ذوق في هذا الباب لا بدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولّد، وإذا وقف على كرّاس واحد يتضمّن كلاماً لجماعة من الخطباء أو لاثنين منهم فقط فلا بدّ أن يفرّق بين الكلامين ويميّز بين الطريقتين، ألا ترى أنّا ـ مع معرفتنا بالشعر ونقده ـ لو تصفّحنا ديوان أبي تمّام فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام ونَفَسِهِ وطريقته ومذهبه في القريض؟ ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه لمباينتها لمذهبه في الشعر، وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس شيئاً كثيراً لما ظهر لهم أنّه ليس

---

١) بنيات الطريق: الطرق الصغار تتشعّب من الجادّة.

من ألفاظه ولا من شعره، وكذلك غيرهما من الشعراء، ولم يعتمدوا في ذلك إلاّ على الذوق خاصّة، وأنت إذا تأمّلت نهج البلاغة وجدته كلّه ماءاً واحداً أو أسلوباً واحداً كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهيّة، وكالقرآن العزيز أوّله كأوسطه، وأوسطه كآخره، وكلّ سورة منه وكلّ آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفنّ والطريق والنظم لباقي الآيات والسور، ولو كان بعض نهج البلاغة منحولاً وبعضه صحيحاً لم يكن ذلك كذلك، فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أنّ هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام. واعلم أنّ قائل هذا القول يطرق على نفسه ما لا قبل له به، لأنّا متى فتحنا هذا الباب وسلّطنا الشكوك على أنفسنا في هذا النحو لم نثق بصحّة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً، وساغ لطاعن أن يطعن ويقول «هذا الخبر منحول وهذا الكلام مصنوع» وكذلك ما نُقل عن أبي بكر وعمر من الكلام والخطب والمواعظ والأدب وغير ذلك، وكلّ أمر جعله هذا الطاعن مستنداً له فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة الراشدين والصحابة والتابعين والشعراء المترسّلين والخطباء، فلناصر أمير المؤمنين عليه السلام أن يستعدّ إلى مثله فيما يروونه عنه من نهج البلاغة وغيره، وهذا واضح.

كلمة الفيلسوف الشيخ محمّد عبدة

«مفتي الديار المصرية في مقدّمة شرحه لنهج البلاغة»:

«فقد أوفى لي حكم القدر بالاطّلاع على كتاب نهج البلاغة مصادفة بلا تعمّل، أصبته على تغيّر حال وتبلبل بال وتزاحم أشغال وعطلة من أعمال، فحسبته تسلية وحيلة للتخلية، فتصفّحتُ بعض صفحاته وتأمّلت جُملاً من عباراته من مواضع مختلفات ومواضيع متفرّقات، فكان يخيّل لي في كلّ مقام أنّ حروباً شبّت وغارات شُنّت، وأنّ للبلاغة دولة، وللفصاحة صولة، وأنّ

للأوهام عرامة وللريب دعارة، وأنّ محافل الخطابة وكتائب الذرابة (أي الفصاحة)[١] في عقود النظام وصفوف الانتظام تنافح بالصفيح الأبلج (أي السيف)[٢] والقويم الأملج (الرمح الاسمر)[٣] وتمتلج المهج (أي تمض)[٤] برواضع الحجج، فتفلّ من دعارة الوساوس، وتصيب مقاتل الخوانس، فما أنا إلاّ والحقّ منتصر والباطل منكسر، ومرج الشكّ في خمود، وهرج الريب في ركود، وإنّ مدبّر تلك الدولة، وباسل تلك الصولة، هو حامل لوائها الغالب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. بل كنت كلّما انتقلت من موضع إلى موضع أحسّ بتغيّر المشاهد وتحوّل المعاهد، فتارة كنتُ أجدني في عالم يغمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية، تطوف على النفوس الزاكية، وتدنو من القلوب الصافية، توحي إليها رشادها، وتقوّم منها مرادها، وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جواد الفضل والكمال، وطوراً كانت تنكشف لي الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمور ومخالب النسور، قد تحفّزت للثواب ثمّ انقضّت للاختلاب، فخلبت القلوب عن هواها، وأخذت الخواطر دون مرماها، واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء.

وأحياناً كنت أشهد أنّ عقلاً نورانيّاً لا يشبه خلقاً جسدانياً فصل عن

---

(١) ذرب الرجل إذا فصح لسانه بعد حصره. لسان العرب/ ابن منظور: ١/ ٣٨٥. وله معاني كثيرة منها ما ذُكر.

(٢) الصفيحة: السيف العريض... قال ابن الأعرابي: المصفحات: السيوف، لانها صفحت حين طبعت.. القاموس المحيط/ الفيروز آبادي: ٣/ ٣٩٣.

(٣) الملج: السمر من الناس، وفي نوادر الأعراب: أسود أملج.. والأملج الأصفر ليس بأسود ولا أبيض وهو بينهما. لسان العرب: ٢/ ٣٦٩.

(٤) ملج: ملج الصبي أمه.. وملجها إذا رضعها.. وفي الصحاح: تناول الثدي بأدنى الفم... والإملاج: الإرضاع. لسان العرب: ٢/ ٣٦٩.

الموكب الإلهي واتّصل بالروح الانساني، فخلعه عن غاشيات الطبيعة، وسما به إلى الملكوت الأعلى، ونما به إلى مشهد النور الأجلى، وسكن به إلى عمّار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس.

وآنات كأنّي أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعلياء الكلمة، وأولياء أمر الأمّة، يعرّفهم مواقع الصواب، ويبصّرهم مواضع الارتياب، ويحذّرهم مزالق الاضطراب، ويُرشدهم إلى دقائق السياسة، ويهديهم طرق الكياسة، ويرتفع بهم إلى منصّات الرئاسة، ويصعدهم شُرَفَ التدبير، ويشرف بهم على حسن المصير...» إلى آخر كلماته الظاهرة عليها إمارات الدهشة والحيرة.

أجل ولئن اندهش هذا الفيلسوف من كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام واضطرب فكره، فقد اضطربت قبله آراء فلاسفة وحكماء، ووقفت أفكارهم عند حدّه.

كلمة محمد محيي الدين مصدّر شرح النهج لابن عبدة:

«وبعد فهذا الكتاب (نهج البلاغة)، وهو ما اختاره الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسن الموسويّ من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو الكتاب الذي جمع بين دفّتيه عيون البلاغة وفنونها، وتهيّأت به للناظر فيه أسباب الفصاحة، ودنا منه قطافها، إذ كان من كلام أفصح الخلق ـ بعد الرسول صلى الله عليه وآله ـ منطقاً وأشدّهم اقتداراً وأبرعهم حجّة، وأملكهم للّغة، يُديرها كيف شاء، الحكيم الذي تصدر الحكمة عن بيانه، والخطيب الذي يملأ القلب سحر لسانه، العالم الذي تهيّأ له من خلاط الرسول وكتابة الوحي، والكفاح عن الدين بسيفه ولسانه منذ حداثته ما لم يتهيّأ لأحد سواه...».

كلمة السيد الشريف الرضي رحمه الله مؤلّف نهج البلاغة:

قال الرضي رحمه الله: فإنّي كنت في عنفوان السنّ وغضاضة الغصن ابتدأت بتأليف كتاب في خصائص الأئمة عليهم السلام يشتمل على محاسن أخبارهم

وجواهر كلامهم، حداني عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، وفرغت من الخصائص التي تخصّ أميرالمؤمنين علياً عليه السلام، وعاقت عن إتمام بقيّة الكتاب محاجزات الأيام ومماطلات الزمان، وكنت قد بوّبت ما خرج من ذلك أبواباً، وفصّلته فصولاً، فجاء في آخرها فصل يتضمّن محاسن ما نُقل عنه عليه السلام من الكلام القصير في المواعظ والحكم والأمثال والآداب، دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة، فاستحسن جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصل المقدّم ذِكره، معجبين ببدائعه ومتعجّبين من نواصعه، وسألوني عند ذلك أن أبدأ بتأليف كتاب يحتوي على المختار من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه ومتشعّبات غصونه من خطب وكتب ومواعظ وأدب، علماً أنّ ذلك يتضمّن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربيّة وثواقب الكلم الدينيّة والدنياويّة ما لا يوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أُخذت قوانينها، وعلى أمثلته حذا كلّ قائل خطيب، وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصّروا، وقد تقدّم وتأخّروا، لأنّ كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهيّ، وفيه عبقة من الكلام النبويّ.

كلمة ميرزا حبيب الله الخوئي

«مؤلّف منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة»:

«... ثم إنّ أحسن الروايات المنشورة، وأبهى الكلمات المنثورة، هو ما دوّنه السيد السند والركن المعتمد الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين الموسوي قدّس الله سره ونوّر ضريحه في نهج البلاغة من شرائف الكلام والخطب، ولطائف الوصايا والكتب والأدب، المأثورة من

باب مدينة العلم والحكمة، والمتلقّاة من قطب دائرة الطهارة والعصمة، حجّة لله في عباده، وخليفة لله في بلاده.

ولعمري إنّه كتاب شرع المناسك للناسك، وشرح المسالك للسالك، وهو خلاص المتورّطين في الهلكات، ومناص المتحيّرين في الفلوات، ملاذ كلّ بائس فقير، ومعاذ كلّ خائف مستجير، مدينة المآرب وغنية للطالب، لأنّ ما أُودع فيه كلام عليه مسحة من الكلام الإلهيّ، وفيه عبقة من الكلام النبويّ، ظاهره أنيق وباطنه عميق، مشتمل على أمر ونهي ووعد ووعيد، وترغيب وترهيب وجدل ومثل وقصص، لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه، يدلّ على الجنة طالبها، وينجي من النار هاربها، شفاء من الداء العُضال، ونجاة من ظلمة الضلال، دواء لكلّ عليل ورواء لكلّ غليل، وأمل لكلّ آمل، وبحر ليس له ساحل، وكنز مشحون بأنواع الجواهر والدرر، يفوح من نفحاته المسك الأذفر والعنبر.

ومع ذلك قد احتوى من حقائق البلاغة، ودقائق الفصاحة ما لا يبلغ قعره الفكر، وجمع من فنون المعان وشؤون البيان ما لا ينال غوره النظر، وتضمّن من أسرار العربية والنكات الأدبية والمحاسن البديعية ما يعجز عن تقديره لسان البشر...».

كلمة الأستاذ حسن نائل المرصفي المصري:

تحدّث أستاذ الفن (حسن نائل المرصفي) مدرس البيان بكليّة العزيز الكبرى بمصر في مقدّمة شرحه على نهج البلاغة، فجمع بايجاز أطراف البيان حول عبقريّة الإمام وذكر مزاياه العالية وشرح ماهيّة كلامه في نهج البلاغة ملخّصاً فيما يأتي، قال:

«بهذه الخصال الثلاث ـ يعني جمال الحضارة الجديدة، وجلال

البداوة القديمة، وبشاشة القرآن الحكيم _ امتاز الخلفاء الراشدون، ولقد كان المجلي في هذه الحلبة علي صلوات الله عليه، وما أحسبني أحتاج في إثبات هذا إلى دليل أكثر من نهج البلاغة، ذلك الكتاب الذي أقامه الله حجّة واضحة على أنّ عليّاً رضي الله عنه قد كان أحسن مثال حيّ لنور القرآن وحكمته، وعلمه وهدايته، وإعجازه وفصاحته.

اجتمع لعليّ عليه السلام في هذا الكتاب ما لم يجتمع لكبار الحكماء وأفذاذ الفلاسفة ونوابغ الربّانيّين من آيات الحكمة السامية وقواعد السياسة المستقيمة، ومن كلّ موعظة باهرة، وحجّة بالغة، تشهد له بالعقل وحسن الأثر.

خاض علي في هذا الكتاب لجّة العلم والسياسة والدين، فكان في كلّ هذه المسائل نابغة مبرّزاً، ولئن سألت عن مكان كتابه من الأدب بعد أن عرفت مكانه من العلم، فليس في وسع الكاتب المترسل، والخطيب المصقع، والشاعر المفلق أن يبلغ الغاية في وصفه والنهاية من تقريظه، وحسبنا أن نقول: إنّه الملتقى الفذّ الذي التقى فيه جَمال الحضارة وجزالة البداوة، والمنزل الفرد الذي اختارته الحقيقة لنفسها منزلاً تطمئنّ فيه وتأوي إليه بعد أن زلّت بها المنازل في كلّ لغة».

* * *

وكم مثل هذا في الواصفين لنهج البلاغة من حكموا بتفوّقه على كتب الإنشاء ومنشآت البلغاء، واعترفوا ببلوغه حدّ الاعجاز، وأنّه فوق كلام المخلوقين ودون كلام الخالق المتعال، وأعجبوا به أقصى الإعجاب، وشهدت ألسنتهم بدهشة عقولهم من عظمةٍ أضاء سنا برقها من ثنايا الخطب ومزايا الجمل، وليس إعجاب الأدباء بانسجام لفظه وحده، ولا دهشة العلماء من تفوّق معانيه البليغة حدّ الاعجاز فقط، وإنّما الإعجاب كلّه والدهشة كلّها في تنوّع المناحي في هذه الخطب والكلم، واختلاف المرامي والأغراض فيها،

فمن وعظ ونصح وزهد وزجر، إلى تنبيه حربيّ واستنهاض للجهاد، إلى تعليم فنّي ودروس ضافية في هيئة الأفلاك وأبواب النجوم، وأسرار من طبائع كائنات الأرض وكامنات السماء، إلى فلسفة الكون وخالقه، وتفنّن في المعارف الإلهيّة وترسّل في التوحيد، وصفة المبدء والمعاد، إلى توسّع في أصول الإدارة وسياسة المدن والأمم، إلى تثقيف النفوس بالفضائل وقواعد الاجتماع وآداب المعاشرة ومكارم الأخلاق، إلى وصف شعري لظواهر الحياة، وغير ذلك من شتّى المناحي المتجلّية في نهج البلاغة بأرقى المظاهر.

كلمة الصحافي الشهير «أمين نخلة»:

ولا تغيب عنك كلمة الصحافي الشهير (أمين نخلة) من أفاضل المسيحيين مخاطباً من رجاه انتخاب (المئة) من كلمات الإمام عليه السلام، إذ قال:

«سألتني أن أنتقي مئة كلمة من كلمات أبلغ العرب أبي الحسن تُخرجها في كتاب، وليس بين يديّ الآن من كتب الأدب التي يُرجع إليها في مثل هذا الغرض إلاّ طائفة قليلة منها إنجيل البلاغة (النهج)، فرحت أسرّح اصبعي فيه، ووالله لا أعرف كيف أصطفي لك المئة من مئات، بل الكلمة من الكلمات، إلاّ إذا سلخت الياقوتة عن أختها الياقوتة، ولقد فعلت ويدي تتقلّب على اليواقيت، وعيني تغوص في اللمعان، فما حسبتني أخرج من معدن البلاغة بكلمة لفرط ما تحيّرت في التخيير، فخذ هذه (المئة) وتذكّر أنّها لمحات من نور وزهرات من نَور، ففي نهج البلاغة من نِعم الله على العربية وأهلها أكثر بكثير من مئة كلمة».

يصف هذا الكاتب وغيره كلم الإمام عليه السلام بالدرّ والياقوت والجوهر، وأنّى لهذه الأحجار الغالية مزايا الحكمة العالية، ومن أين لها أن تهدي الحيارى في سُبل الحياة ومسالكها الشائكة، ومن أين لها الوساطة بين الجهل والعلم، وربط الانسان بعالم اللاهوت، أو أن تكشف للبصائر أسرار الملكوت.

كلمة «نرسيسيان»:

«رئيس كتّاب القنصلية البريطانية ببغداد سنة ١٣٢٨هـ»

وكان من فضلاء الأرمن زاعماً تفوّق نهج البلاغة على كلّ كلام عربي لكثرة ما فيه من السهل الممتنع الذي لا يوجد في سواه، وانقياد الأسجاع الصعاب فيه بلا تكلّف، واستشهد بقوله عليه السلام:

«أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ وَشُغُفِ الْأَسْتَارِ نُطْفَةً دِهَاقاً وَعَلَقَةً مِحَاقاً وَجَنِيناً وَرَاضِعاً وَوَلِيداً وَيَافِعاً ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً وَلِسَاناً لَافِظاً وَبَصَراً لَاحِظاً لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتَدَالُهُ وَاسْتَوَى».

معجباً بحسن التسجيع وكيف يجري الروي كالماء السلسال على لسان الإمام عليه السلام.

ثم قال: ولو كان يرقى هذا الخطيب العظيم منبر الكوفة في عصرنا هذا، لرأيتم مسجدها على سعته يتموّج بقبّعات الافرنج للاستقاء من بحر علمه الزاخر.

كلمة مستر «كرينو الانكليزي» أستاذ الآداب العربية:

في كلية (عليكده) الهندية عندما اجتمع الأساتذة والأدباء حوله في حفلة وسألوه عن إعجاز القرآن أجابهم:

«إنّ للقرآن أخاً صغيراً يُسمّى(نهج البلاغة)، فهل في إمكان أحد أن يأتي بمثل هذا الصغير حتّى يسوغ لنا البحث عن الأخ الكبير».

كلمة الأستاذ «جورج جرداق»:

تحدث الأستاذ (جورج جرداق) ـ وهو من أفاضل الكتّاب والمؤلّفين المسيحيين ـ في مؤلّفه «الإمام علي صوت العدالة الانسانية»، وتحت عنوان «الأسلوب والعبقريّة الخطابيّة» عندما يتحدّث عن (نهج البلاغة) قائلاً:

«نهج البلاغة آخذ من الفكر والخيال والعاطفة آيات تتّصل بالذوق الفنّي الرفيع ما بقي الانسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر، مترابط بآياته متساوق، متفجّر بالحسّ المشبوب والإدراك البعيد، متدفّق بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع، متآلف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الاخراج، حتّى ليندمج التعبير بالمدلول، أو الشكل بالمعنى، اندماج الحرارة بالنار، والضوء بالشمس، والهواء بالهواء، فما أنت أزاءه إلاّ ما يكون المرء قبالة السيل إذ ينحدر، والبحر إذ يتموّج، والريح إذ تطوف، أو قبالة الحدث الطبيعي الذي لا بدّ له أن يكون بالضرورة على ما هو كائن عليه من الوحدة، لا تفرّق بين عناصرها إلاّ لتمحو وجودها وتجعلها إلى غير كون.

بيانٌ لو نطق بالتقريع لانقضّ على لسان العاصفة انقضاضاً، ولو هدّد الفساد والمفسدين لتفجّر براكين لها أضواء وأصوات، ولو انبسط في منطقٍ لخاطب العقول والمشاعر، فأقفل كلّ باب على كلّ حجّة غير ما ينبسط فيه، ولو دعا إلى تأمّل لرافق فيك منشأ الحس وأصل التفكير، فساقك إلى ما يريده سوقاً، ووصلك بالكون وصلاً، ووحّد فيك القوى للاكتشاف توحيداً، وهو لو راعاك لأدركت حنان الأب ومنطق الأبوّة وصدق الوفاء الانساني وحرارة المحبة التي تبدأ ولا تنتهي، أمّا إذا تحدّث إليك عن بهاء الوجود وكمالات الخلق وجمالات الكون فإنّما يكتب على قلبك بمدادٍ من نجوم السماء.

بيانٌ هو بلاغة من البلاغة وتنزيل من التنزيل.

بيانٌ اتّصل بأسباب البيان العربي، ما كان منه وما يكون، حتّى قال أحدهم في صاحبه: إنّ كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

وخطب الإمام جميعاً تنضح بدلائل الشخصيّة، حتّى لكأنّ معانيها وتعابيرها هي خوالج نفسه بالذات، وأحداث زمانه التي تشتعل في قلبه كما

تشتعل النار في موقدها تحت نفح الشمال، فإذا هو يرتجل الخطبة حسّاً دافقاً وشعوراً زاخراً وإخراجاً بالغاً غاية الجمال، وكذلك كانت كلمات علي بن أبي طالب المرتجلة، فهي أقوى ما يمكن للكلمة المرتجلة أن تكون من حيث الصدق وعمق الفكرة وفنّية التعبير، حتّى أنّها ما نطقت بها شفتاه إلاّ ذهبت مثلاً سائراً.

والخلاصة أنّ علي بن أبي طالب أديب عظيم نشأ على التمرّس بالحياة، وعلى المرانة بأساليب البلاغة، فإذا هو مالك ما يقتضيه الفنّ من أصالة في شخصية الأديب، ومن ثقافة تنمو بها الشخصيّة وتتركّز الأصالة.

أمّا اللغة لغتنا العربية الحبيبة التي قال فيها (مرشلوس) في المجلّد الأول من كتابه (رحلة إلى الشرق) هذا القول الذكي: «اللغة العربية هي الأغنى والأفصح والأكثر والألطف وقعاً بين سائر لغات الأرض بتراكيب أفعالها، تتبع طيران الفكر وتصوّره بدقّة، وبأنغام مقاطعها الصوتية تقلّد صراخ الحيوانات، ورقرقة المياه الهاربة، وعجيج الرياح وقصف الرعد». أمّا هذه اللغة بما ذكر (مرشلوس) من صفاتها وبما لم يذكر، فإنّك واجدٌ أصولها وفروعها وجمال ألوانها وسحر بيانها في أدب الإمام علي، وكان أدباً في خدمة الانسان والحضارة».

ولمّا كان في نفسه أن يُشبع الموضوع ويستعرضه عرضاً دقيقاً، استرسل في حديثه ثانية بقوله:

وإنّ قسط علي بن أبي طالب من الذوق الفنّي، أوالذوق الجمالي لممّا يندر وجوده لدى الكثيرين، وذوقه هذا كان المقياس الطبيعي الضابط للطبع الأدبي عنده، أمّا طبعه في ذلك فهو طبع ذوي الأصالة والموهبة الذين يرون فيشعرون، ويدركون فتنطلق ألسنتهم بما تجيش به قلوبهم وتنكشف عنه مداركهم انطلاقاً عفويّاً، لذلك تميّز عليٌّ بالصدق كما تميّزت به حياته، وما الصدق إلاّ ميزة الفنّ الأُولى ومقياس الأسلوب الذي لا يُخادع.

وإنّ شروط البلاغة _ التي هي موافقة الكلام لمقتضى الحال _ لم تجتمع لأديب عربي كما اجتمعت لعلي بن أبي طالب، فإنشاؤه أعلى مَثَل لهذه البلاغة بعد القرآن، فهو موجز على وضوح قويّ جيّاش تامّ الانسجام لما بين ألفاظه ومعانيه وأغراضه من ائتلاف، حلو الرنّة في الأذن، موسيقيّ الوقع، وهو يرفق ويلين في المواقف التي لا تستدعي الشدّة، ويشتدّ ويعنف في غيرها من المواقف، لاسيّما ساعة يكون القول في المنافقين المراوغين وطلاّب الدنيا على حساب الفقراء والمستضعفين وأصحاب الحقوق المهدورة، فأسلوب علي صريح كقلبه وذهنه، صادق كطويّته، فلا عجب أن يكون نهجاً للبلاغة، وقد بلغ أسلوب علي من الصدق حدّاً ترفّع به حتّى السجع عن الصنعة والتكلّف، فإذا هو _ على كثرة ما فيه من الجمل المتقاطعة الموزونة المسجعة _ أبعد ما يكون عن الصنعة وروحها، وأقرب ما يكون من الطبع الزاخر.

فانظر إلى هذا الكلام المسجّع وإلى مقدار ما فيه من سلامة الطبع «يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ وَاخْتِلَافَ النِّينَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ وَتَلاَطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ». أو إلى هذا القول في إحدى خطبه: «وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ وَالرِّيَاحُ وَالْمَاءُ فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ وَاخْتِلاَفِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ وَطُولِ هَذِهِ الْقِلاَلِ وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ وَالأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ.. الخ».

و أُوصيك خيراً بهذا السجع الجاري من الطبع «ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً وَقَمَراً مُنِيراً فِي فَلَكٍ دَائِرٍ وَسَقْفٍ سَائِرٍ... الخ».

فإنّك لو حاولتَ إبدال لفظٍ مسجوع في هذه البدائع جميعاً بآخر غير مسجوع لعرفت كيف يخبو إشراقها ويبهت جمالها، ويفقد الذوق فيها أصالته ودقّته، فالسجع في هذه الأقوال العلويّة ضرورة فنّية يقتضيها الطبع الذي

يمتزج بالصنعة امتزاجاً، حتّى لكأنّهما من معدن واحد، يبعث النثر شعراً له أوزان وأنغام ترفق المعنى بصورٍ لفظيّة لا أبهى منها ولا أشهى.

وإذا قلنا إنّ أسلوب علي تتوفّر فيه صراحة المعنى وبلاغة الأداء وسلامة الذوق الفنّي، فإنّما نشير على القارئ بالرجوع إلى نهج البلاغة ليرى كيف تتفجّر كلمات عليٍ من ينابيع بعيدة القرار في مادّتها، وبأي حُلّة فنية رائعة الجمال تمور وتجري.

وإليك هذه التعابير الحسان في قوله: «الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِه» وفي قوله: «الحِلْمُ عَشِيرَةٌ» أو في قوله: «مَنْ لَانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ» أو في قوله: «كُلُّ وِعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ إِلَّا وِعَاءَ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ» أو في قوله أيضاً: «لَوْ أَحَبَّنِي جَبَلٌ لَتَهَافَتَ» أوفي هذه الأقوال الرائعة: «الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ» «رُبَّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ» «إِذَا أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ أَعَارَتْهُ مَحَاسِنَ غَيْرِهِ وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهُ سَلَبَتْهُ مَحَاسِنَ نَفْسِهِ» «لْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً» «افْعَلُوا الْخَيْرَ وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ» «هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ» «مَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ».

فأنت ترى ما في أقواله هذه من الأصالة في التفكير والتعبير، هذه الأصالة التي تلازم الأديب الحقّ بصورة مطلقة، إلاّ إذا فاتته الشخصية الأدبية ذاتها.

ويبلغ أسلوب علي قمّة الجبال في المواقف الخطابية، هذه الأصالة التي تثور بها عاطفته الجيّاشة، ويتّقد خياله فتعتلج فيه صور حارّة من أحداث الحياة التي تمرّس بها، فإذا بالبلاغة تزخر في قلبه، وتتدفّق على لسانه تدفّق البحار، ويتميّز أسلوبه في مثل هذه المواقف بالتكرار بغية التقرير والتأثير، وباستعمال المترادفات، وباختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين.

والخطباء في العرب كثيرون، والخطابة من فنونهم الأدبية التي عرفوها في الجاهلية والإسلام، ولاسيّما في عصر النبي والخلفاء والراشدين، لما كان

لهم بها من حاجة، أمّا خطيب العهد النبويّ الأكبر فالنبي لاخلاف في ذلك، أمّا في العهد الراشدي وفيما تلاه من العصور العربية قاطبة، فإنّ أحداً لم يبلغ ما بلغ إليه علي بن أبي طالب في هذا النحو، فإنّ الله يسّر له العدّة الكاملة بالفطرة السليمة والذوق الرفيع والبلاغة الآسرة، ثمّ بذخيرة من العلم انفرد بها عن أقرانه، وبحجّة قائمة وقوّة إقناع دامغة وعبقريّة في الإرتجال نادرة.

وابن أبي طالب على المنبر رابط الجأش شديد الثقة بنفسه وبعدل القول، ثمّ إنّه قوي الفراسة، سريع الإدراك، يقف على دخائل الناس وأهواء النفوس وأعماق القلوب، زاخر جنانه بعواطف الحريّة والانسانية والفضيلة، حتّى إذا انطلق لسانه الساحر بما يجيش به قلبه أدرك القوم بما يحرّك فيهم الفضائل الراقدة والعواطف الخاصّة.

أمّا إنشاؤه الخطابي فلا يجوز وصفه إلاّ بأنّه أساس في البلاغة العربية. يقول أبو هلال العسكري (في الصناعتين): «ليس الشأن في إيراد المعاني ـ وحدها ـ وإنّما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه، مع صحّة السبك والتركيب، والخلوّ من أود النظم والتأليف، من الألفاظ ما هو فخم كأنه يجرّ ذيول الأرجوان أنفةً وتيهاً، ومنها ما هو ذو قعقعة كالجنود الزاحفة في الصفيح، ومنها ما هو كالسيف ذي الحدّين، ومنها ما هو كالنقاب الصفيق يلقى على بعض العواطف ليستر من حدّتها ويخفّف من شدّتها، ومنها ما له وميض البرق، ومنها ما له ابتسامة السماء في ليالي الشتاء، من الكلام ما يفعل كالمقرعة وهو كلام الانتقاد والتنديد، ومنه ما يجري كالنبع الصافي وهو المعدّ للرضى والغفران، ومنه ما يضيء كالشهاب وهو كلام التعظيم، كذلك من الكلام ما ليس له طابع خاصّ فيؤتى به لتقوية الجملة ودعم المعنى، فهو يلائم كلّ حال».

كلّ ذلك ينطبق على خطب الإمام علي في مفرداتها وتعابيرها، هذا

بالاضافة إلى أنّ الخطبة تحسن إذا انطبعت بهذه الصفات اللفظية على رأي صاحب الصناعتين، فكيف بها إذا كانت كخطب ابن أبي طالب تجمع روعة هذه الصفات في اللفظ إلى روعة المعنى وقوّته وجلاله، انتهى.

لم يسمع الناس بكلام قطّ بعد كلام الله تعالى ورسوله أعمّ نفعاً، وأصدق لفظاً، وأعدل وزناً، وأجمل مذهباً، وأكرم مطلباً، ولا أحسن موضعاً ولا أسهل مزجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه، من كلام علي أميرالمؤمنين عليه السلام، فقد شاهدنا روّاد العبقريّة الانشائيّة مسترشدين بكلمه عليه السلام وخطبه وكتبه.

حكى عبد المسيح في شرح قصيدته أنّ شيخه ناصيف اليازجي قال له: «ما أتقنت الكتابة إلاّ بدرس القرآن العظيم ونهج البلاغة القويم، فهما كنز العربيّة الذي لا ينفد وذخيرتها للمتأدّب، وهيهات أن يظفر أديب بحاجته من هذه اللغة الشريفة إن لم يُحيي لياليه سهراً في مطالعتهما والتبحّر في عالي أساليبهما».

وقال عبد الحميد بن يحيى ـ الذي يُضرب ببلاغته المثل ـ: «حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثمّ فاضت» ـ يعني بالأصلع سيّدنا علياً عليه السلام.

وقال ابن نباتة: «حفظت من الخطب كنزاً لا يزيده الانفاق إلاّ سعة، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب».

وقد زيّن الجاحظ كتبه مثل «البيان والتبيين» بفصول من خطب أمير المؤمنين عليه السلام إعجاباً بها، وإعداداً للنفوس لبلوغ أقصى البلاغة، وشاهدنا جماهير العرب والعجم والشرقيّين والمستشرقين ممّن يتطلّبون بلاغة اللسان وبراعة القلم يستظهرون نهج البلاغة لما فيه من فصاحة بانسجام، وبلاغة خالية من كلّ تعقيد أو تكلّف، وعروبة صحيحة تعالى عهدها عن تصنّعات عهد المولدين، هذه غاية الأدباء في حفظ كلامه عليه السلام.

وكم يعود الأسف بليغاً إذا نبذنا مثل هذا الكتاب وراءنا ظِهريّاً، وحرمنا النشء من فنون بيانه، وتركناه صفر الكفّ من شذور عقيانه، عكس ما لو يثقّف بدراسته دراسة تفقّهٍ واستحضار وتدبير واستظهار، فندّخر بهذا ومثله لأفلاذ أكبادنا كنزاً من الحكمة أو جَنّة باقية وجُنّة واقية تقيهم في مزالق الانشاء، وتملّكهم مقاليد البلاغة في البيان، والبيان من أهم عوامل الرقيّ في الحياة. لم لا نُصغي لنداء مرشدنا الروحي الذي يخاطبنا من صميم ضميره الحرّ بداعية الهداية، وما هو ـ لو أنصفناه ـ إلاّ أستاذ الكلّ في الكلّ، يلقّن العالم نتائج المعارف العالية، ويلقي دروسه على صفوف من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب بلهجة من لغة الضاد رقّت وراقت فلا يوجد أجمل منها حسناً وبهاءاً.

كلمة الشيخ محمد مهدي شمس الدين:

قال الشيخ محمد مهدي في كتابه (دراسات في نهج البلاغة): «سواء نظرت إليه من ناحية الشكل أو من ناحية المضمون وجدته من الآثار التي تقلّ نظائرها في التراث الانساني على ضخامة هذا التراث، فقد قيل في بيان صاحبه إنّه دون الخالق وفوق كلام المخلوق، بيان معجز البلاغة، تتحوّل الأفكار فيه إلى أنغام، وتتحوّل الأنغام فيه إلى أفكار، ويلتقي عليه العقل والقلب، والعاطفة والفكرة، فإذا أنت من الفكرة أمام كائن حيّ متحرّك ينبض بالحياة ويمور بالحركة. وتلك هي آية الاعجاز في كلّ بيان. ولم يكرّس هذا البيان المعجز لمديح سلطان، أو لاستجلاب نفع، أو للتعبير عن عاطفة تافهة ممّا اعتاده التافهون من الناس أن يكرّسوا له البيان.

فلم يمجّد الإمام الأعظم في نهج البلاغة قوّة الأقوياء وإنّما مجّد نضال الضعفاء، ولم يمجّد غنى الأغنياء وإنّما أعلن حقوق الفقراء، ولم يمجّد الظالمين العتاة وإنّما مجّد الأنبياء والصُلحاء.

إنّ الحرية والعبودية، والغنى والفقر، والعدل والظلم، والحرب والسلم، والنضال الأزليّ في سبيل عالم أفضل لإنسان أفضل، هو مدار الحديث في نهج البلاغة.

فنهج البلاغة كتاب إنسانيّ بكلّ ما لهذه الكلمة من مدلول، إنسانيّ باحترامه للانسان وللحياة الإنسانية، وإنسانيّ بما فيه من الاعتراف للانسان بحقوقه في عصر كان الفرد الإنساني فيه عند الحاكمين هباءة حقيرة لا قيمة لها ولا قدر، إنسانيّ بما يثيره في الانسان من حبّ الحياة والعمل لها في حدود تضمن لها سموّها ونقاءها، لهذا ولغيره كان نهج البلاغة _ وسيبقى _ على الدهر أثراً من جملة ما يحويه التراث الانساني من الآثار القليلة التي تعشو إليها البصائر حين تكتنفها الظلمات.

وحقّ له أن يكون كذلك وهو عطاء إنسان كان كوناً من البطولات، ودنياً من الفضائل، ومثلاً أعلى في كل ما يشرف الانسان».

كلمة الأديب جبران خليل جبران:

«أمّا بلاغة الإمام علي فإنّها النور ذو المناهج والطرق التي تاه عنها العرب فلم يفهموها، ومنهم من آثروا عليها ظلمات أيّامهم يتيهون في شعابها رجوعاً إلى الجاهليّة واتّصالاً بمن تتمثّل بهم الجاهلية من سماسرة المنافع وتجّار الأعناق، في عقيدتي أنّ ابن ابي طالب كان أوّل عربي لازم الروح الكلّيّة وجاورها وسامرها، وهو أوّل عربي تناولت شفتاه صدى أغانيها على مسمع قوم لم يسمعوا بها من ذي قبل، فتاهوا بين مناهج بلاغته وظلمات ماضيهم، فمن أعجب بها كان إعجابه موثوقاً بالفطرة، ومن خاصمه كان من أبناء الجاهلية». نقلاً عن كتاب «الإمام علي صوت العدالة الانسانية» ص٣٦٣.

كلمة الشيخ محمد حسن القبيسي العاملي

في كتابه «نظرة في شرح نهج البلاغة»:

«لقد احتوى نهج البلاغة من حقائق البلاغة ودقائق الفصاحة ما لا يبلغ

قعره الفكر، وجمع من فنون المعاني وشؤون البيان ما لا ينال غوره النظر، وتضمّن من أسرار العربية والنكات الأدبية والمحاسن البديعيّة ما يعجز عن تقديره لسان البشر».

كلمة روكس بن زائدة العزيزي الكاثوليكي:

تحدث الأستاذ روكس عن نهج البلاغة في كتابه (الإمام علي أسد الاسلام وقدّيسه) ص ٢٢٥ تحت عنوان (أثر الإمام في مثقّفي العرب) قائلاً:

«يقيناً أنّ كلّ مثقّف عربي، كلّ كاتب عربي، كلّ خطيب عربي مدين للإمام علي، فإذا كان كلّ مسلم في الدنيا مدين للقرآن الكريم في تكوّن عقليّته وتفكيره، فإنّ كلّ مثقّف عربي مدين لنهج البلاغة في تقويم قلمه، وما أعدت قول اليازجي العظيم إلاّ ازددت اقتناعاً بما أقول، قال إبراهيم اليازجي: «ما أتقنت الكتابة إلاّ بدرس القرآن ونهج البلاغة» وإبراهيم اليازجي إذا أردنا أن نحكم على رجل من رجال القلم بالنسبة إلى كلّ علوم اللغة العربية مجتمعة، لا نجد في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من يتفوّق عليه، وإن كان في كلّ علم من علومها على انفراد يوجد من ينافسه ويتفوّق عليه.

إذا كان اليازجي يقول هذا، فإنّ كلّ مثقّفٍ عربي مدين لنهج البلاغة وللإمام علي في استقامة نهجه الكتابي، وانطلاقاً من هذه النقطة فنحن لا نعدّ كاتباً أو أديباً عربياً مثقّفاً ثقافة عربية أصيلة إن لم يقرأ القرآن ونهج البلاغة قراءات عميقة متواصلة.

فالذي يريد أن يفهم المجتمع العربي والعقليّة العربية لا بدّ له من قراءة نهج البلاغة، والذي يريد أن يفهم أسلوب الحكم في البلاد العربية يحتاج إلى نهج البلاغة.

الفقيه الذي يرغب في أن يكون نافذ الفكر،مستنير البصيرة هو في أقصى الحاجة إلى نهج البلاغة.

رجل الوعظ المسلم الذي يريد أن يكون واسع الآفاق محتاج إلى نهج البلاغة، وإن لم يفعل فإنّه ظلاّم لنفسه، قليل الاحترام لعقله. قرأت شيئاً اسمه (تشريح شرح نهج البلاغة)، فشعرت بإشفاق على عقلية الرجل، وذكرت حالاً قول ابن العميد على كتب الجاحظ: «كتب الجاحظ: تعلّم العقل أوّلاً والأدب ثانياً».

ونهج البلاغة في اعتقادي يعلّم العقل أوّلاً، والأدب ثانياً، وأساليب كلّ فنّ من الكتابة والخطابة ثالثاً، ويطّلع منه الانسان على أمور لا أعتقد أنّها توجد في كتاب واحد كلّها مجتمعة.

وبعد فأنا أنظر إلى الكتاب على اعتبار أنّه كنز ثمين لا غنى لمتأدّب عنه، وأنظر إلى صاحب هذا الكتاب فأرى أنّه طّوق جيد اللغة العربية بمنّةٍ لا تزول حتّى تزول الأرض ومن عليها.

وعندي أنّه إذا ثبت كلّ ما في نهج البلاغة للإمام علي، فهو معجزة أدبية، وإذا أراد النافون أن ينفوه عنه وينسبوه إلى جامع الكتاب، فتكون معجزة الإمام أعظم، إذ يستطيع حبّه أن يُملي على محبّيه أن يأتوا بمثل هذه الدرر الغوالي!

فإثبات نهج البلاغة للإمام ونفيه عنه يثبت عظمة الإمام الخالدة، ولا ينفي الدَين الذي للإمام على مثقّفي العرب كافّة».

العقّاد ونهج البلاغة:

جاء في كتابه (عبقريّة الإمام)، في فصل ثقافته عليه السلام ما نصّه:

«ففي كتاب نهج البلاغة فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية، تتّسع به دراسة كلّ مشتغل لعقائد وأصول التأليه وحكمة التوحيد».

ويقول فيه: «فكلّ نمط من أنماط كلامه شاهد له بالملكة الموهوبة في قدرة الوعي وقدرة التعبير، فهو ولا شكّ من أبناء آدم الذين علموا الأسماء وأُوتوا الحكمة وفصل الخطاب».

كلمة سبط ابن الجوزي:

جاء في كتابه (تذكرة الخواص) ما نصّه: «كان علي ينطق بكلام قد حُفَّ بالعصمة، ويتكلّم بميزان الحكمة،كلام ألقى الله تعالى عليه المهابة، فكلّ من طرق سمعه راعه فهابه، وقد جمع الله له بين الحلاوة والملاحة، والطلاوة والفصاحة، لم يسقط منه كلمة، ولا بارت له حجّة، أعجز الناطقين، وحاز قصب السبق قي السابقين، ألفاظ يشرق عليها نور النبوّة وتحيّر الأفهام والألباب».

كلمة الحجّة الشيخ هادي كاشف الغطاء:

جاء في كتابه (مستدرك نهج البلاغة) ما نصّه: «أمّا بعد فإنّ كتاب (نهج البلاغة) من أعظم الكتب الإسلاميّة شأناً، وأرفعها قدراً، وأجمعها محاسن، وأعلاها منازل، نور لمن استضاء به، ونجاة لمن تمسّك بعُراه، وبرهان لمن اعتمده، ولبّ لمن تدبّره، أقواله فصل، وأحكامه عدل، حاجة العالم والمتعلّم، وبُغية الراغب والزاهد، وبُلغة السائس والمسوس، ومُنية المحارب والمسالم، والجنديّ والقائد، وفيه من الكلام في التوحيد والعدل، ومكارم الشيم، ومحاسن الأخلاق، والترغيب والترهيب، والوعظ والتحذير، وحقوق الراعي والرعيّة، وأصول المدنيّة الحقّة، ما ينقع الغلّة ويزيل العلّة، لم تعرف المباحث الكلاميّة إلاّ منه، ولم تكن إلاّ عيالاً عليه، فهو قدوة فطاحلها، وإمام أفاضلها».

كلمة الدكتور زكي نجيب محمود:

تحدّث الكاتب (الزكي) عن نهج البلاغة وأطال، ونقتطف من حديثه هذه الباقة: «لنقف وقفة عند الإمام علي عليه السلام لننظر كم اجتمع في هذا الرجل من أدب وحكمة وفروسيّة وسياسة.. عرفت نهج البلاغة في صدر الصبا.. وبقيت منه نغمات في أذني.. وها أنا ذا أُعيد القراءة هذه الأيام، فإذا النغمات تزداد في الأذنين حلاوة، وإذا العبارات كأنّها طلاوة إلى طلاوة.. ولست أعني

زُخرف الكلام، بل أعني طريقته في اختيار اللفظ الصلب العنيد الذي لا يقوى على تشكيله إلاّ إزميل تحرّكه يد المثّال الذي يتخيّر لتماثيله صُمّ الجلاميد، ليبقى عملاً أقوى من الدهر دواماً وخلوداً.. إنّ اللفظ قد نُحت من حجر صوان، وصفّ بعضها إلى بعض صفّاً عجيباً».

وقال: «قلّب معي صفحاته الرائعة الأدبيّة التي تُسمّى بنهج البلاغة، وقل لي: أنّى ينتهي الأديب ليبدأ الفيلسوف؟ وأنّى ينتهي الفيلسوف الأديب ليبدأ الفارس. ثمّ أين ينتهي هذا ليبدأ السياسي؟ إنّه لا فواصل ولا فوارق، ففي هذه المختارات خطب وأحكام وحجاج وشواهد امتزج فيها الأدب بالحكمة، والحكمة بالأريحيّة، وهاتان بالسياسة». إلى أن يقول: «والنصوص يطول بنا نقلها إلى القارئ ما طال نهج البلاغة، فخير للقارئ أن يرجع إليه ليطالع نفساً قد اجتمع فيها ما يصوّر عصرها، من حيث الركون في إدراك حقائق الأمور إلى سلامة السليقة وحضور البديهة وصدق البصيرة، بغير حاجة إلى تحليلات العقل وتعليلاته، وإلى طريق المناطقة في جمع الشواهد وترتيب النتائج على المقدّمات». نقلاً عن كتاب (الحسين والقرآن) للشيخ محمد جواد مغنية.

كلمة الأستاذ العلاّمة أحمد أمين الكاظمي:

تحدّث في المجلّد الرابع من كتابه (التكامل في الاسلام) تحت عنوان (ليلة الميلاد) فقال رحمه الله:

«فنهج البلاغة كتاب حوى أصول الفلسفة الحقّة عن الكون والحياة ومصير الإنسان وواقعه، وأصول الاقتصاد حيث لا يضحّي بالفرد على حساب المجتمع، ولا بالمجتمع على حساب الفرد، حوى أسس إدارة شؤون البلاد، وما يربط الشعب بالهيئة الحاكمة من حقوق، فهو كتاب فلسفي اجتماعي، عرفاني، اقتصادي، أدبي، وفيه فصل الخطاب في كلّ حقل يحتاجه الانسان في سيره التكاملي».

كلمة الدكتور صبحي الصالح:

تحدّث الدكتور صبحي الصالح في كتابه (ضبط نصّ نهج البلاغة) ص ١٢ ط بيروت ١٩٦٧ م فقال: «وإنّ نهج البلاغة ليضمّ ـ إلى جانب الموضوعات السابقة ـ طائفة من خطب الوصف تُبوّئ علياً ذروة لا تُسامى بين عباقرة الوصّافين في القديم والحديث، ذلك أنّ علياً ـ كما تنطق نصوص النهج ـ قد استخدم الوصف في مواطن كثيرة، ولم تكد خطبة من خطبه تخلو من وصف دقيق وتحليل نفّاذ إلى بواطن الامور، صوّر الحياة فأبدع، وشخّص الموت فأجزع، ورسم لمشاهد الآخرة لوحات كاملات فأراع وأرهب، ووازن بين طباع الرجال وأخلاق النساء، وقدّم للمنافقين نماذج شاخصة، وللأبرار أنماطاً حيّة، ولم يفلت من ريشته المصوّرة شيطان رجيم يوسوس في صدور الناس، ولا مَلَك رحيم يوحي الخير ويُلهم الرشاد».

وتحدّث في ص ١٥ بقوله: «وأغراض علي في كتبه ورسائله وعهوده ووصاياه تشبه أغراضه في خطبه شبهاً شديداً، كثرت فيها رسائل التعليم والارشاد، وكتب النقد والتعريض، والعتاب والتقريع، وانضمّت إليها بعض الوثائق السياسيّة والإداريّة والقضائيّة والحربيّة، ورسائله جميعاً مطبوعة بالطابع الخطابي، حتّى ليكاد الباحث يعدّها خطباً تُلقى لا كتباً تدبج، إذ تؤلّف فيها الألفاظ المنتقاة، وتنسّق فيها الجمل المحكمات، فينبعث من أجزائها كلّها نغم حلو الإيقاع يسمو بنثرها الرشيق فوق مجالات الشعر الرفيع.

وإذا تجاوزنا خطب علي ورسائله إلى المختار من حِكَمه، ألفيناه يرسل من المعاني المعجزة والأجوبة المسكتة ما ينبئ عن غزارة علمه، وصحّة تجربته، وعمق إدراكه لحقائق الأشياء، وحكم علي هذه منها ما جمعه الشريف الرضي تحت عنوان مستقل، نجد فيه مثل قوله: «النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا» «قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ» «احْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ وَاللَّئِيمِ إذا شَبع».

ووصايا علي الاجتماعيّة تتجسّد هاهنا بوضوح من خلال كلماته النوابغ وحِكَمِهِ الحسان، فهو يجلو أبصار صحبه وبصائرهم، ويودّ لو يتبعهم كأس الحكمة بعد الصبوح، يحذّرهم من العلم الذي لا ينفع «رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ وَعِلْمُهُ مَعَهُ لَا يَنْفَعُهُ» و«الجَاهِلُ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ».

والفكرة في خطب علي ورسائله وحكمه عميقة من غير تعقيد، بسيطة من غير إسفاف، مستوفاة من غير إطناب، يلوّنها ترادف الجمل، ويزيّنها تقابل الألفاظ، وينسّقها ضرب من التقسيم المنطقي يجعلها أنفذ في الحسن وألصق بالنفس.

وكان ينبغي لعلي أن تقذف بديهته بتلكم الحكم الخالدة والآراء الثاقبة، بعد أن نهل المعرفة من بيت النبوّة، وتوافرت له ثقافة واسعة وتجربة كاملة وعبقريّة نفّاذة إلى بواطن الأمور.

وتتّسم أفكار علي غالباً بالواقعيّة، إذ كان يستمدّ عناصرها من بيئته الاجتماعية والجغرافية، فأدبه ـ من هذه الناحية ـ مرآة للعصر الذي عاش فيه، صوّر منه ما قد كان أو ما هو كائن، ولقد يطيب له أحياناً أن يصوّر ما ينبغي أن يكون، فتغدو أفكاره مثاليّة عصيّة على التحقيق.

وما من ريب في أنّ الكتاب والسنّة قد رفداه بينبوع ثرّ لا يفيض، فتأثّر بأسلوب القرآن التصويريّ لدى صياغة خطبه ورسائله، واقتطف من القرآن والحديث كثيراً من الألفاظ والتراكيب والمعاني.

وأمّا عاطفة علي فثائرة جيّاشة تستمدّ دوافعها من نفسه الغنيّة بالانفعالات، وعقيدته الثابتة على الحقّ، فما تكلّم إلاّ وبه حاجة إلى الكلام، وما خطب إلاّ ولديه باعث على الخطابة، وإنّما تتجلّى رهافة حسّه في استعماله الألفاظ الحادّة، وإكثاره من العبارات الإنشائيّة كالقسم والتمنّي والترجّي والأمر والنهي والعجب والاستفهام والإنكار والتوبيخ والتقريع، مصحوبة كلّها بترادف بين الفقرات، وتجانس بين الأسجاع، وحرص واضح على النغم والإيقاع.

وخيال علي ـ فيما يخلعه على موصوفاته من صور زاهيات ـ ينتزع أكثر ما ينتزع من صميم البيئة العربية إقليميّة وفكريّة واجتماعيّة، وتمتاز صور علي بالتشخيص والحركة، ولا سيّما حين يتّسع خياله ويمتدّ مجسّماً الأفكار، ملوّناً التعابير، باثّاً الحياة في المفردات والتراكيب».

كلمة شبلي شميل حول نهج البلاغة:

نقلا عن كتاب (ماذا في التاريخ) ج ٧ ص ١٤٩:

«هل عرفت عقلاً كهذا العقل، وعلماً كهذا العلم، وبلاغة كهذه البلاغة، وشجاعة كهذه الشجاعة، تكتمل من الحنان بما لا يعرف حدوداً، حتّى ليبهرك هذا القدر من الحنان، كما يبهرك ذلك القدر من المزايا، تلتقي جميعاً وتتّحد في رجل من أبناء آدم وحوّاء، فإذا هو العالم المفكّر، الأديب الإداري، الحاكم القائد الذي يترك الناس والحكّام وذوي المطامع والجيوش يتآمرون به، ليقبل عليك فيهزّ فيك مشاعر الانسان الذي له عواطف وأفكار، فيهمس في قلبك هذه النجوى الرائعة بما فيها من حرارة العاطفة الكريمة، قائلاً: «فَقْدُ الْأَحِبَّة غُرْبَةٌ» أو «لَا تشْمَتُ بِالْمَصَائب» أو «ليكن دنوُّك من الناس لِيناً ورحمة» أو «اعفُ عمّن ظلمكَ، وأعطِ مَن حرمك، وصِلْ مَن قطعك، ولا تُبغض مَن أبغضك»!

هل عرفت من الخلق عظيماً يلتقي مع المفكّرين بسموّ فكرهم، ومع الخيّرين بحبّهم العميق للخير، ومع العلماء بعِلمهم، ومع الباحثين بتنقيبهم، ومع ذوي المودّة بمودّاتهم، ومع الزهاد بزهدهم، ومع المصلحين بإصلاحهم، ومع المتألّمين بآلامهم، ومع المظلومين بمشاعرهم وتمرّدهم، ومع الأدباء بأدبهم، ومع الأبطال ببطولاتهم، ومع الشهداء بشهادتهم، ومع كلّ إنسانيّة بما يشرّفها ويرفع من شأنها، ثم إنّ له في كلّ ذلك فضل القول الناتج عن العمل، والتضحية المتّصلة بالتضحية، والسابقة في الزمان!».

كلمة سليمان كتّاني:

وتحدّث سليمان كتّاني في كتابه «الإمام علي نبراس ومتراس» ص ١٩٩ ط ١٣٨٦ هـ مطبعة النعمان في النجف عن نهج البلاغة «...وماذا جاء في (نهج البلاغة) فقال: يدغدغ الشكّ في ما جاء في نهج البلاغة؟ وهل الكتاب كان غير تقويم للرجل الكبير في نهجه الطويل، الذي زرع عليه الانسان قيمة تتبلور بالعقل الصحيح وتسمو بالفضيلة، وجعل الفضائل تنمو وتدور على محور واحد، هو محور التقوى والإيمان بالله؟

ومتى، وفي أيّة لحظة من لحظات عمره، لم يعبّر عن هذا النهج الصريح؟

أفي إعلانه الرسالة وإيمانه بها، ولقد نذر نفسه للدعوة لها والجهاد في سبيلها، أم في تطبيقها دستوراً كاملاً لكلّ مجاري أفكاره وأقواله وأعماله من حيث كان زهده وتقواه وشجاعته وبطولته؟

فإذا كان الاقحام في (نهج البلاغة) تكويماً لتعابير تحمل مثل هذه المعاني لم يسكبها جَنان المنسوبة إليه ضمن حروف نبتت من شقّ قلمه، فإنّ ذلك لن يغيّر نهج البلاغة بشيء،... لأنّ الكلام المقحم جاء صادقاً في نحت نفسه قالباً لائقاً بالفكر الأصيل، ولأنّ البلاغة في مفهومها الحقيقي ليست مطلقاً في قوّة اللفظ والنحت بقدر ما هي تنزيل لسموّ المعاني في قوالب متينة السبك والحبك، وإنّ هذه الأخيرة تبقى أبداً قوالب جوفاء ما لم تستتمّ فيها تلك المفاتن.

و(نهج البلاغة)، سواء كان صقل حروفه على يد ابن أبي طالب أم كان على يدي مقحم فنّان، فإنّه يبقى دائماً تعبيراً عميق البلاغة عن نفسيّة رجل واحد سُمّي بـ«علي بن أبي طالب».

* * *

نهج البلاغة في الشعر العربي

قيل فيه شعراً:

نهج البلاغة نهج العلم والعمل ... فاسلكه يا صاح تبلغ غاية الأملِ
كم فيه من حِكَمٍ بالحقّ مُحكمة ... تُحيي القلوب ومن حُكمٍ ومن مَثَلِ
ألفاظه درٌّ أغنت بحليتها ... أهل الفضائل عن حلي وعن حُلل
ومن معانيه أنوار الهدى سطعت ... فانجاب عنها ظلام الزيغ والزلل
وكيف لا وهو نهج طاب منهجه ... أهدى إليه أمير المؤمنين علي

وكتب أبو يوسف يعقوب بن أحمد[1] في آخر نسخة من كتاب (نهج البلاغة):

نهج البلاغة نهج مهيع جددُ ... لمن يريد علوّاً ما له أمدُ
يا عادلاً عنه تبغي بالهدى بدلاً ... اعدل إليه ففيه الخير والرشد
والله والله إنّ التاركيه عموا ... عن شافياتِ عظاتٍ كلّها سدد
كأنّها العقد منظوماً جواهرها ... صلّى على ناظميها ربُّنا الصمد
ما حالهم دونها إن كنتَ تنصفني ... إلاّ العناد وإلاّ البغي والحسد[2]

واقتدى بذلك الأديب عبد الرحمن بن الحسين حين وقع له الفراغ، فقال:

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن أحمد النيسابوري المتوفّى سنة ٤٧٤هـ قال عنه الفيروز آبادي إنّه شيخ وقته في النحو واللغة والآداب، كثير التصانيف والتلاميذ.

(٢) مجلة (تراثنا) العدد ٣٤، ص ٦٨ و٦٩.

نهج البلاغة نهج الذخر والسندُ ... وفيه للمؤمنين الخير والرشدُ
عين الحياة لمن أضحى يؤمّلها ... يا حبّذا معشر في مائها وردوا
ما إن رأت مثلها عينٌ ولا سمعت ... أُذنٌ ولا كتبت في العالمين يد
شرّبت روحي حياةً عند كتبتها ... وكان للروح من آثارها مدد
صلّى الإله على مَن كان منطقه ... روحاً تزايد منه الروح والجسد[1]

وقال آخر:

نهج البلاغة هذا سيّد الكتب ... نهج الرسائل والأحكام والخطبِ
كم فيه من حكمة غرّاء بالغة ... ومن علوم[2] إلهي ومن أدبِ
ومن دواء لذي داءٍ وعافية ... لذي بلاء ومن روح لذي تعب
فيه كلام وليّ الله حيدر من ... يمينه في عطاء المال كالسُّحب
وصيّ خير عباد الله كلّهمُ ... مختار ربّ البرايا سيّد العرب
عليٌّ مرتضى مَن في مودّته ... يُرجى النجاة ليوم الحشر والرعبِ
فمن يعاديه في نار الجحيم هوى ... وعاش ما عاش في ويلٍ وفي حرب
ومن يواليه من صدق الجَنان ففي ... الجِنان له طنب يفوق السبع والشهبِ
قد امتزجت[3] بقلبي حبّه فجرى ... في النفس مجرى دمي في اللحم والعصب
صلّى عليه إلهُ الخلق خالقنا ... ربّ الورى وعلى أبنائه النُّجب
وزاده في جنان الخلد منزلة ... ورتبةً وعلاً يعلو على الرتب[4]

وقال علي بن أبي أسعد الطبيب:[5]

---

(١) مجلة تراثنا العدد ٣٤، ص٦٧.

(٢) كذا في المتن.

(٣) كذا في المتن.

(٤) مجلة (تراثنا)، العدد ٣٤، ص٦٤ - ٦٥ ولم يُنسب إلى قائله.

(٥) كان عالماً فاضلاً أديباً شاعراً، يروي بالإجازة عن السيّد فضل الله الراوندي، وممّن عني بنهج البلاغة قراءة ورواية وتصحيحاً وتعليقاً.

نهج البلاغة مشرع الفصحاءِ ومعشعش البلغاءِ والعلماءِ
درج عقود عقولِ أرباب التقى في درجه من غير إستثناء
في طيّه كلّ العلوم كأنّه الجفر المشار إليه في الأنباء
من كان يسلك نهجه متشمّراً أمن العثار وفاز بالعلياء
غررٌ من العلم الإلهيّ انجلت منظومة فيها ضياء ذكاء
ويفوح منها عبقةٌ نبويّة لا غرو قُدّا من أديم سناء
روض من الحِكَم الأنيقة جاده جود من الأنوار لا الأنواء
أنوار علمِ خليفَةِ اللهِ الذي هو عصمة الأموات والأحياءِ
مشكاةُ نورِ الله خازنُ علمه مختارهُ من سرّة البطحاءِ[1]

وفي كتاب (مصادر نهج البلاغة) تأليف الخطيب السيد عبد الزهراء الحسيني:

قال أبو الحسن علي بن أحمد الفنجكردي:[2]

نهج البلاغة من كلام المرتضى جمع الرضي الموسوي السيدِ
بهرَ العقولَ بحسنه وبهائه كالدرِّ فصّل نظمه بزبرجدِ
ألفاظه علويّة لكنّها علويّة حلّت محلّ الفرقد
فيه لأرباب البلاغة مقنع من يعن باستظهاره يستسعد
وترى العيون إليه صوراً إن تلا منه كتاباً رائعاً في مشهد
أعجِبْ به كلماته قد ناسبت كلمات خيرِ الناس طُرّاً أحمدِ
نِعم المعين على الخطابة للفتى وبه إلى طُرق الكتابة يهتدي[3]

---

(١) مجلة (تراثنا)، العدد ٣٤، ص٦٣ و٦٤.

(٢) شيخ الأفضال أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الفنجكردي النيشابوري المتوفّى سنة ٥١٣ هـ كان ملقّباً بشيخ الأفاضل، كان أعجوبة زمانه وآية أقرانه.

(٣) الغدير ٤: ٣١٩.

وفي المجلّد الثاني من كتابنا (نزهة الخاطر):

وللسيد الإمام عزّ الدين سيد الأئمة المرتضى بن الإمام العلاّمة ضياء الدين علم الهدى قدّس الله روحيهما:

نهج البلاغة نهجه لذوي البلاغة واضحُ
وكلامه لكلام أرباب الفصاحة فاضح
العلم فيه زاخر والفضل فيه راجح
وغوامض التوحيد فيه جميعها لك لائح
ووعيده مع وعده للناس طرّاً ناصح
تحظى به هذي البريّة صالح أو طالح
لا كالعريب ومالها فالمال غادٍ رائح
هيهات لا يعلو على مرقى ذراه مادح
إن الرضي الموسوي لمائه هو مائح
لاقت به وبجمعه عدد القطار مدائحُ[1]

وقال آخر:

نهج البلاغة يهدي السالكين إلى ... مواطن الحق من قول ومن عملِ
فاسلكه تُهدى إلى دار السلام غداً ... وتحضَ فيها بما ترجوه من أملِ[2]

وجاء في شرح القصيدة العينيّة لعبد الباقي العمري، قال بعضهم:

ألا إنّ هذا النهج نهج بلاغة ... لمنتهج العرفان مسلكه جلي
على قممٍ من آل صخر ترفّعت ... كجلمود صخرٍ حطّه السيلُ من عَلِ[3]

---

(١) نزهة الخواطر (مخطوط).

(٢) مجلة (تراثنا)، العدد ٣٤، ص٨٢

(٣) مجلة (تراثنا) العدد ٣٤، ص٨٢

وقال آخر:

كتاب كأنّ الله رصّع لفظه ... بجوهر آيات الكتاب المنزل
حوى حِكماً كالدّرِ تنطق صادقاً ... فلا فرق إلاّ أنّه غير مُنزَلِ[1]

وقال عبد الباقي العمري في عينيته:

نهج البلاغة نهج عنك بلّغنا ... رشداً به اجتثّ عِرق الغيّ فانقمعا
به دفعت لأهل البغي أدمغة ... لنخوة الجهل قد كانت أشَرّ وعا
كم مصقع من خطاب قد صقعت به ... فوق المنابر صقع الغدر فانصقعا
ما فرّق اللهُ شيئاً في خليقته ... من الفضائل إلاّ عندك اجتمعا

وقال آخر:

انظر إلى نهج البلاغة هل ترى ... لأولي الفصاحة منه أبلغ منطقا

وقال آخر:

هذا الكتاب كتاب الله أنزله ... على لسان عليٍّ أفصح العربِ
أخو الكتاب الذي جاء النبيّ به ... كلاهما من نبيٍّ أو وصيِّ نبي

وقال آخر:

نهج البلاغة منهج البُلغاء ... وملاذ ذي حصر وذي إعياءِ
فيه معانٍ في قوالبَ أُحكمت ... لهدايةٍ كالنجم في الظلماء
وتضمّن الكلمات في إيجازها ... بذواتها بجوامع العلياء
صلّى الإله على النبيّ محمّد ... وعلى عليٍّ ذي علاً وإخاء[2]

وقال قطب الدين تاج الاسلام محمد بن الحسين بن الحسن الكيدري:

---

(١) مجلة (تراثنا) العدد ٣٤، ص٨٥.

(٢) مجلة (تراثنا) العدد ٣٤، ص٦٤ ولم ينسبه.

نهج البلاغة نهج كلّ مسدّد ... نهج المرام لكلّ قوم أمجدِ
يا من يبيت وهمّه درك العُلى ... فاسلكه تحظَ بما تروم وتقصدِ
ينبوع مجموع العلوم رمى به ... نحو الأنام ليقتفيه المهتدي
فيه لطلاّب النهاية مقنع ... فليلزمنه الناظر المسترشدِ
صلّى الإله على منظّمه الذي ... فاق الورى بكماله والمحتدِ[1]

وقال الحسن بن يعقوب بن أحمد:

نهج البلاغة درجٌ ضمنه دررُ ... نهج البلاغة روض جاده دررُ
نهج البلاغة وشيٌ حاكه صبغ ... من دون موشية الديباج والحبر
أو جونة مُلئت عطراً إذا فتحت ... خيشومنا فغمت ريح لها ذفر
صدّقتكم سادتي والصدق من خُلقي ... وإنّه خصلة ما عابها بشر
صلّى الإله على بحر غواربه ... رمت به نحونا ما لألأ القمر[2]

وقال العلاّمة الشيخ عبد المنعم الفرطوسي:

وبنور نهجك وهو منبع حكمةٍ ... متدفّق أوضحت أيّ مشاكلِ
أوردتنا فيه نميراً صافياً ... ينمى لخير موارد ومناهل
أحكمته بقواعد حكميّة ... كفلت بيان أصول كلّ مسائل
تقف العقول أمامه مسحورةً ... ببيانه وبنسقه المتواصل
أنت المحيط معارفاً لكنّما ... لم تحوِ غيرَ جواهر وفضائل

---

(١) مجلة (تراثنا) العدد ٣٤، ص٧٢ - ٧٣.

(٢) مجلة (تراثنا) العدد ٣٤، ص٧٤ - ٧٥ قال علي بن زيد البيهقي فريد خراسان، المتوفّى سنة ٥٦٥هـ في شرحه على نهج البلاغة: وأنشدني الإمام الحسن بن يعقوب لنفسه مقتدياً بوالده، ثمّ ذكر الشعر.

والحسن بن يعقوب بن أحمد بن محمد النيشابوري هو من أعلام الأدب في القرن السادس.

وللشيخ محمد علي صنعان النجفي:

فاح النسيم فباح بالأسرار ... سَحَراً فأيقظ راقد الأزهار
وأتى يخبّر عن كتاب ناظم ... سلكاً فيعقد للنثار دراري
نهج البلاغة روضة ممطورة ... بالنور من سُبحات وجه الباري
أو حكمة قدسيّة جليت بها ... مرآة ذات الله للنظّار
خطب روت ألفاظها عن لؤلؤ ... عن مائه بحر المعارف جاري
وتنسّمت كلماتها عن جنّة ... حُفّت من التوحيد بالنوّار
فكأنّما عين اليقين تفجّرت ... من فوق عرش الله بالأنهار
حِكم كأمثال النجوم تلألأت ... من ضوء ما ضمنت من الأسرار
كشف الغطاء بيانها فكأنها ... للسامعين بصائر الأبصار
وترى من الكلم القصار جوامعاً ... تُغنيك عن سفرٍ من الأسفار[1]

* * *

(١) نشرت مجلّة «تراثنا»، العدد ٣٤، ط الأولى، سنة ١٤١٤هـ مقالةً مفصّلة للسيّد المحقّق عبد العزيز الطباطبائي ﷺ تحت عنوان «ما قيل في نهج البلاغة من نظم ونثر»، استوعبت كثيراً من الأشعار الموجودة في المخطوطات والمدوّنة على ظهور المخطوطات المختلفة لنهج البلاغة، فراجع.

علي ونهج البلاغة
فيما ذهب إليه بعض المرجفين

لم يكن من القصد عرض هذا الموضوع، حيث أنّ العلماء وعباقرة الأدب أسهبوا فيه وأحاطوا به من جميع نوافذه، لولا إشارة ولدي الفاضل السيد صدر الدين حفظه الله، فقد أشار عليَّ أن أخوض فيه ـ ولو في سطور قصيرة لأنّ المجال يستدعيه، فاستصوبت رأيه، واكتفيت بكلمة الدكتور مهدي محبوبة، فإنّه أعطاه ما يستحقّه، وألمّ به من جميع أطرافه.

قال (سلّمه الله) في كتابه (ملامح من عبقرية الإمام) تحت عنوان (علي ونهج البلاغة فيما ذهب إليه بعض المرجفين):

«التراث الفكري زاخر بالمواهب، عبق بالانتاج، واسع بالمدركات، متمثّل بالعبقريات، ماثل بالنقل والرواية، لكلّ تراث منتج يتميّز ذلك الانتاج به، والأخصّ في مجال الأدب والسياسة، فلا يصحّ السند إذا لم يستوفِ الأثر دلائله وبراهينه الكامنة فيه والمنطلقة منه.

وإنّ لكلّ أديب نفحته الأدبية التي تعبق بمعتقداته وآرائه ومُثله وسياسته ووجهة تفكيره.

ثمّ إنّ للزمن أثره وللمحيط فعله في كلّ نتاج أدبي، فالأدب آخذ من بيئته لا محالة.

ولو أردنا استقصاء نهج البلاغة وإطالة النظر فيه لرأيناه قد استوفى حُججه واستكمل براهينه الكائنة فيه، لأنّه يحمل الروح العلويّة في كلّ سطر

منه وبكلّ تعبير فيه، ويعطي الدلالة السياسية والاقتصادية والعقائدية والأدبية للإمام، ويمثّل روح عصره بما تمخّض عن أحداث جسام.

ولم يكن الشريف الرضي ممّن عركتهم الظروف غير المواتية، وادلهمّت بهم الأوضاع، لأنّه كان والحكم في وئام، ومع الأحداث في سلامة. ولم يكن الشريف قد ارتفعت به الأمّة الإسلامية حتّى كان قطب رحاها، ومنطلق وجودها وعُلاها، ومَعين إسلامها ومعتقدها، وإن كان على جانب كبير من المعرفة والمنزلة الاجتماعية.

لم تُلجئه الظروف للمقارعة باللسان والقلم، ولم يوليه وقته الخلافة أو القيادة، وإنّ نفحة نهج البلاغة على غير ما هو فيه، فهي نفحة الثائر في أشدّ ظروف الثورة.

ومَن دَرَس سيرة الرضي وأدرك حقيقته عرف أنّه على جانب كبير من الصلاح والتقوى ممّا هو بعيد عن الكذب والانتحال والتقوّل.

ذهب بعض المؤرّخين إلى أنّ قسماً من النهج قد سطره يراع الرضيّ، وذهب بعض إلى أنّه من وضع الرضي، وكانت لهم حُججهم سأوردها جميعاً وسأذهب إلى تفنيدها.

ومن أهمّ الحُجج التي تذرّع بها هؤلاء ما ورد في النهج من تقريعٍ وتأنيب لبعض من واكب الإسلام في إبّان ظهوره، كمعاوية وطلحة والزبير وأضرابهم، وورد فيه بعض العتاب لبعض كبار الصحابة، مع علم هؤلاء المؤرّخين بأنّ ما يورده الإمام فهو حجّة قاطعة وإدانة واردة، وإلاّ فلا مبرّر لحديثهم.

ولست أطيل الردّ على هذه الفقرة، فإنّ ما ورد لهو صدى لتلك الحروب الطاحنة للجمل وصفّين والنهروان، وهذا لا غبار عليه، وإنّ ما أورده الإمام لقليل إذا قيس بالدماء التي أُريقت والنفوس التي انتُهكت، والثائر على خليفة زمانه كافر، فإذا أردنا أن نُبعد قول الإمام فيهم فليس باستطاعة أحد أن يُبعد التاريخ الحافل بتلك الأحداث.

ولم يتعرّض للخلفاء الراشدين إلاّ تلميحاً وعتاباً، وهو الصدى القائم ليوم السقيفة، وكان ذلك في خطبته الشقشقيّة.

ولو أردنا الاسترسال فيما يحمله الإمام من اعتقاد جازم في حقّه بالخلافة وسبقه إليها، لأدركنا أنّه لم يرد في النهج ما يُسيء، ولم يقل الإمام مقول عثمان في عمر كما أورده الدكتور طه حسين في كتابه عثمان «لقد وطئكم ابنُ الخطّاب برجله، وضربكم بيده، وقبعكم بلسانه، فخفتموه ورضيتم منه بما لا ترضوه مني، لأنّي كففت عنكم يدي ولساني». ولم يرد في الخطبة الشقشقيّة إلاّ ما أثبته التاريخ.

وأمّا تعرّضه بعثمان فهو تعرّض الناصح المؤمن بأداء رسالته على أكمل وجه، وقد وافانا التاريخ بما وصل إليه الحال في عهده، وللإمام كامل الحقّ أن يدافع عن حظيرة الإسلام ومبادئه.

«كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته».[1]

ونحن لا نعدم الخلاف ولا نذكره إلاّ لنبسط التاريخ واضحاً صحيحاً ليكون لنا عبرة لجمع الشمل وإبعاد الخلاف، وعلينا أن نعتزّ بمن هو أفضل، وكلّهم عرب إسلام منّا وإلينا، فعلينا أن لا نعدم الحقّ والوجدان.

وإنّ كلّ ما أورده النهج لدليل على النفحة العلويّة وعلى ملامسته للأحداث.

وقد ذكر بعض الناقدين في النهج من التنميق الأدبي في السجع وتزويق اللفظ ممّا لم يعهده العصر الاسلامي الأول. وفيه من دقّة الوصف والاحاطة بالقصد، كوصفه للطاووس والنملة والجرادة ممّا يخرج عن دائرة ذلك العهد وأدب ذلك الزمن، وفيه من الحكمة والمنطق وبأساليب بيانية لم تُعرف قبل عهد الترجمة، وقبل تعريب مآثر اليونان والرومان والفرس والهنود.

---

(١) عوالي اللئالي ١: ٢٩ / ح٣؛ بحار الأنوار ٧٢: ٣٨.

أمّا موضع التنميق الأدبي والسجع فلم يكن وارداً في نهج البلاغة إلاّ عرضاً وحسبما تقتضيه الأصول البلاغيّة، وأقلّ ممّا ورد في القرآن، كما ورد في سورة الرحمن وسور أخرى كثيرة.

وأمّا ما فيه من دقّة في الوصف والإحاطة في القصد، فإنّي أذكر قول معاوية لمجفن عندما قال له: أتيتُك مِن أعيا الناس.

أجابه معاوية: ويلك فإنّه ما سنّ الفصاحة لقريش غيره.[1]

وبالطبع إنّ لربّ الفصاحة والبلاغة أسلوبه الخاص وسحره الممتنع، وإعجازه الفريد، واستقلاله بوضع أسس بلاغيّة أدبيّة لم يعهدها عصره، وهذه من أوّليّات ما يلزم أن يؤمن بها الباحث، وإلاّ فعلام أجمع المؤرخون قاطبة على سموّه الأدبي البلاغي الفريد ممّا لم يُعهد لسواه. وقد ذهب كثير من المؤرّخين وكتّاب السير إلى ذكر كلام الإمام، فوضعوه كأرفع كلام عربي بعد القرآن والحديث، وقد ورد ذلك قبل أن يُخلق الشريف الرضي.

وإنّي أقول: فكما أنّ للقرآن مميّزاته وحدوده التي لا يمكن أن يصل إليها كلام، فللنهج كذلك مميّزاته وحدوده التي اختصّ بها، فلا يمكن أن يصل إلى شأوها كلام.

ولم يكن للإمام إلاّ ما أورده الشريف الرضي في النهج فحسب، وإنّما ورد كثير مما لم يرد في النهج ولا يقلّ روعة وأسلوباً عنه. وإنّ معظم ما ورد في النهج لهو معروف قبل الشريف الرضي حسبما وصل إليه المحقّقون. وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب، وهو قبل الشريف الرضيّ: «أنّ الناس حفظوا عن الإمام علي أربعماءة ونيّف وثمانين خطبة، يوردها على البديهة».

ولم يتناقلها الناس ويولوها حفظهم إلاّ لسموّها ورفيع أدبها، وليس

---

(١) بحار الأنوار ٤١: ١٤٦؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٢٥.

للمؤرّخ أن يسجّل إلاّ ما وصل إليه وقد يتعدّاه الكثير، وإنّ زمن المسعودي ليس ببعيد عن زمن الإمام، وذلك ممّا يجعل الثقة واردة في روايته.

وإنّ أبرز ما في النهج ممّا سوّلت نفوس بعض الحاقدين عدم نسبته إليه هو عهده المشهور لمالك الأشتر عندما ولاّه مصر، والذي تسيخ العقول أن تأتي بمثله، حيث وضع به معالم الحكم على ممرّ العهود ممّا لا ترتضيه الحكومات المتعاقبة ذات النزعة الفرديّة، وبالأخصّ من بني أميّة وبني العبّاس، وهذا العهد قد رواه بعض الثقاة قبل الشريف الرضي، ومنهم صاحب كتاب (تحف العقول) المتوفّى في سنة ٣٣٢.[1]

ولو فرضنا أنّنا لم نصل لهذا العهد إلاّ عن رواية الشريف الرضي، فهل يصحّ لنا نسبته إليه، وهو الذي لم تتجسّم أمامه تلك الأحداث والانقلابات الرائعة في صدر الإسلام، ولم يهضم الحكم ويمسّه، ويندفع إلى قراره، ويدركه كإدراك الامام؟

وهل أوثر عن الشريف ما يُماشي ذلك أو يقاربه؟

وهل يصحّ نسبة الخبر لناقله مع إقراره على نقله وإفصاحه على جمعه، مع العلم أنّه لم تكن تلك النزعة الشعبيّة والنظرة إلى الحريّة في الحكم بباقية الى عهد الشريف الرضي، والتي طمستها عهود أميّة وبني العباس، حتّى أصبحت الخلافة ملكاً مطلقاً استبداديّاً فرديّاً، وأنّ تلك النفحة التحررية العلوية قد رسمتها طبيعة الصحراء وحياة العرب، وقوّمتها ووضعت لها السنن والقوانين الثورية الإسلامية، وتبنّاها الإمام علي لما له من العروبة والإسلام، ولكنّها تلاشت على ممرّ عصور الحكم الفرديّ وممارسة الضغط والإرهاب

---

(١) وهو الشيخ الثقة الجليل أبو محمد الحسن بن عليّ بن الحسين بن شعبة الحرّاني، من أعلام القرن الرابع، كان معاصراً للشيخ الصدوق، ويروي عن أبي علي محمّد بن همام المتوفّى سنة ٣٣٦هـ

وأخذ الناس بالبطش، حتّى أصبح الفرد العربي والفرد المسلم دُمية لاحول له ولا قوة إلاّ ما يفرضه الخليفة وعائلته وبِطانته.

ولا يخلو عن البال أنّ ما يمكن الرضي من الحفاظ عليه من تراث الإمام لا يتأتّى لسواه، لأنّه سليل العترة العلوية، وأبرز وارث لها ولمأثورها، وبالأخصّ بما برزت به العهود السابقة له من طمس لمعالم الإمام والأخذ بأقصى العقوبة على من يذكر فضائله أو يروي خبره أو يُعرف بولائه له، وهذا ممّا يدع ما يصل إليه لا يصل إلى غيره، بل قد يمتنع وصوله إلى غيره.

وأمّا ما أوثر عن انطباع بعض حكم الإمام وآرائه بما أوثر عن الإغريق والفرس فقد لا يتعدّى التوارد في الآراء، وليست الآراء بوقف على أمّة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ عهد الترجمة الفكرية وصل العرب منذ العهد الإسلامي بالفتح والاختلاط، وقد تكون له جذوره من العهد الجاهلي لاتّصال العرب بفارس والشام، وأمّا الترجمة المنسّقة المسجّلة المبنيّة على تحديد النقل فقد وصلت متأخّرة عن العهد الإسلاميّ الأوّل، حيث ابتدأت بصورة مبسّطة في العصر الأموي والعصر العبّاسي الأوّل، ونشطت على عهد المأمون.

وبما يمتاز الإمام به من حدّة في الذكاء، ومن نظر ثاقب بعيد المدى، ومن قوّة في الإدراك والتعبير، فقد استوعب من مخالطته الفرس والروم وسواهم لتواردهم على دار الخلافة والإسلام، وهذا وارد فلا ردَّ عليه.

ثمّ إنّ الإمام عاصر فتح الشام وفارس وبقي بعد ذلك بزمن طويل، ممّا تصحّ الترجمة الفكرية الشفهيّة بإسلام كثير من الأجانب ممّن أدرك الثقافة الإغريقية الرومانية والفارسية والهندية، وكثير منهم طبعها بلغته الجديدة، لغة القرآن والسنّة وهي العربية.

ولنضرب على ذلك مثلاً واحداً: ذكر ابن شهر آشوب أنّ أوّل من صنّف في الإسلام علي بن أبي طالب، ثمّ سلمان الفارسي الذي أشار بحفر

الخندق، فيستدل أنّ سلمانَ كان على مستوى كبير من العقل والإدراك، وكان من حواريّي الإمام ممّا تصحّ ترجمته الفكرية، ودليل على ذلك إشارته بحفر الخندق وهي خطّة عسكرية فارسيّة لم يعهدها العرب، فهو وأضرابه قد حمل للأمّة العربية كثيراً من معالم بلده وأوطانه ومجتمعه الأوّل.

ثم إنّ حكميّات الإمام وآراءه لم تكن منوطة بالنهج وماثلة بين دفتيه فحسب، بل إنّ ما جمعه الأوائل والأواخر لكثير، وأكثره ممّا لم يذكره الشريف الرضي.

فقد جمع الشيخ عبد الواحد التميمي كتاباً من حكم الإمام القصيرة يقارب نهج البلاغة، سمّاه (غُرر الحكم ودُرر الكلم).

وقد افتخر الجاحظ ـ وهو من أكبر العلماء العرب ومن العهد الاسلامي الأوّل بأنّه جمع مائة كلمة لأمير المؤمنين.

وقد جمع القاضي القضاعي من كلام الإمام سمّاه (دستور معالم الحكم).

وجمع الطبرسي صاحب تفسير مجمع البيان كتاباً من حكم الإمام سمّاه (نثر اللآلي).

وقد ذكر المفيد ـ وهو أستاذ الشريف الرضي ـ في كتابه (الإرشاد) كثيراً من كلام وخطب الإمام.

وجمع نصر بن مزاحم خطب الإمام في صفّين وكُتبه إلى معاوية في كتاب (صفّين).

وجمع إسحاق الأنصاري كتاباً من كلام الإمام سمّاه (مطلوب كلّ طالب).

وجمع القاضي الإمام أبو يوسف كتاباً من كلام الإمام سمّاه (قلائد الحكم وفرائد الكلم).

وألحق ابن أبي الحديد في تفسيره للنهج ألف كلمة على مستوى النهج بلاغة وفصاحة وحكمة ممّا لم تكن فيه.

وهكذا لو أردنا الاسترسال لطال بنا البحث ممّا نحن لسنا بصدده، وإنّما هي عجالة نريد بها إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

ولست ممّن يؤمن بتحريف التاريخ تبع الهوى، ولست ممّن يؤمن بالاسترسال بزيفه، فإنّ الواقع لا بدّ أن يظهر من خلال البحث والتدقيق.

وإنّ أوّل واضع للشك هو قاضي القضاة شمس الدين الإربلي صاحب (وفيات الأعيان) المولود في إربل سنة ٦٠٨ والمتوفّى بدمشق سنة ٦٨١ من الهجرة، وإنّ من تبعه لفّ لفّه وأخذ منه، وهم عدد يسير.

وكلّ ما أورده المرجفون لا يتعدّى الحجج الواردة الذكر، والتي لم تثبت أمام الإجماع والتواتر وسند النقل، والبراهين الماديّة الثابتة.

ولا أخالني بعيداً عن الصواب إذا قلت: إنّ الذي حدا بذلك القاضي على الشكّ هو أنّ كلام الإمام يتناقله الناس متفرّقاً ومجزءاً ممّا لم يستوعب أثره، ولما جمع الرضي كثيراً منه ضمن سفر جليل عظيم الأثر التمسه الناس وشاع فأصبح النقد وارداً.

ولربّما يكون وضع الشكّ وارداً لإقرار الشكّ في نسبة النهج للإمام، إذ ما يرد عن الإمام يلتزم به الإسلام، وإنّ النهج يحدّد مفهوم السلطة تحديداً دقيقاً، ويشيع الحقوق العامة، ويبعث الحرية والعدالة الاجتماعية ممّا لا يرتضيه الخلفاء والولاة، ولا يستسيغه قضاتهم، فإذا بطلت النسبة للإمام أو بعض منه ممّا رآه ذلك القاضي فقد ابتعدت مفاهيمه عن الجماهير.

* * *

مختارات من خطب وكتب
الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وشرحها

من كتاب له عليه السلام إلى الحارث الهمداني:
[يوصيه بالتمسك بالقرآن وذكر الموت ونصائح أخرى عظيمة]

«وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَاسْتَنْصِحْهُ وَأَحِلَّ حَلَالَهُ وَحَرِّمْ حَرَامَهُ وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ وَاعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضاً وَآخِرَهَا لَاحِقٌ بِأَوَّلِهَا وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ وَعَظِّمِ اسْمَ اللَّهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ وَأَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ وَيُكْرَهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ وَيُسْتَحَى مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ أَوْ اعْتَذَرَ مِنْهُ وَلَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضاً لِنِبَالِ الْقَوْلِ وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِباً وَلَا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا وَاكْظِمِ الْغَيْظَ وَتَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ وَاحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللَّهُ عَلَيْكَ وَلَا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عِنْدَكَ وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ فَإِنَّكَ مَا تُقَدِّمْ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ وَمَا تُؤَخِّرْهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ وَاحْذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ[1] رَأْيُهُ وَيُنْكَرُ عَمَلُهُ فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ». (شرح النهج لابن أبي الحديد مج ٤، ص ٢٢٦، ط ١).

* * *

---

(١) يفيل: يضعف. وفي لفظ بحار الأنوار (٧١: ١٩٩) يقبل رأيه.

الحارث بن عبد الله الهمداني رضوان الله عليه صاحب أمير المؤمنين صلوات الله عليه، كان أحد الفقهاء، له قول في الفتيا، وإليه يُنسب الخطاب الذي خاطبه به أمير المؤمنين صلوات الله عليه في قوله:

يا حار همدان من يَمُت يرني ... من مؤمنٍ أو منافق قبلا

وهي أبيات مشهورة.

[دخول الحارث الهمداني على أمير المؤمنين عليه السلام]:

حدّث الأصبغ بن نباتة، قال: دخل الحارث الهمداني على أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه في نفر من الشيعة وكنت فيهم، فجعل الحارث يتأوّد في مشيته ويخبط الأرض بمحجنه، وكان مريضاً، فأقبل عليه أمير المؤمنين صلوات الله عليه وكانت له منه منزلة، فقال: كيف تجدك يا حارث؟ فقال: نال الدهر يا أمير المؤمنين منّي، وزادني أواراً وغليلاً اختصامُ أصحابك ببابك، قال: وفيمَ خصومتهم؟ قال: فيك وفي الثلاثة من قبلك، فمن مُفرط منهم غالٍ، ومقتصد قالٍ، ومن متردّد مرتاب لا يدري أيُقدم أم يحجم، فقال: حسبك يا أخا همدان، ألا إنّ خير شيعتي النمط الأوسط، إليهم يرجع الغالي، وبهم يلحق التالي.

إلى أن قال: وأبشّرك يا حارث، لتعرفنّي عند الممات وعند الصراط وعند الحوض وعند المقاسمة، قال الحارث: وما المقاسمة؟ قال: مقاسمة النار، أُقاسمها قسمة صحيحة، أقول: هذا وليّي فاتركيه، وهذا عدوّي فخذيه، ثمّ أخذ صلوات الله عليه بيد الحارث فقال: يا حارث أخذت بيدك كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيدي فقال لي: ـ وقد شكوت إليه حسد قريش والمنافقين لي ـ إنّه إذا كان يوم القيامة أخذتُ بحبل الله وبحُجزته ـ يعني التمسّك بعصمته تعالى ـ وأخذت أنت يا علي بحجزتي، وأخذت ذريّتك بحجزتك، وأخذت شيعتكم بحجزتكم، فماذا يصنع الله بنبيّه، وما يصنع نبيّه بوصيه؟ خُذها إليك يا

حارث قصيرةً من طويلة:[١] أنت مع من أحببت، ولك ما اكتسبت _ يقولها ثلاثاً _ فقام الحارث يجرّ رداءه ويقول: ما أبالي بعدها متى لقيتُ الموت أو لقيني».

وأنشد الحميري ما تضمّنه هذا الخبر:

قولُ عليٍّ لحارثٍ عجب ... كم ثمّ أعجوبة له حملا
يا حار همدان من يَمُت يرني ... من مؤمنٍ أو منافق قبلا
يعرفني طرفُه وأعرفه ... بنعته واسمه وما عملا
وأنت عند الصراط تعرفني ... فلا تَخَف عثرةً ولا زللا
أسقيك من بارد على ظمأٍ ... تخاله في الحلاوة العسلا
أقول للنار حين تُوقف للعرض ... دعيه لا تقربي الرَّجُلا
دعيه لا تقربيه إنّ له ... حبلاً بحبل الوصيّ متّصلا[٢]

نعود إلى أصل الكتاب فنقول:

ظاهر حال المكتوب والكتاب أن يكون من غائب إلى غائب لبيان المآرب، وقد يصدر الكتاب من الأعاظم والأنبياء والأولياء إلى أخصّائهم ليكون مثالاً للارشاد، ومنشوراً للتعليم، واستفادة للعموم وهدايتهم إلى طريق الرشاد، فالمخاطب به خاصّ، والمقصود منه عام.

ومن هذا القبيل رسائل أصحاب عيسى إلى خواصّهم وحواريهم، المعدودة من المآخذ والمصادر الدينيّة عند المسيحيين، والمضمونة في العهد الجديد من الكتاب المقدّس عند أتباع الأناجيل.

وهذا الكتاب الذي صدر منه صلوات الله عليه إلى الحارث الهمداني

---

(١) القصيرة هي التمرة، والطويلة هي النخلة، وهذا مثل عربيّ.

(٢) أمالي الطوسي: ٦٢٥ - ٦٢٧/ ح١٢٩٢؛ بحار الأنوار ٦: ١٧٨ - ١٨٠/ ح٦.

من هذا القبيل، فإنّه مثال للهداية والإرشاد لكافّة العباد، وفيه دلالة على علوّ مقام الحارث وحظوته بموقف عالٍ عند أمير المؤمنين صلوات الله عليه، حيث خصّه بهذا المنشور الإرشادي الغزير المادّة والعميق المغزى بالنظر إلى التعاليم العالية الأخلاقية، كمثل أعلى في طريق التزكية النفسانية، وافٍ في المرام لجميع الأنام.

وقد انتخب السيد الرضي منه قطعة صالحة لما يرمي إليه في نهجه من المقاصد الأدبية.

قال ابن ميثم: هذا الفصل من كتاب طويل إليه، وقد أمره فيه بأوامره، وزجره بزواجره، مدارها على تعليم مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب.

وقد جمع صلوات الله عليه في هذا الكتاب كلّ ما يلزم للمسلم الإلهي في الرابطة بينه وبين الله تعالى من التمسّك بالقرآن وملازمة أحكامه من الحلال والحرام، وفي المواجهة مع الدنيا والاعتبار عن فنائها، وعدم الركون إليها، والاتّعاظ بما سلف منها، وفي التوجّه إلى الموت والتهيّؤ لما بعده، بادّخار الأعمال الصالحة، والاجتناب عن الأعمال المهلكة.

ثمّ نظم صلوات الله عليه وصايا اجتماعيّة في الروابط بين المسلم وسائر إخوانه وأبناء نوعه، وحذّر عن الاستئثار بما يكره سائر الناس ويضرّهم، وعن النفاق، وأمر بصيانة العرض وحفظ اللسان عن الكذب بأعمّ معانيه، إلى أن بلغ في الوصاية بالتضحية في سبيل الله، والاجتناب عن معاشرة الفسّاق وضعفاء الرأي، إلى آخر ما أفاده صلوات الله عليه في هذا الكتاب.

ولعمري فقد كان الإمام علي صلوات الله عليه دائب النصح والارشاد والدعوة إلى الخير، ليكون أصحابه وأتباعه على مستوى رفيع في الأخلاق الانسانية والآداب العالية، وما يتحلّى به المرء من النبل والمكارم.

[حديث علي عليه السلام مع نوف البكالي]:

فمن ذلك قوله صلوات الله عليه لنوف البكالي:

قال نوف: أتيت أمير المؤمنين صلوات الله عليه وهو في رحبة مسجد الكوفة، فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك السلام يا نوف ورحمة الله وبركاته، فقلت له: يا أمير المؤمنين عِظني.

فقال: يا نوف أحسِنْ يُحسَن إليك.

فقلت: زِدني يا أمير المؤمنين.

فقال: يا نوف ارْحَم تُرحَم.

فقلت: زدني يا أمير المؤمنين.

قال: يا نوف قُل خيراً تُذكر بخير.

فقلت: زدني يا أمير المؤمنين.

قال: اجتنب الغيبة فإنّها أدام كلاب النار.

ثمّ قال: يا نوف كذب مَن زعم أنّه وُلد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة، وكذب من زعم أنّه وُلد من حلال وهو يُبغضني ويبغض الأئمّة من ولدي، وكذب من زعم أنّه وُلد من حلال وهو يحبّ الزنا، وكذب مَن زعم أنّه يعرف الله وهو مُجترء على معاصي الله كلّ يوم وليلة.

يا نوف إقبل وصيتي، لا تكوننّ نقيباً ولا عريفاً ولا عشّاراً ولا بريداً. يا نوف، صِل رحمك يزيد الله في عمرك، وحسّن خلقك يُخفّف الله حسابك، يا نوف إن سرّك أن تكون معي يوم القيامة فلا تكن للظالمين معيناً. يا نوف من أحبّنا كان معنا يوم القيامة، ولو أنّ رجلاً أحبّ حجراً لحشره الله معه. يا نوف إيّاك أن تتزيّن للناس وتبارز الله بالمعاصي فيفضحك الله يوم تلقاه. يا نوف احفظ عني ما أقول لك تنل به خير الدنيا والآخرة».[1]

---

(١) أمالي الصدوق ٢٧٧ - ٢٨٧/ ج٣٠٨؛ بحار الانوار ٧٤: ٣٨٢ - ٣٨٣/ ج٩.

[موعظة الإمام الجواد عليه السلام لعبد العظيم الحسني]:

وجاء عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني، قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام: يا بن رسول الله حدّثني بحديث عن أبائك عليهم السلام، فقال: حدّثني أبي عن جدّي، عن أبائه، قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا، فإذا استووا هلكوا، قال: قلت: زدني يا بن رسول الله، فقال: حدّثني أبي عن جدي عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «لو تكاشفتم ما تدافنتم». قال: قلت: زدني يا ابن رسول الله، فقال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بطلاقة الوجه وحسن اللقاء، فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم. فسعوهم بأخلاقكم». قال: قلت له: زدني يا بن رسول الله، فقال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أميرالمؤمنين صلوات الله عليه: «من عتب على الزمان طالت معتبته». قال: فقلت له: زدني يا بن رسول الله، فقال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظنّ بالأخيار». قال: فقلت له: زدني يابن رسول الله، قال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد». قال: فقلت له: زدني يابن رسول الله، فقال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أميرالمؤمنين صلوات الله عليه: «قيمة كلّ امرئٍ ما يُحسنه». قال: فقلت له: زدني يا ابن رسول الله، فقال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «المرء مخبوء تحت لسانه». قال: فقلت له: زدني يابن رسول الله، قال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير

المؤمنين صلوات الله عليه: «ما هلك امرؤٌ عرف قدره». قال: فقلت له: زدني يا ابن رسول الله، فقال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم». قال: فقلت له: زدني يا بن رسول الله، فقال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «من وثق بالزمان صرع». قال: فقلت له: زدني يا بن رسول الله، فقال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «خاطر بنفسه مَن استغنى برأيه». قال: فقلت له: زدني يا بن رسول الله، قال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «قلّة العيال أحد اليسارَين». قال: فقلت له: زدني يا ابن رسول الله، فقال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «من دخله العجب هلك». قال: فقلت له: زدني يا ابن رسول الله، فقال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «من أيقن بالخلف جاد بالعطيّة». قال: فقلت له: زدني يا بن رسول الله، فقال: حدّثني أبي عن جدّي، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «من رضي بالعافية ممّن دونه رُزق السلامة ممن فوقه». قال: فقلت له: «حسبي».[1]

[موعظة الإمام علي عليه السلام للحسن البصري]:

وفي أمالي الشيخ المفيد: عن الحسن بن أبي الحسن البصري قال: لمّا قدم علينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه البصرة مرّ بي وأنا أتوضّأ، فقال: «يا غلام أحسن وضوءك يحسن الله إليك، ثمّ جازني، فأقبلت

---

(١) أمالي الصدوق ٥٣١ - ٥٣٢/ ج٧١٨.

أقفو أثره، فحانت منه التفاتة فنظر إليّ فقال: يا غلام ألك حاجة؟ قلت: نعم، علّمني كلاماً ينفعني الله به، فقال صلوات الله عليه: «يا غلام من صدق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد في الدنيا قرّت عينه بما يرى من ثواب الله عزّ وجلّ، ألا أزيدك يا غلام؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين، قال: من كنّ فيه ثلاث خصال سلمت له الدنيا والآخرة: من أمر بالمعروف وائتمر به، ونهى عن المنكر وانتهى عنه، وحافظ على حدود الله، يا غلام أيسرّك أن تلقى الله يوم القيامة وهو عنك راضٍ؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: كن في الدنيا زاهداً، وفي الآخرة راغباً، وعليك بالصدق في جميع أمورك، فإنّ الله يعبّدك وجميع خلقه بالصدق». ثمّ مشى حتى دخل سوق البصرة فنظر إلى الناس يبيعون ويشترون، فبكى صلوات الله عليه بكاءً شديداً ثم قال: يا عبيد الدنيا وعمّال أهلها، إذا كنتم بالنهار تحلفون، وبالليل في فرشكم تنامون، وفي خلال ذلك عن الآخرة تغفلون، فمتى تحرزون الزاد، وتفكّرون في المعاد؟ فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إنّه لا بدّ لنا من المعاش فكيف نصنع؟ فقال أمير المؤمنين: إنّ طلب المعاش من حلّه لا يشغل عن عمل الآخرة، فإن قلت لا بدّ لنا من الاحتكار لم تكن معذوراً، فولّى الرجل باكياً. فقال له أمير المؤمنين: أقبِل عليّ أزيدك بياناً، فعاد الرجل إليه، فقال له: إعلم يا عبد الله أنّ كلّ عامل في الدنيا للآخرة لا بدّ أن يُوفّى أجر عمله في الآخرة، وكلّ عامل دنيا للدنيا عمالته في الآخرة نار جهنم، ثمّ تلا صلوات الله عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.[1] [2]

---

(١) النازعات: ٣٧ - ٣٩.

(٢) أمالي المفيد: ١١٨ - ١٢٠/ ج٣.

وقال صلوات الله عليه: «ثلاث بهنّ يكمل المسلم: التفقّه في الدين، والتقدير في المعيشة، والصبر على النوائب».[١]

[مواعظ وحكم لعلي عليه السلام]:

وقال صلوات الله عليه: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي ثلاث من لقي الله بهنّ فهو من أفضل الناس: من أتى الله بما افترض عليه فهو من أعبد الناس، ومن ورع عن محارم الله فهو من أورع الناس، ومن قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الناس».[٢]

وقال صلوات الله عليه: «ثلاث خصال لا يموت صاحبهنّ أبداً حتى يرى وبالهنّ: البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها، وإنّ أعجل الطاعة ثواباً لصلة الرحم، وإنّ القوم ليكونوا فجّاراً فيتواصلون فتنمى أموالهم ويثرون، ويبرّون فتزداد أعمارهم، وإنّ اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم ليذران الديار بلاقع من أهلها».[٣]

وقال صلوات الله عليه: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاث لا تُطيقها هذه الأمّة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذِكر الله على كلّ حال، وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله عزّ وجلّ عنده وتركه».[٤]

وقال صلوات الله عليه: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاثة يتخوّف منهنّ الجنون: التغوّط بين القبور، والمشي في خُفّ واحد، والرجل ينام وحده».[٥]

---

(١) الخصال للصدوق: ١٢٤/ ج ١٢٠؛ مشكاة الأنوار للطبرسي: ١٩٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٥٨ (في حديث طويل).

(٣) الخصال: ١٢٤/ ح ١٢٠.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٥٨.

(٥) من لا يحضره الفقيه: ٣٥٩؛ الخصال: ١٢٥/ ح١٢٢.

وقال صلوات الله عليه: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاثة مجالستهم تُميت القلب: مجالسة الأنذال، ومجالسة الأغنياء، والحديث مع النساء».[١]

وقال صلوات الله عليه: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي ثلاثة من الوسواس: أكل الطين، وتقليم الأظفار بالأسنان، وأكل اللحية».[٢]

وقال صلوات الله عليه: «الرجال ثلاثة: عاقل، وأحمق، وفاجر؛ فالعاقل الدين شريعته، والحلم طبيعته، والرأي سجيّته، إن سُئل أجاب، وإن تكلّم أصاب، وإن سمع وعى، وإن حدّث صدق، وإن اطمأنّ إليه أحد وفى؛ والأحمق إن استنبه بجميل غفل، وإن استُنزل عن حسن نزل، وإن حُمل على جهل جهل، وإن حدّث كذب، وإن فُقّه لا يفقه؛ والفاجر إن ائتمنته خانك، وإن صاحبته شانك، وإن وثقتَ به لم ينصحك».[٣]

وقال صلوات الله عليه: «إنّ للمرء المسلم ثلاثة أخلاّء: فخليل يقول له (أنا معك حياً وميتاً) وهو عمله، وخليل يقول له (أنا معك إلى باب قبرك ثمّ أخلّيك) وهو ولده، وخليل يقول له (أنا معك إلى أن تموت) وهو ماله، فإذا مات صار للوارث».[٤]

وقال صلوات الله عليه: «الفتن ثلاث: حبّ النساء وهو سيف الشيطان، وشرب الخمر وهو فخّ الشيطان، وحبّ الدنيا والدرهم وهما سهم الشيطان، فمن أحبّ النساء لم ينتفع بعيشه، ومن أحبّ الأشربة حرمت عليه الجنة، ومن أحب الدنيا والدرهم فهو عبد الدينار».[٥]

---

(١) الكافي ٢: ٦٤١/ ح٨؛ من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٢؛ الخصال: ١٢٦/ ح١٢٢.

(٣) الخصال: ١١٦/ ح٩٦؛ بحار الأنوار ٦٧: ٩/ ح٥.

(٤) الخصال: ١١٤/ ح٩٢؛ أمالي الصدوق: ١٧٠/ ح١٦٧.

(٥) وسائل الشيعة ٢٠: ٢٦/ ح٢٤٩٣٨؛ الفصول المهمّة للحرّ العاملي: ٣٩١/ ح ٣١٥٠.

وقال صلوات الله عليه: «جُمع الخير كله في ثلاث خصال: النظر، والسكون، والكلام، فكلّ نظر ليس فيه اعتبار فهو سهو، وكلّ سكوت ليس فيه فكرة فهو غفلة، وكلّ كلام ليس فيه ذِكر فهو لغو، فطوبى لمن كان نظره عبراً، وسكوته فكراً، وكلامه ذِكراً، وبكى على خطيئته وأمن الناس من شرّه».(١)

وقال صلوات الله عليه: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي ثلاث درجات، وثلاث كفّارات، وثلاث مهلكات، وثلاث مُنجيات، فأمّا الدرجات: فإسباغ الوضوء في السبرات،(٢) وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والمشي بالليل والنهار إلى الجماعات؛ وأمّا الكفّارات: فإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والتهجّد بالليل والناس نيام؛ وأمّا المهلكات: فشُحّ مطاع، وهوى متبّع، وإعجاب المرء بنفسه؛ وأمّا المنجيات: فخوف الله في السرّ والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، وكلمة العدل في الرضا والسخط».(٣)

وقال صلوات الله عليه لولده محمد بن الحنفية: «إيّاك والعُجب وسوء الخلق وقلّة الصبر، فإنّه لا يستقيم لك على هذه الخصال الثلاث صاحب، ولا يزال لك عليها من الناس مجانب، ألزم نفسك التودّد، واصبر على مؤذيات الناس نفسك، وابذل لصديقك نفسك ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامة بشرك ومحبتك، ولعدوّك عدلك وإنصافك، واضنُن بدينك وعرضك عن كلّ أحد، فإنّه أسلم لدينك ودنياك».(٤)

وقال صلوات الله عليه: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاث من لم تكن فيه فليس منّي

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٤: ٤٠٥/ ح٥٨٧٦؛ الخصال: ٩٨/ ح٤٧.

(٢) السبرة: الغداة الباردة.

(٣) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٦٠ - ٣٦١ (في حديث طويل).

(٤) الخصال: ١٤٧/ ح١٧٨؛ بحار الأنوار ٧١: ١٧٥/ ح٦.

ولا من الله ﷻ، قيل: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: حلم يردّ به جهل الجاهل، وحسن خُلق يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن معاصي الله ﷻ».[١]

[الذنوب ثلاثة]:

وقال صلوات الله عليه: «الذنوب ثلاثة، ثمّ أمسك، فقال له حبّة العرني: يا أمير المؤمنين قلت «الذنوب ثلاثة» ثمّ أمسكتَ؟ فقال صلوات الله عليه: ما ذكرتُها إلاّ وأنا أريد أن أفسّرها، ولكن عرض بهرّ حال بيني وبين الكلام، نعم الذنوب ثلاثة: فذنب مغفور، وذنب غير مغفور، وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه، قال: يا أمير المؤمنين فبيّنها لنا، قال: نعم، أمّا الذنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الدنيا، فالله أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرّتين؛ وأمّا الذنب الذي لا يُغفر فمظالم العباد بعضهم من بعض، إنّ الله تبارك وتعالى إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه فقال: وعزّتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم ولو كفّ بكفّ، ولو مسحة بكفّ، ولو نطحة ما بين القرناء إلى الجمّاء، فيقتصّ للعباد بعضهم من بعض، حتّى لا تبقى لأحد على أحد مظلمة، ثمّ يبعثهم للحساب؛ وأمّا الذنب الثالث: فذنب ستره الله على عبده ورزقه التوبة منه، فأصبح خائفاً من ذنبه راجياً لربّه، فنحن له كما هو لنفسه، نرجو له الرحمة ونخاف عليه العذاب».[٢]

* * *

(١) وسائل الشيعة ٢٠: ٣٥٩/ ح ٢٥٨٢٩؛ بحار الأنوار ٦٨: ٤١٨/ ح ٤٦.

(٢) الكافي ٢: ٤٤٣/ ح١؛ المحاسن للبرقي ١: ٧ / ح١٨؛ بحار الأنوار ٦: ٢٩/ ح٣٥.

من خطبة له عليه السلام:

في صفة الإسلام والإيمان

خطب علي أمير المؤمنين صلوات الله عليه _ وقد سأله ابن الكوّاء (لعنه الله) عن صفة الإسلام والايمان والكفر والنفاق _ فقال صلوات الله عليه:

«أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى شَرَعَ الْإِسْلَامَ وَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ لِمَنْ حَارَبَهُ وَجَعَلَهُ عِزّاً لِمَنْ تَوَلَّاهُ وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ وَهُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ وَزِينَةً لِمَنْ تَجَلَّلَهُ وَعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ وَعُرْوَةً لِمَنِ اعْتَصَمَ بِهِ وَحَبْلًا لِمَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ وَعَوْناً لِمَنِ اسْتَغَاثَ بِهِ وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ وَفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ وَعِلْماً لِمَنْ وَعَاهُ وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى وَحِلْماً لِمَنْ جَرَّبَ وَلَبَاساً لِمَنْ تَدَبَّرَ وَفَهْماً لِمَنْ تَفَطَّنَ وَيَقِيناً لِمَنْ عَقَلَ وَبَصِيرَةً لِمَنْ عَزَمَ وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ وَتُؤَدَةً لِمَنْ أَصْلَحَ وَزُلْفَى لِمَنِ اقْتَرَبَ وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ وَرَخَاءً لِمَنْ فَوَّضَ وَسُبْقَةً لِمَنْ أَحْسَنَ وَخَيْراً لِمَنْ سَارَعَ وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ وَلِبَاساً لِمَنِ اتَّقَى وَظَهِيراً لِمَنْ رَشَدَ وَكَهْفاً لِمَنْ آمَنَ وَأَمَنَةً لِمَنْ أَسْلَمَ وَرَجَاءً لِمَنْ صَدَقَ وَغِنًى لِمَنْ قَنِعَ».

ثم إنّه عليه السلام غيّر أسلوب البيان خشية الملل وكراهية الإطالة في السير على منهج واحد، إيقاظاً لمن أخذته الغفلة في سياحة الفكر، أو تجاذبته الأنظار إلى غير المقصود، فقال معظّماً أمر الإسلام، مشيراً إلى مقامه الأسمى ومكانه الأعلى:

«فَذَلِكَ الْحَقُّ سَبِيلُهُ الْهُدَى وَمَأْثُرَتُهُ الْمَجْدُ وَصِفَتُهُ الْحُسْنَى فَهُوَ أَبْلَجُ الْمِنْهَاجِ مُشْرِقُ الْمَنَارِ ذَاكِي الْمِصْبَاحِ رَفِيعُ الْغَايَةِ يَسِيرُ الْمِضْمَارِ جَامِعُ الْحَلْبَةِ سَرِيعُ السَّبْقَةِ أَلِيمُ النَّقِمَةِ كَامِلُ الْعُدَّةِ كَرِيمُ الْفُرْسَانِ».

ثمّ أخذ عليه السلام يفسّر ما ربّما يكون مُبهماً من كلامه أو مستعجماً من ألفاظه، وليس من كلامه بمبهم، ولا لفظ منها بمستعجم، ولكنّه عليّ وحرصه على تفهيم خلق الله وتعليم عباده، لذلك تسمعه يقوله: «فَالْإِيمَانُ مِنْهَاجُهُ وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ وَالْفِقْهُ مَصَابِيحُهُ وَالدُّنْيَا مِضْمَارُهُ وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ وَالنَّارُ نَقِمَتُهُ وَالتَّقْوَى عُدَّتُهُ وَالْمُحْسِنُونَ فُرْسَانُهُ».

ثمّ كأنّه يريد أن يأخذ بيدك يرشدك إلى الطريق ويدلّك على المحجّة، حتّى لا تلتوي بك السبل ولا تأخذك الملاوي والتعاريج، حيث يقول: «فَبِالْإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ وَبِالصَّالِحَاتِ يُعْمَرُ الْفِقْهُ وَبِالْفِقْهِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا وَبِالدُّنْيَا تَجُوزُ الْقِيَامَةُ وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ وَالْجَنَّةُ حَسْرَةُ أَهْلِ النَّارِ وَالنَّارُ مَوْعِظَةُ الْمُتَّقِينَ وَالتَّقْوَى سُنْخُ الْإِيمَانِ». أصول الكافي مج٢، ص٤٩، الطبعة الحديثة؛ وفي مج٢ من شرح ابن أبي الحديد ص٢١٩.

[الإيمان يدل على الصالحات]:

قوله: «فبالايمان يستدلّ على الصالحات» وذلك أنّ الإيمان هو المنهاج والطريق، وكلّما كان الطريق مستقيماً عدلاً كان دليلاً موصلاً، وأيضاً الإيمان له شبه العلّة بالنسبة إلى الصالحات، كما أشير إلى ذلك بقوله تعالى:

﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.[1]

ويشير إلى ذلك الشاعر بقوله:

وإذا حلّت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاءُ.[2]

---

(١) التوبة : ١٨.

(٢) من قصيدة للبوصيري في مدح النبيّ صلى الله عليه وآله، والبيت الذي قبله:

الِف النُسك والعبادة والـ صلاة طفلاً وهكذا النُجباءُ

ودلالة العلّة على معلولها قويّة، والاستدلال بها شايع، وهي من البراهين القطعيّة، وسمّاه الحكماء بالبرهان اللمّي، والإستدلال بالمعلول على العلّة بالبرهان الإنّي، واللمّي أقوى عندهم من الإنّي، وليس هنا موضع تفصيله، فلنكتفِ بهذا ولنعد إلى ما كنّا بصدده.

[إعمار الفقه بالصلاح]:

قال صلوات الله عليه: «بالصالحات يعمر الفقه».

وذلك أنّ الفقه إنّما يُطلب للعمل الصالح، فإذا طُلب لغير ذلك كان صنعة ولم يكن علماً، فلا جرم كان العمل الصالح باعثاً على الفقه، فحيث يُطلب العمل يُطلب العلم، وحيث يعمر العمل، يعمر العلم، وحيث يترك العمل يترك العلم. زهّد الناس في العلم قلّة العاملين به، أو أنّ المقصود الاشارة إلى أنّ بالعمل على موجب العلم ينمو العلم «من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم»[1] وقيل: إنّ المراد بالصالحات ولاية أهل البيت عليهم السلام، وعمران الفقه بها واضح، وذلك أنّ المقصود بولايتهم اتّخاذهم أولياء لهم الأمر والنهي والطاعة المفترضة، وإلى هذا المعنى يشير الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «ولايتي لعليّ خير من ولادتي منه»[2] وهم عليهم السلام أبواب الفقه وخزّانه، وأنصار الحقّ وأعوانه، وهم تراجمة القرآن وسفرة الرحمن، استودعهم علمه، وائتمنهم على مكنون سرّه، فمن أخذ شيئاً من هذا فعنهم أخذ ومنهم اقتبس، وإلى ذلك يشير ابن أبي الحديد المعتزلي في علي عليه السلام:

ألا إنّما التوحيد لولا علومه لعرضة ضلّيل ونهبة كافرِ.

---

(١) الفصول المختارة للمفيد: ١٠٧؛ بحار الأنوار ٤٠: ١٢٨.

(٢) بحار الأنوار ٣٩: ٢٩٩/ ح١٠٥، وفيه: ولايتي لعلي بن ابي طالب عليه السلام أحبّ إليّ من ولادتي منه، لأنّ ولايتي لعليّ بن أبي طالب فرض، وولادتي منه فضل.

وله ـ ابن أبي الحديد ـ في أوائل شرح النهج كلام في هذا المقام طويل ملخّصه: أنّ فقهاء المذاهب وغيرهم من أئمّة العلم وأعلامه أخذوا عنه علومهم، وحسبنا في ذلك قول الرسول صلى الله عليه وآله المتّفق على روايته عند الشيعة والسنّة «إنّي مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً، ألا وإنّ اللطيف الخبير قد أنبأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض كإصبعيّ هاتين ـ وجمع بين سبّابتيه ـ ولا أقول هاتين ـ وجمع بين سبّابته والوسطى ـ فتفضل هذه على هذه، فلا تتقدّموهم فتمرقوا، ولا تتأخّروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم».[1]

وإلى هذا المعنى يُشير بعض الشعراء بقوله:

إليكم وإلاّ لا تُشدّ الركائبُ ... ومنكم وإلاّ لا تُنال المواهبُ
وفيكم وإلاّ فالحديث زخارف ... وعنكم وإلاّ فالمحدّث كاذب

ولله درّ من قال:

إذا شئت أن ترضى لنفسك مذهباً ... ينجّيك يوم البعث من لهب النار
فدع عنك قول الشافعي ومالك ... وأحمد والمروي عن كعب أحبار
ووالِ أُناساً قولهم وحديثهم ... روى جدُّنا عن جبرئيل عن الباري[2]

وقال الآخر:

مُطهّرونَ نقيّاتٌ ثيابهمُ ... تجري الصلاةُ عليهم أينما ذُكروا
الله لمّا برى خلقاً وأتقنه ... صفاكُمُ واصطفاكمْ أيّها البشرُ
فأنتم الملأ الأعلى وعندكمُ ... عِلمُ الكتاب وما جاءت به السور[3]

---

(١) بحار الأنوار ٣٠: ٦٥، باختلاف يسير.

(٢) بحار الأنوار ١٠٥: ١١٧؛ منهاج الكرامة للعلاّمة الحلّي: ٦٧.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٤ - ٤٧٥؛ بحار الأنوار ٤٩: ١٤٨/ ح ٢٤؛ والشعر لأبي نؤاس.

وليس غرضنا من هذا الدعوةَ أو الدعايةَ على ما يقولون، ولكنّه الحقّ نقوله خدمة للحقّ ولطلاّب الحقّ ـ وما بعد الحقّ إلاّ الضلال المبين ـ ولنعد إلى تمام كلامه صلوات الله عليه في هذا الموضوع.

[بالفقه يرهب الموت]:

قوله عليه السلام: «وبالفقه يرهب الموت».

الموت قنطرة أو سفينة يعبر بها أهل النعيم إلى نعيمهم، وأهل الجحيم إلى جحيمهم، فهو لأولئك راحة لا تزول، ولهؤلاء حسرة لا تنقضي، وباب العلم به على عباده مسدود، لا يعلم المرء متى يأتيه الموت ويدنو منه، ولا يعلم ما يلاقيه وينتهي إليه، وكم اطّردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا الأمر فأبى الله إلاّ إخفاءه، فكيف لا نرهبه، نعم إنّما يغفل عنه ولا يرهب منه الجاهلون، وإنّما يخشاه ويخافه العالمون ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] أجل في الموت راحة المؤمن وهناؤه حيث يُخلّصه من كدورات الدنيا وآلامها.

[أشعار في الموت]:

قال الشاعر:

جزى الله عنّا الموت خيراً فإنّه ... أبرّ بنا من كل برّ وأرأفُ
يعجّل تخليص النفوس من الأذى ... ويُدني من الدار التي هي أشرف[2]

وقال آخر:

من كان يرجو أن يعيش فإنّني ... أصبحت أرجو أن أموت لأُعتقا
في الموت ألف فضيلة لو أنها ... عُرفت لكان سبيله أن يُعشقا[3]

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) شرح نهج البلاغة ٨: ٢٩٢.

(٣) شرح نهج البلاغة ٨: ٢٩٢.

وقال الشيخ البهائي:

إنّ هذا الموت يكرهه ... كلٌّ من يمشي على الغبرا
وبعين العقل لو نظروا ... لرأوه الراحة الكبرى

وقال أبو العتاهية:

المرء يأمل أن يعيش ... وطولُ عمرٍ قد يضرّه
تفنى بشاشتُه ويبقى ... بعد حُلو العيش مُرّه
وتخونه الأيّام حتّى ... لا يرى شيئاً يسّره
كم شامتٍ بي إن هلكتُ ... وقائلٍ لله درّه[1]

* * *

وقال ابن المعتز:

ألست ترى يا صاح ما أعجب الدهرا ... فذمّاً له لكنّ للخالق الشكرا
لقد حبّب الموتَ البقاءُ الذي أرى ... فيا حسداً مني لمن يسكن القبرا[2]

وقال آخر:

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأسرفوا ... في الموت ألف فضيلة لا تُعرفُ
منها أمان لقائه بلقائه ... وفراق كلّ معاشر لا يُنصف[3]

وقال ابراهيم بن المهدي:

وإنّي وإن قدّمت قبلي لَعالِمٌ ... بأنّي وإن أبطأتُ عنك قريبُ
وإنّ صباحاً نلتقي في مسائه ... صباح إلى قلبي الغداة حبيب[4]

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٨: ٢٩٣.
(٢) نفس المصدر.
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨: ٢٩١.
(٤) نفس المصدر.

وهناك ناحية أخرى تدعو إلى رهبة الموت والخوف منه، نبّه إليها صلوات الله عليه بقوله: «وبالموت تُختم الدنيا».

وذلك أنّ الدنيا مضمار العمل وميدانه، ومزرعة الآخرة ومغرسها، وإنّما يحصد المرء بآخرته ما زرعه بها، ويجني من ثمر ما غرسه فيها، والموت يقطعه عن ذلك، ويحول بين المرء وقلبه، وبين المذنب وتوبته، والمجرم وأوبته، ومن هنا يقول صلوات الله عليه بعده:

«وبالدنيا تجوز القيامة».

أي ثواب يوم القيامة، ويتلخّص من كلامه عليه السلام أنّ بالفقه يرهب الموت، وكيف لا يرهب الموت وبه تختم الدنيا، وبالدنيا تحاز الجنّة، فالموت إذن قد يحول بين المرء وبين أن يحوز الجنّة، ولا سيّما إذا جاء بغتة وعلى غير استعداد، نعوذ بالله من سوء الخاتمة ونستغفره ونتوب إليه من كلّ ما لا يرضيه، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلّي العظيم.

قوله صلوات الله عليه:

«وبالقيامة تُزلف الجنة».

أي تقرب، قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.[1]

قوله عليه السلام: «والجنّة حسرة أهل النار» روي أنّه يُكشف لهم عن مقاعدهم فيها لو كانوا مؤمنين في الدنيا فيتحسّرون ويزدادون ألماً فوق آلامهم، نادمين على ما قدّموا من قبيح أعمالهم، ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[2] وذلك أنه ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾.[3]

---

(١) الشعراء: ٩٠.

(٢) الاعراف: ٥٣.

(٣) الزمر: ٤٧.

قوله عليه السلام: «والنار موعظة المتّقين» أي يذكرونها فيتّعظون بها، «فهم والنار كمن قد رآها» لشدّة يقينهم بها «فهم فيها مُعذَّبون».

قوله عليه السلام: «والتقوى سنخ الإيمان» أي أصله وأساسه.

ولنعد إلى كلامه الأوّل عليه السلام في وصف الإسلام ونعته.

قال كميل بن زياد رضوان الله عليه: سألت مولاي أمير المؤمنين عليه السلام عن قواعد الإسلام ما هي؟ فقال: «قواعد الإسلام سبعة: فأوّلها العقل وعليه بُني الصبر، والثانية صون العرض وصدق اللهجة، والثالثة: تلاوة القرآن على جهته، والرابعة الحبّ في الله والبُغض في الله، والخامسة حقّ آل محمد صلى الله عليه وآله ومعرفة ولايتهم، والسادسة حقّ الاخوان والمحاماة عنهم، والسابعة مجاورة الناس بالحُسنى.

قلت: يا أمير المؤمنين، العبد يصيب الذنب فيستغفر الله منه، فما حدّ الاستغفار؟ قال: يا بن زياد التوبة، قلت: بس، قال: لا. قلت: فكيف؟ قال: إنّ العبد إذا أصاب ذنباً يقول «أستغفر الله» بالتحريك، قلت: وما التحريك؟

قال: الشفتان واللسان، يريد أن يتبع ذلك بالحقيقة، قلت: وما الحقيقة؟ قال: تصديق في القلب، وإضمار أن لا يعود إلى الذنب الذي استغفر منه، قال كميل: فإذا فعلتُ ذلك فأنا من المستغفرين؟ قال: لا. قال كميل: فكيف ذاك؟ قال: لأنّك لم تبلغ إلى الأصل بعد، قال كميل: فأصل الاستغفار ما هو؟ قال: الرجوع إلى التوبة من الذنب الذي استغفر منه، وهو أوّل درجة العابدين. وترك الذنب والاستغفار اسمٌ واقع لمعانٍ: أوّلها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك العود أبداً، والثالث: أن تؤدّي حقوق المخلوقين التي بينك وبينهم، الرابع: أن تؤدّي حقّ الله في كلّ فرض، والخامس: أن تُذيب اللحم الذي نبت على السُّحت والحرام، حتّى يرجع الجلد إلى عظمه وتنشيء بينهما لحماً جديداً، والسادس: أن تُذيق البدن ألم الطاعة كما أذقته لذّات المعاصي».[1]

---

(١) تحف العقول ١٩٦ - ١٩٧؛ بحار الأنوار ٦٥: ٣٨١.

وقال صلوات الله عليه: «لأنسبنّ الإسلام نسبة لا ينسبه أحد قبلي ولا ينسبه أحد بعدي إلاّ بمثل ذلك: إنّ الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو العمل، والعمل هو الأداء، إنّ المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه ولكن أتاه من ربّه فأخذه، إنّ المؤمن يرى يقينه في عمله، والكافر يرى إنكاره في عمله.

فو الذي نفسي بيده ما عرفوا أمرهم، فاعتبروا إنكار الكافرين والمنافقين بأعمالهم الخبيثة».[١]

وقال صلوات الله عليه: «أثافيّ الإسلام ثلاث لا تنفع واحدة منهنّ دون صاحبتها: الصلاة، والزكاة، والولاية».[٢]

وقال صلوات الله عليه: «وأمّا ما فرضه الله عزّ وجلّ من الفرائض في كتابه، فدعائم الإسلام، وهي خمس دعائم، وعلى هذه الفرائض بُني الإسلام، فجعل سبحانه لكلّ فريضة من هذه الفرائض أربعة حدود لا يسع أحدٌ جهلها: أوّلها الصلاة، ثمّ الزكاة، ثمّ الصيام، ثمّ الحجّ، ثمّ الولاية وهي خاتمتها والحافظة لجميع الفرائض والسنن».[٣]

وقال صلوات الله عليه: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله خلق الاسلام فجعل له عرصة، وجعل له نوراً، وجعل له حصناً، وجعل له ناصراً، فأمّا عرصته فالقرآن، وأمّا نوره فالحكمة، وأمّا حصنه فالمعروف، وأمّا أنصاره فأنا وأهل بيتي وشيعتهم وأنصارهم، فإنّه لمّا أُسري بي إلى سماء الدنيا فنسبني جبرئيل عليه السلام لأهل السماء استودع الله حبّي وحبّ أهل بيتي وشيعتهم في قلوب الملائكة، فهو عندهم وديعة إلى يوم القيامة، ثمّ هبط بي إلى الأرض فنسبني

---

(١) المحاسن للبرقي ١: ٢٢٢/ ح١٣٥؛ الكافي ٢: ٤٥ - ٤٦/ ح١.

(٢) المحاسن ١: ٢٨٦/ ح٤٢٨؛ بحار الانوار ٦٥: ٣٨٦/ ح٣٤.

(٣) وسائل الشيعة ١: ٢٨/ ح٣٥؛ بحار الانوار ٦٥: ٣٩١/ ح٤٠.

إلى أهل الأرض، فاستودع الله عزّ وجلّ حبّي وحبّ أهل بيتي وشيعتهم في قلوب مؤمني أمّتي، فمؤمنو أمّتي يحفظون وديعتي في أهل بيتي إلى يوم القيامة، ألا فلو أنّ الرجل من أمّتي عبد الله عزّ وجلّ عمره أيّام الدنيا ثمّ لقي الله عزّ وجلّ مُبغضاً لأهل بيتي وشيعتي ما فرّج الله صدره إلاّ عن النفاق».[1]

وقال صلى الله عليه وآله: «يا علي طوبى لمن أحبّك وصدّق بك، وويل لمن أبغضك وكذّب بك، محبّوك معروفون في السماء السابعة العليا والأرض السابعة السفلى وما بين ذلك، هم أهل الدين والورع والسمت الحسن والتواضع لله عزّ وجلّ، خاشعة أبصارهم، وجلت قلوبهم لذكر الله عزّ وجلّ، وقد عرفوا حقّ ولايتك، وألسنتهم ناطقة بفضلك، وأعينهم ساكبة تحنّناً عليك وعلى الأئمة من ولدك، يدينون لله بما أمرهم به في كتابه وجاءهم به البرهان من سنّة نبيّه، عالمون بما يأمرهم به أُولو الأمر منهم، متواصلون غير متقاطعين، متحابّون غير متباغضين، إنّ الملائكة لتصلّي عليهم وتؤمّن على دعائهم وتستغفر للمذنب منهم وتشهد لحضرته وتستوحش لفقده إلى يوم القيامة».[2]

* * *

١) الكافي ٢: ٤٦/ ح ٣؛ بحار الانوار ٦٥: ٣٤١/ ح ١٣.

٢) عيون أخبار الرضا ٢: ٢٣٦/ ح ٢١.

ومن خطبة له عليه السلام قال:

[في ذمّ قريش وبيان عظمة أهل البيت عليهم السلام]

بعد حمد الله تعالى والثناء عليه

«إنّ قريشاً طلبت السعادة فشقيت، وطلبت النجاة فهلكت، وطلبت الهدى فضلّت، ألم يسمعوا _ ويحهم _ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؟ فأين المعدل والمفرّ عن ذرّية الرسول الذين شيّد الله بنيانهم فوق بنيانهم، وأعلى رؤسهم فوق رؤسهم، واختارهم عليهم، ألا إنّ الذرّية أفنان أنا شجرتها، ودوحة أنا ساقها، وإنّي من أحمد صلى الله عليه وآله بمنزلة الضوء من الضوء، والذراع من العضد، كنّا ظلالاً تحت العرش قبل خلق البشر وقبل خلق الطينة التي خُلق منها البشر أشباحاً عالية لا أجسام نامية، إنّ أمرنا صعب مستصعب لا يعرف كُنهه إلاّ ثلاثة: مَلَك مقرّب أو نبيّ مُرسَل أو عبد امتحن الله قلبه للايمان، فإذا انكشف لكم سرّ أو وضح لكم أمر فاقبلوه، وإلاّ فاسكتوا تسلموا، وردّوا علمنا إلى الله تعالى».

* * *

قوله صلوات الله عليه: «وإنّي من أحمد بمنزلة الضوء من الضوء».

قال ابن أبي الحديد المعتزلي (مج ٤ ص ١٠٧ من الطبعة الاولى بمصر) عند شرح هذه الكلمة: «ذلك لأنّ الضوء الأوّل يكون علّة في الضوء الثاني، ألا ترى أنّ الهواء المقابل للشمس يصير مضيئاً من الشمس، فهذا الضوء هو الضوء الأوّل، ثمّ إنّه يقابل وجه الأرض فيضيء وجه الأرض منه، فالضوء الذي على وجه الارض هو الضوء الثاني، وما دام الضوء الأوّل ضعيفاً فالضوء الثاني ضعيف، فإذا ازداد الجوّ إضاءة ازداد وجه الأرض إضاءة، لأنّ المعلول يتبع

العلّة، فشبّه عليه السلام نفسه بالضوء الثاني، وشبّه رسول الله صلى الله عليه وآله بالضوء الأوّل، وشبّه منبع الأضواء والأنوار سبحانه وجلّت أسماؤه بالشمس التي توجب الضوء الأول، ثمّ الضوء الأوّل يوجب الضوء الثاني، وههنا نكتة وهي أنّ الضوء الثاني يكون أيضاً علّة لضوء ثالث، وذلك أنّ الضوء الحاصل على وجه الأرض ـ وهو الضوء الثاني ـ إذا أشرق على جدار مقابل ذلك الجدار قريباً منه مكان مظلم، فإنّ ذلك المكان يصير مضيئاً بعد أن كان مظلماً، وإن كان لذلك المكان المظلم باب وكان داخل البيت مقابل ذلك الباب جدار، كان ذلك الجدار أشدّ إضاءة من باقي البيت، ثمّ ذلك الجدار إن كان فيه ثقب إلى موضع آخر كان ما يحاذي ذلك البيت أشدّ إضاءة ممّا حواليه، وهكذا لا يزال الضوء يوجب بعضه بعضاً على وجه الإنعكاس بطريق العلّيّة وبشرط المقابلة، ولا تزال تضعف درجة درجة إلى أن تضمحلّ ويعود الأمر الى الظلمة، وهكذا عالم العلوم والحكم المأخوذة من أمير المؤمنين عليه السلام لا تزال تضعف كلّما انتقلت من قوم إلى قوم إلى أن يعود الاسلام غريباً كما بدا بموجب الخبر النبوي الوارد في الصحاح «بدء الإسلام غريباً وسيعود غريباً».[1]

وأمّا قوله: وكالذراع من العضد، فلأنّ الذراع فرع على العضد، والعضد أصل، ألا ترى أنّه لا يمكن أن يكون ذراع إلاّ إذا كان عضد، ويمكن أن يكون عضد لا ذراع له، ولهذا قال الراجز لولده:

يا بكر بكرين ويا خلب الكبد أصبحت مني كذراع من عضد

فشبّه عليه السلام نفسه بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالذراع الذي العضد أصله وأسّه، والمراد من هذا التشبيه الإبانة عن شدّة الامتزاج والاتّحاد والقرب بينهما، فإنّ الضوء الثاني شبيه بالضوء الأول، والذراع متّصل بالعضد اتّصالاً بيّناً، وهذه المنزلة فقد أعطاه إياها رسول الله صلى الله عليه وآله في مقامات كثيرة، نحو قوله في قصّة

(١) عوالي اللئالي ١: ٣٣ / ح١٢؛ مسند أحمد ٤: ٧٣.

براءة «قد أُمرت أن لا يؤدّي عني إلاّ أنا أو رجل مني»، وقوله: «لتنتهنّ يا بني وليعة أو لأبعثن إليكم رجلاً مني، أو قال عديل نفسي»، وقد سمّاه الكتاب العزيز نفسه فقال: ﴿وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾[1] وقد قال له «لحمك مختلط بلحمي، ودمك منوط بدمي، وشبرك وشبري واحد».[2]

[أهل البيت عليهم السلام أظلة العرش]:

قوله عليه السلام: «كنّا ظِلالاً تحت العرش قبل خلق البشر وقبل خلق الطينة التي خلق منها البشر».

جاء في تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي من علماء القرن الثالث الهجري (مج١ ص ١٨ ط النجف) عن الإمام الرضا، عن آبائه، عن علي عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما خلق الله خلقاً أفضل منّي ولا أكرم عليه مني. فقلت: يا رسول الله فأنت أفضل أو جبرئيل؟ فقال صلى الله عليه وآله: يا علي إنّ الله فضّل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقرّبين، وفضّلني على جميع النبيّين والمرسلين، والفضل بعدي لك يا علي وللأئمّة من بعدك، وإنّ الملائكة لخدّامنا وخدّام محبّينا، يا علي الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرون للذين آمنوا بولايتنا، يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حوّاء ولا الجنّة ولا النار ولا السماء ولا الأرض، فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى معرفة ربنا وتسبيحه وتقديسه، لأنّ أوّل ما خلق الله خلق أرواحنا، فأنطقنا بتوحيده وبتمجيده، ثمّ خلق الملائكة، فلمّا شاهدوا أرواحنا نوراً واحداً استعظموا أمرنا، فسبّحنا لتعلم الملائكة، فسبّحت الملائكة بتسبيحنا».[3]

---

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) شرح نهج البلاغة ٤: ١٠٧، ط الاولى، مصر.

(٣) تفسير القمّي ١: ١٨، ط النجف.

وفي كتاب الاختصاص تأليف الشيخ المفيد رضوان الله عليه عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «والله ما برء الله من بريّة أفضل من محمد ومنّي ومن أهل بيتي، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطلبة العلم من شيعتنا».[1]

وفي كتاب (بصائر الدرجات) في باب (أمير المؤمنين وأولو العزم أيّهم أفضل). وكذا جاء في بحار الأنوار، عن عبد الله بن الوليد قال: قال لي أبوعبد الله عليه السلام: أيّ شيء يقول الشيعة في عيسى وموسى وأمير المؤمنين عليهم السلام؟ قلت: يقولون إنّ عيسى وموسى أفضل من أمير المؤمنين، قال: فقال: أيزعمون أمير المؤمنين عليه السلام قد علم ما علم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قلت: نعم، ولكن لا يقدّمون على أُولي العزم من الرسل أحداً، قال أبو عبد الله عليه السلام: فخاصِمهم بكتاب الله. قال: قلت: وفي أيّ موضع منه أخاصمهم؟ قال: قال الله تعالى لموسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] علمنا أنّه لم يكتب لموسى كلّ شيء، وقال الله تبارك وتعالى لعيسى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾،[3] وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وآله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.[4]

وعن الحسين بن علوان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الله خلق أُولي العزم من الرسل وفضّلهم بالعلم وأورثنا علمهم وفضلهم، وفضّلنا عليهم في علمهم، وعلّم رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يعلموا، وعَلِمنا علمَ الرسول وعلمَهم».[5]

وعن عبد الله بن الوليد السمان قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: يا عبد الله ما تقول الشيعة في علي وموسى وعيسى عليهم السلام؟ قال: قلت: جُعلت فداك، ومن أيّ

---

(١) الاختصاص: ٢٣٤.

(٢) الأعراف: ١٤٥.

(٣) الزخرف: ٦٣.

(٤) النحل: ٨٩.

(٥) بصائر الدرجات: ٢٢٧؛ بحار الأنوار ١٧: ١٤٥/ ح ٣٣.

حالات تسألني؟ قال: أسألك عن العلم، فأمّا الفضل فهم سواء. قال: قلت: جُعلت فداك فما عسى أقول فيهم؟ فقال: هو والله أعلم منهما، ثم قال: يا عبد الله أليس يقولون إنّ لعلي عليه السلام ما للرسول من العلم؟ قال: قلت بلى، قال: فخاصمهم فيه، قال إنّ الله تبارك وتعالى قال لموسى: ﴿وكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] فأعلمنا أنّه لم يبيّن له الأمر كلّه، وقال الله تبارك وتعالى لمحمد: ﴿وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.[2]

وعن علي بن إسماعيل عن بعض رجاله قال: قال أبو عبد الله عليه السلام لرجل: «تمصّون الثماد وتدعون النهر الأعظم؟ فقال له الرجل: ما تعني بهذا يا بن رسول الله؟ فقال: عِلم الأنبياء بأسره أوحاه الله إلى محمد صلى الله عليه وآله، فجعله محمّد عند علي عليه السلام، فقال له الرجل: فعلي أعلم أو بعض الأنبياء، فنظر أبو عبد الله عليه السلام إلى بعض أصحابه، فقال: «إنّ الله يفتح مسامع من يشاء، أقول له إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله جعل ذلك كلّه عند علي فيقول علي أعلم أو بعض الأنبياء».[3]

وفي المجلّد الاول من أصول الكافي تأليف محمد بن يعقوب الكليني ص ٢٢٢ ـ في باب (أنّ الأئمة ورثة العلم) عن علي بن النعمان، رفعه عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أبو جعفر يمصّون الثماد القليل من الماء ويدعون النهر العظيم! قيل له: وما النهر العظيم؟ قال: رسول الله والعلم الذي أعطاه الله، إنّ الله عزّ وجلّ جمع لمحمد صلى الله عليه وآله سنن النبيّين من آدم وهلمّ جرّاً إلى محمد صلى الله عليه وآله، قيل له: وما تلك السنن؟ قال: علم النبيّين بأسره، وإنّ رسول الله صيّر ذلك كلّه عند أمير المؤمنين عليه السلام، فقال له رجل: يا بن رسول الله فأمير المؤمنين أعلم أم بعض النبيّين؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: اسمعوا ما يقول، إنّ الله يفتح مسامع من يشآء، إنّي

---

(١) الأعراف: ١٤٥.

(٢) النحل: ٨٩

(٣) بحار الأنوار ١٣: ٢٤٢، ط الجديدة.

حدّثته أنّ الله جمع لمحمّد صلى الله عليه وآله علم النبيّين، وأنّه جمع ذلك كلّه عند أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يسألني أهو أعلم أم بعض النبيّين».[١]

وفيه أيضاً ص ٢٦٣ عن حمران بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ جبرئيل أتى رسول الله صلى الله عليه وآله برمّانتين، فأكل رسول الله إحداهما وكسر الأخرى بنصفين فأكل نصفاً وأطعم علياً نصفاً، ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أخي هل تدري ما هاتان الرمّانتان؟ قال: لا. قال: أمّا الأولى فالنبوّة ليس لك فيها نصيب، وأمّا الأخرى فالعلم أنت شريكي فيه، فقلت: أصلحك الله، كيف كان يكون شريكه فيه؟ قال: «لم يعلّم الله محمداً صلى الله عليه وآله عِلماً إلاّ وأمره أن يعلّمه علياً عليه السلام».[٢]

وفي المجلّد الحادي عشر من البحار ص ١١٤ ط الحديثة، بالإسناد عن الصدوق، عن أبيه، عن محمد العطّار، عن الفزاري، عن محمد بن عمران، عن اللؤلئي، عن ابن بزيع، عن ابن ظبيان، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: اجتمع ولد آدم في بيت فتشاجروا، فقال بعضهم: خير خلق الله أبونا آدم، وقال بعضهم: الملائكة المقرّبون، وقال بعضهم: حملة العرش، إذ دخل عليهم هبة الله، فقال بعضهم: لقد جاءكم من يفرّج عنكم. فسلّم ثم جلس فقال: في أيّ شيء كنتم؟ فقالوا: كنّا نفكّر في خير خلق الله فأخبروه، فقال: اصبروا لي قليلاً حتّى أرجع إليكم، فأتى أباه فقال: يا أبت إنّي دخلت على أخوتي وهم يتشاجرون في خير خلق الله فسألوني، فلم يكن عندي ما أخبرهم، فقلت: اصبروا حتّى أرجع اليكم، فقال آدم عليه السلام: يا بُنيّ وقفت بين يدي الله عزّ وجلّ فنظرت إلى سطر على وجه العرش مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، محمّد وآل محمّد خير من برأ الله».

وفي تفسير النيسابوري المطبوع على هامش تفسير الطبري في سورة الزخرف

---

(١) أصول الكافي ١: ٢٢٢.

(٢) أصول الكافي ١: ٢٦٣.

آية ٤٥، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾. عن ابن عباس وابن مسعود أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «أتاني ملك فقال: يا محمّد سَل من أرسلنا من قبلك من رُسلنا علام بُعثوا؟ قال: قلت: علام بُعثوا؟ قال: على ولايتك وولاية علي بن أبي طالب عليه السلام». رواه الثعلبي.[1]

في تفسير البرهان في سورة الزخرف آية ٤٥، في تفسير في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ عن جابر بن عبد الله، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جابر أيّ الأخوة أفضل؟ قال: قلت: البنون من الأب والأم، فقال: إنّا معاشر الأنبياء أخوة وأنا أفضلهم، ولأحب الأخوة إليّ علي بن أبي طالب، فهو عندي أفضل من الأنبياء، فمن زعم أنّ الأنبياء أفضل منه فقد جعلني أقلّهم، ومن جعلني أقلّهم فقد كفر، لأنّي لم أتّخذ علياً أخاً إلاّ لما علمتُ من فضله.[2]

[حرّة بنت حليمة السعدية والحجّاج الثقفي]:

وفي المجلد الحادي عشر من البحار ص ٣٩، والمجلد ٤٦ ص ١٣٤ منه أيضاً ط الحديثة، وفي الأنوار النعمانية ص ٨ ط الأولى، وفي اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء ص ٩٨:

أنه لمّا وردت حرّة بنت حليمة السعدية على الحجّاج بن يوسف الثقفي، قال لها: أنت حرّة بنت حليمة السعدية؟ قالت: نعم، قال لها: لقد نُقل عنك أنك تفضّلين علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر وعثمان؟ قالت: لقد كذب الذين قالوا لك أنّي أفضّله على هؤلاء خاصّة، بلى أفضّله على آدم ونوح ولوط وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى. قال لها: يا ويلك إنّي أقول لك أنّك تفضّلينه على الأصحاب فتبتدرينهم بسبعة

---

(١) أخرجه البيّاضي في الصراط المستقيم ١: ٢٧٩ عن تفسير الثعلبي.

(٢) تفسير البرهان ٤: ١٤٨.

من الأنبياء من أُولي العزم، فإن لم تأتِني ببيان ما قلت وإلاّ ضربت عنقك، قالت: ما أنا فضّلته على هؤلاء الأنبياء، بل الله فضّله في القرآن العظيم عليهم، في قوله في حقّ آدم: ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾[1] وقال في حقّ علي: ﴿وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾[2] فقال: أحسنت يا حرّة، فبم تفضّيله على نوح ولوط؟ قالت: ما أنا فضّلته، بل الله تعالى فضّله عليهما بقوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما﴾[3] وعلي بن أبي طالب عليه السلام كان ملكه تحت سدرة المنتهى وزوجته فاطمة الزهراء بنت محمد التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها، فقال: أحسنت يا حرّة، فبم تفضّليه على أبي الأنبياء ابراهيم خليل الله؟ قال: ما أنا فضّلته، بل الله فضّله بقوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى﴾[4] وعلي بن أبي طالب يقول: لو كُشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً، وهذه كلمة لم يقلها أحد قبله ولا بعده، قال: أحسنت يا حرّة، وبم تفضّليه على موسى؟ قالت: ما أنا فضّلته، بل الله تعالى فضّله عليه، بقوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ﴾[5] وعلي بن أبي طالب عليه السلام بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله يفديه بنفسه ولم يخف حتّى أنزل الله تعالى فيه ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالعِبادِ﴾.[6] قال: أحسنت يا حرّة، وبم تفضّليه على داود عليه السلام؟ قالت: ما أنا فضّلته بل الله فضّله بقوله: ﴿يا داوُدُ إِنّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ﴾[7] قال: بأيّ شيء كانت حكومته؟ قالت: في رجلين كان أحدهما له كرم والآخر له غنم فرعته، فاحتكما إلى داود فقال داود: تباع الغنم ويُنفق ثمنها في الكرم حتّى يعود. فقال

---

(١) طه: ١٢١.

(٢) الإنسان: ٢٢.

(٣) التحريم: ١٠.

(٤) البقرة: ٢٦٠.

(٥) القصص: ٢١.

(٦) البقرة: ٢٠٧.

(٧) ص: ٢٦.

ابنه سليمان: لا يا أبة، بل يؤخذ من صوفها ولبنها ويُنفق في الكرم حتّى يعود، فأنزل الله تعالى ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾[١] وعلي بن أبي طالب قال: سَلوني عمّا فوق السماء، سلوني قبل أن تفقدوني، فهذا سفط العلم وهذا لعاب رسول الله، قال: أحسنت يا حرة، وبم تفضّليه على سليمان؟ قالت: ما أنا فضّلته بل الله تعالى فضّله بقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[٢] وعلي بن أبي طالب عليه السلام يقول: يا دنيا لقد طلّقتُك ثلاثاً لا رجعة لي فيكِ، حتّى أنزل الله تعالى في حقّه ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣] قال: أحسنت يا حرّة، وبم تفضّليه على عيسى روح الله؟ قالت: ما أنا فضّلته، بل الله تعالى فضّله عليه بقوله: ﴿يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[٤] وعليّ لما ادّعت فيه الغلاة أنّه الله لم يُعاتبه الله تعالى. قال: أحسنتِ يا حرّة، ثمّ أكرمها وأحسن إليها وسرّحها سراحاً جميلاً».

[علي عليه السلام والأنبياء]:

جاء في مشارق أنوار اليقين، للشيخ البرسي الحلي:

إنّ الله سبحانه وصف أنبياءه بأوصاف، ووصف وليّ نبيه بأعلى منها، فقال: في نوح ﴿إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً﴾[٥] وقال في علي ﴿وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾[٦] وأين الشاكر من مشكور السعي؟ ووصف إبراهيم بالوفاء فقال ﴿وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾،[٧] وقال في علي ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾،[٨] ووصف سليمان

(١) الأنبياء: ٧٩.
(٢) ص: ٣٥.
(٣) القصص: ٨٣.
(٤) المائدة: ١١٦.
(٥) الاسراء: ٣.
(٦) الانسان: ٢٢.
(٧) النجم: ٣٧.
(٨) الانسان: ٧.

بالملك فقال: ﴿وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظيماً﴾[١] وقال في علي: ﴿وإذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعيماً وَمُلْكاً كَبيراً﴾،[٢] ووصف أيوب بالصبر فقال: ﴿إنا وَجَدْناهُ صابِراً﴾،[٣] وقال في علي: ﴿وَجَزاهُمْ بما صَبَرُوا﴾،[٤] ووصف عيسى بالصلاة والزكاة فقال: ﴿وَأَوْصاني بالصَّلاة وَالزَّكاة﴾،[٥] وقال في علي: ﴿ومِنَ اللَّيْلِ فاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَويلاً﴾،[٦] ووصف محمداً صلى الله عليه وآله بالعزّة فقال: «﴿وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُوله وَلِلْمُؤْمنينَ﴾،[٧] وقال في علي: ﴿وما لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى * إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى * وَلَسَوْفَ يَرْضى﴾.[٨]

وقال ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذينَ آمَنُوا﴾[٩]، ووصف الملائكة بالخوف فقال: ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾[١٠]، وقال في علي: ﴿إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا﴾[١١] ووصف ذاته المقدّسة بصفات الألوهيّة فقال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾[١٢] وقال في علي: ﴿ويُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ﴾[١٣]».[١٤]

---

(١) النساء: ٥٤.

(٢) الانسان: ٢٠.

(٣) ص: ٤٤.

(٤) الانسان: ١٢.

(٥) مريم: ٣١.

(٦) الانسان: ٢٦.

(٧) المنافقون: ٨.

(٨) الليل: ١٩.

(٩) المائدة: ٥٥.

(١٠) النحل: ٥٠.

(١١) الانسان: ١٠.

(١٢) الأنعام: ١٤.

(١٣) الانسان: ٨.

(١٤) مشارق انوار اليقين: ١٩٢ - ١٩٣، الفصل ١٠٤.

وصفوة القول أنّ لمحمد صلى الله عليه وآله ولأهل بيته عليهم السلام مكانة عند الله تعالى لم يتوصّل إليها أحد، ولم يعرف قدرها إلاّ الرسل والأنبياء المعصومون عليهم السلام.

فقد دلّت الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بأنّ الانبياء توسّلوا إلى الله تعالى بالخمسة أصحاب الكساء في ساعات المحن التي تعرّضوا لها، فلقد توسّل بهم آدم عليه السلام بعد خروجه من الجنة، ونوح عند الطوفان، وإبراهيم عندما ألقاه النمرود في النار، وهكذا بقية الأنبياء عليهم السلام وقد أنجاهم الله تعالى من المحن التي تعرّضوا لها بواسطة هؤلاء الخمسة المعصومين عليهم السلام.

وأخيراً ظهرت هذه الحقيقة نتيجة للبحث والتنقيب، حيث نشرت (البذرة) النجفية التي تُصدرها ثانوية منتدى النشر الأهلية في عدديها الثاني والثالث بتاريخ شوال ـ ذي القعدة سنة ١٣٨٥ هجـ بحثاً مترجماً عن كتاب إليا والذي نشرته دار المعارف الإسلامية بلاهور (باكستان).

تحت عنوان:

أسماء مباركة توسّل بها نوح عليه السلام:

ما هذا نصّه مترجماً عن الاوردية:

«في تموز عام ١٩٥١ م حينما كان جماعة من العلماء السوفيت المختصّين بالآثار القديمة ينقّبون في منطقةٍ بوادي قاف عثروا على قطع متناثرة من أخشاب قديمة متسوّسة وبالية، ممّا دعاهم الى التنقيب والحفر أكثر وأعمق، فوقفوا على أخشاب أخرى متحجّرة وكثيرة كانت بعيدة في أعماق الأرض!!

ومن بين تلك الأخشاب التي توصّلوا إليها نتيجة التنقيب خشبة على شكل مستطيل طولها ١٤ عقداً وعرضها ١٠ عقود سبّبت دهشتهم واستغرابهم، حيث لم تتغيّر فلم تتسوّس ولم تتناثر كغيرها من الأخشاب الأخرى.

وفي أواخر سنة ١٩٥٢ أُكمل التحقيق حول هذه الآثار، فظهر أنّ اللوحة المشار إليها كانت ضمن سفينة النبي نوح عليه السلام، وأنّ الأخشاب الأخرى هي أخشاب هيكل سفينة نوح.

وممّا يذكره المؤرّخون أنّ سفينة نوح استوت على قمّة جبل قاف، وشوهد أنّ هذه اللوحة قد نُقشت عليها بعض الحروف التي تعود إلى أقدم لغة.

وهنا ألّفت الحكومة السوفيتية لجنة بعد الانتهاء من الحفر عام ١٩٥٣ قوامها سبعة من علماء اللغات القديمة، ومن أهم علماء الآثار وهم:

١ ـ سوله نوف، أستاذ الألسن في جامعة موسكو.

٢ ـ إيفاهان فينو، عالم الألسن القديمة في كلية لو لوهان بالصين.

٣ ـ ميشانن لو، مدير الآثار القديمة.

٤ ـ تانمول كورف، أستاذ اللغات في كلية كيفزو.

٥ ـ دي راكن، أستاذ الآثار القديمة في معهد لينين.

٦ ـ ايم أهمد كولاه، مدير التنقيب والاكتشافات العام.

٧ ـ هيجر كولتوف، رئيس جامعة ستالين.

وبعد مرور ثمانية أشهر من دراسة تلك اللوحة والحروف المنقوشة عليها اتّفقوا على أنّ هذه اللوحة كانت مصنوعة من نفس الخشب الذي صُنعت منه سفينة نوح عليه السلام، وأنّ النبي نوح كان قد وضع هذه اللوحة في سفينته للتبرّك والحفظ.

وكانت حروف هذه اللوحة باللغة السامانية، وقد ترجمها إلى الانكليزية العالم البريطاني (ايف ماكس) أستاذ الألسن القديمة في جامعة مانجستر، وهذا نصّ تعريبها:

«يا إلهي ويا مُعيني برحمتك وكرمك ساعدني، ولأجل هذه النفوس المقدسة: محمّد، إيليا، شبر، شبير، فاطمة، الذين هم جميعهم عظماء ومُكرمون، العالم قائم لأجلهم، ساعدني لأجل أسمائهم، أنت فقط تستطيع أن توجّهني نحو الطريق المستقيم».

وأخيراً بقي هؤلاء العلماء في دهشة كبرى أمام عظمة هذه الأسماء الخمسة ومنزلة أصحابها عند الله تعالى حيث توسّل بها نوح عليه السلام اليه تعالى.

واللغز الأهم الذي لم يستطع تفسيره أيّ واحد منهم هو عدم تفسّخ هذه اللوحة رغم مرور آلاف السنين عليها، وهذه اللوحة موجودة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو».

يقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.(١)

[مقتطفات في فضل أهل البيت عليهم السلام]:

وبهذه المناسبة أنقل هنا بعض الأحاديث التي تناسب المقام بشأن أهل البيت الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام.

جاء في كتاب (ينابيع المودّة) تأليف العلاّمة الشيخ سليمان القندوزي الحنفي ص ١٠ من الطبعة الأولى قال: أخرج أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن المغازلي الواسطي الشافعي في كتاب المناقب بسنده عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: سمعت حبيبي محمد صلى الله عليه وآله يقول: «كنت أنا وعلي نوراً بين يدَي الله عزّ وجلّ، يسبّح الله ذلك النور ويقدّسه قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف عام، فلمّا خلق آدم أودع الله ذلك النور في صُلبه، فلم نزل أنا وعلي شيئاً واحداً حتّى افترقنا في صُلب عبد المطلب، ففيَّ النبوّة وفي علي الامامة».(٢)

وفي المناقب، عن إسحاق بن إسماعيل النيشابوري، عن جعفر الصادق، عن أبيه، عن جدّه علي بن الحسين قال: حدّثنا عمّي الحسن عليه السلام قال: سمعت جدّي صلى الله عليه وآله يقول: «خُلقت من نور الله عزّ وجلّ، وخُلق أهل بيتي من نوري، وخُلق محبّوهم من نورهم، وسائر الناس في النار».(٣)

---

(١) فصّلت: ٥٣.

(٢) ينابيع المودّة: ١٠، ط الاولى؛ ٢: ٣٠٧ / ح٨٧٥، الطبعة المحقّقة ١٤١٦ هـ

(٣) أخرجه المجلسي في بحار الأنوار ١٥: ٢٠/ ح٣٢؛ ينابيع المودّة ١: ٤٦/ ح٧.

وفي المجلد الأوّل من كتاب حلية الأولياء ص ٨٦ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من سرّه أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويدخل الجنة التي وعدني ربّي ـ وهي جنّة الخُلد ـ فليوالِ علياً من بعدي وليوالِ وليّه، وليقتدِ بالأئمة من بعدي، فإنّهم عِترتي خُلقوا من طينتي، رُزقوا فهماً وعلماً، وويل للمكذّبين بفضلهم من أمّتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي».

وقال صلى الله عليه وآله: «اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد، ومكان العينين من الرأس، ولا يهتدي الرأس إلاّ بالعينين».

وقال صلى الله عليه وآله: «الزموا مودّتنا أهل البيت، فإنّه من لقي الله وهو يودّنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلاّ بمعرفة حقّنا».

وقال صلى الله عليه وآله: «معرفة آل محمد براءة من النار، وحبّ آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب».

وقال صلى الله عليه وآله: «فلو أن رجلاً صفّ قدميه بين الركن والمقام فصلّى وصام وهو مُبغض لآل محمد دخل النار».

وجاء في تفسير الفخر الرازي في سورة الشورى، وتفسير الكشّاف في قوله تعالى: ﴿قُل لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُرْبى﴾[1] قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من مات على حبّ آل محمد مات شهيداً، ألاَ ومن مات على حبّ آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات مؤمناً مستكمل الايمان، ألا ومن مات على حبّ آل محمد بشّره مَلَك الموت بالجنّة ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حبّ آل محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حبّ آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات على السنّة والجماعة، ألا ومن مات على بُغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من

(١) الشورى: ٣٢.

رحمة الله، ألا ومن مات على بُغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشمّ رائحة الجنّة».[١]

قال الفخر الرازي: آل محمد صلى الله عليه وآله هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم الآل، ولا شك أنّ فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله أشدّ التعلّقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر، فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضاً اختلف الناس في الآل، فقيل: هم الأقارب، وقيل: هم أمّته، فإن حملناه على القرابة فهم الآل، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل، فثبت أنّ على جميع التقديرات هم الآل، وأمّا غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه.[٢]

وروى صاحب الكشّاف أنّه لما نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتُهم؟ فقال صلى الله عليه وآله: علي وفاطمة وابناهما، فثبت أنّ هؤلاء الأربعة أقارب النبي صلى الله عليه وآله، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم.

[أوجه عظمة أهل البيت عليهم السلام]:

ويدلّ عليه وجوه:[٣]

الأول: قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

والثاني: لا شكّ أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يحبّ فاطمة عليها السلام، قال صلى الله عليه وآله: فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها، وثبت بالنقل المتواتر من محمد صلى الله عليه وآله أنّه كان يحبّ علياً عليه السلام والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على كلّ الأمّة مثله، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.[٤]

---

(١) تفسير الرازي ٢٧: ١٦٦؛ تفسير الكشاف ٤: ١٧٣.

(٢) تفسير الرازي ٧: ٣٩.

(٣) تفسير الكشاف ٢٧: ١٦٦.

(٤) الأعراف : ١٥٨.

ولقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾[١] ولقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[٢] ولقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.[٣]

الثالث: أنّ الدعاء للآل منصب عظيم، ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهّد في الصلاة، وهو قوله: «اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمداً وآل محمد» وهذا التعظيم لم يوجد في حقّ غير الآل، فكلّ ذلك يدلّ على أنّ حبّ آل محمد واجب.

وقال الشافعي:

يا راكباً قِف بالمحصّب من مِنى ... واهتف بساكن خيفها والناهضِ

سَحراً إذا فاض الحجيجُ إلى منى ... فيضاً كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضاً حبُّ آل محمد ... فليشهد الثقلان أنّي رافضي[٤]

* * *

(١) النور: ٦٣.

(٢) آل عمران: ٣١.

(٣) الاحزاب: ٢١.

(٤) نظم درر السمطين للزرندي: ١١١؛ المسترشد: ٧٨؛ بحار الانوار ٢٣: ٢٣٤.

ومن خطبة له عليه السلام:

في وصف القرآن والاستشفاء بآياته

«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ـ أي علي النبي ـ الْكِتَابَ نُوراً لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ وَسِرَاجاً لَا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ وَبَحْراً لَا يُدْرَكُ قَعْرُهُ وَمِنْهَاجاً لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ وَشُعَاعاً لَا يُظْلِمُ ضَوْءُهُ وَفُرْقَاناً لَا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ وَتِبْيَاناً لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ وَشِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ وَعِزّاً لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ وَحَقّاً لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ وَأَثَافِيُّ الْإِسْلَامِ وَبُنْيَانُهُ وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ».

* * *

[خصائص القرآن]:

في هذا الكلام نبذ من فضائل القرآن ومناقبه وخصائصه وفوائده:

أولها: كونه نوراً لا تُطفأ مصابيحه: أمّا أنّه نور، فلاهتداء الناس به من ظلمات الجهل كما يُهتدى بالنور المحسوس في ظلمة الليل، وأمّا مصابيحه: فاستعارة لطريق الاهتداء وفنون العلوم التي تضمّنها القرآن.

ثانيا: كونه سراجاً لا يخبو توقّده ـ أمّا أنّه سراج لا يخبو توقّده، فالمراد به عدم انقطاع اهتداء الناس به واستضاءتهم بنوره.

والثالثة: أنّه بحر لا يُدرك قعره ـ وذلك أنّ استعارة البحر له باعتبار اشتماله على النكات البديعة والأسرار الخفيّة ودقائق العلوم التي لا يدركها بُعد الهمم ولا ينالها غَوص الفطن، كما لا يدرك الغائص قعر البحر العميق.

الرابعة: كونه منهاجاً لا يضلّ نهجه _ أي طريقاً واضحاً مستقيماً إلى الحق لا يضلّ سالكه.

والخامسة: كونه شعاعاً لا يظلم ضوؤه _ أي حقّاً لا يدانيه شكّ وريب، ولا تشوبه ظلمة الباطل فتغطّيه وتستره، كما قال تعالى: ﴿ذلكَ الْكتابُ لا رَيْبَ فيه﴾[1] وقال: ﴿لا يَأْتيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميد﴾.[2]

والسادسة: كونه فرقاناً لا يخمد برهانه _ أي فارقاً بين الحقّ والباطل وفاصلاً بينهما، لا تنتفي براهينه الجليلة وبيّناته التي يفرق بينهما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وما هُوَ بِالْهَزْلِ﴾.[3]

وقال: ﴿هُدىً لِلنّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ﴾.[4]

والسابعة: كونه بنياناً لا تهدم أركانه _ شبّهه عليه السلام ببنيانٍ مرصوص وثيق الأركان، فاستعار له لفظه، والجامع انتظام الأجزاء واتّصال بعضها ببعض وقوله «لا تهدم أركانه» ترشيح للاستعارة، وفيه إشارة إلى أن البنيان الوثيق كما أنّه مأمون من التهافت والهدم والانفراج، فكذلك الكتاب العزيز محفوظ من طرق النقص والخلل والإندراس.

والثامنة: كونه شفاء لا تُخشى أسقامه _ يعني أنّه شفاء للأبدان والأرواح، أمّا الأبدان فبالتجربة والعيان، مضافاً إلى الأحاديث الواردة في خواصّ أكثر الآيات المفيدة للاستشفاء والتعويذ بها، مثل ما جاء في كتاب أصول الكافي باسناده عن السكوني عن الإمام الصادق عليه السلام، عن آبائه قال: شكى رجل وجعاً

---

(١) البقرة: ٢.

(٢) فصلت: ٤٢.

(٣) الطارق: ١٣.

(٤) البقرة: ١٨٥.

في صدره الى النبي صلى الله عليه وآله، فقال له صلى الله عليه وآله: استشفِ بالقرآن، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَشِفاءٌ لما فِي الصُّدُورِ﴾.[١] [٢]

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: من لم تُبرءه الحمد لم يبرءه شيء.[٣]

وقال الإمام موسى الكاظم عليه السلام: من قرأ آية الكرسي عند منامه لم يخف الفالج إن شاء الله، ومن قرأها في دبر كلّ فريضة لم يضرّه ذو حمّة.[٤]

وفي تفسير مجمع البيان أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: ألا أعلّمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟ فقال له جابر: بلى بأبي أنت وأمّي يا رسول الله علّمنيها، قال: فعلّمه الحمد أم الكتاب، ثمّ قال: يا جابر ألا أخبرك عنها؟ قال: بلى بأبي أنت وأمي فأخبرني، فقال: هي شفاء من كلّ داء إلاّ السّام، والسام الموت.[٥]

[آيات مفيدة لدفع الأذى والأوجاع والفقر وكلّ ضرر]:

وفي المجلّد الأول من كتاب مسند الإمام علي نقلاً عن أصول الكافي مج ٢ ص ٦٢٤ عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: والذي بعث محمّداً صلى الله عليه وآله بالحقّ وأكرم أهل بيته، ما من شيء تطلبونه من حرز من حرق أو غرق أو سرق أو إفلات دابّة من صاحبها أو ضالّة أو آبق إلاّ وهو في القرآن، فمن أراد ذلك فليسألني عنه.

قال: فقام اليه رجل فقال: يا أميرَ المؤمنين أخبرني عمّا يؤمن من الحرق والغرق، فقال عليه السلام: اقرأ هذه الآيات ﴿الذي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَى الصَّالِحِينَ﴾،[٦]

---

(١) يونس: ٥٧.

(٢) مكارم الأخلاق: ٣٨٧؛ بحار الانوار ٨٩: ١٧٦.

(٣) تفسير العيّاشي ١: ٢٠؛ بحار الانوار ٨٩: ٢٣٧/ ح ٣٤.

(٤) عدّة الداعي: ٢٧٣؛ بحار الانوار ٨٩: ٢٦٦.

(٥) تفسير العيّاشي ١: ٢٠؛ بحار الانوار ٨٩/ ٢٣٧/ ح ٣٣.

(٦) الأعراف: ١٩٦.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾،[١] فمن قرأها فقد أمن من الحرق والغرق، قال: فقرأها الرجل واضطرمت النار في بيوت جيرانه _ وبيته وسطها _ فلم يصبه شيء.

ثمّ قام إليه رجل آخر فقال: يا أمير المؤمنين إنّ دابّتي استصعبت علي وأنا منها على وجل، فقال عليه السلام: اقرأ في أُذنها اليمنى ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[٢] فقرأها فذلّت دابته.

وقام إليه رجل آخر فقال: يا أمير المؤمنين إنّ أرضي مسبعة، وإنّ السباع تغشى منزلي ولا تجوز حتّى تأخذ فريستها، فقال عليه السلام: اقرأ ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[٣] فقرأها الرجل فاجتنبته السباع.

ثمّ قام إليه آخر فقال: يا أمير المؤمنين إنّ في بطني ماءاً أصفر فهل من شفاء؟ فقال له عليه السلام: نعم بلا درهم ولا دينار، ولكن اكتب على بطنك آية الكرسي وتغسلها وتشربها وتجعلها ذخيرة في بطنك فتبرأ باذن الله عزّ وجلّ. ففعل الرجل فبرأ بإذن الله.

ثمّ قام إليه آخر فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الضالّة؟ فقال عليه السلام: اقرأ (ياسين) في ركعتين، وقل: يا هادي الضالّة رُدّ عليّ ضالّتي، ففعل فردّ الله عزّ وجلّ عليه ضالّته.

ثمّ قام إليه آخر فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الآبق؟ فقال عليه السلام: اقرأ ﴿أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ _ إلى قوله _ ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[٤] فقالها الرجل، فرجع إليه الآبق.

---

(١) الزمر: ٦٧.

(٢) آل عمران: ٣٨.

(٣) التوبة: ١٢٨ و١٢٩.

(٤) النور: ٤٠.

ثمّ قام إليه آخر فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن السرق، فإنّه لا يزال يُسرق لي الشيء بعد الشيء ليلاً؟ فقال له عليه السلام: اقرأ إذا أويتَ إلى فراشك ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾.(١)

ثمَّ قال عليه السلام: من بات بأرض قفر فقرأ هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾.(٢) حرسته الملائكة وتباعدت عنه الشياطين. قال: فمضى الرجل فإذا هو بقرية خراب فبات فيها ولم يقرأ هذه الآية، فتغشّاه الشيطان وإذا هو آخذ بخطمه، فقال له صاحبه: أنظره، واستيقظ الرجل فقرأ الآية، فقال الشيطان لصاحبه: أرغم الله أنفك، احرسه الآن حتّى يُصبح، فلمّا أصبح رجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبره وقال له: رأيت في كلامك الشفاء والصدق.

وفي كتاب (وسائل الشيعة) مج ٢ ص ٦٤١ من الطبعة الجديدة في ايران، عن الإمام الباقر عليه السلام قال: شكا رجل إلى علي عليه السلام وجع الظهر وأنّه يسهر الليل، فقال عليه السلام: ضع يدك على الموضع الذي تشتكي منه واقرأ ثلاثاً ﴿وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾(٣) واقرأ سبع مرات ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾(٤) إلى آخرها، فإنّك تُعافى من العلل إن شآء الله.

في تفسير مجمع البيان عن سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فشكا إليه الفقر وضيق المعاش فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا دخلت

---

(١) الاسراء: ١١٠ و١١١.

(٢) الأعراف: ٥٤.

(٣) آل عمران: ١٤٥.

(٤) القدر: ١.

بيتك فسلّم إن كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد فسلّم واقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرّة واحدة، ففعل الرجل فأفاض الله عليه رزقاً حتّى أفاض على جيرانه.[١]

وفي كتاب (طبّ الأئمة) عن أبي الحسن العسكري عليه السلام قال له رجل: يا ابن رسول الله إنّ أهلي يصيبهم كثيراً هذا الوجع الملعون، قال: وما هو قال: وجع الرأس، قال عليه السلام خذ قدحاً من ماء واقرأ عليه ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾[٢] ثم اشربه فإنّه لا يضرّه إن شاء الله تعالى.[٣]

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنّ رجلاً شكا إليه صمماً، فقال: امسح يدك عليه واقرأ عليه ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.[٤][٥]

وعن أبي بصير قال: شكوت إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام وجعاً في أضراسي وأنّه يسهرني الليل. قال: فقال: يا أبا بصير إذا أحسستَ بذلك فضع يدك عليه واقرأ سورة الحمد وقل هو الله أحد، ثمّ اقرأ ﴿تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ﴾[٦] فإنه يسكن ثمّ لا يعود.[٧]

---

(١) تفسير مجمع البيان ١٠: ٤٨٠.

(٢) الانبياء: ٣٠.

(٣) طب الائمة: ١٩؛ بحار الانوار ٩٢: ٥١/ ح٧.

(٤) الحشر: ٢١ - ٢٤.

(٥) طب الأئمة: ٣٢؛ تفسير نور الثقلين ٥: ٢٩٤/ ح٨١.

(٦) النمل: ٨٨.

(٧) طبّ الأئمّة: ٢٤؛ بحار الأنوار ٩٢: ٩٢ ٩٣/ ح٢.

عبد الله بن سنان عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جدّه عليه السلام قال: شكى رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله إنّ لي أخاً يشتكي بطنه، فقال: مُر أخاك أن يشرب شربة عسل بماء حار، فانصرف إليه من الغد وقال: يا رسول الله قد سقيته وما انتفع بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسْقِ أخاك شربة عسل وعوّذه بفاتحة الكتاب سبع مرآت، فلمّا أدبر الرجل قال النبي صلى الله عليه وآله: يا علي إنّ أخا هذا الرجل منافق، فمن هاهنا لا تنفعه الشربة.(١)

وعن أبي بصير قال: شكى رجل إلى أبي عبد الله الصادق عليه السلام وجع السرّة، فقال له: اذهب فضع يدك على الموضع الذي تشتكي وقل ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٢) ثلاثاً فإنّك تُعافى بإذن الله.(٣)

قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: ما اشتكى أحد من المؤمنين شكاة قطّ فقال بإخلاص نيّة ومسح موضع العلّة ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَاراً﴾(٤) إلاّ عُوفِيَ من تلك العلّة أيّة علّةٍ كانت، ومصداق ذلك في الآية حيث يقول: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.(٥)

عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: جاء رجل من خراسان إلى علي بن الحسين عليه السلام فقال: يا ابن رسول الله حججتُ ونويت عند خروجي أن أقصدك فإنّ بي وجع الطحال وأن تدعو لي بالفرج، فقال له علي بن الحسين: قد كفاك الله ذلك وله الحمد، فإذا أحسست به فاكتب هذه الآية بزعفران بماء زمزم واشربه، فإنّ الله تعالى يدفع عنك

---

(١) طب الأئمّة: ٢٨؛ الفصول المهمّة للحرّ العاملي ٣: ٨٢؛ بحار الانوار ٩٢: ١٠٩/ ح٢.

(٢) فصّلت: ٤٢.

(٣) طب الأئمّة: ٢٨؛ بحار الأنوار ٩٢: ١٠٩ - ١١٠/ ح٣.

(٤) الاسراء: ٨٢.

(٥) طب الأئمّة: ٨٢؛ بحار الأنوار ٩٢: ١١٠/ ح٣.

ذلك الوجع ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾[1] تكتب على رقّ ظبي وعلّقها على العضد الأيسر سبعة أيام فإنّه يسكن.[2]

وعن المفضّل بن عمر عن محمد بن إسماعيل، عن أبي زينب قال: شكا رجل من إخواننا إلى أبي عبد الله الصادق عليه السلام وجع المثانة، قال: فقال له عليه السلام عوّذه بهذه الآيات إذا نمتَ ثلاثاً واذا انتبهت مرّة واحدة فإنّه لا تحسس به بعد ذلك ﴿مثْلها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصيرٍ﴾.[3]

قال الرجل: ففعلت ذلك فما أحسست بعد ذلك بوجع.[4]

عن حمّاد بن عيسى رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: إذا اشتكى أحدكم وجع الفخذين فليجلس في تورٍ كبير أو طشت في الماء المسخن وليضع يده عليه وليقرأ ﴿أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾.[5] [6]

وعن سالم بن محمد قال: شكوت إلى الصادق عليه السلام وجع الساقين وأنّه قد أقعدني عن أموري وأسبابي. فقال: عوّذهما، قلت: بماذا يا ابن رسول الله؟ قال: بهذه الآية سبع مرآت فإنّك تُعافى بإذن الله تعالى ﴿ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ

---

(١) الاسراء: ١١٠ و١١١.

(٢) طب الائمّة ٢٩ - ٣٠؛ بحار الانوار ٩٢: ١٠٤/ ح١.

(٣) البقرة: ١٠٩ و١١٠.

(٤) طب الأئمّة: ٣٠.

(٥) الانبياء: ٣٠.

(٦) طب الأئمّة: ٣١؛ بحار الأنوار ٩٢: ٦٩/ ح١.

ربّكَ لا مُبَدّلَ لكلماته ولَنْ تَجدَ منْ دُونه مُلْتَحَداً﴾[١] قال: فعوّذتهما سبعاً كما أمرني، فرفع الوجع عَنّي رفعاً حتّى لم أحسّ بعد ذلك بشيء منه.[٢]

علي بن عروة الأهوازي قال: حدّثنا الديلمي عن داود الرقّي، عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: من كان في سفر فخاف اللصوص والسبع فليكتب على عرف دابته ﴿لا تَخافُ دَرَكاً ولا تَخْشى﴾[٣] فإنّه يأمن بإذن الله عزّ وجلّ.

قال داود الرقي: فحججتُ فلمّا كنّا بالبادية جاء قوم من الأعراب فقطعوا على القافلة وأنا فيهم، فكتبت على عرف جملي ﴿لا تَخافُ دَرَكاً ولا تَخْشى﴾ فو الذي بعث محمّداً بالنبوّة وخصّه بالرسالة وشرّف أمير المؤمنين بالامامة ما نازعني أحد منهم، أعماهم الله عني.[٤]

عن أبي عمر بن يزيد الصيقل، عن الصادق عليه السلام قال: شكى إليه رجل من أوليائه القولنج، فقال له عليه السلام: اكتب له أمّ القرآن وسورة الاخلاص والمعوّذتين، ثمّ تكتب أسفل ذلك «أعوذ بوجه الله العظيم وبعزّته التي لا تُرام، وبقدرته التي لا يمتنع منها شيء من شرّ هذا الوجع ومن شرّ ما فيه» ثم تشربه على الريق بماء المطر تبرأ بإذن الله تعالى.[٥]

إسماعيل بن زياد، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كسل أو أصابته عين أو صداع بسط يديه فقرأ فاتحة الكتاب والمعوّذتين ثمّ يمسح بها وجهه فيذهب عنه ما كان يجد.[٦]

---

(١) الكهف: ٧٢.

(٢) طب الأئمّة: ٣٢؛ بحار الأنوار ٩٢: ٨٥/ ح١.

(٣) طه: ٧٧.

(٤) طب الأئمّة: ٣٦ - ٣٧؛ تفسير نور الثقلين ٣: ٣٨٥/ ح٨٦.

(٥) طب الأئمّة: ٣٨؛ بحار الأنوار ٩٢: ١١٠/ ح ٤.

(٦) طب الأئمّة: ٣٩؛ بحار الأنوار ١٠: ٣٦٨/ ح٩.

إلى كثير وكثير من هذه النظائر ممّا هو نور من أنوار النبوّة ولمعة من لمعان الإمامة، ولم يكن مُكتسباً من أساتذة ومعلمين كما زعم الجاهلون، ولو كان ذلك لظهر وبان.

[مناظرة طبيّة بين الصادق عليه السلام وطبيب هندي]:

وجرت مناظرة طبّية بين الإمام الصادق عليه السلام وطبيب هندي في مجلس المنصور الدوانيقي، ذكرها العلاّمة المجلسي في المجلّد الرابع عشر من البحار ص ٤٧٨ من الطبعة الحديثة. وفي كتاب طبّ الأئمة أيضاً ص ٢٤ ط النجف قال: روى محمد بن إبراهيم الطالقاني عن الحسن بن علي العدوي، عن عباد بن مهيب، عن أبيه، عن جدّه، عن الربيع صاحب المنصور قال: حضر أبو عبد الله عليه السلام مجلس المنصور يوماً وعنده رجل من الهند يقرأ عليه كتب الطبّ، فجعل أبو عبد الله عليه السلام ينصت لقرائته، فلمّا فرغ الهندي قال له: يا أبا عبد الله أتريد ممّا معي شيئاً؟ قال: لا. فإنّ معي ما هو خير ممّا معك، قال: وما هو؟ قال عليه السلام: أداوي الحار بالبارد، والبارد بالحار، والرطب باليابس، واليابس بالرطب، وأردّ الأمر كلّه إلى الله عزّ وجلّ، واستعمل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله، وأعلم أنّ المعدة بيت الداء، وأنّ الحمية رأس كلّ دواء، وأعوّد البدن ما اعتاده.

فقال الهندي: وهل الطبّ إلا هذا، فقال الصادق عليه السلام: أتراني من كتب الطبّ أخذت؟ قال: نعم، قال عليه السلام: لا، والله ما أخذتُ إلاّ عن الله سبحانه، فأخبرني أنا أعلم بالطبّ أم أنت؟ قال الهندي: بل أنا. قال الصادق: فأسألك شيئاً؟ قال: سَل.

قال الصادق عليه السلام: أخبرني يا هندي، لم كان في الرأس شؤون؟ قال: لا أعلم. قال: فلم جُعل الشعر عليه من فوق؟ قال: لا أعلم. قال: فلم خلت الجبهة من الشعر؟ قال: لا أعلم. قال عليه السلام: فلم كان لها تخطيط وأسارير؟ قال: لا أعلم. قال: فلم كان الحاجبان فوق العينين؟ قال: لا أعلم، قال: فلم جُعلت العينان

كاللوزتين؟ قال: لا أعلم. قال: فلم جُعل الأنف فيما بينهما؟ قال: لا أعلم. قال: فلم جُعل ثقب الأنف في أسفله؟ قال: لا أعلم. قال: فلم جُعلت الشفة والشارب فوق الفم؟ قال: لا أعلم. قال: فلم حدّ السّن وعرض الضرس وطال الناب؟ قال: لا أعلم. قال: فلم جُعلت اللحية للرجال؟ قال: لا أعلم. قال: فلم خلا الظفر والشعر من الحياة؟ قال: لا أعلم. قال: فلم كان القلب كحب الصنوبر؟ قال: لا أعلم. قال: فلم كانت الرئة قطعتين، وجعلت حركتهما في موضعهما؟ قال: لا أعلم. قال: فلم كان الكبد حدباء؟ قال: لا أعلم. قال: فلم كانت الكلية كحب اللوبية؟ قال: لا أعلم، قال: فلم جُعل طيّ الركبة إلى خلف؟ قال: لا أعلم، قال: فلم انخصرت القدم؟ قال: لا أعلم.

قال الإمام الصادق عليه السلام: لكنّي أعلم، قال الهندي: فأجِب، قال الصادق عليه السلام: إنّما كان في الرأس شؤون لأنّ المجوّف إذا كان بلا فصل أسرع إليه الصداع، فإذا جُعل ذا فصول كان الصداع منه أبعد، وجُعل الشعر من فوقه، ليوصل بوصوله الأدهان إلى الدماغ. ويخرج بأطرافه البخار منه، ويردّ الحرارة والبرد عنه، وخلت الجبهة من الشعر، لأنها مصبّ النور إلى العينين، وجُعل فيها التخطيط والأسارير ليحتبس العرق الوارد من الرأس إلى العين قدر ما يُميطه الانسان عن نفسه، كالأنهار في الارض التي تحبس المياه، وجعل الحاجبان من فوق العينين ليردّا عليهما من النور قدر الكفاية، ألا ترى أنّ من غلبه النور جعل يده على عينيه ليردّ عليهما قدر كفايتهما منه؟ وجُعل الأنف بينهما ليقسم النور قسمين إلى كلّ عين سواء، وكانت العين كاللوزة ليجري فيها الميل بالدواء ويخرج منها الداء، ولو كانت مربّعة أو مدوّرة ما جرى فيها الميل ولا وصل إليها دواء ولا خرج منها داء، وجُعل ثقب الأنف في أسفله لتنزل منه الأدواء المنحدرة من الدماغ، وتصعد فيه الروائح إلى المشام، ولو كان في أعلاه لما نزل منه ماء ولا وجد رائحة، وجُعل الشارب والشفة فوق الفم لحبس ما ينزل

من الدماغ عن الفم، لئلاّ يتعفّن فينغّص على الانسان طعامه وشرابه فيُميطه عن نفسه، وجعلت اللحية للرجال ليُستغنى بها عن الكشف في المنظر، ويُعلم بها الذكر من الأنثى، وجُعل السن حاداً لأنّ به يقع العضّ، وجُعل الضرس عريضاً لأنّ به يقع الطحن والمضغ، وكان الناب طويلاً ليسند الأضراس والأسنان كالاسطوانة في البناء، وخلا الكفّان من الشعر لأنّ بهما يقع اللمس، فلو كان فيهما شعر ما درى الانسان ما يقابله ويلمسه، وخلا الشعر والظفر من الحياة لأنّ طولهما سمج يقبح وقصّهما حسن، فلو كان فيهما حياة لآلم الانسان قصّهما، وكان القلب كحبّ الصنوبر لأنّه منكّس، فجُعل رأسه دقيقاً ليدخل في الرئة فيتروّح عنه ببردها، ولئلاّ يشيط الدماغ بحرّه، وجعلت الرئة قطعتين ليدخل القلب بين مضاغطها فيتروّح بحركتها، وكانت الكبد حدباء لتثقل المعدة وتقع جميعها عليها فتعصرها ليخرج ما فيها من البخار، وجعلت الكلية كحب اللوبيا، لأنّ عليها مصبّ المني نقطة بعد نقطة، فلو كانت مربّعة أو مدوّرة لاحتبست النقطة الأولى إلى الثانية فلا يلتذّ بخروجها، إذ المني ينزل من فقار الظهر إلى الكلية، وهي تنقبض وتنبسط وترميه أوّلاً فأوّلاً إلى المثانة كالبندقة من القوس.

وجُعل طيّ الركبة إلى خلف لأنّ الإنسان يمشي إلى ما بين يديه فتعتدل الحركات، ولولا ذلك لسقط في المشي، وجُعلت القدم منخصرة لأنّ المشي إذا وقع على الأرض جميعه ثقل ثقل حجر الرحى.

فقال الهندي: من أين لك هذا العلم؟ فقال عليه السلام: أخذتُه عن آبائي عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن جبرائيل عن ربّ العالمين جلّ جلاله الذي خلق الأجساد والأرواح، فقال الهندي: صدقت وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله وعبده، وأنّك أعلم أهل زمانك.

* * *

من خطبة له عليه السلام:

[في معرفة الخالق وتوحيده]

«أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ...».[1]

* * *

قوله عليه السلام: «أوّل الدين معرفته» لأن أوّل الواجبات الدينية معرفة الله سبحانه وإطاعته وعبادته، والطاعة والعبادة فرع معرفة المطاع والمعبود، فما لم يُعرف لا يمكن طاعته، ولذلك أنّ أمير المؤمنين عليه السلام بعد ما سأله حبرٌ بقوله: هل رأيتَ ربّك حين عبدته؟ أجاب بقوله: ويلك ما أعبد ربّاً لم أره. قال: كيف رأيته؟ قال :ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوبُ بحقائق الايمان.[2]

ثمّ إنّ معرفة الله قد تكون ناقصة وقد تكون تامّة، أمّا الناقصة فهي: إدراك أنّ للعالم صانعاً مدبراً، وأمّا التامّة فقد أشار إليها عليه السلام بقوله: «وكمال معرفته التصديق به» أي الاذعان بوجوده ووجوبه، وأنّه واحد لا شريك له ولا شِبه له، فإنّ من عرف الله بهذه الكيفيّة وهذا اللون حرّم الله جسده على النار وأوجب له دخول الجنّة.

روى الصدوق رحمه الله في كتاب «التوحيد» بإسناده عن زيد بن وهب، عن أبي ذر

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٧٢، ط مكتبة المرعشي النجفي.

(٢) عوالي اللئالي ١: ٤٠٥/ ح ٦٦؛ بحار الانوار ٤: ٤٤/ ح٢٣.

رضي الله عنه قال: خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله يمشي وحده ليس معه إنسان، فظننت أنّه يكره أن يمشي معه أحد، فجعلت أمشي في ظلّ القمر، فالتفت فرآني فقال: من هذا؟ فقلت: أبوذر، جعلني الله فداك، فقال: يا أبا ذر تعال، فمشيت معه ساعة فقال: إنّ المكثرين هم الأقلّون يوم القيامة إلاّ من أعطاه الله خيراً، فنفخ منه بيمينه وشماله ومن بين يديه وورائه وعمل فيه خيراً، قال: فمشيت ساعة، فقال: اجلس ههنا، وأجلسني في قاع حوله حجارة فقال لي: اجلس حتّى أرجع إليك، قال: وانطلق في الحرّة حتى لم أره، وتوارى عني وأطال اللبث، ثمّ إنّي سمعته وهو مقبل يقول: وإن زنى وإن سرق؟ قال: فلمّا جاء لم أصبر حتّى قلت له: يا نبيّ الله جعلني الله فداك من تكلّمه في جانب الحرّة، فإنّي سمعت أحداً يردّ عليك شيئاً؟ فقال صلى الله عليه وآله: ذاك جبرئيل عرض لي في جانب الحرّة، فقال: بشّر أمتك أنّه من مات لا يشرك بالله عزّ وجلّ شيئاً دخل الجنة، قال: قلت: يا جبرئيل وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر.

قال الصدوق بعد ذكر الحديث: يعني بذلك أنه يوفّق للتوبة حتى يدخل الجنة.(١)

وفيه أيضاً عن الأسود بن هلال، عن معاذ بن جبل قال: كنت رفقت النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا معاذ هل تدري ما حقّ الله على العباد؟ يقولها ثلاثاً، قلت: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله: حقّ الله عزّ وجلّ على العباد أن لا يُشركوا به شيئاً، ثم قال: هل تدري ما حقّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذّبهم، أو قال:أن لا يُدخلهم النار.(٢)

وفيه أيضاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: والذي بعثني بالحقّ نبياً لا يعذّب الله بالنار موحّداً أبداً، وإنّ أهل التوحيد ليَشفعون فيُشفّعون، ثم قال صلى الله عليه وآله: إنّه إذا كان يوم القيامة أمر الله تبارك وتعالى بقوم ساءت أعمالهم في دار

---

(١) التوحيد: ٢٥ - ٢٦/ ح٢٤.

(٢) التوحيد: ٢٨/ ح٢٨.

الدنيا إلى النار، فيقولون: يا ربّنا كيف تُدخلنا النار وقد كنّا نوحّدك في دار الدنيا؟ وكيف تحرق بالنار ألسنتنا وقد نطقت بتوحيدك في دار الدنيا؟ وكيف تحرق قلوبنا وقد عقدت على أن لا إله إلا الله؟ أم كيف تحرق وُجوهنا وقد عفّرناها لك في التراب؟ أم كيف تحرق أيدينا وقد رفعناها بالدعاء اليك؟ فيقول الله عزّ وجلّ: عبادي ساءت أعمالكم في دار الدنيا فجزاؤكم نار جهنّم. فيقولون: يا ربّنا عفوك أعظم أم خطيئتنا؟ فيقول الله عزّ وجلّ: بل عفوي، فيقولون: رحمتك أوسع أم ذنوبنا؟ فيقول الله عزّ وجلّ: بل رحمتي، فيقولون: إقرارنا بتوحيدك أعظم أم ذنوبنا؟ فيقول الله عزّ وجلّ: بل إقراركم بتوحيدي أعظم، فيقولون: يا ربّنا فليسعنا عفوك ورحمتك التي وسعت كلّ شيء، فيقول الله جلّ جلاله: ملائكتي، وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبّ إلي من المقرّين بتوحيدي وأن لا إله غيري، وحقّ عليّ أن لا أُصلي بالنار أهل توحيدي، أدخِلوا عبادي الجنة.[1]

[ولاية أهل البيت عليهم السلام شرط في التوحيد]:

غير أنّ مجرد الاعتقاد بالتوحيد لا يكفي في ترتيب الثواب ودفع العقاب، بل لا بدّ مع ذلك من الاعتقاد بالولاية، ولاية علي وأولاده الطاهرين عليهم السلام أجمعين.

والأخبار الواردة في أبواب التوحيد والمعرفة وإن كانت مطلقة إلاّ أنها يقيدها _ مضافة إلى إجماع أصحابنا _ أخبارٌ أُخر مقيّدة لكون الولاية شرطاً في التوحيد وبدونها لا ينتفع بشيء منها.

وهذه الأخبار كثيرة بالغة حدّ الاستفاضة بل التواتر.

منها ما جاء في كتاب جامع الأخبار بالإسناد عن محمد بن عمارة،عن أبيه، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن آبائه الصادقين عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله تبارك وتعالى جعل لأخي علي عليه السلام فضائل لا يُحصي عددها

---

(١) التوحيد: ٢٩/ ح ٣١.

غيره، فمن ذكر فضيلة من فضائله مقرّاً بها غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ولو أتى القيامة بذنوب الثقلين، ومن كتب فضيلة من فضائل علي بن أبي طالب لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقي لتلك الكتابة رسم، ومن استمع فضيلة غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالاستماع، ومن نظر إلى كتابة في فضائله غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالنظر، ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: النظر إلى علي بن أبي طالب عبادة، ولايقبل الله إيمان عبد إلاّ بولايته والبرائة من أعدائه.(١)

وفي الكافي باسنإده عن أبي حمزة، قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: إنّما يعبد الله من يعرف الله، فأمّا من لا يعرف الله فإنّما يعبده هكذا ضلالاً، قلت: جعلت فداك فما معرفة الله؟ قال: تصديق الله عزّ وجلّ وتصديق رسول الله صلى الله عليه وآله وموالاة علي عليه السلام والائتمام به وبالأئمة عليهم السلام والبرائة إلى الله عزّ وجلّ من عدوّهم، هكذا يعرف الله.(٢)

وفي الوسائل ومجمع البيان عن أبي حمزة الثمالي قال: قال لنا علي بن الحسين عليهما السلام: أيّ البقاع أفضل؟ فقلنا: الله ورسوله وابن رسوله أعلم، فقال: أفضل البقاع لنا ما بين الركن والمقام، ولو أنّ رجلاً عمّر ما عمّر نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك المكان ثمّ لقي الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئاً.(٣)

وفي الوسائل أيضاً بإسناده عن المعلّى بن خنيس قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا معلّى لو أنّ عبداً عبد الله مائة عام ما بين الركن والمقام، يصوم النهار ويقوم الليل حتّى يسقط حاجباه على عينيه، ويلتقي تراقيه هرماً جاهلاً بحقّنا لم يكن له ثواب.(٤)

وفيه أيضاً عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: نزل جبرئيل على النبيّ

---

(١) رواه الصدوق في الأمالي ١١٩/ ح٩؛ والمجلسي في البحار ٣٨: ١٩٦.

(٢) الكافي ١: ١٨٠/ ح١.

(٣) وسائل الشيعة ١: ١٢٢/ ح ٣٠٨؛ تفسير مجمع البيان ٢: ٣٤٩.

(٤) وسائل الشيعة ١: ١٢٢/ ح٣٠٩.

صلى الله عليه وآله فقال: يا محمّد، السلام يقرؤك السلام ويقول: خلقت السماوات السبع وما فيهنّ وخلقت الأرضين السبع ومن عليهنّ، وما خلقت موضعاً أعظم من الركن والمقام، ولو أنّ عبداً دعاني منذ خلقت السماوات والأرض ثمّ لقيني جاحداً لولاية علي لأكببتُه في سقر.[١]

وروى علي بن إبراهيم القمّي بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام (في حديث) قال: ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضى الرحمن الطاعة للإمام بعد معرفته، أما لو أنّ رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحجّ جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه وتكون جميع أعماله بدلالته، ما كان له على الله حقّ في ثوابه ولا كان من أهل الايمان.[٢]

وبالتالي: فقد تحصّل من هذه الأخبار وغيرها من الأخبار الكثيرة أنّ معرفة الإمام والطاعة له شرط في صحّة الفروع والأصول، كما ظهر أنّ اللازم أخذ الاحكام الشرعيّة والمسائل الدينيّة عنهم، لأنّهم الباب الذي أمر الله أن يؤتى منه حيث قال: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها﴾.[٣]

روي في الصافي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: نحن البيوت التي أمر الله أن تُؤتى أبوابها، نحن باب الله وبيوته التي يُؤتى منه، فمن تابعنا وأقرّ بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها، ومن خالفنا وفضّل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها، إنّ الله لو شاء عرّف نفسه حتّى يعرفونه ويأتونه من بابه، ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله وبابه الذي يُؤتى منه، قال: فمن عدل عن ولايتنا وفضّل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها، وإنّهم عن الصراط لناكبون.[٤]

---

(١) وسائل الشيعة ١: ١٢٣/ ح٣١١.

(٢) رواه الكليني في الكافي بإسناده عن عليّ بن إبراهيم ٢: ١٨ - ١٩ / ح٥.

(٣) البقرة: ١٨٩.

(٤) تفسير الصافي ١: ٢٢٨.

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: كلّ من دان الله عزّ وجلّ بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول وهو ضالّ متحيّر والله شانئ لأعماله، ومثله كمثل شاة ضلّت عن راعيها وقطيعها فهجمت ذاهبة أو جائية يومها، فلمّا جنّها الليل بصرت بقطيع غنم مع غير راعيها فحنّت إليها واغترّت بها فباتت معها في مربضها، فلما أن ساق الراعي قطيعه أنكرت راعيها وقطيعها، فهجمت متحيّرة تطلب راعيها وقطيعها، فبصرت بغنم مع راعيها فحنّت إليها واغترّت بها فصاح بها الراعي: إلحقي براعيك وقطيعك فأنت تائهة متحيّرة عن راعيك وقطيعك، فهجمت ذعرة متحيّرة تائهة لا راعي لها يرشدها إلى مرعاها أو يردها، فبينا هي كذلك إذ اغتنم الذئب ضيعتها فأكلها، وكذلك ـ والله يا محمد ـ من أصبح من هذه الأمة ولا إمام له من الله عزّ وجلّ ظاهر عادل أصبح ضالاً تائهاً، وإن مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق، واعلم يا محمد أنّ أئمّة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله عزّ وجلّ، قد ضلّوا، وأضلّوا فأعمالهم التي يعملونها ﴿كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضلالُ الْبَعِيدُ﴾[1] [2].

* * *

(١) البقرة: ٢٦٤.

(٢) الكافي ٢: ١٨٣ - ١٨٤/ ح٨.

من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام:

[في المعروف والانفاق]

«وَلَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ مِنَ الْحَظِّ فِيمَا أَتَى إِلَّا مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ وَثَنَاءُ الْأَشْرَارِ وَمُقَالَةُ الْجُهَّالِ مَا دَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ مَا أَجْوَدَ يَدَهُ وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللهِ بَخِيلٌ فَمَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ وَلْيَفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَ وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ فَإِنَّ فَوْزاً بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا وَدَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ».[1]

* * *

لمّا كان لواضع المعروف ـ سواءً كان في أهله أو غير أهله ـ ثناء من الناس ومدح له بالكرم والبذل، كان ممّا يتميز به وضعه في غير أهله عن وضعه في أهله: أنّ الأوّل إنّما يحصل به لواضعه الحمد من لئام الناس من السفهاء والأشرار والجهال، لعدم معرفتهم بوضع الأشياء في مواضعها التي هي مقتضى العقل الذي به نظام أمور الدنيا وقوام نوع الانسان في الوجود، مع أنّه في الحقيقة وعند أولي الألباب العارفين بمواقع المعروف بخيل في جنب الله تعالى، وأمّا الثاني ـ أي واضع المعروف في أهله ـ فتحصل له المحمدة من الكلّ في الدنيا، محمدة مطابقة للحقّ مع الثواب الجزيل في الأخرى.

[مواضع المعروف]:

ثم نبّه عليه السلام على مواضع المعروف وأمر بوضعه فيها، وذكر منها خمسة:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ٧٤، ط مكتبة المرعشي النجفي. قم.

الأوّل صلة الرحم، الثاني حسن الضيافة، الثالث فكّ الأسير والعاني، الرابع إعطاء الفقير والغارم ـ وهو من عليه دين ـ الخامس الحقوق الواجبة على أهلها كالزكاة، والمستحبّة كالصدقات، وأشار بالنوائب إلى ما يلحق الانسان من المصادرات والقرارات التي يفكّ بها الانسان من أيدي الظالمين وألسنتهم، والإنفاق في ذلك من الحقوق الواجبة على الانسان.

ونبّه عليه السلام على أنّ الانفاق في هذه الوجوه إنّما يكون وضعاً للمعروف في موضعه إذا قصد به وجه الله تعالى، فأمّا إذا قصد به الرياء والسمعة فهو وإن عُدّ في ظاهر الشريعة مُجزياً إلاّ أنّه غير مُجزٍ ولا مقبول في باطنها.

وقوله عليه السلام: «فإنّ فوزاً بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ودرك فضائل الآخرة» إشارة إلى ما يتميّز به وضع المعروف في أهله: وهو شرف مكارم الدنيا من الذكر الجميل بين الناس والجاه العريض، ودرك فضائل الآخرة: وهي درجات الثواب الجزيل الموعود لأولي الفضائل النفسانيّة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أوّل من يدخل الجنّة المعروف وأهله، وأوّل من يرد عليَّ الحوض».[1]

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ البركة أسرع إلى البيت الذي يمتار منه المعروف من الشفرة في سنام الجزور أو من السيل إلى منتهاه».[2]

[تعاريف للمعروف]:

المعروف: اسم جامع لكل فعل يعرف حُسنه بالعقل والشرع.

المعروف: اسم جامع لما عرف من طاعة الله سبحانه، والاحسان إلى الناس في الواجب والمندوب.

---

(١) مكارم الاخلاق: ١٣٦؛ عوالي اللئالي ١: ٣٧٧/ ح ١١٠.

(٢) الكافي ٤: ٢٩/ ح ٢.

المعروف ضدّ المنكر في معناه ومصداقه، والتباين بين المنكر والمعروف بنحو السلب الكلّي من الطرفين، فلا شيء من المنكر بمعروف، ولا شيء من المعروف بمنكر.

المعروف صفة شريفة معروفة، والمنكر صفة رديئة منكرة.

يختصّ المعروف بالأفعال الواجبة والمندوبة شرعاً وعقلاً، ولا يدخل فعل المباحات شرعاً وعقلاً في فعل المعروف، لأنّه خلو من الرجحان، ومن لا رجحان فيه لا خير فيه، والمعروف كلّه خير، ويختصّ المنكر بالمحرّمات شرعاً وعقلاً، فكلّ ما منع الشرع والعقل من فعله منكر.

وأمّا ما منع عنه الشرع والعقل على نحو التنزيه عن فعله بدون إلزام بالمنع وهو المكروه فلا ريب في خروجه عن دائرة المعروف، وهو أشدّ خروجاً من المباح، والمباح لا يدخل في المنكر، وأمّا المكروه فربّما كان بعض المكروهات من المنكرات إذا تكرّر فعله، وتفصيل ذلك في المباحث الفقهية.

يمتاز أهل المعروف بمعروفهم ولهم مكانة معروفة، وفي الحديث الشريف «من بذل معروفه آتاه الله جزاء معروفه» وفيه «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة»[١] يعني كما أنّهم يصنعون المعروف في الدنيا كذلك يصنعونه في الآخرة، يهبون حسناتهم لمن شاؤا كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «يُقال لهم في الآخرة: إنّ ذنوبكم قد غُفرت لكم فهبوا حسناتكم لمن شئتم وادخلوا الجنّة».[٢]

وفي حديث ابن عباس قال: «يأتي أهلُ المعروف يوم القيامة فيُغفر لهم لمعروفهم وتبقى حسناتهم تامّة، فيعطونها لمن زادت سيئاته على حسناتهم فيُغفر له فيدخلون الجنّة، فيجتمع لهم الاحسان إلى الناس في الدنيا والآخرة».[٣]

---

(١) فيض القدير ١: ٦٩٥؛ النهاية في غريب الحديث ٣: ٢١٦.

(٢) الكافي ٤: ٢٩/ ح٢.

(٣) النهاية في غريب الحديث ٣: ٢١٧.

وفي الحديث «ليس شيء أفضل من المعروف إلاّ ثوابه» وفيه «ليس كلّ من يحبّ أن يصنع المعروف إلى الناس يصنعه، وليس كلّ من يرغب فيه يقدر عليه، ولا كلّ من يقدر عليه يؤذن له فيه، فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة والإذن تمّت السعادة للطالب والمطلوب إليه».(١)

وفي الحديث دلالة على أنّ الأعمال الخيريّة تحتاج إلى التوفيق من الله سبحانه بعد الرغبة والقدرة.

جاء عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «إنّ بقاء المسلمين وبقاء الإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف فيها الحق ويصنع المعروف، وإنّ من فناء الإسلام وفناء المسلمين أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف فيها الحقّ ولا يصنع فيها المعروف».(٢)

وقال عليه السلام مخاطباً لزرارة: «ثلاثة إن تعلّمهنّ المؤمن كانت زيادة في عمره وبقاء لنعمته عليه، فقلت: وما هنّ؟ فقال: تطويله في ركوعه وسجوده في صلاته، وتطويله لجلوسه على طعامه إذا أطعم على مائدته، واصطناعه المعروف إلى أهله».(٣)

وقوله عليه السلام: «صنائع المعروف تدفع ميتة السوء وتقي مصارع الهوان».(٤)

وهذا يدلّ على أنّ فعل الاحسان إلى الناس والرفق بهم سببٌ للوقاية من موارد الذل والهوان.

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: فداك آباءنا وأمّهاتنا، إنّ أصحاب المعروف في الدنيا عُرفوا بمعروفهم، فبم يعرفون في الآخرة؟ فقال صلى الله عليه وآله: إنّ الله إذا أدخل أهل الجنّة الجنّة أمر ريحاً

---

(١) الكافي ٤: ٢٦/ ح٣؛ من لا يحضره الفقيه ٢: ٥٥ - ٥٦/ ح١٦٨٦.

(٢) الكافي ٤: ٢٥/ ح١؛ مستدرك الوسائل ١٢: ٣٣٩/ ح١٤٢٢٥.

(٣) الكافي ٤: ٥٠/ ح١٥.

(٤) من لا يحضره الفقيه ١: ٢٠٥/ ح٦١٣.

عبقة طيّبة فلصقت بأهل المعروف، فلا يمرّ أحد منهم بملأ من أهل الجنّة إلاّ وجدوا ريحه فقالوا: هذا من أهل المعروف».[١]

وذو المعروف الذي يشير إليه الإمام عليه السلام هو كلّ من يُسدي خيراً ومعروفاً إلى أحد، ومن أجلّ أفراده هو الله سبحانه، فهو أوّل المحسنين، وهو أوّل ذوي الخير، فيجب شكره عن طريق العبادة والاخلاص له، وعن طريق ترك ما سواه والتوجّه التامّ إليه، فإذا كان ذلك فقد حصل الشكر، وإلاّ فالمعروف الذي ليس يُقابَل بشكر يُخاف عليه الزوال، والإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إذا رأيتم أوائل النعم فلا تُنفروا أقصاها بقلّة الشكر»[٢] فقلّة الشكر يبعد النعم، وإنّ الشكر عليها مجلبة لها ومدعاة.

[أنواع المعروف]:

والمعروف ضربان: ضرب عام يقتضي الجهر به والاعلان له، وضرب خاص لا ينبغي له غير الاخفاء والكتمان.

فمن الضرب الأول ما يكون المجد في إعلانه والشرف، مثل صدقات الفرائض وغنائم الجيوش ومكافأة الملوك على الأعمال الصالحة بعلامات الشرف وما يشابهها، ممّا يزيد الجهر بها والإعلان لها قيمتها، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٣] قال ابن عباس: صدقات السر في التطوّع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرّها بسبعين ضعفاً.

والضرب الآخر هو الذي لا تكون العطايا فيه من شأنها ارتفاع القدر وازدياد

---

(١) الكافي ٤: ٢٩/ ح١؛ بحار الانوار ٨: ١٥٦/ ح٩٥.

(٢) مشكاة الأنوار: ٧٢؛ بحار الانوار ٦٨: ٥٣/ ح٨٥.

(٣) البقرة: ٢٧١.

الشرف، بل من شأنها سدّ الحاجة ودفع العوز ومداركة الافتضاح، وهذا يجب فيه الكتمان وجوباً محتوماً، وألاّ يعلم بالصنيع أحد سوى المقصود وحده بها.

ويتفرّع من المعروف أمور: منها الأمر بالمعروف، ومنها العفو عن المسيء، ومنها الاحسان.

لا نرتاب بأنّ الأمر بالمعروف من أهله في محلّه ربّما كان أعظم من فعل المعروف، لأنّ فيه حفظ النظام بين أفراد النوع الانسانيّ، وبه اكتساب الفضائل الدينيّة والعقليّة، وإزالة الأخلاق الفاسدة والعمل بما فيه الحياة في الدارين.

ولا أراك تشكّ بأنّ التهذيب والتعليم والالزام لشخص بما فيه ظهور كماله وجميل صنعه وحسن سيرته خير له من إعطائه ألف درهم يتنعّم بها في معاشه مع تلوّثه بأقذار المفاسد وتهوّره في هوّة الجهالة.

الأمر بالمعروف وفعل المعروف واجبان بحكم العقل والشرع وجوباً كفائياً على كافة العقلاء، ولا شرط لوجود فعل المعروف سوى القدرة عليه.

[شروط تأثير الأمر بالمعروف]:

إنّ تأثير الأمر بالمعروف له شروط يتوقّف تحريك خطابه للمكلّفين عليها:

الأول: القدرة على الأمر بالمعروف، وغير القادر لا يجب عليه.

الثاني: العلم أو الظنّ أو احتمال التأثير فيمن يأمره بالمعروف.

الثالث: أن يكون الآمر بالمعروف عاملاً به، وإلاّ لم يكن أهلاً لأن يأمر به، لأنّ فاقد الشيء لا يُعطيه، نعم فاقد الشيء لا يعطيه، إذ كلّ شيء تتصوّره وترى أنّك تفقده يستحيل أن تعطيه لمن يطلبه منك، فالمرتكب للمنكر نجد من المنكر نهيه عنه فضلاً عن كونه لا يؤثّر نهيه بأحد، والتارك للفعل الحسن مع قدرته عليه لا يحسن منه أن يأمر به ولا يؤثّر أمره بأحد، كلّ ذلك لأنّ فاقد الشيء لا يُعطيه.

جاء النصّ في القانون الاسلامي على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[١]

دلّت هذه الآية الشريفة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصرّحت بانحصار الفلاح فيمن قام بهما، والعقل يحكم بلزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظاً للنظام وسدّاً لأبواب الفساد.

ومن ظاهر الآية عرفنا أنّ الوجوب كفائي حيث قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ ولو كان الوجوب عينيّاً لكان الخطاب بغير هذا البيان.

وقال سبحانه في صفة من آمن بالله حقيقة الايمان: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.[٢]

فانظر كيف قرن إيمانهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تنبيهاً على أهميّة وجوبهما وأثرهما.

قال صاحب الدعوة الإسلاميّة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه»،[٣] وقال صلى الله عليه وآله حين سُئل عن خير الناس: «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأرضاهم»[٤] وقال صلى الله عليه وآله: «لتأمرنّ بالمعروف وتنهونّ عن المنكر أو ليسلطنّ عليكم سلطاناً ظالماً لا يُجلّ كبيرَكم ولا يرحم صغيرَكم، وتدعو خيارُكم فلا يُستجاب لهم، وتستنصرون فلا تُنصرون، وتستغيثون فلا

(١) آل عمران: ١٠٤.

(٢) آل عمران: ١١٤.

(٣) تفسير مجمع البيان ٢: ٣٥٩.

(٤) تفسير مجمع البيان ٢: ٣٥٩.

تُغاثون»[١] وقال صلى الله عليه وآله: «يأتي على الناس زمان لئن يكون فيهم جيفة حمار أحبّ إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر».[٢]

ومن ضروب المعروف العفو عن المسيء، العفو عن أرباب الهفوات، والتجاوز بإقالة العثرات، والحلم عن مقترفي الزلّات، والصفح عن ذوي الهيئآت، وإسداء الاحسان وفعل الخيرات، كلّ ذلك معدود من محاسن الحسنات ومكارم الأخلاق، وقد نطق بذلك القرآن الكريم في كثير من الآيات وصرّحت به السنّة النبوية على ألسنة الرواة الثقات، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَالْكاظِمينَ الْغَيْظَ وَالْعافينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنينَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحيمٌ﴾.[٥]

وقال تعالى: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَليظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[٦] وقال تقدّس اسمه يخاطب نبيّه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلينَ﴾[٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.[٨]

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رأيت قصوراً مشرفة على الجنّة، قلت: يا جبرئيل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس».[٩]

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) البقرة: ٢٣٧.

(٤) آل عمران: ١٣٤.

(٥) النور: ٢٢.

(٦) آل عمران: ١٥٩.

(٧) الاعراف: ١٩٩.

(٨) الشورى: ٣٧.

(٩) المستدرك على الوسائل ٩: ١٤/ ح ١٠٠٧٠.

وحَسبُك في هذا الباب ما فعله النبي صلى الله عليه وآله مع مشركي قريش الذين آذوه واستهزأوا به وأخرجوه من دياره، ثمّ قاتلوه وحرّضوا عليه غيرهم من مُشركي العرب حتّى تمالأ عليه جمعُهم، ثمّ لمّا فتح الله عليه مكّة ما زاد أن عفا وصفح وقال: ما ترون أنّي فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطُلقاء.[١]

وظفر أمير المؤمنين عليه السلام بأهل البصرة، فلمّا دخلها واجتمع عليه أهلها خطبهم، وقال: يا أهل البصرة يا جند المرأة وأتباع البهيمة، رغى فرجفتم، وعُقر فانهزمتم، أحلامكم رقاق، وعبيدكم شقاق، وأنتم فسقة مرّاق، يا أهل البصرة نكثتم بيعتي وتظاهرتم على عداوتي، فما تروني صانعاً بكم وما تظنّون بي؟ قالوا: نظنّ خيراً، ونعلم أنّك ظفرتَ وقدرت، فإن عاقبتَ فقد استحققنا عقوبة المجرمين، وإن عفوتَ فالعفو أحبّ إلى ربّ العالمين. فأطرق عليه السلام برأسه إلى الارض ثم رفع رأسه وقال: اذهبوا وإيّاكم والفتنة، فإنّكم أوّل من شقّ عصا الأمّة ونكث البيعة، فأخلِصوا إلى الله التوبة.[٢]

خرج الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام إلى المسجد فسبّه رجل، فقصده غلمانُه ليضربوه ويؤذوه، فنهاهم عليه السلام وقال لهم: كفّوا أيديكم عنه، ثمّ التفت إلى ذلك الرجل وقال: يا هذا أنا أكثر ممّا تقول، وما لا تعرفه منّي أكثر ممّا عرفته، فإن كان لك حاجة في ذِكره ذكرتُه لك، فخجل الرجل واستحيا، فخلع عليه زين العابدين قميصه وأمر له بألف درهم، فمضى الرجل وهو يقول: أشهد أنّ هذا الشاب ولد رسول الله صلى الله عليه وآله.[٣]

وذكر المؤرّخ ابن خلكان في ترجمة مجد الملك ابن شمس الخلافة

---

(١) بحار الانوار ٢١، ١٣٢.

(٢) الجمل للشيخ المفيد: ٢١٧ - ٢١٨.

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٩: ١٢٣.

أحد وزراء الخلفاء في مصر المتوفّى في حدود الستمائة، أنّ هذا الوزير ذكر في كتاب له ألّفه في محاسن المحاضرة وآداب المسامرة، فقال: إنّ عصام بن المصطلق _ وكان شاميّاً أُموياً _ قال: دخلت المدينة فرأيت الحسين بن علي عليه السلام ومعه غلمانه وحاشيته فأعجبني سمته ورواؤه وحسنه وبهاؤه، وأثار الحسد ما كان يخفيه صدري لأبيه من البغض، فجئت إليه وقلت: أنت ابن أبي تراب؟ فقال: نعم، فبالغتُ في شتمه وشتم أبيه، فنظر إلي نظر عاطف رؤوف برقّة ورحمة ثمّ قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾[1] ثم قال: خفّض عليك، أستغفرُ الله لي ولك، إنّك لو استعنتنا لأعنّاك، ولو استرفدتنا لرفدناك، ولو استرشدتنا لأرشدناك. قال عصام: فندمت على ما قلت، وتوسّم مني الندم على ما فرط مني، فقال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[2] ثمّ قال: أمن أهل شام أنت؟ قلت نعم، فقال: «شنشنةٌ أعرفها من أخزم» حيّانا الله وإياك، انبسِط إلينا في حوائجك وما يعرض لك تجدنا عند أفضل ظنّك إن شاء الله.

قال عصام: فضاقت علي الأرض بما رَحُبت ووددت لو أنّها ساخت بي، ثمّ انسللت من بين يديه وما على وجه الأرض أحب إليّ منه ومن أبيه.[3]

[الإمام الكاظم عليه السلام والعمري]:

وفي كتاب (إعلام الورى) للطبرسي، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي،

---

(١) الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠٢.

(٢) يوسف: ٩٢.

(٣) أخرجه القرطبي في تفسيره ٧: ٣٥٠ - ٣٥١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤: ٢٢٤ - ٢٢٥.

في أحوال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: أنّ رجلاً من ولد آل الخطاب كان بالمدينة يؤذي أبا الحسن موسى الكاظم عليه السلام إذا رآه ويشتم عليّاً، فأراد بعض موالي الإمام الوقيعة فيه، فنهاه الإمام أبو الحسن أشدّ النهي، ثم سأل عليه السلام عن العمري فقيل له: «إنّ له زرعاً بناحية من نواحي المدينة، فركب عليه السلام إليه فوجده في زرعه، فدخل المزرعة وهو راكب على حماره، فصاح به الخطّابيّ: لا تطأ زرعنا، فوطئه أبو الحسن بالحمار ولم يلتفت إذ لم يجد طريقاً يسلكه غير ذلك، حتّى إذا وصل إليه نزل وباسطه في القول وسأله عمّا غرمه في زرعه؟ فقال: غرمتُ مائة دينار، ثمّ سأله عمّا يرجو أن يصيب منه؟ قال: مأتي دينار، فدفع إليه أبو الحسن عليه السلام ثلثماءة دينار لما غرمه ولما يرجوه، وبشّره بسلامة زرعه وإنتاجه، ففرح العمريّ بهذا الخلق الكريم الممتزج بالحلم والسخاء والبشارة بنتاج عمله، فصاح: الله أعلم حيث يجعل رسالته، وقبّل رأسه ويده وسأله الصفح عمّا فرط من القول فيه، فتبسّم أبو الحسن عليه السلام وانصرف إلى أصحابه يقول: أيّما أحسن: ما أردتم أو ما صنعته، إنّني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم، وهدى اللهُ الرجلَ وصار من مواليه».[1]

[المأمون وعفوه عن عمّه إبراهيم]:

ومن رائع ما أثر في العفو عند القدرة ما رُوي عن المأمون أنّه لمّا خرج عليه عمّه إبراهيم بن المهدي وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون وكان إذ ذاك بخراسان، فلمّا بلغه الخبر قصد العراق، فلمّا دخل بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي وعاد العبّاسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون، ولم يزل المأمون متطلّباً إبراهيم حتّى أخذه مستنقباً مع نسوة، فحُبس ثم أُحضر حتّى وقف بين يدي المأمون فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال له

(١) إعلام الورى ٢: ٢٦.

المأمون: لا سلّم الله عليك ولا قرّب دارك، استغواك الشيطان حتى حدّثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام، فقال إبراهيم: مهلاً يا أمير المؤمنين فإنّ ولّي الأمر يحكم في القصاص والعفو، والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة، ومن تناول الاغترار بما مدّ له من أسباب الرجاء أمن عادية الدهر على نفسه، وهجمت به الأيام على التلف، وقد جعلك الله فوق كلّ ذي ذَنْب كما جعل كلّ ذي ذنب دونك، فإن أخذت فبحقّك، وإن عفوت فبفضلك، والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين، ثم قال:

ذنبي إليك عظيمٌ ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقّك أو لا ... فاصفح بعفوك عنه
إن لم أكن في فِعالي ... من الكرام فكُنه

فلمّا سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال: يا إبراهيم القدرة تذهب بالحفيظة، والندم توبة، وبينهما عفو الله وهو أعظم ممّا يحاول وأكثر ممّا يؤمّل، ولقد حبّب إليّ العفو حتّى خفت ألاّ أُوجر عليه، لا تثريب عليك، وردّ أمواله جميعها إليه، فقال فيه مخاطباً:

رددتَ مالي ولم تمنن عليّ به ... وقبل ردّك مالي قد حقنت دمي
فإن جحدتُكَ ما أوليت من كرم ... إنّي لباللؤم أولى منك بالكرم[1]

* * *

وحُكي أنّه أشرف يوماً على قصره فرأى رجلاً يكتب بفحمة على حائط قصره فقال لبعض خدمه: إذهب إلى ذلك الرجل فانظر ما كتب وائتني به، فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً وقبض عليه وقال: ما كتبت؟ فإذا هو قد كتب بيتين أوّلهما:

يا قصر جمّع فيك الشؤم واللؤمُ ... متى يعشعش في أركانك البومُ

(١) الفرج بعد الشدّة للقاضي التنوخي ٢: ٢٥٢ - ٢٥٣.

فقال له الخادم: أجِب أمير المؤمنين، فقال الرجل: سألتك بالله لا تذهب بي إليه، فقال الخادم: لا بدّ من ذلك، ثمّ ذهب به، فلمّا مثل بين يدي المأمون وأعلم بما كتب، قال له المأمون: ويلك ما حملك على هذا؟ فقال يا أمير المؤمنين إنّه لا يخفى عليك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال والحلل والطعام والشراب والفرش والأواني والأمتعة والجواري والخدم وغير ذلك ممّا يقصر عنه وصفي ويعجز عنه فهمي، وإنّي قد مررت عليه الآن وأنا في غاية الجوع والفاقة، فوقفت مفكّراً في أمري وقلت في نفسي: هذا القصر عامر عال وأنا جائع ولا فائدة لي فيه، فلو كان خراباً ومررت به لم أعدم رخامة أو خشبة أو مسماراً أبيعه وأتقوّت بثمنه، أو ما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرءٍ ... نصيبٌ ولا حظّ تمنّى زوالها

وما ذاك من بُغضٍ لها غير أنّه ... يُرجّي سواها فهو يهوي انتقالها

فقال المأمون: يا غلام أعطه ألف درهم، ثم قال: هي لك في كلّ سنة ما دام قصرنا عامراً بأهله مسروراً بدولته.[1]

* * *

[الرشيد وعفوه عن الخارجي]:

ومن ذلك ما رُوي من أنّ الرشيد بن المهدي خرج عليه خارجيّ رام زوال ملكه وإفساد دولته، فجهّز له جيشاً وأنهض الناس والجند للخروج لقتاله، فلمّا توجه الجيش إليه وظفروا به أحضروه إلى دار الخلافة، فلما دخل على الرشيد قال له: ما تريد أن أصنع بك؟ قال: اصنع بي ما تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه، وهو أقدر عليك منك عليَّ، فأطرق الرشيد مليّاً ثم رفع رأسه وأمر باطلاقه، فلمّا خرج قال بعض الحاضرين: يا أمير المؤمنين تقتل رجالك

---

(١) بحار الأنوار ٦١: ٣٣٢ - ٣٣٣.

وتفنى أموالك وتظفر بهذا الذي خرج عليك وأفسد في بلادك وتُطلقه بكلمة واحدة، تأمّل يا أمير المؤمنين هذا الأمر فإنّه يُجرّئ عليك أهل الفساد، فأمر الرشيد بردّه فلمّا عاد ومثل بين يديه علم أنّه قد سُعي به وأُشير على الخليفة بقتله، فقال: يا أمير المؤمنين لا تُطع فيّ مشيراً يمنعك عفواً تدّخر به عند الله يداً، ويبعثك على الانتقام الذي ليس من مكارم الأخلاق، واقتدِ بالله تعالى فإنّه لو أطاع فيك مُشيراً ما استُخلِفتَ طرفة عين، وأحسِن كما أحسن الله اليك، فأمر باطلاقه وقال: لا تعاودوني فيه.

* * *

[معن بن زائدة وعفوه عن الاسرى]:

وحكي عن معن بن زائدة أنّه أُتي بجملة من الأسرى فعرضهم على السيف، فقال له بعضهم: أصلح الله الأمير نحن أسراك وبنا جوع وعطش فلا تجمع علينا الجوع والعطش والقتل، فأمر لهم بطعام وشراب، فأكلوا وشربوا ومعن ينظر إليهم، فلمّا فرغوا قال الرجل: أصلح الله الأمير كنّا أسراك ونحن الآن أضيافك، فانظر ما تصنع بأضيافك، قال: قد عفوت عنكم، فقال الرجل: أيّها الأمير ما ندري أيّ يوم أشرف، يوم ظفرك بنا أو يوم عفوك عنّا، فأمر لهم بمال وكسوة.[1]

المروءة النادرة:

لمّا أفضت الخلافة إلى بني العباس اختفت رجال من بني أمية منهم إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك، وكان رجلاً عالماً أديباً كاملاً وهو في سنّ الشبيبة، فأخذوا له أماناً من السفاح، فقال له يوماً: حدّثني عمّا مرّ بك في اختفائك، قال: كنت مختفياً بالحيرة في منزل شارع على الصحراء، فبينما أنا على ظهر البيت إذ نظرت أعلاماً سوداً قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة،

---

(١) الفرج بعد الشدّة ٢: ٢٨٤.

فتخيّلت أنها تريدني، فخرجت من الدار متنكّراً حتى أتيت الكوفة ولا أعرف أحداً أختفي عنده، فبقيت في حيرة فإذا أنا بباب كبير رَحْبته واسعة، فدخلت فيها فإذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس قد دخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه، فقال: من أنت وما حاجتك؟ فقلت: رجل خائف على نفسه وقد استجار بمنزلك، فأدخلني منزله ثم صيّرني في حجرة تلي حرمه، وكنت عنده في ذلك على ما أحبّه من مطعم ومشرب وملبس، لا يسألني عن شيء من حالي، إلاّ أنّه يركب في كلّ يوم ركبة، فقلت له يوماً: أراك تُدمن الركوب ففيم ذلك؟ قال: إبراهيم بن سليمان قتل أبي صبراً وقد بلغني أنّه مُختفٍ أطلبه لأدرك منه ثاري، فكثر والله تعجّبي، وقلت: القدر ساقني إلى حتفي في منزل من يطلب دمي وكرهت الحياة، فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه، فأخبرني فعلمت أنّ الخبر صحيح وأنا الذي قتلت أباه، فقلت له: يا هذا قد وجب علي حقّك، ومن حقّك أن أدلّك على خصمك وأقرّب إليك الخطوة، قال: وما ذاك؟ قلت: أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك فخذ بثارك، فقال: إنّي أحسبك رجلاً قد مضّه الاختفاء فأحببت الموت، فقلت: لا والله ولكن أقول لك الحقّ يوم كذا وكذا، فلمّا علم صدقي تغيّر لونه واحمرّت عيناه وأطرق ملياً، ثمّ قال: أما أنت فستلقى أبي عند حكمٍ عدل فيأخذ بثاره، وأمّا أنا فغير مُخفر ذمّتي، فاخرج عني فلست آمن عليك من نفسي، وأعطاني ألف دينار فلم آخذها منه وانصرفت عنه، فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين.[1]

* * *

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٦: ٤١٦ - ٤١٧، ترجمة إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك بن مروان.

ومن وصيّة له إلى ولده الحسن عليه السلام:

[في الدعاء والتوبة إلى الله وعفوه تعالى]

«وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذي بِيَده خَزَائِنُ السَّمَاوَات وَالْأَرْض قَدْ أَذِنَ لَكَ في الدُّعَاء وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَة وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْه وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَة وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَة وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَة وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضيحَةُ بِكَ أَوْلَى وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ في قَبُول الْإِنَابَة وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَة وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَة بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْب حَسَنَةً وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَاب وَبَابَ الِاسْتِعْتَاب فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ فَأَفْضَيْتَ إِلَيْه بِحَاجَتِكَ وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ وَشَكَوْتَ إِلَيْه هُمُومَكَ وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِه مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِه غَيْرُهُ مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ ثُمَّ جَعَلَ في يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِه بِمَا أَذِنَ لَكَ فيه مِنْ مَسْأَلَتِه فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاء أَبْوَابَ نِعْمَتِه وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِه فَلَا يُقْنِطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِه فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّة وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ وَأُوتِيتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فيه هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ».[1]

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٨٧ - ٨٨، طبع مكتبة المرعشي النجفي - قم.

إنّ الإمام علي عليه السلام ينحو مع ولده المحبوب نحواً خاصّاً يريده على أن يسأل الله سبحانه ويُلحف في السؤال، يريده أن يستعين الله على كلّ شيء مهما كان أمره.

وإنّه ليوحي عليه السلام بكلماته هذه النيّرة إلى ولده البارّ بأنّ خالقه وبارئه والذي بيده مقادير الأمور قد أفاض عليه نِعماً جساماً لا يستطيع لها عدّاً ولا حساباً. ولا يستطيع هو ومن في سواه أن يؤدّوا حقّها من الشكر.

[الدعاء وشرائط القبول]:

فالله سبحانه قد سهّل على الانسان فأذن له في الدعاء بعد أن وعده الاجابة إلى كلّ ما تصبو إليه نفسه ما لم يخالف ذلك ما ترتئيه الإرادة الإلهيّة.

وقد أمر العبد أن يسأله ليعطيه، فهو سبحانه يقول: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عبادي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.(١)

بَيد أنّ الدعاء مشروط بأن يكون على وجه الاستكانة والخضوع مع الاعتراف بالذلّة والنقص والاضطرار والعجز قلباً ولساناً وهيئة، وأنّه لا فرج له إلاّ من لدن سيده، ولا خير له إلاّ من عنده قولاً وضميراً، وهل إخلاص العبادة إلاّ هذه الأحوال، فكان الدعاء بهذه الكيفيّة من أشرف العبادة، وبحسب العبادة يتمّ الشرف الانسانيّ ويخلص الغرض الإلهيّ.

الدعاء من مستلزمات العبادة، إذ هو الصلة التي تربط بين الانسان وخالقه، والدعاء فطري في الإنسان، فهو يشعر بحنين إلى الله، يفزع إليه عند الشدائد ويتضرّع إليه في كشف السوء عنه، فهو ضعيف أمام أحداث الحياة لا يجد سنداً لضعفه غير الدعاء، ولذلك اعتنى القرآن الكريم بالدعاء وحثّ عليه، فقد جاء فيه ﴿وقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٢) وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

---

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) غافر: ٦٠.

عِبادَتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾[١] ففي هذه الآية وصف الله الدعاء بأنّه من العبادة التي يستحقّ من يستكبر عنها غضب الله.

والدعاء علاج نفسيّ لكثير من أمراض النفس، فالانسان بطبعه محتاج في مشكلاته لأن يُفضي بدخيلة نفسه إلى صديق حميم يخفّف عنه بعض ما يشعر به من الهمّ والحزن، وقد أجمع الأطباء النفسيّون على أنّ علاج التوتّر العصبي والآلام النفسيّة إنّما يتوقّف إلى حدّ كبير على الافضاء بسبب التوتّر ومنشأ القلق إلى صديق مخلص، فإنّ كتمانه ممّا يزيد المرض، فإذا أفضى الانسان المحزون إلى ربّه ما يعانيه وطلب منه ما يبتغيه فإنّه يشعر بطمأنينة ونفحة روحيّة تنتشله ممّا هو فيه من الهم والضيق، وذلك مع الايمان والاعتقاد التام بأنّ الله قريب منه مُجيب دعوته، كما أخبر بذلك القرآن بقوله: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ﴾[٢] الآية.

قيل في سبب نزول هذه الآية أنّ أعرابياً جاء الى الرسول صلى الله عليه وآله فقال: أقريب ربُّنا فنُناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت عنه الرسول، فأنزل الله هذه الآية.[٣]

[فوائد الدعاء]:

وقد شرع الإسلام الدعاء أيضاً للسموّ الروحيّ والترفّع عن شهوات الجسد الضارّة والعروج به إلى معارج الكمالات بجانب ما يطلبه الداعي من فضل الله وتسيير أموره وكشف الضرّ عنه، ولهذا يعلّم الله عباده المؤمنين كيف يدعونه بما ذكره على ألسنة أنبيائه وعباده الصالحين ممّا سنذكر بعضاً منه:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ﴾.[٤]

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) تفسير مجمع البيان ٢: ١٨.

(٤) إبراهيم: ٤٠.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾.(١)

﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.(٢)

﴿رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾.(٣)

﴿رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾.(٤)

﴿رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.(٥)

﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.(٦)

﴿رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً﴾.(٧)

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾.(٨)

﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾.(٩)

كلمة للعلاّمة السيّد هبة الدين الشهرستانيّ حول الدعاء تحت عنوان:

---

(١) الاحقاف: ١٥.

(٢) آل عمران: ٨.

(٣) البقرة: ٢٨٦.

(٤) الاعراف: ٢٣.

(٥) المؤمنون: ٩٤.

(٦) يونس: ٨٥.

(٧) الكهف: ١٠.

(٨) طه: ٢٥ و٢٦.

(٩) البقرة: ٢٠١.

أدعية القرآن:

«إنّ الله عزّ وجلّ أمر عباده بالدعاء ووعدهم الاستجابة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] وإنّ الله لا يُخلف الميعاد.

وقد كانت الأدعية المزبورة في القرآن العظيم أعلى أدعية العالمين شأناً، وأجمعها معنىً، وأوجزها لفظاً، وأسهلها حفظاً، وأفصحها عبارة، وأبلغها دلالة، وأثوبها تلاوة، هي الكلمات الإلهيّة التامّة، فالأحرى أن نكلّم الله بها، هي أسماؤه الحسنى وآياته العليا فادعوه بها، هي الكلم الطيّب الذي يصعد إليه، هي الدعوات الحسنى التي تُقبل لديه، فرأيت من اللازم المستحسن جمعها وتفريقها على أرباب الحوائج والمهمّات خدمة للمنيبين إليه، وذخيرة ليوم وُفودي عليه، إنّه لا يُضيع أجر من أحسن عملاً.

* * *

(١) غافر: ٦٠.

فصول أربعة

الأوّل: في حقيقة الدعاء

إنّ الدعاء في العرف العام طلب توجّه المدعوّ نحو الذي يدعوه. يقال: دعا زيد عمرواً أي استلفت فكره ونظره إلى نفسه بالنداء أو الاشارة أو التسمية أو غيرها، ومنه الآية ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾،[١] ويقال أيضاً: دعاه إلى بيته أو إلى طعامه، ومنه الآيتان ﴿إذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾[٢] ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ﴾.[٣]

ومعنى الدعاء في عرف الشريعة الإسلامية هو أيضاً طلب توجّه الله سبحانه نحو الداعي لكي يجيبه، إلاّ أنّ المراد من توجّه الباري عزّ اسمه هو توجّه فيضه وفضله، إذ يستحيل عليه تعالى أن يتوجّه بفكره أو بجسمه إلى أحد، كما إنّ المراد من إجابته أيضاً قضاؤه لحاجة عبده وإعطاؤه لسؤاله دون أن تكون إجابته بإشارة أو تلبية أو غيرها.

الفصل الثاني: في استحباب الدعاء وفوائده

قد عرفت أنّ حقيقة الدعاء طلب توجّه الله سبحانه نحو عبده بفيضه وفضله، فاعرف أيضاً أنّه بهذا المعنى سُنّة مؤكّدة بنصّ الكتاب العزيز وبالسنّة المتواترة، وعلى استحبابه إجماع طوائف المسلمين أجمع، ولا مفسدة فيه لدى العقول السليمة، بل العقول قاضية بحسنه، ناطقة بمصالحه وحكمه.

وفي خلال هذه الأعوام أخذ نزر من كبار المتفلسفة وأركان الضلالة وبغاة المتفرنجة ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾،[٤]

---

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) الاحزاب: ٥٣.

(٣) القصص: ٢٥.

(٤) الكهف: ١٠٤.

يُكثرون التساؤل عن فائدة الدعاء وحكمة تشريعه ومصالح التمسّك به، وكان جوابي المقنع لهم أوجه من القول، والجواب تختلف وجوهه بحسب اختلاف نزعات السائلين.

فمن تلك الوجوه أنّ أفكار الانسان مقدّمات أعماله، وسلسلة أفكاره معلّقة بحبال آماله، والأمل أقوى عامل في خياله، هذه قضايا مثبّتة في ألواح الأذهان كما هي ثابتة في صحائف الحقيقة والوجود، فما لم يشغل المرء دولاب خياله لم تنعقد فيه فرائد آماله، وما لم يكن للانسان أمل لا يصدر منه عمل، كما أنّ ظهور آمالك من صدور أعمالك، هذه حلقات في سلسلة الكون بعضها متّصل ببعض لا مناص لأحدها من الأخرى، فكلّما قوي خيالك قويت آمالك واشتدّ استحضارك لغايتك المطلوبة، ومهما اشتدّ استحضارك للغاية في نظرك ازداد توجّهك إليها وإلى مقدّماتها ومبادئها، ومتى ازداد توجّهك نحو أملك واستوثقت قوى عملك قوي عزمك ونشطت جوارحك وكنت إلى نيل المرام أقرب بحكم العقل والحسّ مع التجربة من دون ريبة أو خلاف، ولا شكّ في أنّ إلحاح الداعين ودعوات السائلين وضراعة الراغبين من أكبر العوامل في تقوية الفكر والخيال وتربية العزائم والآمال، وأنّها من أقوى المؤثّرات في استحضار المبادئ والغايات، وفي جمع الأفكار وتوجيهها نحو المقاصد والمقدمات. فلو لم يكن للدعاء أثر نافع في المجمع البشريّ غير هذا لكفى أيّما كفاية، وهل ينتفع المرء من شيء كانتفاعه من أمر يُقرّبه من آماله، ويشجّعه في مشاقّ أعماله، ويؤمّله نيل المهمّة، ويؤمنه صدق العزيمة (والغنائم بالعزائم).

سؤال وجواب:

سألني البعض: إنّنا ندعو الله كثيراً ولا يستجيب دعاءنا كما وعدنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ﴾[1] فأجبتهم: إن الله سبحانه

(١) البقرة: ١٨٦.

وتعالى يقول: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[١] فما رعيتم عهده وعبدتم عدوّكم وعدوّه، إذن فلا يجب على الله أن يفي بوعده وعهده معكم، لأنّه القائل وقوله الحقّ: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾،[٢] و﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾[٣] فمن لم يذكر الإله ولم يشكر آلاءه ورغب عِداه ورهب من عداه وعبد الشيطان واتّبع هواه ولم يفِ بعهده مع الله فما له استحقاق أن يستجيب الله دُعاه.

الفصل الثالث: في اقتران الدعاء بالاهتمام والعمل

إنّ كثيراً من قليلي العلم من ذوي العقول القاصرة من الذين حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء، تراهم إذا أقبلوا على الدعاء أدبروا عن العمل والاهتمام، وتركوا تدبير الأسباب الميسورة لهم، وزعموا أنّ الإقبال على الدعاء والتوكّل على الله ينافيان السعي وراء تدبير الأسباب المقرّبة نحو المطلوب، لكنّ ذلك وهمٌ ومضلّة وبدعة في الدين ومخالفة لسنّة سيّد المرسلين، فإنّه كان ـ بلا ريب ـ أعظم المتوكّلين على ربّ العالمين، وكان له الدعوة مستجابة، وكان صلى الله عليه وآله مع ذلك كلّه أكثر الناس تدبيراً للأسباب الممكنة، وأشدّهم توجّهاً نحو القوى الظاهرة، فكان صلى الله عليه وآله يحشد الجيوش المستعدّة ويستعمل القوى المعدّة، ويهتمّ بكلّ عِدّة وعُدّة، ويستعين بالقبائل وبالوسائل، وبالمال والرجال، يتّجر ويزرع، ويحفر الخندق، ويسترشد السالك، ويعرض بنفوس أعزّته وأحبّته المهالك، إلى غير ذلك.

فلماذا ـ يا ترى ـ يرتكب هذه المشاقّ ولم يقنع بالدعاء وحده، مع أنّ دعاءه أقرب إلى الاستجابة من كلّ إنسان، وكان في اكتفائه بالدعاء حفظ

---

(١) يس: ٦٠.

(٢) البقرة: ٤٠.

(٣) البقرة: ١٥٢.

النفوس من التلف وصيانة الأموال من الضياع، أليس أصحابه الكرام وأولياؤه والتابعين لسيرته عليه السلام أدرى وأعرف بحقائق الإسلام، وكانوا يتهالكون في سبيل الاستعانة بالوسائل والقوى، ويجتهدون سعياً وراء تدبير الأسباب الممكنة، كي تقرّبهم من إنجاح مقاصدهم وأمانيهم، ولم يكونوا قانعين مكتفين بالدعاء وحده وهم في دعائهم وتوكّلهم أفضل من كثير بكثير.

أليس القرآن العظيم يأمر الناس بتدبير الأسباب المقرّبة من النجاح واجتناب مناهج الخيبة، كما يأمرهم بدعاء الله سبحانه والتوجّه إليه والتوكّل عليه، فيقول عزّ اسمه في كتابه العزيز: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[1] ﴿وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ﴾[2] ﴿وأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلا ما سَعَى﴾[3] فاذن يا صاح «خُذ التوسطَ واجتنب التفريط والتورط».

تمسّك بالدعاء لمهمّاتك ولا تضجر من الالحاح في المسألة، ثمّ اجتهد أيضاً في تدبير الأسباب الموصلة، حتّى لا تكون في ترك الدعاء كالذين ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[4] ولا تكوننّ في تقاعدك وتقاعسك كالذين قالوا لنبيّهم: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنا هاهُنا قاعِدُونَ﴾[5] لأنّ الله قد فضّل المجاهدين على القاعدين وخصّهم بأجر عظيم.

الفصل الرابع: في آداب الدعاء والمسألة

إنّ الدعاء ـ كما عرفتَ ـ سنّة مؤكدة، والأمر به ثابت بنصّ القرآن والأحاديث المتواترة، وحُسنه أو استحبابه قضيّة ضروريّة من الدين بين المسلمين، والاستكبار عنه يجرّ إلى النار وبئس القرار، واليأس منه قنوط من رحمة الله أو إساءة ظنٍ به، وفي

---

(١) النساء: ٧١.

(٢) الأنفال: ٦٠.

(٣) النجم: ٣٩.

(٤) الحشر: ١٩.

(٥) المائدة: ٢٤.

المواظبة عليه ظفر وتوفيق، وعمله قربة إلى الله وزُلفى وحسن مآب.

ولا يستلزم الدعاء من الآداب والشرائط والسنن غير ما سنّه الله لعباده في كتابه العزيز، كالخشوع لله والضراعة لديه، واستكانة القلب والوقار واستحضار المشاعر، كما في الآية ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾،(١) ومثل الاخلاص للحقّ والتوجّه إليه وحده بكلّ الحواس الظاهرة والباطنة كما في القرآن.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ﴾(٢) ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾.(٣)

ومثل الالحاح في مسألة الله وكثرة دعائه، كما في القرآن ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾(٤) ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾.(٥)

ومثل الدعاء بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وبالكلمات الطيّبة، وبأحسن البيان والذكر الجميل، كما في القرآن الكريم ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(٦) ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها﴾.(٧)

ولا تنسى أنّ الركن الأساسي في إصلاح شأن الدعاء تزكية النفس وتقديس النيّة من كلّ فساد وباطل، والتوجّه الكامل والله وليّ الاجابة وإليه الانابة.

* * *

---

(١) الأعراف: ٥٥.

(٢) القصص: ٨٨.

(٣) الجن: ١٨.

(٤) البقرة: ٢٠٠.

(٥) الأنفال: ٤٥.

(٦) فاطر: ١٠.

(٧) الأعراف: ١٨٠.

عشرون باباً

الباب الأوّل:

في الاستعاذة بالله سبحانه من الشياطين

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.(١)

٢ ـ ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾.(٢)

٣ ـ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾.(٣)

الباب الثاني:

في الإستعاذة بالله سبحانه من الشرور والأشرار ومن سيّئآت الأعمال

١ ـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.(٤)

٢ ـ ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾.(٥)

٣ ـ ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.(٦)

٤ ـ ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.(٧)

٥ ـ ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾.(٨)

---

(١) الناس: (١١٤).

(٢) المؤمنون: ٩٧.

(٣) المؤمنون: ٩٨.

(٤) الفلق: (١١٣).

(٥) هود: ٤٧.

(٦) البقرة: ٩٧.

(٧) القصص: ٢١.

(٨) الشعراء: ١٦٩.

٦ ـ ﴿وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾.(١)

٧ ـ ﴿رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظّالِمِينَ﴾.(٢)

٨ ـ ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ﴾.(٣)

٩ ـ ﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ﴾.(٤)

١٠ ـ ﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.(٥)

١١ ـ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنامَ﴾.(٦)

الباب الثالث:

في الاستعاذة من النار ومن عذاب الملك القهار

١ ـ ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنا مُؤْمِنُونَ﴾.(٧)

٢ ـ ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً﴾.(٨)

٣ ـ ﴿رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾.(٩)

٤ ـ ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.(١٠)

---

(١) يونس: ٨٦.

(٢) المؤمنون: ٩٤.

(٣) التحريم: ١١.

(٤) يونس: ٨٥.

(٥) الممتحنة: ٥.

(٦) إبراهيم: ٣٥.

(٧) الدخان: ١٢.

(٨) الفرقان: ٦٥.

(٩) غافر: ٧.

(١٠) الشعراء: ٨٧.

٥ ـ ﴿رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾.(١)

٦ ـ ﴿رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾.(٢)

٧ ـ ﴿رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾.(٣)

٨ ـ ﴿رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَما لِلظّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ﴾.(٤)

٩ ـ ﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾.(٥)

الباب الرابع:

في الدعاء للأبوين

١ ـ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً﴾.(٦)

٢ ـ ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضّالِّينَ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.(٧)

٣ ـ ﴿رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾.(٨)

٤ ـ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾.(٩)

٥ ـ ﴿رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.(١٠)

---

(١) آل عمران: ١٩٤.

(٢) آل عمران: ١٦.

(٣) آل عمران: ١٩١.

(٤) آل عمران: ١٩٢.

(٥) البقرة: ٢٠١.

(٦) نوح: ٢٨.

(٧) الشعراء: ٨٦ و٨٧.

(٨) الإسراء: ٢٤.

(٩) إبراهيم: ٤١.

(١٠) غافر: ٨ و٩.

الباب الخامس:

في الدعاء لطلب الذّريّة والأولاد والأزواج

١ ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ﴾.(١)

٢ ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.(٢)

٣ ـ ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾.(٣)

٤ ـ ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ﴾.(٤)

٥ ـ ﴿رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً﴾.(٥)

٦ ـ ﴿عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ﴾.(٦)

الباب السادس:

في الدعاء للذّريّة والأولاد

١ ـ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنامَ﴾.(٧)

٢ ـ ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ﴾.(٨)

٣ ـ ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.(٩)

---

(١) آل عمران: ٣٨.

(٢) الصافّات: ١٠٠.

(٣) مريم: ٥ و٦.

(٤) الأنبياء: ٨٩.

(٥) الفرقان: ٧٤.

(٦) القلم: ٣٢.

(٧) البقرة: ١٢٦.

(٨) إبراهيم: ٤٠.

(٩) النمل: ١٩.

٤ ـ ﴿عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ﴾.(١)

٥ ـ ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.(٢)

٦ ـ ﴿رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً﴾.(٣)

٧ ـ ﴿رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.(٤)

٨ ـ ﴿رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.(٥)

الباب السابع:

في الدعاء للاخوان

١ ـ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.(٦)

٢ ـ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾.(٧)

---

(١) القلم: ٣٢.

(٢) البقرة: ١٢٨.

(٣) الفرقان: ٧٤.

(٤) غافر: ٨ و٩.

(٥) إبراهيم: ٣٧.

(٦) الأعراف: ١٥١.

(٧) الحشر: ١٠.

الباب الثامن:

في الدعاء لعموم المؤمنين والمؤمنات

١ ـ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.(١)

٢ ـ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.(٢)

٣ ـ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.(٣)

٤ ـ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.(٤)

الباب التاسع:

في الدعاء لطلب الهداية والاستقامة (في الدين)

١ ـ ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.(٥)

٢ ـ ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾.(٦)

٣ ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.(٧)

---

(١) نوح: ١٨.

(٢) إبراهيم: ٤١.

(٣) غافر: ٧.

(٤) غافر: ٨ و٩.

(٥) طه: ٢٥ ـ ٢٨.

(٦) الإسراء: ٨٠.

(٧) الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥.

٤ ـ ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.(١)

٥ ـ ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ﴾.(٢)

٦ ـ ﴿رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.(٣)

٧ ـ ﴿فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.(٤)

٨ ـ ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.(٥)

٩ ـ ﴿رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ﴾.(٦)

١٠ ـ ﴿اهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾.(٧)

١١ ـ ﴿رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً﴾.(٨)

١٢ ـ ﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.(٩)

١٣ ـ ﴿رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ﴾.(١٠)

---

(١) النمل: ١٩.

(٢) إبراهيم: ٤٠.

(٣) التحريم: ٨.

(٤) يوسف: ١٠١.

(٥) البقرة: ١٢٨.

(٦) البقرة: ٢٥٠.

(٧) الفاتحة: ٦ و٧.

(٨) الكهف: ١٠.

(٩) آل عمران: ٨.

(١٠) آل عمران: ١٩٣.

١٤ ـ ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.[١]

الباب العاشر:

في الدعاء لطلب الخيرات والحسنات

١ ـ ﴿رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.[٢]

٢ ـ ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.[٣]

٣ ـ ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.[٤]

٤ ـ ﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾.[٥]

٥ ـ ﴿رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾.[٦]

٦ ـ ﴿وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ﴾.[٧]

الباب الحادي عشر:

في الدعاء لطلب العلم والحكمة

١ ـ ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.[٨]

---

(١) النمل: ١٩.

(٢) القصص: ٢٤.

(٣) النمل: ١٩.

(٤) الشعراء: ٨٥.

(٥) البقرة: ٢٠١.

(٦) آل عمران: ١٩٤.

(٧) الأعراف: ١٥٦.

(٨) طه: ٢٥ ـ ٢٨.

٢ ـ ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾.(١)

٣ ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾.(٢)

٤ ـ ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.(٣)

٥ ـ ﴿رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً﴾.(٤)

٦ ـ ﴿وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ﴾.(٥)

٧ ـ ﴿رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.(٦)

٨ ـ ﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهّابُ﴾.(٧)

الباب الثاني عشر:

لطلب الرحمة والغفران وتكفير السيئات

١ ـ ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾.(٨)

٢ ـ ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾.(٩)

٣ ـ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾.(١٠)

---

(١) الأسراء: ٨٠.

(٢) الشعراء: ٨٣ و٨٤.

(٣) طه: ١١٤.

(٤) الكهف: ١٠.

(٥) البقرة: ١٢٨.

(٦) التحريم: ٨.

(٧) آل عمران: ٨.

(٨) هود: ٤٧.

(٩) القصص: ١٦.

(١٠) نوح: ١٨.

٤ ـ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.(١)

٥ ـ ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.(٢)

٦ ـ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.(٣)

٧ ـ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.(٤)

٨ ـ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.(٥)

٩ ـ ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.(٦)

١٠ ـ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.(٧)

١١ ـ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.(٨)

١٢ ـ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾.(٩)

١٣ ـ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ

---

(١) الأعراف: ١٥١.

(٢) الأعراف: ١٥٢.

(٣) إبراهيم: ٤١.

(٤) آل عمران: ١٤٧.

(٥) الأعراف: ٢٣.

(٦) المؤمنون: ١٠٩.

(٧) البقرة: ٢٨٦.

(٨) الممتحنة: ٥.

(٩) الحشر: ١٠.

وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.(١)

١٤ ـ ﴿رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النّارِ﴾.(٢)

١٥ ـ ﴿رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ﴾.(٣)

١٦ ـ ﴿رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.(٤)

١٧ ـ ﴿سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.(٥)

١٨ ـ ﴿رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً﴾.(٦)

الباب الثالث عشر:

لطلب التوبة وقبول الأعمال

١ ـ ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.(٧)

٢ ـ ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ﴾.(٨)

٣ ـ ﴿سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.(٩)

---

(١) غافر: ٧ ـ ٩.

(٢) آل عمران: ١٦.

(٣) آل عمران: ١٩٣.

(٤) التحريم: ٨.

(٥) البقرة: ٢٨٥.

(٦) الكهف: ١٠.

(٧) النمل: ١٩.

(٨) إبراهيم: ٤٠.

(٩) الأعراف: ١٤٣.

٤ ـ ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.(١)

٥ ـ ﴿وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ﴾.(٢)

٦ ـ ﴿قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾.(٣)

٧ ـ ﴿رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.(٤)

٨ ـ ﴿رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.(٥)

الباب الرابع عشر:

في الدعاء لطلب حسن المثوى

١ ـ ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.(٦)

٢ ـ ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.(٧)

٣ ـ ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.(٨)

٤ ـ ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها﴾.(٩)

---

(١) البقرة: ١٢٨.

(٢) الأعراف: ١٥٦.

(٣) غافر: ١١.

(٤) الممتحنة: ٤.

(٥) البقرة: ١٢٧.

(٦) التحريم: ١١.

(٧) الشعراء: ٨٥.

(٨) المؤمنون: ٢٩.

(٩) النساء: ٧٥.

الباب الخامس عشر:

لطلب الرزق واليُسر في الأمور وحسن العيش

١ ـ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.(١)

٢ ـ ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.(٢)

٣ ـ ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾.(٣)

٤ ـ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.(٤)

٥ ـ ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.(٥)

٦ ـ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.(٦)

٧ ـ ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.(٧)

الباب السادس عشر:

في الدعاء لطلب السلامة والأمان

١ ـ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.(٨)

---

(١) الأنبياء: ٨٣.

(٢) القصص: ٢٤.

(٣) طه: ٢٥ ـ ٣١.

(٤) البقرة: ١٢٦.

(٥) المائدة: ١١٤.

(٦) ص: ٣٥.

(٧) إبراهيم: ٣٧.

(٨) البقرة: ١٢٦.

٢ ـ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.(١)

٣ ـ ﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمينَ وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾.(٢)

٤ ـ ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾.(٣)

الباب السابع عشر:

لطلب النصر والظفر ومزيد القوّة والأنصار

١ ـ ﴿رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.(٤)

٢ ـ ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ﴾.(٥)

٣ ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.(٦)

٤ ـ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾.(٧)

٥ ـ ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾.(٨)

٦ ـ ﴿وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾.(٩)

٧ ـ ﴿رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾.(١٠)

---

(١) إبراهيم: ٣٥.

(٢) يونس: ٨٥.

(٣) النساء: ٧٥.

(٤) العنكبوت: ٣٠.

(٥) المؤمنون: ٣٩.

(٦) الصافّات: ١٠٠.

(٧) القمر: ١٠.

(٨) طه: ٢٩ ـ ٣١.

(٩) النساء: ٧٥.

(١٠) البقرة: ٢٥٠.

٨ ـ ﴿رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾.(١)

٩ ـ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾.(٢)

١٠ ـ ﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.(٣)

١١ ـ ﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظالِمِينَ﴾،(٤) ﴿أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾،(٥) ﴿وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾،(٦) ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾.(٧)

١٢ ـ ﴿رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾.(٨)

١٣ ـ ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً﴾.(٩)

١٤ ـ ﴿قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.(١٠)

١٥ ـ ﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَباراً﴾.(١١)

---

(١) الأحزاب: ٦٨.

(٢) آل عمران: ١٤٧.

(٣) الممتحنة: ٥.

(٤) يونس: ٨٥.

(٥) البقرة: ٢٨٦.

(٦) يونس: ٨٦.

(٧) يونس: ٨٨.

(٨) البقر: ٥٨٦.

(٩) نوح: ٢٦ و٢٧.

(١٠) الشعراء: ١١٨.

(١١) نوح: ٢٨.

١٦ ـ ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.(١)

الباب الثامن عشر:

لطلب الصبر وتوفيق الثبات

١ ـ ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.(٢)

٢ ـ ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.(٣)

٣ ـ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.(٤)

الباب التاسع عشر:

في الدعاء لطلب النجاة من الظالمين

١ ـ ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾.(٥)

٢ ـ ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.(٦)

٣ ـ ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.(٧)

٤ ـ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.(٨)

٥ ـ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.(٩)

---

(١) الأعراف: ٨٩.

(٢) الأعراف: ١٢٦.

(٣) البقرة: ٢٥٠.

(٤) آل عمران: ١٤٧.

(٥) الشعراء: ١٦٩.

(٦) التحريم: ١١.

(٧) الدخان: ١٢.

(٨) يونس: ٨٥.

(٩) المؤمنون: ٩٤.

٦ ـ ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.(١)

الباب العشرون:

لطلب الدخول في صفّ الأخيار

١ ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.(٢)

٢ ـ ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.(٣)

٣ ـ ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.(٤)

٤ ـ ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.(٥)

٥ ـ ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.(٦)

٦ ـ ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.(٧)

٧ ـ ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.(٨)

٨ ـ ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.(٩)

---

(١) الشعراء: ١١٨.

(٢) الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥.

(٣) النمل: ١٩.

(٤) الأعراف: ١٤٣.

(٥) يوسف: ١٠١.

(٦) آل عمران: ١٩٣.

(٧) آل عمران: ٥٣.

(٨) المائدة: ٨٣.

(٩) الأعراف: ١٢٦.

٩ ـ ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.(١)

١٠ ـ ﴿نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.(٢)

* * *

من هذه الأدعية يتبيّن لك مصدرها السماويّ، قصّها الله علينا لندعو بها في فترات الزمن القاسية وللترقّي الروحيّ.

[أدعية أهل البيت عليهم السلام]:

ولنذكر هنا جملة قصيرة من الأدعية المأثورة عن أهل البيت طلباً لبركتها والنفع بها:

كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أصبح أن يقول: «أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والجلال، والخلق والأمر والليل والنهار وما يسكن فيهما لله عز وجل وحده لا شريك له، اللهمّ اجعل أوّل يومي هذا صلاحاً وأوسطه فلاحاً وآخره نجاحاً، اللهم إنّي أسألك خير الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين، اللهمّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تُبلّغنا به رحمتك، ومن اليقين ما تُهوّن به علينا مصيبات الدنيا، اللهمّ متّعنا بأسماعنا وأبصارنا واجعله الوارث منّا، وانصرنا على مَن ظلمنا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ عِلمنا، ولا تُسلّط علينا من لا يرحمنا».(٣)

وكان من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يدعو به عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام وهو من أدعية الصحيفة:

---

(١) البقرة: ١٢٨.

(٢) المائدة: ٨٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦:١٧٨.

«يا من يرحم من لا يرحمه العباد، يا من يقبل من لا تقبله البلاد، ويا من لا يحتقر أهل الحاجة إليه، يا من لا يَجْبَه بالرّد أهل الإلحاح عليه، يا من لا يخفى عليه صغير ما يتحف به، يا من لا يضيع يسير ما يُعمل له، يا من يشكر على القليل ويجازي بالجليل، يا من يدنو إلى من دنا منه، يا من يدعو إلى نفسه من أدبر عنه، يا من لا يغيّر النعمة ولا يبادر بالنقمة، يا من يثمر الحسنة حتّى ينميها، ويتجاوز عن السيئة حتّى يعفيها، انصرفَتْ دون مدى كرمك الحاجاتُ وامتلأتْ بفيض جودك أوعيةُ الطلبات...» الى آخر الدعاء.[١]

ومن دعاء الحسين عليه السلام يوم عرفة: «إلهي علمتُ باختلاف الآثار وتنقّلات الأطوار أنّ مرادك منّي أن تتعرّف إليّ في كلّ شيء حتّى لا أجهلك في شيء».[٢]

ومنه: «إلهي تردّدي في الآثار يوجب بُعد المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك، كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مُفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المُظهِر لك، ومتى غبتَ حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى بعدتَ حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عَمِيَت عينٌ لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقةُ عبدٍ لم تجعل له من حبّك نصيباً».[٣]

ومنه وقد التزم الركن الاسود: «إلهي نعّمتني فلم تجدني شاكراً، وابتليَتني فلم تجدني صابراً، فلا أنت سلبتَ النعمة بترك الشكر، ولا أدمت الشدّة بترك الصبر، إلهي لا يكون من الكريم إلاّ الكرم».[٤]

وقيل: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام اعتمر فرأى رجلاً متعلّقاً بأستار الكعبة وهو يقول: «يا من لا يشغله سمع عن سمعٍ، يا من لا تغلّطه المسائل، ولا يُبرمه إلحاح

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٧٨: ٦ - ١٧٩.

(٢) بحار الأنوار ٩٥: ٢٢٥.

(٣) بحار الأنوار ٩٥: ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٤) العدد القويّة لعلي بن يوسف الحلّي: ٣٥.

الملحّين، أذقني برد عفوك وحلاوة مغفرتك وعُذوبة عافيتك والفوز بالجنّة والنجاة من النار» فقال علي عليه السلام: «والذي نفسي بيده إن قالها وعليه مثل السماوات والأرض من الذنوب قولاً مخلصاً ليغفرنّ له».[١]

وقال عليه السلام: «للدعاء شروط أربعة: الأوّل إحضار النيّة، الثاني إخلاص السريرة، الثالث معرفة المسؤل، الرابع الانصاف في المسألة».[٢]

* * *

حُكي أنّ أحد الملوك كان عقيماً لا يولد له، فكان إذا انتصف الليل وهدأ الناس يخرج إلى الصحراء ويتضرّع إلى الله ويتوسّل إليه بأن يرزقه ولداً يقوم مقامه، حتّى مضى عليه زمن غير قصير، فضجر ذات ليلة وقال: إلهي لا أدري أقريب أنت تسمع ثمّ لا تجيب أم بعيد لا تسمع؟ ولمّا رجع هتف به هاتف يقول: يا فلان أنا قريب منك أقرب إليك من حبل الوريد، أسمع نداءك وأرى مقامك، ولكن أريد أن تدعوني بقلب خالص وسريرة طاهرة ونفس نقيّة.

فالله جلّ شأنه يريد من العبد أن يدعوه بقلب طاهر خاشع، وضمير نقيّ، وجوارح متذلّلة، ويقين واثق بالاجابة، وأن لا يكون قلبه متشاغلاً بغيره، فقد روي أنّ موسى بن عمران مرّ عند مناجاته برجل ساجد يبكي ويدعو ويتضرّع، فقال موسى عليه السلام: يا ربّ لو كانت حاجة هذا العبد بيدي لقضيتها، فأوحى الله إليه: يا موسى إنّه يدعوني وقلبه مشغول بغنم له، فلو سجد حتّى ينقطع صلبه وتتفقّأ عيناه لا أستجيب له حتى يتحوّل عما أبغض إلى ما أُحبّ.[٣]

[موت القلوب بعشرة أشياء]:

مرّ ابراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع إليه الناس وقالوا: يا أبا إسحاق

---

(١) أمالي المفيد: ٩٢؛ مناقب آل أبي طالب ٢: ٨٤ باختلاف يسير.

(٢) شجرة طوبى: ٢٨٤، وأخرجه ابن ورّام في تنبيه الخواطر: ٣٠٢ بلفظ قريب.

(٣) الكافي ٨: ١٢٩/ ح٩٨.

ما لنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟ قال: لأنّ قلوبكم ماتت بعشرة أشياء، الأوّل: أنكم عرفتم الله فلم تؤدّوا حقّه، الثاني: زعمتم أنّكم تحبّون رسول الله وقد تركتم سُنّته، الثالث: قرأتم القرآن ولم تعملوا به، الرابع: أكلتم نعمة الله ولم تؤدّوا شكرها، الخامس: قلتم إنّ الشيطان عدوّكم ووافقتموه، السادس: قلتم إنّ الجنة حقّ فلم تعملوا لها، السابع: قلتم إنّ النار حقّ ولم تهربوا منها، الثامن: قلتم إنّ الموت حقّ فلم تستعدّوا له، التاسع: انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم، العاشر: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم، فكيف يُستجاب لكم وأنتم على مثل هذه الأحوال؟ إنّما يستجاب لمن كان ذا نيّة صادقة وضمير طاهر وقلب نقيّ، وما كان الله ليفتح باب التوبة ويغلق باب المغفرة لأنّه تعالى يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾[1] وما كان الله ليفتح باب الشكر ويغلق باب الزيادة لأنّه يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2] وما كان الله ليفتح باب التوكّل ولم يجعل للمتوكّل مخرجاً، فإنه سبحانه يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.[3][4]

قوله عليه السلام: «فَلَا يُقَنِّطْكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلًا وَآجِلًا أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ».

إنّ الإمام عليه السلام يعلّم ولده بأنّه قد يسأل الله سبحانه فلا يجيبه إلى سؤله، أو قد يبطئ عليه في الاجابة لا لأنّه عاجز قاصر عن أن يجيب، كلاّ وإنّما ذلك لأمر ما، فإنّ لله في شؤنه مصالح وحِكماً، وإنّ لها لسرّاً غامضاً وخبراً مكتوماً لا يطمع في ذلك بفهم أو

---

(١) الشورى: ٢٥.

(٢) إبراهيم: ٧.

(٣) الطلاق: ٢ و٣.

(٤) شجرة طوبى ٢: ٣٨٤ - ٣٨٥ نقلاً عن الارشاد للديلمي.

تأويل، لأنّ الله في شؤونه وإرادته لا يصلح لشيء من الفهم والتأويل.

وإنّه عليه السلام ليعلّمه بأنّ من الذنوب ما تكون حاجباً يحجب الدعاء عن القبول، أو يبطئ عليه في الاجابة، فلعلّ بين أعماله عملاً نابياً.

وهكذا جاء في دعائه عليه السلام المعروف بدعاء كميل «اللهمّ اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء»[١] وهكذا كان النبي صلى الله عليه وآله يستعيذ بالله ويقول: «أعوذ بك من الذنوب التي تردّ الدعاء».[٢]

[الذنوب تمنع الغيث]:

روي أنّ عيسى بن مريم عليه السلام خرج يستسقي، فلمّا ضجروا قال لهم عيسى: من أصاب منكم ذنباً فليرجع، فرجعوا كلّهم ولم يبق معه في المفازة إلاّ واحد، فقال له عيسى: أما لك من ذنب؟ فقال: والله ما علمتُ من شيء غير أنّي كنت ذات يوم أصلّي فمرت بي امرأة فنظرت إليها بعيني هذه، فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فانتزعتها وأتبعتُ المرأة بها، فقال له عيسى: فادع الله حتّى أؤمّن على دعائك، فدعا فتجلّلت السماء سحاباً ثمّ صبّت فُسقوا».[٣]

وخرج سليمان بن دواد عليه السلام يستقي فمر بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهمّ إنّا خلق من خلقك ولا غِنى بنا عن رزقك، فلا تُهلكنا بذنوب غيرنا. فقال سليمان: سُقيتم بدعوة غيركم.[٤]

وأصاب بني إسرائيل قحط فاستسقى موسى مراراً فما أجيب، فأوحى الله تعالى إليه: إنّي لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمّام قد أصرّ على النميمة،

---

(١) مصباح المتهجّد: ٨٤٤، من فقرات الدعاء المعروف بدعاء كميل.

(٢) عدّة الداعي: ١٩٧؛ مجمع البحرين ٢: ٣٨.

(٣) أخرجه الصنعاني في المصنّف ٣: ٩٤ باختصار يسير.

(٤) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٧.

فقال موسى: يا رب من هو حتّى نُخرجه من بيننا؟ فقال: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نمّاماً، فتابوا بأجمعهم فسُقوا.[١]

[النميمة وخطرها في المجتمع]:

ولا ريب فإنّ من عرف حقيقة النميمة يعلم أنّ النمّام شرّ الناس وأخبثهم، كيف وهو لا ينفكّ عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغلّ والحسد والنفاق والافساد بين الناس والخديعة، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[٢] والنمّام يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسد في الأرض، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[٣] والنمّام منهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يدخل الجنة قاطع[٤] ـ أي قاطع بين الناس ـ والنمّام قاطع بينهم، وقال صلى الله عليه وآله: شرّ الناس من اتّقاه الناس لشّره،[٥] والنمّام منهم.

نصّ القانون الإسلاميّ على حرمة النميمة وذمّ أهلها.

النميمة هي السعاية، ونمّ الحديث ينمّه سعى به ليوقع فتنة أو وحشة.

النميمة صفة خبيثة ومزيّة رديئة، تجارة اللئام لقدح نار الخصام، وبضاعة الأوغاد لإيقاد نار الفساد، وهي سعاية كاسدة لغاية فاسدة.

النميمة مسبّبة عن اللؤم والحسد والخساسة، وربّما يعسر تحقّقها على النمّام بدون زيادة أو نقصان، وبهذا تلازم الكذب والبغي والعدوان.

---

(١) الجواهر السنية: ٧٨؛ بحار الأنوار ٧٢: ٢٥٨.

(٢) البقرة: ٢٧.

(٣) الشورى: ٤٢.

(٤) مستدرك الوسائل ٩: ١٠٨/ ح ١٠٣٧١.

(٥) العقد الفريد ١: ٣١٣، ط الثانية؛ الموطأ لمالك ٢: ٩٠٤/ ح ٤.

النميمة خيانة الأمانة ونبذ للأمان ومخالفة للايمان، فالنمّام خبيث خائن وفاجر غادر وشيطان بصورة إنسان.

النميمة إفشاء السر وهتك الستر عمّا يكره كشفه ويراد ستره، فإن كان ما ينمّ به عيباً ونقصاً في المحكيّ عنه كان النمّام جامعاً بين الغيبة والنميمة، وكما تكون النميمة بصريح الكلام تكون بالاشارة والكتابة وأنواع الكناية.

تتولّد من النميمة مفاسد كثيرة أقلّها إيجاد التباعد غالباً بين المنقول عنه والمنقول إليه، وترتّب عليها تحقّق العداوة، وربما أدّت إلى حرب شعواء وفتنة عمياء، ومن سبر السير والتاريخ ونظر إلى أعمال ذوي النميمة في كلّ زمان عرف آثارها.

[قصة العبد النمام]:

باع رجل عبداً له فقال لمن اشتراه منه: ما فيه عيب إلاّ النميمة، قال المشتري: رضيت به، فمكث العبد عنده أياماً، ثمّ قال يوماً لزوجة مولاه: إنّ سيّدي لا يحبّك وهو يريد أن يتزوّج عليك، فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند منامه شعرات حتّى أسحره عليها فيحبّك، ثمّ قال لمولاه: إنّ إمرأتك اتّخذت خليلاً وتريد أن تذبحك وأنت نائم فتناوم لها حتى تعرف الحقيقة، فتناوم لها الزوج فجائت المرأة بالموسى ودنت منه فجزم بصدق مقالة العبد، فقام إليها فقتلها، وجاء أهل المرأة فقتلوه، ثمّ وقع القتال بين عشيرة المرأة وعشيرة الرجل ودخل في تلك الحرب أحلافهما حتّى أشرفوا على الفناء،[1] وليس في البين سبب إلاّ النميمة والتصوّرات الكاذبة التي اخترعها ذلك العبد الذي كان من آثار نميمته ما كان.

* * *

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٢٧٠.

قال عليه السلام في خطبة له:

[يوصي فيها بعدم الغفلة ويحذر من الكذب والرياء والحسد]

«فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغَفْلَةُ وَالتَّشَاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ وَلَا تَرْخَصُوا لِأَنْفُسِكُمْ فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذَاهِبَ الظَّلَمَةِ وَلَا تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الْإِدْهَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ وَالْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ وَالْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَالشَّقِيُّ مَنِ انْخَدَعَ لِهَوَاهُ وَغُرُورِهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَى مَنْسَاةٌ لِلْإِيمَانِ وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ جَانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ الصَّادِقُ عَلَى شَفَا مَنْجَاةٍ وَكَرَامَةٍ وَالْكَاذِبُ عَلَى شَرَفِ مَهْوَاةٍ وَمَهَانَةٍ وَلَا تَحَاسَدُوا فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ».[1]

* * *

ضبط الألفاظ اللغويّة:

(الرخصة) التسهيل في الامر، والجمع رُخَص كغُرفة وغُرَف، و(الادهان) والمداهنة: إظهار خلاف ما تُضمر والغش، و(المنساة) و(المحضرة) محل النسيان والحضور، و(الشَّفا) طرف كل شيء، (والشرف) محرّكة: المكان العالي، و(المهواة) محل السقوط، و(المهانة) الذلّة والحقارة.

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٣٥٣ - ٣٥٤، مج ٢/ ١٢٣ من الطبعة الأولى.

المعنى:

قوله عليه السلام: «فاستدركوا بقيّة أيامكم واصبروا لها أنفسكم» أي تداركوا ما أسلفتم من الذنوب والخطيئات فيما بقي لكم من الأوقات، واحبسوا أنفسكم عليها بتحمّل مشاقّ الطاعات.

وفي الحديث: الصبر صبران: صبر على ما تكره وصبر عمّا تحب،[1] فالصبر الأوّل مقاومة النفس للمكاره الواردة عليها وثباتها وعدم انفعالها، وقد يسمّى سعة الصدر، وهو داخل تحت الشجاعة. والصبر الثاني مقاومة النفس لقوتها الشهويّة، وهو فضيلة داخلة تحت العفّة.

قوله عليه السلام: «فإنّها قليل في كثير الأيام التي تكون منكم فيها الغفلة والتشاغل عن الموعظة» يعني أنّ الأيام الباقية التي يمكن فيها الاستدراك والتدارك قليلة في جنب الأيام التي تكون فيها الغفلة والتشاغل التي هي كثيرة بالنسبة إليها.

ولعلّ الإتيان بلفظة «تكون» دون «كانت» للإشعار بأنّ غفلتهم ليست مختصّة بما مضى، بل ربّما تكون فيما يأتي أيضاً، وذلك لما علم من حالهم أنّهم لا يستغرقون أوقاتهم الآتية بالتدارك والطاعة، فأمر عليه السلام بالتدارك فيما هو آت، إذ ما مضى قد فات، فافهم.

قوله عليه السلام: «ولا تُرخّصوا لأنفسكم فتذهب بكم الرّخص فيها مذاهب الظلمة»، أي مسالكها، والظاهر أنّ المراد بالترخيص للنفوس المسامحة والمساهلة لها، فيكون المقصود بالنهي المواظبة عليها ومجاهدتها.

[جهاد النفس]:

روى الكليني بإسناده عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام، أنّ النبي

---

(١) روضة الواعظين للفتال النيسابوري: ٤٢٢؛ وسائل الشيعة ١٥: ٢٢٨/ ح٢٠٣٧٦، وفيهما: «صبر على ما تحبّ، وصبر على ما تكره».

صلى الله عليه وآله بعث سرّية، فلمّا رجعوا قال صلى الله عليه وآله: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل: يا رسول الله ما الجهاد الاكبر؟ قال: جهاد النفس».[١]

وفي الوسائل عن الصدوق بإسناده عن شعيب العقرقوفي، عن الصادق عليه السلام، قال: «من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا اشتهى وإذا غضب وإذا رضي حرّم الله جسده على النار».[٢]

وعن الكليني عن عدّة من أصحابنا، عن محمد بن محمد بن خالد رفعه، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «أقصر نفسك عمّا يضرّها من قبل أن تفارقك، واسْعَ في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك، فإنّ نفسك رهينة بعملك».[٣]

هذا، ويحتمل أن يكون المراد به الترخيص في الشبهات المؤدي إلى الاقتحام في الهلكات، فيكون مساقه مساق ما رواه الصدوق عنه عليه السلام قال: «إنّ أميرالمؤمنين خطب الناس فقال في كلام ذكره: «حلال بيّن وحرام بيّن وشبهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه من الاثم فهو لما استبان له أترك، والمعاصي حمى الله فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها».[٤]

ونظيره ما رواه في الوسائل عن الكراجكي في كتاب كنز الفوائد مسنداً عن سلام بن المستنير، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «قال جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله: أيّها الناس حلالي حلال إلى يوم القيامة، وحرامي حرام إلى يوم القيامة، ألا وقد بيّنهما الله عزّ وجلّ في الكتاب وبيّنتهما لكم في سنّتي وسيرتي، وبينهما شبهات الشيطان وبِدع بعدي، من تركها صلح له أمر دينه وصلحت له مروّته وعرضه، ومن تلبّس بها ووقع فيها واتّبعها كان كمن رعى غنمه قرب الحمى، ومن رعى ماشيته قرب الحمى نازعته نفسه إلى أن يرعاها في

---

(١) الكافي ٥: ١٢/ ح٣.

(٢) وسائل الشيعة ١٥: ١٦٢/ ح٢٠٢١٥.

(٣) الكافي ٢: ٤٥٥/ ح٨.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٤: ٧٥/ ح٥١٤٩.

الحمى، ألا وإنّ لكلّ ملك حمى، ألا وإنّ حمى الله عزّ وجلّ محارمه، فتوقّوا حمى الله ومحارمه»، الحديث.[١]

قوله عليه السلام: «ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية» والمراد بالمداهنة أمّا المساهلة للنفس، فتكون هذه الجملة تأكيداً للجملة السابقة، وأمّا ترك المناصحة والصدق وإظهار خلاف ما تضمر _ أعني النفاق _ وهو الأظهر.

ومنه الحديث القدسيّ لعيسى عليه السلام «قل لمن تمرّد عليّ بالعصيان وعمل بالادهان؛ ليتوقّع عقوبتي».[٢] ومثله في حديث الباقر عليه السلام قال: «أوحى الله عزّ وجلّ إلى شُعيب النبي عليه السلام: إنّي معذّب من قومك مأة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستّين ألفاً من خيارهم، فقال: يا ربّ هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فأوحى الله إليه: داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[٣].

* * *

قوله عليه السلام: «عباد الله إنّ أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربّه» وذلك لأنه لمّا كان مقصود الناصح بنصحه إيصال المنفعة إلى المنتصح، وكان أعظم المنافع وأجلّها هو السعادة الأبديّة والعناية السرمديّة المستفادة من طاعة الله، لا جرم كان أنصح الناس لنفسه أكثرهم طاعة لربّه.

* * *

قوله عليه السلام: «وإنّ أغشّ الناس لنفسه أعصاهم لربّه» والغشّ خلاف النصح، وهو عبارة عن عدم الخلوص وعن إظهار خلاف ما يضمر، ولما كان غرض الغاشّ من غشّه إيصال الضرر إلى المستغشّ، وكان أعظم المضار هو

---

(١) وسائل الشيعة ٢٧: ١٦٩/ ح٢٣٥١٥؛ بحار الأنوار ٢: ٢٦٠ - ٢٦١/ ح١٧.

(٢) الكافي ٨: ١٣٤.

(٣) الكافي ٥: ٥٦/ ح١.

الشقاوة الأبديّة والعقوبة الدائمة الناشئة من عصيان الله، لا جرم كان أغشّ الناس لنفسه أكثرهم معصية لربّه.

وفي هاتين الجملتين من الأمر بالطاعة والتحذير عن المعصية ما لا يخفى، إذ أحبّ المخلوقات إلى الانسان نفسه، فهو دائماً طالب لمحابّها ومنافعها، هارب عن مضارّها ومكارهها، فيلزم له الاتيان بالطاعة والحذر عن المعصية، لكون الأولى جالبة للمحبوب والأخرى كاسبة للمكروه.

* * *

قوله عليه السلام: «والمغبون من غبن نفسه». أصل الغبن هو الخداع، فالغابن خادع والمغبون مخدوع، والغبن في البيع هو بيع الكثير بالقليل، ولمّا كانت الشهوات الدنيويّة واللذائذ العاجلة زهيدة قليلة في جنب الثمرات الأخرويّة والمنافع الآجلة، وكان المشتغل باللذّات الدنيّة والصارف عمره في الشهوات الخسيسة قد فوّت على نفسه المنافع الكثيرة والنعم الخطيرة، فكأنّه قد باع الكثير بالقليل، وفوّت على نفسه الخطير بالحقير، لا جرم كان هو غابناً لنفسه وخادعاً لها حيث بخسها ما تستحقّه من ثواب الله ورضوانه، ومنه قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ﴾.[1]

قال الطبرسي في تفسيره: هو تفاعل من الغبن، وهو أخذ شرٍّ وترك خيرٍ، أو أخذ خير وترك شرٍّ، فالمؤمن ترك حظّه من الدنيا وأخذ حظّه من الآخرة، فترك ما هو شرّ له وأخذ ما هو خير له فكان غابناً، والكافر ترك حظّه من الآخرة وأخذ حظّه من الدنيا، فترك الخير وأخذ الشرّ فيكون مغبوناً، فيظهر في ذلك اليوم الغابن والمغبون.[2]

---

(١) التغابن: ٩.

(٢) تفسير مجمع البيان (١٠): الآية ٣١.

ولمّا كانت السعادات الأخرويّة أنفس متاع لا متاع فوقه، والغبن فيها أعظم غبن لا غبن مثله، لذلك حصر عليه السلام المغبون فيمن غبن في ذلك، وقال: «المغبون من غبن نفسه» على طريق المبالغة، ومثله قوله عليه السلام: «والمغبوط من سلم له دينه» فإنّ سلامة الدين لمّا كانت أعظم نعمة لا نعمة فوقها، كان المنعم بذلك أحقّ بأن يغبط ويتمنّى مثل ما له من غير أن يريد زواله، وبهذا القيد تفترق الغبطة من الحسد.

* * *

قوله عليه السلام: «والسعيد من وُعظ بغيره» أي السعيد في الآخرة من لاحظ حال الغير فاتّعظ به، بأن ينظر إلى حال الصالحين وما لهم وما أعدّ الله لهم وبشّرهم به في كتابه الكريم، من الجنان والغلمان والحور العين والشراب من الكوثر والتسنيم، يحذو حذوهم ويسلك مسالكهم، ويلاحظ مصير المجرمين ومقرّهم وما هيّأ الله لهم وأنذرهم به من الجحيم وظلٍّ من يحموم وشراب من الزقوم والحميم، فيعدل عن جادّتهم ويتنحّى عن قدّتهم.

قوله عليه السلام: «والشقّي من انخدع لهواه وغروره» كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[2] أي الخداع الذي لا حقيقة له، وهو المتاع الرديّ الذي يدلّس به على طالبه حتّى يشتريه ثم يتبيّن له رداءته، والشيطان هو المدلّس.

[مجالسة أهل المعاصي تسلب الإيمان]:

قوله عليه السلام: «واعلموا أنّ يسير الرياء شرك، فكيف بكثيره، ومجالسة أهل الهوى منساة للايمان ومحضرة للشيطان» أراد بمجالسة أهل الهوى مجالسة أهل المعاصي إنّ كون مجالسة أهل المعصية ومخالطتهم موجبة لنسيان الايمان ولحضور الشيطان واضح،

---

(١) القصص: ٥٠.

(٢) آل عمران: ١٨٥؛ الحديد: ٢٠.

لأنّ الفسّاق بإقبالهم إلى اللعب واللهو والفسق والفجور والسيّئآت بما فيهم من دواعي الهوى والشهوات يسوّد ألواح خاطرهم ويرين وجه قلوبهم فيغفلون بذلك عن ذكر الحقّ وتذكّر الآخرة، ويزيد الغفلة شيئاً فشيئاً ويشتدّ، فيخرج نور الايمان من قلوبهم ويضمحلّ ويمحو، ويحضر الشيطان في مجالسهم لإغوائهم وإضلالهم، فمن جلس معهم وخالطهم تكون المجالسة والمخالطة _ لا محالة _ مؤثّرة فيه، إذ المرء على دين خليله وقرينه، فيقتدي بهم ويحذو حذوهم ويعمل عملهم، فيكون ناسي الايمان وقرين الشيطان.

[أحاديث في النهي عن مجالسة أهل المعاصي]:

ويدلّ على ذلك الأخبار المستفيضة بل المتواترة، ففي الوسائل عن الكليني مسنداً عن غياث بن إبراهيم، عن أبي عبد الله عليه السلام _ في حديث _ قال: ما اجتمع ثلاثة من الجاحدين إلاّ حضرهم عشرة أضعافهم من الشياطين، فإن تكلّموا تكلّمت الشياطين بنحو كلامهم، وإذا ضحكوا ضحكوا معهم، فإذا نالوا من أولياء الله نالوا معهم، فمن ابتُلي من المؤمنين بهم فإذا خاضوا في ذلك فليقم ولا يكن شرك شيطان ولا جليسه، فإنّ غضب الله لا يقوم له شيء، ولعنته لا يردّها شيء، ثمّ قال: فإن لم يستطع فليُنكر بقلبه وليقم ولو حلب شاة أو فواق ناقة».[1]

وعن عمرو بن يزيد، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: المرء على دين خليله وقرينه».[2]

وعن أبي حمزة عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل: «إيّاكم وصحبة العاصين ومعونة الظالمين ومجاورة الفاسقين، احذروا فتنتهم وتباعدوا من ساحتهم».[3]

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٢٦٣/ ح ٢١٥٢٠.

(٢) وسائل الشيعة ١٢: ٤٨/ ح ١٥٦١٠.

(٣) الكافي ٨: ١٦/ ح ٢.

ومن كتاب صفات الشيعة معنعناً عن محمد بن قيس عن أبي جعفر، عن آبائه، عن علي عليه السلام قال: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظنّ بالأخيار، ومجالسة الأخيار تُلحق الأشرار بالأخيار، ومجالسة الفجّار للأبرار تُلحق الفجّار بالأبرار، فمن اشتبه عليكم أمره ولم تعرفوا دينه فانظروا إلى خُلطائه، فإن كانوا أهل دين الله فهو على دين الله، وإن لم يكونوا على دين الله فلا حظّ لهم في دين الله، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُواخينّ كافراً ولا يخالطنّ فاجراً، ومن آخى كافراً وخالط فاجراً كان فاجراً كافراً».[1]

ولنعم ما قيل في هذا المعنى:

عن المرء لا تسل وسَل عن قرينه فكلّ قرين بالمقارن يقتدي[2]

ومن مجالس الشيخ حسن ابن شيخنا الطوسي قدس سرهما مسنداً عن أبي الخير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أربعة مفسدة للقلوب: الخلوة بالنساء والاستماع منهنّ، والأخذ برأيهنّ، ومجالسة الموتى، فقيل: يا رسول الله وما مجالسة الموتى؟ قال: كلّ ضالّ عن الإيمان وجائر عن الأحكام»[3] والأخبار في هذا المعنى كثيرة ولا حاجة إلى الزيادة.

* * *

قوله عليه السلام: «جانبوا الكذب فإنّه مُجانب للإيمان».

أراد بذلك أنّ كلاً من الكذب والإيمان مجانب من الآخر، وأنّ بينهما تباعداً وتجانباً، وذلك على القول بكون الإيمان عبارة عن مجموع المعرفة وما يتبعها من الأعمال الصالحة واضح، لأنّ الصدق على ذلك جزء للإيمان والكذب مضادّ له فيكون مضاداً للإيمان، وأمّا على كونه عبارة عن نفس

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٢٦٥/ ح٢١٥٢٦.

(٢) منسوب إلى عدي. انظر فيض القدير للمناوي ٣: ١٥٣.

(٣) وسائل الشيعة ١٦: ٢٦٦/ ح ٢١٥٣٠.

المعرفة، فلأنّ الإيمان من أعظم الفضائل المنجية، والكذب من أخسّ الرذائل المهلكة، والتباعد بين الفضيلة والرذيلة والإنجاء والإهلاك أيضاً ظاهر.

كما أشار عليه السلام إلى ذلك وأوضحه بقوله: «الصادق على شفا منجاة وكرامة» أي على طرف من النجاة والكرامة ومشارف عليهما، أو على طرف من محلّ النجاة وقريب منها يكاد أن يقع فيها وفي الكرامة الدنيويّة والأُخرويّة، «والكاذب على شرف مهواة ومهانة» أي على مكان عال من الهوى والهوان، أو مشارف لمحلّ السقوط والذلّة يكاد أن يسقط منها إلى الجحيم ويقع في العذاب الأليم، قال الشاعر:

لا يكذب المرء إلاّ من مهانته ... أوعادة السوء أو من قلّة الأدب

لعفن جيفة كلب خير رائحة ... من كذبة المرء في جدٍّ وفي لعب[1]

* * *

[الحسد وأثره النفسي]:

ثمّ نهى عليه السلام عن الحسد بقوله: «ولا تحاسدوا» وهو من أعظم الموبقات، وعلّله بقوله: «فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النارُ الحطب» وهو أيضاً مضرّ بالنفس والجسد.

أمّا بالنفس فقد قال الصادق عليه السلام: «الحاسد مضرّ بنفسه قبل أن يضرّ بالمحسود، كإبليس لعنه الله أورث بحسده له اللعنة، ولآدم عليه السلام الاجتباء والهدى والرفع إلى محلّ حقائق العهد والأصطفاء، فكن محسوداً ولا تكن حاسداً، فإنّ ميزان الحاسد أبداً خفيف بثقل ميزان المحسود، والرزق مقسوم، فماذا ينفع الحسد الحاسد؟ وماذا يضرّ المحسود الحسد؟».[2]

---

(١) شرح نهج البلاغة ٦: ٣٦٠ ولم ينسبه.

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٢٥٥/ ح٢٣، نقلاً عن مصباح الشريعة.

إنّ الحسد يُذهل نفس الحاسد ويغرق فكره بالاهتمام بأمر المحسود حتّى لا يبقى له فراغ بتحصيل المنافع العائدة إليها، بل ويمحو ما حصلت لها من الملكات الخيرية والحسنات المنقوشة في جوهرها بطول تعوّد الحسد وتمادي اشتغال الفكر فيه وكثرة الحزن والهمّ، لأنّ نعم الله سبحانه على عباده غير معدودة، وفيوضاته غير متناهية، فإذا كان حسد الحاسد على الخلق بتلك الآلاء والنعم دام عليه الهمّ والغمّ، فيضيق وقته بل ينقطع عن إتيان الحسنات ويُلقي نفسه في المهلكات، وهو معنى قوله عليه السلام: «إنّه يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب» أي يستأصله ويفنيه ويبطله مثل استيصال النار للحطب وإفنائها له.

وأمّا بالجسد فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «صحّة الجسد في قلّة الحسد».[1] وسرّه أنّ الحسود إذا دام عليه الحزن والغمّ بتواتر الآلام والنعم على المنعم أورث ذلك له طول السهر وتمادي الفكر وضيق العيش وضنك المعيشة وقلّة الراحة ومضيق الباحة، فينقطع عنه الابتهاج، ويؤدّي ذلك إلى فساد المزاج.

وجاء في المجلّد التاسع من حلية الأولياء ص ١٤٧: قال الشافعي محمد بن إدريس: الحسد إنّما يكون من لؤم العنصر، وتعادي الطبائع، واختلاف التركيب، وفساد مزاج البنية، وضعف عقد العقل، الحاسد طويل الحسرات عادم الدرجات.

[الحسد ومنشؤه]:

إنّ المداخل التي يأتي الشيطان من قِبلها في الأصل ثلاثة: الشهوة، والغضب والهوى؛ فالشهوة بهيميّة، والغضب سَبعيّة، والهوى شيطانيّة، فالشهوة آفة لكنّ الغضب أعظم منه، الغضب آفة لكنّ الهوى أعظم منه، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ﴾ المراد آثار الشهوة، وقوله ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ المراد منه

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٢٥٦/ ح٢٨.

آثار الغضب، وقوله ﴿وَالْبَغْيِ﴾[١] المراد منه آثار الهوى، فبالشهوة يصير الإنسان ظالماً لنفسه، وبالغضب يصير الإنسان ظالماً لغيره، وبالهوى يتعدّى ظلمه إلى حضرة جلال الله تعالى، ولهذا قال عليه السلام: الظلم ثلاثة: فظلم لا يُغفر، وظلم لا يُترك، وظلم عسى الله أن يتركه، فالظلم الذي لا يُغفر هو الشرك بالله، والظلم الذي لا يُترك هو ظلم العباد بعضهم بعضاً، والظلم الذي عسى الله أن يتركه هو ظلم الإنسان نفسه.[٢] فمنشأ الظلم الذي لا يُغفر هو الهوى، ومنشأ الظلم الذي لا يُترك هو الغضب، ومنشأ الظلم الذي عسى الله أن يتركه هو الشهوة، ثمّ لها نتائج: فالحرص والبخل نتيجة الشهوة، والعجب والكبر نتيجة الغضب، والكفر والبدعة نتيجة الهوى، فإذا اجتمعت هذه الستّة في بني آدم تولّد منها سابع وهو الحسد، وهو نهاية الأخلاق الذميمة، كما أنّ الشيطان هو النهاية في الأشخاص المذمومة، ولهذا السبب ختم الله مجامع الشرور الإنسانيّة بالحسد، وهو قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[٣] كما ختم مجامع الخبائث الشيطانيّة بالوسوسة، وهو قوله ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[٤] فليس في بني آدم أشرّ من الحسد، كما أنّه ليس في الشياطين أشرّ من الوسواس، بل قيل: الحاسد أشرّ من إبليس؛ لأنّ إبليس رُوي أنّه أتى باب فرعون وقرع الباب، فقال فرعون: من هذا؟ فقال إبليس: لو كنتَ إلهاً لما جهلتني، فلمّا دخل قال فرعون: أتعرف في الأرض شرّاً منّي ومنك؟ قال: نعم الحاسد، وبالحسد وقعت في هذه المحنة. تفسير الرازي ج١، ص ٢٦٦، ط مطبعة البهيّة، مصر.

---

(١) العنكبوت: ٤٥.

(٢) أنظر: تحف العقول: ٢٩٣؛ روضة الواعظين: ٤٦٦.

(٣) الفلق: ٥.

(٤) الناس: ٣ و٤.

[الحسد وعلله.. وآثاره]:

أعظم الرذائل في المجموعة الإنسانية الحسد المتولّد من اقتران الطمع والبغض، فهذه الصفة متّصفة بالدناءة والتسفّل والخبث والحرص والنذالة والقحّة والاعوجاج والتحيّل كالطمع، وبالكبرياء والرياء والظلم والعتوّ كالبغض، ولا يكتفي الحسود بأن يشتهي كرامة غيره واقتداره وماله، بل يشتهيها لزعمه أنّها ينبوع السعادة واللذّات، وكما يتمتّع بها لو حصلت له بدون نظر إلى القوانين الأدبيّة، هكذا يتمنّى الحصول عليها، فيطلب الغنى من البطالة، والاعتبار من السخافة، ويحتقر المراتب الطبيعيّة المتعلّقة بعلوّ مقام الإنسان في الهيئة الاجتماعيّة، فيحسد على منصب أو علم أو اعتبار أو حذق أو براعة أو مال أو جمال، وهذا الهمّ الشديد شغل شاغل له ليلاً ونهاراً يحمله على ترك فروضه اليوميّة التي لو اشتغل بها لألهاه ذلك عن هذه الوساوس الواخزة، ولا يرتضي بما قُسم له، ولا يرجو تغيّر ما هو عليه، يخجل من المخالطة، يضطرب بأمر المستقبل، يتيه في ظلام الفناء، ويرود كالثعلب الرواغ حول أموال الناس ومراتبهم التي يراها ويشتهيها ويرى أنّها لزيادة شقائه تنمو وينمو فيه معها الطمع، وحينئذ ينفتح للبغض في قلبه باب، فيرى من الناس من يقاسون الشقاء والذلّ، ومن يتمتع بالمال والاعتبار سليماً آمناً، ويتبيّن له من البعض أنّهم يحولون بينه وبين مرامه ويضادّون ميله ويتجاوزون مقاصده ويجذبون إليهم نظر الجمهور.

الذي لا يبالي بذاك الحسود فينقلب الحال معه ويمسخ مسخاً ثانياً، وذلك أنّ المال أو الاعتبار الذي يطمع فيه ولم يقدر على إيجاده وتحصيله بالشغل، له صاحب يحقّ له التمتّع به، فيصير عدوّاً له، وبالحريّ هو يصير لصاحب المال والاعتبار عدوّاً أزرق ألدّ أحمق، فينصبّ في تجاويف قلبه سمّ البغضاء على سمّ الطمع، فلا يزال شاغلاً خاطره بالغنى والجاه، فيمقت كلّ غني ووجيه، ويقابل بين نفسه وهؤلاء المتموّلين وأهل الاعتبار، فيتوهّم أنّه فوقهم فضلاً، فيحاول تبليغ ذلك إلى الناس، ويجتهد في إقناعهم أنّه أولى بالغنى والاعتبار.

وبعض الناس ـ كما هو معلوم ـ يخبط في ظلام العسف خبطاً، فيخدع بظواهر الأمور ويجهل حقيقة التعقّل والحشمة والفضائل الحقيقية في إجمالها، وهذا الحسود يستعمل كلّ فنٍ وحيلة لسدل برقع الانخداع على عيون معارفه، ويعطيه الحسد عقلاً ونشاطاً فيخطو في سبيل ضرر القريب أكثر ممّا خطا في سبيل تحصيل المال والاعتبار، فيذهب من مكان إلى مكان معذّباً بالأمر نفسه، يضرب أخماساً لأسداس، يتطلّب الحصول على ثروة الناس أو مراكزهم بطرق المكر والاحتيال، وقد استولى على تصوّره أنّه إذا أتلف عدوّه يحصل على الغِنى، وإذا خفض من شأنه ارتفعت منزلته، فيكون أوّل الاغراض التي يوجّه إليها سهام خبثه إهلاك عدوه قبل الحصول على ثروته، ناسياً قول القائل:

أيا حاسداً لي على نعمتي ... أتدري على من أسأت الأدبْ
أسأتَ على الله في حكمه ... لأنّك لم ترضَ لي ما وهب
فأخزاك ربّي بأن زادني ... وسدّ عليك وجوه الطلب

وصاحب هذه الرذيلة قلّما ينتهي إلى الغاية التي يقصدها، فيخدعه بغضه وطمعه، ولا يزال قلبه معذّباً بناره، قال الشاعر:

خلِّص فؤادك من غلٍّ ومن حسدٍ ... فالغلّ في القلب مثل الغلّ في العنق[1]

وقالت العرب: داء الأسد أسلم من داء الحسد، وقالوا: الحسود غضبان على القدر، وقالوا: ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش: الحقد والحسد وسوء الخلق، وقالوا: بئس الشقاء الحسد. وقال علي عليه السلام: «الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له».[2] وقال بعضهم: الحسد داءٌ منصف، يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود. وفي الحديث النبويّ: « قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٣١٨.
(٢) عوالي اللئالي ١: ٢٩٢/ ح١٦٩؛ بحار الأنوار ٧٠: ٢٥٦/ ح٢٦ و٢٩.

فقتله».[١] وقالوا: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود: أوّلها غمّ لا ينقطع، ثانيها مصيبة لا يُؤجر عليها، ثالثها مذمّة لا يُحمد عليها، رابعها سخط الربّ، خامسها يغلق عنه باب التوفيق.

وإذا قابلنا الحسد مع سائر الرذائل وجدناه أقبحها، فإنّ البخيل يتمتّع بماله، والنهم يشبع من طعامه، وسائر الرذائل تجد ما يخمد قوّتها، وأمّا الحسد فلا يزال يشبّ ضرامه في فؤاد صاحبه ما دامت دواعي الحسد موجودة، كالنار لا تزال تلتهب ما دام الوقود يُطرح فيها، ومع ذلك لا يزال الحسود يرى أنّه تنقصه أمور كثيرة وتؤلمه أخرى، فينقصه الشبع والريّ، وتؤلمه جراح الوساوس وقهر فؤاده، فيكون ميّتاً في صورة حيّ، وتنغّص معيشته فيأكل بعضه بعضاً كالذئب يعيش من شحمه، وكالهرّ الذي يلحس المبرد وهو يلحس من دمه، قال الشاعر:

اصبر على كيد الحسود ... فإنّ صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله[٢]

فالحسد إذاً أخبث الأخلاق الرديئة، وبه كانت أول سقطة العالم العظمى في الخطيئة، وأوّل قتيل قُتل على الأرض، الشيطان حسد آدم فأهبطه، وقابيل حسد هابيل فقتله.

[علة قتل قابيل لأخيه هابيل]:

وما جاء في بعض الأحاديث من أنّ قابيل قتل أخاه هابيل بسبب التزاوج لا صحّة له، وهو شبهة مغلوطة بعيدة عن الواقع ولا يتقبّلها الذوق، وإنّما التقاتل كان من أجل الوصيّة ومواريث النبوّة.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٣١٦.
(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٢٥٨.

زعم بعض المؤرّخين على أنّ سبب التقاتل بين الأخوين ـ قابيل وهابيل ـ أنّ كل واحد منهما تزوّج أخت الآخر، وأنّ شقيقة قابيل كانت أجمل من شقيقة هابيل، فأخذ قابيل من أجل ذلك الحسد على هابيل فحقد عليه فقتله، ثمّ قالوا: وهذا أصل سلسلة البشر وينبوع الإنسانيّة، وهذا مُنافٍ لناموس الاجتماع وشرف الإنسانيّة، وإن صحّ هذا يكون وجود الخليقة من الزنا، يقول أبو العلاء المعري رداً على هذا الزعم المغلوط.

إذا ما رأينا آدماً وفعاله ... وتزويجه بنتيه لابنَيه بالخنا

علمنا بأنّ الناس من أصل فاجر ... وأنّ جميع الخلق من عنصر الزنا

والقول السديد ما ورد عن أئمّة الهدى عليهم السلام، فقد روى الصدوق في علل الشرائع عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن بدء النسل من ذريّة آدم عليه السلام وقيل له: إنّ عندنا أناساً يقولون: إن الله تعالى أوصى إلى آدم أن يزوّج بناته من بنيه، وأنّ هذا الخلق أصله كلّه من الأخوة والأخوات. فقال عليه السلام: سبحان الله وتعالى عن ذاك علوّاً كبيراً، يقول من يقول هذا أنّ الله جعل أصل صفوة خلقه وأحبائه وأنبيائه ورُسله والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من حرام، ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من الحلال، وقد أخذ ميثاقهم على الحلال والطهر الطاهر الطيب، والله لقد نُبّئت أنّ بعض البهائم تنكّرت له أخته فلمّا نزى عليها ونزل كُشف له عنها وعلم أنّها أخته أخرج غرموله ثمّ قبض عليه بأسنانه وقلعه ثمّ خرّ ميتاً».[1]

وفي رواية أخرى ما يقرب من ذلك، مع أشدّ التأكيد في تحريم الأخوات على الأخوة، وأنّه لم يزل كذلك في الكتب الأربعة المشهورة، وإنّ جيلاً من هذا الخلق رغبوا عن علم أهل بيوتات الأنبياء وأخذوا من حيث لم يؤمروا بأخذه، فصاروا إلى ما قد ترون من الضلال والجهل. **إلى أن قال**: ما أراد

---

(١) علل الشرايع ١: ١٧/ ح١، باب ١٧.

من يقول هذا وشبهه إلاّ تقوية حُجج المجوس، فمالهم قاتلهم الله. وساق الحديث **إلى أن قال**: إن الله أنزل لشيت بن آدم حوراء من الجنّة اسمها نزلة، وليافث بن آدم حوراء أخرى اسمها منزلة، وأمر آدم أن يزوّج ولديه منهما، وولد الصفوة من النبيّين والمرسلين من نسليهما، ومعاذ الله أن يكون ذلك على ما قالوا من الأمر للأخوة والأخوات.(١)

وروى العيّاشي في تفسيره عن الباقر عليه السلام أنّه قيل له: إنّ الناس يزعمون أنّ آدم زوّج ابنته من ابنه، فقال عليه السلام: قد قال الناس ذلك، ولكن أما علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لو علمت أنّ آدم زوّج ابنته من ابنه لزوّجت زينب من القاسم، وما كنت لأرغب عن دين آدم».(٢)

وبالتالي إنّ سبب التقاتل هو أنّ الله تعالى أوحى إلى آدم عليه السلام أن يدفع مواريث النبوّة ومنصب الخلافة بعده إلى هابيل لاستعداده الفطريّ وعارضته القويّة، فحسده قابيل على هذه الموهبة، وقال له: أنا أكبر منك سنّاً، فأنا أولى بالكرامة والوصيّة، فنازعه في ذلك، فأمرهما آدم عليه السلام بأمر من الله تعالى أن يُقرّبا قرباناً، فمن تُقبّل قربانه كان أولى بالموهبة، فرضيا بهذا الفرض، وكان هابيل صاحب ماشية وقابيل صاحب زرع، فقرّب هابيل كبشاً من أفضل غنمه، وقرّب قابيل من شرّ زرعه ما لم يكن ينقى، ثمّ صعدا فوضعا القربان على الجبل، فأتت النار من السماء فاستولت على قربان هابيل وتجنّبت قربان قابيل، فدخل قابيل الحسد والحقد لهابيل وبغى عليه، وقد أشار الجليل جلّ وعلا إلى هذه الفذلكة بقوله ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾(٣) الآية، فسوّل له إبليس قتله فقال له: والله لأقتلنّك. فقال هابيل:

---

(١) علل الشرايع ١: ١٨ - ٢٠/ ح٢، باب ١٧.

(٢) تفسير العيّاشي ١: ٣١٢ / ح٨٣.

(٣) المائدة: ٢٧.

﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾[1] فلم يدرِ كيف يقتله، فتراءا له إبليس فقال له: ضع رأسه بين حجرين ثمّ اشدخه، فلمّا أجرى هذه العملية ورآه قتيلاً وقف متحيّراً لم يدرِ ما يصنع به بعد القتل، فبعث الله غرابين فأقبلا يقتتلان أمامه حتّى قتل أحدهما صاحبه، فعمد الحيّ إلى القتيل فحفر له بمخالبه في الأرض حفرة ثمّ طرحه فيها وواراه في التراب حتّى أخفى أثره، فقال قابيل عند منظره ومشاهدته هذا الصنع من الغراب ﴿يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[2] ندم الحيرة ورقّة الطبع، فحفر له عند ذلك حفرة كما شاهد الغراب وقبره.

وبالتالي لم يكن شيء أمحق للإيمان من الحسد ولا أهتك للستر منه، وذلك أنّ الحاسد معاند لحكم الله، باغ على عباده، عاتٍ على ربّه، يعدّ نعم الله نقماً، وعدل قضائه حيفاً، للناس حال وله حال، لا يهدأ ليله، ولا ينام جشعه، ولا ينفعه عيشه.

قال بعض الحكماء عن الحاسد: واعجباه لرجل أسلكه الشيطان مهاوي الضلالة وأورده قحم الهلكة، فصار لنعم الله تعالى بالمرصاد، إن أنالها من أحبّ من عباده أشعر قلبه الأسف على ما لم يقدر له، وأغار الكلف بما لم يكن يناله.

وفي الحديث النبويّ: «إنّ لنعم الله أعداءً، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله».[3]

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: يا بن عمران لا تحسد الناس على ما آتيتُهم من فضلي، ولا تمدّنّ عينيك إلى ذلك ولا تتبعه نفسك،

---

(١) المائدة: ٢٧ - ٣٠.

(٢) المائدة: ٣١.

(٣) بحار الأنوار ٧٠: ٢٥٦/ ح٢٦.

فإنّ الحاسد ساخط لنعمي، صادّ لقسمي الذي قسمتُ بين عبادي، ومن كان كذلك فلستُ منه وليس منّي».[١]

وعن معاوية بن وهب قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «آفة الدين الحسد والعجب والفخر».[٢]

وعن فضيل بن عياض عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط».[٣]

وعن محمد بن مسلم قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إنّ الرجل ليأتي بأدنى بادرة فيكفر، وإنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب».[٤]

وفي الوسائل من المجالس مسنداً عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «أصول الكفر ثلاثة: الحرص، والاستكبار، والحسد».[٥]

وفي الأنوار النعمانيّة للسيّد المحدّث الجزائري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ستّة يدخلون النار قبل الحساب بستّة: الأمراء بالجور، والعرب بالعصبية، والدهاقين بالكبر، والتجّار بالخيانة، وأهل الرستاق بالجهالة، والعلماء بالحسد».[٦]

ومع ذلك فإنّ الحسد من دواعي نشر الفضائل المطوية وزيادة في فضل صاحبها، إذ تتّجه إليه الأعين وتعرف حقيقة استحقاقه، قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُويت أتاح لها لسانَ حسودِ[٧]

---

(١) الكافي ٢: ٣٠٧/ ح٦.

(٢) الكافي ٢: ٣٠٧/ ح٥.

(٣) الكافي ٢: ٣٠٧/ ح٧.

(٤) الكافي ٢: ٣٠٦/ ح١.

(٥) وسائل الشيعة ١٥: ٣٦٧/ ح٢٠٧٦٥.

(٦) رواه المجلسي في البحار ٧٣: ١٥٦.

(٧) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٣١٦.

[علي والحاسدون]:

إنّ أعداء علي عليه السلام أخفوا فضائله حسداً وكتموا مناقبه حقداً، ومع ذلك فقد كانت تنطق بها ألسنتهم، وتنقل من أفواههم، وتدوّن بأقلامهم وتنشر بإرادتهم، لما جعل الله لعلي عليه السلام من الكرامة العالية والفضائل التي لم تكن لغيره من مخلوق الله عدا النبي صلى الله عليه وآله.

* * *

يقول السيّد الرضي:

علامة العزّ أن حُسدت به ... إنّ المعالي قرائن الحسد

* * *

ويقول الشيخ محمّد علي الحلي الشفهيني:

يا من إذا عُدّت مناقب غيره ... رجحت مناقبُه وكان الأفضلا
إنّي لأعذر حاسديك على الذي ... أولاك ربُّك ذو الجلال وفضّلا
إن يحسدوك على عُلاك فإنّما ... متسافل الدرجات يحسد مَن علا[1]

* * *

وقال الشيخ هاشم الكعبي:

إنّي لأعذر حاسديك على العُلا ... وعلاك عذري لو عذرت حسودا
فليحسد الحسّاد مثلك إنّه ... شرف يزيد على المدى تجديدا
ما أنصفتك عصابةٌ جهلتك إذ ... جعلت لذاتك في الوجود نديدا

* * *

وقال مهيار الديلمي:

---

(١) انظر الغدير ٦: ٣٨٨.

ألا سَل قريشاً ولُم منهمُ ... من استوجب اللوم أو فَنَدِ
وقل: ما لكم بعد طول الضلال ... لم تشكروا نعمة المرشد
أتاكم على فترة فاستقام ... بكم جائرين عن المقصد
وولّى حميداً إلى ربّه ... ومن سنّ ما سنّه يحمد
ومن جعل الأمر من بعده ... لحيدر بالخبر المسند
وسمّاه مولىً بإقرار مَن ... لو اتّبع الحقّ لم يَجحَدِ
فمِلتم بها حسد الفضل عنه ... ومن يكُ خيرَ الورى يُحسَدِ[1]

وسُئل محمد بن إدريس الشافعي عن علي عليه السلام قال: ما أقول في شخص أخفى أعداؤه فضائله حسداً له، وأخفى أولياؤه فضائله خوفاً وحذراً على أنفسهم، وظهر فيما بين هذين فضائل طبقت الشرق والغرب»[2] فأخذ الشاعر هذا المعنى ونظمه وسبكه سبكاً لطيفاً فقال:

لقد كتمت آثار آل محمّد ... محبّوهمُ خوفاً وأعداؤهم بُغضا
وقد شاع من بين الفريقين نبذة ... بها ملأ الله السموات والأرضا[3]

* * *

أجل لقد كانت مزايا علي عليه السلام تظهر على ألسنة أعدائه وشانئيه، فمن ذلك ما كان معاوية يتفوّه وينطق به، وهو أعدى عدوٍ لعلي عليه السلام والمؤسّس للسبّ عليه على المنابر وفي الصلوات الخمس.

[معاوية ينطق بالحق]:

ذكر المؤرّخ ابن قتيبة في كتابه (الإمامة والسياسة) أنّ محجن إبن أبي محجن

---

(١) انظر الغدير ٤: ٢٤١.

(٢) ذكره العلامة الحلّي في كشف اليقين: ٤، ونسبه إلى بعض الفضلاء، ونسبه المحدّث القمّي في الكنى والألقاب ٢: ٣٥٠ إلى الشافعي.

(٣) نسبه المحدّث القمّي في الكنى والألقاب ٢: ٣٥٠ إلى السيد تاج الدين العاملي.

الثقفي قدم على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين إنّي أتيتك من عند العيّي الجبان البخيل ابن أبي طالب. فقال له معاوية: لله أنت أتدري ما قلت؟! أما قولك «العيّي» فو الله لو أنّ ألسن الناس جُمعت فجعلت لساناً واحداً لكفاها لسان علي، وأمّا قولك إنّه جبان، فثكلتك أمك، هل رأيتَ أحداً قطّ بارزه إلاّ قتله؟ وأمّا قولك «بخيل»، لو كان له بيتان أحدها من تِبر والآخر من تبن لأنفد تبره قبل تبنه. فقال له: فعلام تقاتله إذاً؟ قال: على دم عثمان وعلى هذا الخاتم الذي من جعله في يده جازت طينته وأطعم عياله وادّخر لأهله. فضحك الثقفي ثمّ لحق بأمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين هَب لي يدي بجرمي، لا دنيا أصبتُ ولا آخرة. فضحك علي وقال له: أنت منها على رأس أمرك، وإنّما يأخذ الله العباد بأحد الأمرين.[1]

* * *

جاء في المجلّد التاسع من حلية الأولياء ص ١٤٥، ط مطبعة السعادة بمصر:

عن محمد بن إدريس الشافعي: قال: دخل رجل من بني كنانة على معاوية بن أبي سفيان، فقال له معاوية: هل شهدت بدراً؟ قال: نعم. قال: مثل من كنت؟ قال: غلام قمدود مثل عطباء الجلمود، قال: فحدّثني ما رأيت وحضرت، قال: ما كنّا إلا شهوداً كأغياب، وما رأينا ظفراً كان أوشك منه، قال: فصِف لي ما رأيت. قال: رأيت في سرعان الناس علي بن أبي طالب غلاماً شاباً ليثاً عبقريّاً يفري الفري، لا يثبت له أحد إلاّ قتله، ولا يضرب شيئاً إلاّ هتكه، لم أر من الناس أحداً قطّ أنفق منه، يحمل حملة ويلتفت التفاتة كأنّه ثعلب روّاغ، وكأنّ له عينين في قفاه، وكأنّ وثوبه وثوب وحش يتبعه رجل، مُعلم بريش نعامة، كأنّه جمل يحطم يبساً، ولا يستقبل شيئاً إلا هدّه، ولا يثبت له شيء إلاّ ثكلته أمه، شجاع أبله يحمل بين يديه ولا يلتفت وراءه. قال: فرأيت ماذا؟ قال: رأيت

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٣٤.

ما وصفتُ لك، ورأيت جدّك عتبة وخالك الوليد حين قُتلا، ورأيت ما وصفت لمن حضر من أهلك لم يعف عنه، قال: فكنت في المنهزمين؟ قال: نعم قال: لمّا انهزمت عشيرتُك فأين كنت منهم، قال: لمّا انهزمت كنت في سرعانهم، قال: فأين رحت؟ قال: ما رحت حتّى نظرت إلى الهضاب، قال: لقد أحسنت الهرب، قال: فعلى ما احتسبه أبوك، وبعده ما اتّعظت بمصرع كمصرع جدك وخالك وأخيك، قال: إنّك لغليظ الكلام، قال: إني ممّن يضر. قال: إنّكم تبغضون قريشاً، قال: أمّا من كان منهم أهله فنبغضه، قال: ومن الذين هم أهله؟ قال: من قطع القرابة واستأثر بالفيء وطلب الحق فلمّا أُعطيه منعه، قال: ما فيكم خير من أن يسكت عنكم، قال: ذاك إليك، قال: قد فعلت. قال: قد سكتّ.

ونظير هذه القصة أنّه أهديت لمعاوية هدية مثمنة وكان عنده عمرو بن العاص وولده يزيد لعنه الله، فتطاولت أعناقهما إليها ورامها كلّ منهما لنفسه، فأدرك معاوية ما بأنفسهما، فقال: ليقل كلّ منّا بيتاً من الشعر، فمن كان شعره أجود فهي له، ولنجعل موضع النظم علي بن أبي طالب، ثمّ ابتدأهم معاوية فقال:

خير البرية بعد أحمد حيدرٌ ... فالناس أرضٌ والوصيُّ سماءُ

فقال يزيد:

كمليحةٍ شهدت لها ضرّاتُها ... والحسن ما شهدت به الضرّاءُ

فقال ابن العاص:

ومناقب شَهِد العدوُّ بفضلها ... والفضل ما شهدت به الأعداءُ

فاستحقّها عمرو، فأخذ وانصرف.

* * *

واستمرّ الحسد لعلي عليه السلام في سلسلة الأمويين وأتباعهم، إلاّ أنّ بني أميّة أشدّ وأحرّ حسداً.

[أعرابي يمدح علياً عليه السلام في مجلس الوليد]:

ذكر العلاّمة المجلسي رحمه الله في مجلّد ١١ في البحار ص ٦٣ من الطبعة الأولى في أحوال الإمام الباقر عليه السلام أنّ الخليل بن أحمد العريضي قال: حضرت مجلس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وقد اسحنفر ـ أي تحامل ـ في سب عليّ واثعنجر ـ امتلأ غيظاً ـ في ثلبه، إذ خرج عليه أعرابي على ناقة له وذفراها[1] يسيلان لإغذاذ السير دماً،[2] فلمّا رآه الوليد لعنه الله في منظرته قال: ائذنوا لهذا الإعرابي فإنّي أراه قد قصدنا، وجاء الأعرابي فعقل ناقته بطرف زمامها ثمّ أذن له بالدخول فدخل فأورده قصيدة لم يسمع السامعون مثلها جودة قطّ، إلى أن انتهى إلى قوله:

ولمّا أن رأيت الدهر آلى ... عليَّ ولحّ في إضعاف حالي

وفدتُ إليك أبغي حسن عُقبى ... أسدّ بها خصاصات العيال

وقائلة إلى من قد رآه ... يؤمّ ومن يُرجّى للمعالي

فقلت إلى الوليد أؤمّ قصداً ... وقاه الله من غِير الليالي

هو الليث الهصور شديد بأسٍ ... هو السيف المجرّد للقتال

خليفة ربّنا الراعي علينا ... وذو المجدِ التليد أخو الكمال

قال: فقبل الوليد مدحته وأجزل عطيّته وقال له: يا أخا العرب قد قبلنا مدحتك وأجزلنا صلتك، فاهجِ لنا علياً أبا تراب. فوثب الأعرابي لمّا سمع يتهافت قطعاً ويزئر حنقاً ويَشمَذِرُ شفقاً وقال: والله إنّ الذي عنيته بالهجاء لهو أحقّ منك بالمديح، وأنت أولى منه بالهجاء، فقال له جلساؤه: اسكت نزحك الله (أي أبعدك) قال: علام ترجوني وبم تبشّروني ولمّا أبديت سقطاً ولا قلت شططاً ولا ذهبت غلطاً، على أنّني فضّلت عليه من

---

(١) ذفراها: العظم خلف الأذن، أنظر: الصحاح/ الجوهري: ٢/ ٦٦٣.

(٢) السير دماً: سرعة السير، أنظر: لسان العرب: ٣/ ٥٠١.

هو أولى منه بالفضل علي بن أبي طالب الذي تَجَلْبَبَ بالوقار ونبذ الشنار،[١] وعاف (أي كره) العار، وعهد الانصاف وأبدى الأوصاف وحصن الأطرف وتَألَّفَ الأشراف، وأزال الشكوك في الله بشرح ما استودعه الرسول من مكنون العلم الذي نزل به الناموس (أي الملك) وحياً من ربّه، ولم يَفتَر طرفاً ولم يصمت اَلِفاً ولم ينطق خُلفاً، الذي شرفه فوق شرفه وسَلَفُهُ في الجاهلية أكرم من سلفه، لاتُعرف المأدُبات في الجاهلية إلاّ بهم، ولا الفضل إلاّ فيهم، صفة من اصطفاها الله واختارها، فلا يغترّ الجاهل بأنّه قصد عن الخلافة بمثايرة من ثابر عليها وجالد بها والسّلالِ المارقة والأعوان الظالمة.

ولئن قلتم ذلك كذلك، إنّما استحقها بالسبق تالله ما لكم الحجّة في ذلك، هلاّ سبق صاحبكم إلى المواضع الصعبة والمنازل الشعبة والمعارك المرّة كما سبق إليها علي بن أبي طالب الذي لم يكن بالقبعة ولا الهبعة ولا مضطغناً إلى الله ولا منافقاً رسول الله، كان يدرء عن الإسلام كلّ أصبوحة، ويذبّ عنه كلّ أمسية، ويلج بنفسه في الليل الديجور والمظلم الحلكوك مرصداً للعدوّ، هوذل[٢] تارةً وتضكضك[٣] أخرى، ويارب لزَبَةٍ (أي شدة) آتية قِسَيّة وأوانٍ آن أرونان[٤] قذف بنفسه في لهواتٍ وشيجة وعليه زغفَةٌ[٥] ابن عمه الفضفاضة، وبيده خِطّيّةٌ عليها سنانٌ لَهذَمٍ[٦] فبرز عمرو بن عبد ود القَرِم الأوِد والخصم الألد والفارس الأشدّ على فرسٍ عنجوج[٧] كأنما نجر نجرةً باليلنجوج،[٨] فضرب

(١) الشنار: العيب والعار. لسان العرب: ٤/ ٤٣٠.

(٢) هوذل في مشيه: أسرع.

(٣) تضكضك: انبسط وابتهج.

(٤) أرونان: يوم صعب.

(٥) الزعفة: الدرع.

(٦) اللهذم: القاطع.

(٧) العنجوج: جياد الخيل.

(٨) اليلنجوج: أي العدو الذي يتبختر.

قونسه[١] ضربة قنع منها عنقه، أو نسيتم عمرو بن معدي كرب الزبيدي إذ أقبل يسحب ذلاذل درعه مدلاً بنفسه، قد زحزح الناس عن أماكنهم ونهضهم عن مواضعهم ينادي: أين المبارزون يميناً وشمالاً؟ فانقضّ عليه كسودنيق أو كصيخورة منجنيق فوقصه وقص القطام بحجر الحمام وأتى به إلى رسول الله كالبعير الشارد يُقاد كرهاً وعينه تدمع وأنفه ترمع وقلبه يجزع.

هذا وكم له من يوم عصيب برز فيه إلى المشركين بنيّة صادقة وبرز غيره وهو أكشف أميل ـ أي جبان ـ أجمّ أعزل، ألا وإنّي مخبركم بخبر علي، إنه مُني بأوباش كالمراطة بين لغموط[٢] وحجابة وفقامة، ومغذمرٍ[٣] حملت به شَوهاً شهواء في أقصى مهيلها، فأتت به محضاً محياً وكلهم أهون على علي من سعدانة بقل، أفمثل هذا يستحقّ الهجاء وعزمه الحاذق وقوله الصادق وسيفه الفالق، وإنّما يستحق الهجاء من سامه إليه وأخذ الخلافة وأزالها عن الوارثة، وصاحبها ينظر إلى فيئه وكأن الشبادع[٤] تلسبه، حتّى إذا لعب بها فريق بعد فريق وخريق بعد خريق، اقتصروا على ضراعة الرهز[٥] وكثرة الأبز[٦] ولو ردّوه إلى سَمت[٧] الطريق والمِرت[٨] البسيط والتامور[٩] العزيز ألفوه قائماً واضع الأشياء في مواضعها، لكنّهم انتهزوا الفرصة واقتحموا الغصّة وباؤوا بالحسرة.

---

(١) قونسه: أي البيضة.

(٢) لغموط: قليل الحياء.

(٣) مغذمر: أي الغضب.

(٤) الشبادع: العقارب.

(٥) الرهز: الوطئ والدفع، تاج العروس: ٤/ ٩١.

(٦) في لسان العرب: ٥/ ٣٠٤: الأبز: الوثوب... والأباز: الوثاب.. والأباز: القفاز.

(٧) سَمت: أي الحسن.

(٨) المِرت: المفازة.

(٩) التامور: الوعاء.

قال: فاربدّ وجه الوليد وتغيّر لونه وغصّ بريقه وشرق بعبرته كأنما فُقئ في عينه حبّ المض الحاذق، فأشار عليه بعض جلسائه بالإنصراف وهو لا يشكّ أنّه مقتول به، فخرج فوجد بعض الأعراب الداخلين فقال له: هل لك أن تأخذ خلعتي الصفراء وآخذ خلعتك السوداء وأجعل لك بعض الجائزة حظّاً؟ ففعل الرجل وخرج الأعرابي فاستوى على راحلته وغاص في صحرائه وتوغّل في بيدائه واعتُقل الرجل الآخر فضُرب عنقه وجيء به إلى الوليد، فقال: ليس هو، هذا صاحبنا، وأنفذ الخيل السراع في طلبه فلحقوه بعد لأي، فلمّا أحسّ بهم أدخل يده إلى كنانته يُخرج سهماً سهماً يقتل به فارساً بعد فارس، إلى أن قتل من القوم أربعين وانهزم الباقون فجاؤوا إلى الوليد فأخبروه بذلك، فأغمي عليه يوماً وليلة أجمع، فلما أفاق قيل له: ما تجد؟ قال: أجد على قلبي غمّة كالجبل من فوت هذا الإعرابي».

[أعرابي يمدح علياً في مجلس معاوية]:

وروى العلاّمة المجلسي رحمه الله أيضاً في المجلّد ٨ من البحار ص ٥٨٥، ط الأولى أنّه دخل أعرابي على معاوية وعنده أهل الشام ليس فيهم غيرهم، ومعاوية يكلّمهم ويقول لهم: يا أهل الشام قد عرفتم حبّي لكم وسيرتي فيكم، وقد بلغكم صنيع علي بالعراق وتسويته بين الشريف وبين من لا يُعرف قدره. فقال رجل منهم: لا يهدّ الله ركنك، ولا يعدمك ولدك، ولا يرينا فقدك.

قال: فما تقولون في أبي تراب؟ فقال رجل منهم ما أراد، ومعاوية ساكت وعنده عمرو بن العاص ومروان بن الحكم، فتذاكرا علياً بغير الحقّ، فوثب الأعرابي من آخر المجلس فقال: يا معاوية تسأل أقواماً في طغيانهم يعمهون، اختاروا الدنيا على الآخرة، والله لو سألتهم عن السنّة ما أقاموها، فكيف يعرفون علياً وفضله، أقبل عليّ أخبرك ثمّ لا تقدر أن تُنكر أنت ولا من عن يمينك، يعني عمرو بن العاص.

هو والله الرفيع جاره، الطويل عماده، دمّر الله به الفساد، وأباد به الشرك، ووضع به الشيطان وأولياءه، وضعضع به الجور، وأظهر به العدل، ونطق زعيم الدين. وأطاب المورد، وأضحى الداجي، وانتصر به المظلوم، وهدم به بنيان النفاق، وانتقم به من الظالمين، وأعزّ به المسلمين، كريح رحمةٍ أثارت سحاباً متفرّقاً بعضه إلى بعض حتّى التحم واستحكم فاستغلظ فاستوى، ثمّ تجاوبت نواتقه، وتلألأت بوارقه واسترعد خرير مائه، فأسقى وأروى عطشانه، وتداعت جنانه، واستقلّت به أركانه، واستكثر وابله، ودام رزانه، وتتابع مهطوله، فرويت البلاد واخضرّت وأزهرت، ذاك علي بن أبي طالب سيّد العرب وإمام الأمّة وأفضلها وأعلمها وأجملها وأحكمها، أوضح للناس سيرة الهدى بعد السعي في الردى، وهو والله إذا اشتبهت الأمور وهاب الجسور واحمرّت الحدق وانبعث الفلق وأبرقت البواتر، استربط عند ذلك جاشه وعُرف بأسه، ولاذ به الجبان الهلوع فنفّس كربته وحمى حمايته، مستغنٍ برأيه عن مشورة ذوي الألباب، برأي صليب وحلمٍ أريب مجيب للصواب مصيب. فأمسك القوم جميعاً، وغضب معاوية لعنه الله وقال: أخرجوه، فأخرجوه من المجلس سحباً.

* * *

من وصية له إلى ولده الحسن عليه السلام:

[في محبّة الآخرين والنهي عن الظلم والعجب]

«يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ وَآفَةُ الْأَلْبَابِ فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ وَإِذَا أُنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ».[1]

* * *

[الشرح]:

في رسائل الإمام علي عليه السلام وفي عهوده ووصاياه، وفي خطبه وسائر أقواله روائع خالدة تناولها من الإنسان جواهر وغاية، ومن الكون معنى وشكلاً، ومن أحوال زمانه وأحداث عصره، ودفعها عقله الحكيم إلى خياله وقلبه حقائق علميّة خالصة، فإذا بها لا تمرّ على خياله الخصب وعاطفته الحارّة إلاّ لتتحرّك وتنحو وتنبعث وفيها امتدادات ونبض وخفوق، فما هي إلاّ حياة من الحياة. وإنّها لتراث عظيم للإنسانيّة، بوصفها دستوراً جليلاً في الأخلاق الخاصّة والعامّة لا تسمو عليه دساتير الأنبياء والمفكّرين والحكماء في مختلف العصور والأمكنة.

ونلفت النظر هنا بصورة خاصّة إلى فقرات هذه الوصيّة النيّرة، إلى ما

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٨٤ ط مكتبة المرعشي النجفي - قم.

يبدو فيها من الآثار العلويّة من دعوة إلى السلم والمؤاخاة، والتصافي في سبيل الإنطلاق إلى الميادين الإنسانيّة الرحبة، وفي سبيل إكرام الحياة واحترام الأحياء، وإنّه ليجدر بمثيري الحروب اليوم ومسبّبي ويلات الشعوب والأفراد أن يسمعوا كلمات جبّار الفكر العربي علي بن أبي طالب عليه السلام ويعوها ويُطأطئوا رؤوسهم لصاحبها العظيم، وإليكم بعض روائعه في هذا الفصل.

[نفسك ميزانك]:

قوله عليه السلام: «يا بُنيّ اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبِب لغيرك ما تحبّ لنفسك، واكره له ما تكره لها».

يريد عليه السلام أن يكون ولده المحبوب على أقسط حال مع من يألف معه ويكتنف به، فإنّ أوسط ما يلمّ به الإنسان في حلّه ومرتحله هو نفسه، فإذا جعل نفسه ميزاناً بينه وبين غيره، فبطبع الحال أنّه لا يروقه إلا الخير والصلاح العام لمن أشير إليهم.

وهنالك مغازٍ شريفة أخلاقيّة ألمح إليها عليه السلام من انتهاء ذلك إلى الغاية القصوى من مكارم الأخلاق؛ لأنّ الإنسان إذا علم منه أن يحبّ لأمته ما يحبّه لنفسه، فإنّ هناك مجلبة الحبّ الصميم ومدعاة الإخاء المتواصل.

هل يستطيع إنسان أن يعمل بهذا الحديث الشريف «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لغيره ما يحبّ لنفسه»؟[1] ومن الذي ينظر إلى نفسه بالعين التي ينظر بها إلى غيره ويساوي بين أعزّ الناس عليه وبين من لا يمتّ إليه بصلة؟ إن الحبّ لا يُصنع باليد، ولا يهبط على القلب من السماء، بل له بواعث وأسباب خاصّة لا تتّصل بالإرادة والاختيار، إنّ كثيراً من الاغنياء ينفقون من أموالهم على الخير ولا يحبّون أن يموت أحد من الجوع، ولكن لم تبلغ بهم الرحمة والانسانيّة أن يحبّوا لغيرهم ما يحبّونه لأنفسهم، إذ مهما كان قصد الغنيّ شريفاً، ومهما رغب

(١) سنن ابن ماجة ١: ٢٦/ ح٦٦؛ منية المريد للشهيد الثاني: ١٩٠.

في الخير، فإنّه لا يحبّ لأحد ما يحبّه لنفسه، والذي يعمل بهذه النصيحة ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ هو الفقير الذي لا تصلح حاله إلاّ بصلاح المجتمع، ولا يستطيع أن يتعلّم أو يتطبّب ويعمل إلاّ إذا كان كلّ من العلم والطبّ والعمل مضموناً لكلّ فرد على السواء ودون استثناء، وعلى هذا فمعنى الحديث هو النهي عن الاستغلال والطمع، والأمر بالتعاون والتعاضد على تحقيق العدالة الإجتماعيّة، وإنّ الله لا يأمر بالحبّ ولا ينهى عن البغض، وإنّما يأمر الإنسان أن يكون في عون أخيه الإنسان وبرّه ومناصرته التي تبعث على الحبّ، وينهى عن خذلانه واستعباده والاعتداء على حريّته التي توجب البغض.

قوله عليه السلام: «ولا تَظلِم كما لا تحبّ أن تُظلَم، وأحسن كما تحبّ أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وأرضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك».

هذه جمل شريفة لذات ما تقدّم به عليه السلام من مكارم الأخلاق وموجبات الفضائل ومقوّمات عالم الاجتماع، فهي ـ كما أسلفناه ـ ممّا تقمع جذور والظلم وتكسح جذومه، وتقيم قوائم الاحسان وترسّخ قواعده وتسدّد الأمت والأود ممّا يستقبحه الإنسان من نفسه ومن كلّ أحد. وأمر عليه السلام أن يتّخذ ولده البارّ نفسه مقياساً لما يرتضيه لأيّ إنسان من المحتّم أن يعاشره ويرعى الصلة بين نفسه وبينه.

وقوله عليه السلام: «ولا تقل ما لا تعلم وإن قلّ ما تعلم».

هذا أيضاً تعليم راقٍ للإنسان الكامل، فإنّه عليه السلام كان يربأ بمن سمع قيله ووعى عظته أن يكون مهذاراً يلهج بما لا يعنيه، فتفضحه فيما يقول أكذوبته، ويقعد به عن مرتقى الكمال مينه، وقد أدمج في هذا النصح الأبويّ نصيحة أخرى، فأشار إليه بما هو مزيج نفسيّته الكريمة من التنازل عن الخيلاء ومساقط الكبر بالاعتراف بقلّة ما عنده من العلم، لا سيّما إذا اتّخذ من العلم الربوبيّ مقياساً لما عنده من المعارف، وتتمّة هذه النصيحة هو قوله: «ولا تقل ما لا تحبّ

أن يُقال لك» التي هي لدة صويحباتها في نواميس عالم الاجتماع ومن متمّمات الإلفة وموجبات الإخاء، لاسيّما إذا عرف المجتمع أنّه غير خادش للعواطف الانسانيّة ولا مضيّع للحقوق البشريّة. فهم يصافونه في السرور والعلانية، ويُلقون إليه من أفلاذ أكبادهم ومايغالون به ولا يرخصون، فهو حبيب كلّ من يعرفه بهذه الصفة، وكذلك في كلّ من يتحلّى بما هنالك من ضرائب حميدة وطقوس تروق المجتمع في الحلّ والمرتحل.

* * *

[العجب آفة نفسية]:

قوله عليه السلام: «إنّ الإعجاب ضدّ الصواب وآفة الألباب».

أشار عليه السلام إلى وخامة العُجب المضادة لكمال النفس، وأنّه ضدّ الصواب، ولمّا كان الصواب هو سلوك طريق الله باستجماع مكارم الأخلاق، وكان الإعجاب من رذائل الأخلاق، كان مضاداً للصواب مضادّة الرذيلة للفضيلة، وبأنّه آفة للعقول، إذ هو من أكبر أمراض العقل وآفاته المهلكة، كما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وآله: بقوله: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه».[1]

فإنّ المعجب بما لديه يجعجع به الحال عن تحرّي مراقي السعادة والتقدّم، بحسبان أنّ ما عنده وافٍ لما ينبغي أن يتحرّاه من مناهج الأمور، فيبقى عاطلاً لا يجد وسيلة إلى التقدّم، ويكون منتهى أمره الخسران، ومقتبل مصيره الفشل، وهنا يستيقن أنّ الإعجاب ضدّ الصواب وآفة الألباب، لملازمته الخمود في العقل والخمول للنظر في صالح النفس، وأيّ سقوط أحطّ من هذا، وأيّ تدهور أوضع منه؟

نظر المهلّب بن أبي صفرة ـ أيّام إمرته في البصرة ـ إلى شاب معجب

---

(١) الخصال للصدوق: ٨٤/ ح١١؛ وسائل الشيعة ١: ١٠٢/ ح٢٤٥.

بنفسه يمشي الخيلاء، فقال له: يا بني أعدل عن سيرك هذا، فانزعج الشاب وقال له: أتعرفني من أنا؟ قال: نعم أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت ما بينهما تحمل العذرة.[1]

[قصيدة إيليا أبي ماضي]:

يقول إيليا أبو ماضي من شعرياته:

نسي الطينُ ساعةً أنّه طينٌ ... حقيرٌ فصال تيهاً وعربدْ
وكسا الخزُّ جسمَه فتباهى ... وحوى المالَ كيسُه فتمرّد
يا أخي لا تَمِل بوجهك عني ... ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
أنت لم تصنع الحرير الذي تلبس ... ولا اللؤلؤ الذي تتقلّد
أنت لا تأكل النضار إذا جعتَ ... ولا تشرب الجمان المنضّد
أنت في البردة الموشّاة مثلي ... في كسائي الرديم تشقى وتسعد
لك في عالم النهار أمانٍ ... ورؤى والظلام فوقك محتد
ولقلبي كما لقلبك أحلام ... حسانٌ فإنّه غير جلمد
أأمانيّ كلّها للتلاشي ... وأمانيك للخلود المؤكّد
أأماني كلّها من ترابٍ ... وأمانيك كلّها من عسجد
لا فهذي وتلك تأتي وتمضي ... كذويها وأيّ شيء يؤبّد
أيّها المزدهي إذا مسّك السقم ... ألا تشتكي ألا تتنهّد؟
وإذا راعك الحبيب بهجرٍ ... ودعتك الشكوى ألا تتوجّد؟
أنت مثلي يهشّ وجهُك للنُّعمى ... وفي حالة المصيبة يكمد
قمرٌ واحد يطلّ علينا ... وعلى الكوخ والبناء الموطّد

---

(١) تفسير القرطبي ١٨: ٢٩٤ - ٢٩٥.

إن يكن مشرقاً لعينيك إنّي ... لا أراه من كُوة الكوخ أسود
النجوم التي تراها أراها ... حين تخفى وعندما تتوقّد
أنت مثلي من الثرى وإليه ... فلماذا يا صاحبي اِلتيه والصد؟

* * *

[أحاديث في ذمّ العجب]:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله».(١)

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولا أنّ الذنب خير للمؤمن من العُجب ما خلّى الله عزّ وجلّ بين عبده المؤمن وبين ذنب أبداً».(٢)

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من دخله العُجب هلك».(٣)

وقال عليه السلام: «سيّئة تسؤك خير عند الله من حسنة تعجبك».(٤)

وقال عليه السلام: «الإعجاب يمنع الازدياد».(٥)

وقال عليه السلام: «عُجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله».(٦)

وقال ابن مسعود: «الهلاك في اثنين: القنوط والعُجب».

وعن علي بن سويد، عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن العُجب الذي يفسد العمل؟ فقال: «العُجب درجات: منها أن يزيّن للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب أنّه يُحسن صنعاً، ومنها أن يؤمن العبد بربّه فيمنّ على الله عزّ وجلّ ولله عليه فيه المنّ».(٧)

---

(١) الكافي ١: ٢٧/ ح٣١؛ بحار الأنوار ١: ١٦١/ ح٥١.
(٢) وسائل الشيعة ١: ١٠٤/ ح٢٥٢.
(٣) وسائل الشيعة ١: ٧٥ - ٧٦/ ح٨.
(٤) نهج البلاغة للشيخ محمد عبدة ٤: ١٣/ الرقم ٤٦؛ وسائل الشيعة ١: ١٠٥/ ح٢٥٥.
(٥) وسائل الشيعة ١: ١٠٥/ ح٢٥٦.
(٦) وسائل الشيعة ١: ١٠٥/ ح٢٥٧.
(٧) الكافي ٢: ٣١٣/ ح٣.

وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: قال الله عزّ وجلّ لداود عليه السلام: «يا داود بشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين، قال: كيف أبشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين؟ قال: يا داود بشّر المذنبين أنّي أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصدّيقين ألاّ يُعجبوا بأعمالهم، فإنّه ليس من عبد أنصبه للحساب إلاّ هلك».(١)

وقال عليه السلام: أتى عالمٌ عابداً فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يسأل عن صلاته وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا؟! قال: كيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتّى تجري دموعي، فقال له العالم: إن ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مُدلّ، إنّ المدلّ لا يصعد من عمله شيء.(٢)

قال عبد الرحمن بن الحجّاج: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق، ثمّ يعمل شيئاً من البرّ فيدخله شبه العُجب به، فقال: هو في حاله الأولى وهو خائف أحسن حالاً منه في حال عجبه.(٣)

قال أبو عبد الله عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «بينما موسى عليه السلام جالس إذا أقبل إبليس وعليه برنس ذو ألوان، فلمّا دنى موسى خلع البرنس وقام إلى موسى فسلّم عليه، فقال له موسى: من أنت؟ قال: أنا إبليس، قال: لا قرّب الله دارك، قال: إنّي إنّما جئت لأسلّم عليك لمكانك من الله، فقال له موسى: فما هذا البرنس؟ قال: به اختطف قلوب بني آدم، فقال موسى: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذتَ عليه؟ قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبُه».(٤)

عن أحدهما _ يعني أحد الإمامين عليهما السلام قال: دخل رجلان المسجد أحدهما

---

(١) الكافي ٢: ٣١٤/ ح٨.
(٢) الكافي ٢: ٣١٣/ ح٥.
(٣) الكافي ٢: ٣١٤/ ح٧.
(٤) الكافي ٢: ٣١٤/ ح٨.

عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صدّيق والعابد فاسق، وذلك أنّه يدخل العابد مدلاً بعبادته، والفاسق يدخل وهو نادم على فسقه مستغفراً لذنبه.(١)

وفي كتاب (أصول الكافي) عن داوود الرقي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «اتّقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً، إنّ عيسى ابن مريم كان من شرايعه السيح في البلاد، فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من أصحابه قصير كان كثير اللزوم لعيسى عليه السلام، فانتهى عيسى إلى البحر قال: «بسم الله» بصحّة ويقين منه فمشى على ظهر الماء، فقال الرجل القصير حين نظر إلى عيسى جازه «بسم الله» بصحّة ويقين منه فمشى على الماء ولحق بعيسى، فدخله العُجب بنفسه، فقال: هذا عيسى روح الله يمشي على الماء، وأنا أمشي على الماء، فما فضله عليّ؟ فرمس في الماء فاستغاث بعيسى، فتناوله من الماء فأخرجه، فقال له: ما قلتَ يا قصير؟ قال: قلت «هذا روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء» فدخلني من ذلك عجب، فقال له عيسى: لقد وضعتَ نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله فيه، فمقتك الله على ما قلتَ، فتُب إلى الله عزّ وجلّ ممّا قلت، فتاب الرجل وعاد إلى مرتبته.(٢)

قال أمير المؤمنين عليه السلام لولده محمّد بن الحنفيّة: «إيّاك والعُجب وسوء الخلق وقلّة الصبر، فإنّه لا يستقيم لك على هذه الخصال الثلاث صاحب، ولا يزال لك عليها من الناس مُجانب».(٣)

* * *

(١) الكافي ٢: ٣١٤/ ح٦.

(٢) الكافي ٢: ٣٠٦/ ح٣.

(٣) الخصال للصدوق: ١٤٧/ ح١٧٨؛ بحار الأنوار ٦٩: ٣١٥.

ومن خطبة له عليه السلام:

في وصف آل محمد عليهم السلام

«هُمْ مَوْضِعُ سِرِّه وَلَجَأُ أَمْرِه وَعَيْبَةُ عِلْمِه وَمَوْئِلُ حُكْمِه وَكُهُوفُ كُتُبِه وَجِبَالُ دِينِه بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِه وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِه».(1)

* * *

ضبط الألفاظ اللغوية:

(اللجاء) محرّكة كالملجأ الملاذ من لجأ إليه كمنع وفرح: لاذ. و(العيبة) ما يُجعل فيه الثياب، وفي الرجل موضع سرّه، و(الموئل) المنجا، من وئل إليه يئل، و(الكهف) غار واسع في الجبل، وفلان كهف لأنّه يُلجأ إليه كالبيت على الاستعارة، و(الانحناء) الاعوجاج، و(الارتعاد) الاضطراب، و(الفرائص) جمع الفريصة، وهي اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترتعد.

* * *

المعنى:

أشار عليه السلام في هذه الفقرات النيّرة إلى آل محمد عليهم السلام، ووصفهم بثمانية أوصاف إشارة إلى علوّ مقامهم وسموّ مكانهم ورفعة درجاتهم وعظمة شأنهم، والمراد بآله صلى الله عليه وآله هم الأئمّة المعصومون سلام الله عليهم أجمعين.

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٣٨، ط مكتبة المرعشي - قم. نهج البلاغة لمحمّد عبده ١: ٢٩ - ٣٠؛ بحار الأنوار٢٣: ١١٧/ ح٣٢.

ومن العجب أنّ الشارح البحراني العلاّمة ابن ميثم قدس سره جعل الأمور المذكورة أوصافاً لأهل النبي صلى الله عليه وآله الأدنين من بني هاشم، كالعبّاس وحمزة وجعفر وعلي بن أبي طالب عليهم السلام.

أمّا علي فمُسلَّم، وأمّا العبّاس وحمزة وجعفر ونظراؤهم من سائر بني هاشم فأين لهم قابليّة لحفظ سرّ الله، أم أنّى لهم استعداد لأن يكونوا لجاء أمرالله؟ أم كيف لهم الاحاطة بكتب الله؟ بل القابل لها ولسائر الأوصاف المذكورة إنّما هم آل الله وآل رسوله الذين هم العروة الوثقى ومنار الهدى وأعلام التقى وكهف الورى وهم الملجأ والمنجى.

جاء في كتاب (مشارق الأنوار) تأليف الشيخ رجب البرسي الحلي عن محمد بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: نحن جنب الله، ونحن صفوة الله، ونحن خيرة الله، ونحن مستودع مواريث الأنبياء، ونحن أُمناء الله، ونحن وجه الله، ونحن أئمّة الهدى، ونحن العروة الوثقى، وبنا فتح الله، وبنا ختم الله، ونحن الأوّلون، ونحن الآخرون، ونحن أخيار الدهر ونواميس العصر، ونحن سادة العباد وساسة البلاد، ونحن النهج القويم والصراط المستقيم، ونحن عين الوجود وحجّة المعبود، ولا يقبل الله عمل عاملٍ جهل حقّنا، ونحن قناديل النبوّة مصابيح الرسالة، ونحن نور الأنوار وكلمة الجبّار، ونحن راية الحقّ التي من تبعها نجا ومن تأخّر عنها هوى، ونحن أئمّة الدين وقادة الغرّ المحجّلين، ونحن معدن النبوّة وموضع الرسالة، وإلينا تختلف الملائكة، ونحن السراج لمن استضاء، والسبيل لمن اهتدى، ونحن القادة إلى الجنّة، ونحن الجسور والقناطر، ونحن السنام الأعظم، وبنا ينزل الغيث، وبنا تنزل الرحمة، وبنا يُدفع العذاب والنقمة.

فمن سمع هذا الهدى فليتفقّد قلبه في حبّنا، فإن وجد فيه البغض لنا والانكار لفضلنا فقد ضلّ عن سواء السبيل؛ لأنّا نحن عين الوجود وحجّة المعبود وترجمان وحيه وعيبة علمه وميزان قسطه، ونحن فروع الزيتونة وربائب

الكرام البررة، ونحن مصباح المشكاة التي فيها نور النور، ونحن صفوة الكلمة الباقية إلى يوم الحشر، المأخوذ لها الميثاق والولاية من الذرّ».[١]

ومن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «أيها الناس نحن أبواب الحكمة ومفاتيح الرحمة وسادة الأمة، وأمناء الكتاب وفصل الخطاب، وبنا يُثيب الله وبنا يعاقب، ومن أحبّنا أهل البيت عظم أحسانه ورجح إيمانه وقبل عمله وغفر زلله، ومن أبغضنا لا ينفع إسلامه، وإنّا أهل بيت خصّنا الله بالرحمة والحكمة والنبوّة والعصمة، ومنا خاتم الأنبياء.

ألا وأنا راية الحقّ التي مَن تلاها سبق، ومن تأخّر عنها مرق، ألا وإنّنا خيرة الله اصطفانا على خلقه وائتمننا على وحيه، فنحن الهداة المهديّون، ولقد علمت الكتاب، ولقد عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله ما كان وما يكون، وأنا أخو رسول الله وخازن علمه، أنا الصدّيق الأكبر ولا يقولها غيري إلاّ مُفترٍ كذّاب، وأنا الفاروق الأعظم».[٢]

وفيه: عنهم عليهم السلام أنهم قالوا: «كونوا لنا زَيناً ولا تكونوا علينا شَيناً، فإنّه ليس بين الله وبين أحد في خلقه قرابة، ألا من ائتّم بإمام فليعمل عمله، فما معنا براءة من النار، وليس لنا على الله من حجّة، فاحذروا المعصية لنا والمغالاة فينا، فإنّ الغُلاة شر خلق الله، يصغّرون عظمة الله ويدّعون الربوبيّة لعباد الله، والله إنّ الغلاة شرّ من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا، وإلينا يرجع الغالي فلا نقبله، لأنّ الغالي اعتاد ترك الصلاة والزكاة والصوم فلا يقدر على ترك عادته، وبنا يلحق المقصّر فنقبله؛ لأنّ المقصّر إذا عرف عمل».[٣]

وفيه: عنهم عليهم السلام أنهم قالوا: «نزّهونا عن الربوبيّة وارفعوا منّا حظوظ البشريّة ـ

---

(١) مشارق أنوار اليقين: ٧٣ - ٧٤.

(٢) بحار الأنوار ٢٦: ٢٦٠/ ح٣٧؛ مشارق أنوار اليقين: ٧٥.

(٣) مشارق أنوار اليقين: ١٠١.

يعني الحظوظ التي تجوز عليكم ـ فلا يُقاس بنا أحد من الناس، فإنّا نحن الأسرار الإلهيّة المودعة في الهياكل البشريّة، والكلمة الربّانيّة الناطقة في الأجساد الترابيّة، وقولوا بعد ذلك ما استطعتم، فإنّ البحر لا ينزف، وعظمة الله لا توصف».[١]

جنّبوهم قول الغلاة وقولوا ما استطعتم في فضلهم أن تقولوا
فإذا عدت السماء مع الأرض إلى فضلهم فذاك قليل[٢]

فهم في الأجساد أشباح، وفي الأشباح أرواح، وفي الأرواح أنوار، وفي الأنوار أسرار، فهم الصفوة والصفات والأصفياء، وإليه الإشارة بقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لولانا ما عُرف الله، ولولا الله ما عُرفنا».[٣]

وفيه أيضاً ص ١٢٦ فهؤلاء سادة الأنام، ومصابيح الظلام، وكسبة الاعتصام، وذروة الاحتشام، وأُمناء الملك العلاّم، الذين اصطفاهم للخطاب، وارتضاهم بميراث الحكمة والكتاب، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[٤] فهم السادة الأبرار المصطفون الأخيار الذين وصفهم بالطهارة والعصمة في الكتاب فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٥] فهم الذرّية الفاخرة وسادة الدنيا والآخرة، الذي دلَّ الكتاب على أنّهم الهُداة المهديّون، فقال في وصفهم ربُّ العالمين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[٦] ثمّ شهد الرسول بأنّهم سفينة النجاة، فقال وقوله

(١) مشارق أنوار اليقين: ١٠١.

(٢) مشارق أنوار اليقين: ١٠١، وفيه: «فإذا عدت سماءً مع الأرض...».

(٣) مشارق أنوار اليقين: ١٠١.

(٤) فاطر: ٣٢.

(٥) الأحزاب: ٣٣.

(٦) الأنعام: ٩٠.

الحقّ: «أهلُ بيتي كسفينة نوح، مَن ركبها نجا، ومن تأخّر عنها ضلّ وغوى»[١] ثمّ أبان لنا ربّ الأرباب أنّهم ورثة الحكمة والكتاب، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ﴾.[٢]

فهم الذريّة الطاهرون والعترة المعصومون، ثم صرّح الذكر المبين أنّهم ولاة الدين، فقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾[٣] فإليهم الإياب وعليهم الحساب يوم الحساب.

ثمّ اعلم أنّ حكم يوم المعاد إليهم وحساب العباد عليهم، فقال: ﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[٤] فالشهيد محمّد النبي، والسائق علي الولي، ثمّ أبان للخلق عددهم ونبأهم فقال: ﴿وَبَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾[٥] فهم السادة النقباء والأسباط الأوصياء، ثم خصّهم بالشرف والفخار وحصر فيهم العلم والافتخار فقال: ﴿وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ﴾[٦] فآباؤهم محمد وعلي وفاطمة وإخوانهم الحسن والحسين وذرّياتهم الخلفاء من عترة الحسين إلى آخر الدهر، ثمّ قال: ﴿وَاجْتَبَيْناهُمْ﴾ فتعيّن شرفهم وفضلهم، ووجب اتّباعهم وانقطاع الكلّ عن مرتبتهم، ونزول الخلائق عن رفعتهم.

ثمّ أكّد ذلك وعيّنه وأشاع فضلهم وبيّنه، وإنّ الإمامة لا تكون إلاّ في

---

(١) يُعرف بحديث السفينة، وهو من الأحاديث المشهورة المتواترة. انظر على سبيل المثال: ذخائر العقبى لمحبّ الدين الطبري: ٢٠؛ المعجم الكبير للطبراني ٣: ٤٦/ ح٢٦٣٧؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٢١٨، ط قم؛ الجامع الصغير للسيوطي ١: ٣٧٣/ الرقم ٢٤٤٢.

(٢) الغاشية: ٢٥.

(٣) ق: ٢١.

(٤) المائدة: ٢١.

(٥) المائدة: ١٢.

(٦) الأنعام: ٨٧.

المعصوم البريء من السيّئات المطهر من الخطيئات، وأخرج من سواهم من دائرة الشرف والحكم، وأشار إلى ذلك رمزاً فقال لنوح: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾[1] فقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[2] ثمّ بيّن لعباده أنّهم أئمّة الحقّ، وأوضح لهم أنّهم الداعون إلى الصدق، وأنّ من اتّبع غيرهم ضلّ وزلّ، فقال: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[3] ثمّ توعّد عباده وخوّفهم أن يتّبعوا غيرهم فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[4] والصدق فيهم ومنهم، ثمّ أمر عباده أن يدينون بطاعتهم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[5] فجعل ولايتهم السلم والسلام، ثمّ بيّن في الآيات أنّه اصطفاهم على الخلائق وارتضاهم للغيب والحقائق فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ﴾[6] ثمّ بيّن أنّهم بنعم الله محشورون، وعلى فضل الله محسودون فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾[7] والملك العظيم هو وجوب الطاعة على سائر العباد.

ثمّ أوجب على العباد طاعتهم بالتصريح فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[8] يعني الذين قرنهم بالكتاب والرسول، ثمّ نهى عباده أن يتفرّقوا عنهم فقال:

---

(١) هود: ٤٥.

(٢) هود: ٤٦.

(٣) يونس: ٣٥.

(٤) التوبة: ١١٩.

(٥) البقرة: ٢٠٨.

(٦) آل عمران: ٣٣.

(٧) النساء: ٥٤.

(٨) النساء: ٥٩.

﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾[١] يعني علياً وعترته، ثمّ قال: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ يعني غيرهم ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فتضلّ بكم عن سبيله، فجعلهم سبيله الهادي إليه وطريقه الدالّ عليه، ثمّ جعل من مالَ عنهم تابعاً للشيطان ومخالفاً للقرآن وعاصياً للرحمن، فقال: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ﴾[٢] وهي طريق أعدائهم، ثمّ بيّن أنّ مَن اتّبعهم نالَ الرضوان وفاز بالغفران ونجا من النيران، فقال ﴿وَادْخُلُوا البابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ﴾.[٣] ومعناه قفوا عند علي وعترته فهم الباب، وتمسّكوا بحبّهم تأمنوا العذاب، واتّبعوا سبيله فهو أمّ الكتاب، واعلموا أنّ علياً مولاكم يُغفر لكم خطاياكم، ثمّ عدّد مقاماتهم في الكتاب وعيّنهم بالخصّ والنصّ فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[٤] يعني رهطك المصطفين، ثمّ خصّهم بجوامع الشرف والتفضيل، وهذا هو الفضل الذي لا يُجحد والشرف الذي لا يُحدّ، ثمّ باهل بهم الأعداء فجعلهم على إثبات دينه شهداء، وعلى نبوّة نبيّه أدلاّء فقال: ﴿فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ﴾[٥] ثمّ خصّهم بالمقام الخاصّ وجعلهم قنطرة الإخلاص ونهج النجاة والخلاص، فقال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ﴾[٦] وهي خصوصيّة خصّ بها الربّ الكريم فاطمة الزهراء بضعة الرؤف الرحيم، ثمّ أوجب محبّتهم على العباد وجعلهم الذُخر يوم المعاد، فقال: ﴿لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾[٧] ثمّ ذكر قصّة نوح فقال: ﴿يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً﴾[٨]، وقال عن هود ﴿يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾[٩] وقال لمحمد

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) البقرة: ١٦٨؛ الأنعام: ١٤٢؛ النور: ٢١.

(٣) البقرة: ٥٨.

(٤) الشعراء: ٢١٤.

(٥) آل عمران: ٦١.

(٦) الأسراء: ٢٦.

(٧) الشورى: ٢٣.

(٨) هود: ٢٩.

(٩) هود: ٥١.

ﷺ ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾[١] فلم يفرض لهم المودّة إلاّ لأنّهم نجوم الولاية وشموس الهداية لم يرتدّوا عن الملّة، ولم يفارقوا الكتاب والسنّة، لا بل هم الكتاب والسنّة. ففرض مودّتهم وطاعتهم، فمن أخذ بها وجب على رسول الله ﷺ أن يحبّه لأنّه على منهاجه، ومن لم يأخذ بها وجب على رسول الله ﷺ أن يُبغضه لأنه ضيّع فريضة أمره الله والرسول بها، لا بل هي رأس الفرض وتمام كلّ سنّة وفرض، فأيّ شرف أعلى على هذا المقام؟

ثمّ إنّ الله لم يبعث نبيّاً إلاّ وأمره أن لا يسأل أمّته أجراً على نبوّته، بل الله يوفّيه أجره، وفرض لمحمد ﷺ موّدة أهل بيته وأمره أن يبيّن فضلهم، فمن أخذ بعده المودّة فهو مؤمن مخلص قد وجبت له الجنّة، ثمّ قرن ذكر محمّد بذِكره في الصلاة، وقرن ذكرهم بذكر نبيه، فدلّ بذاك على رفيع شرفهم، وبيّن ذلك الصادق الأمين من قوله: «اللهمّ صلّ على محمد وآل محمد، كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد»،[٢] ثمّ أعطاهم من الفضل ما لم يبلغ أحد وصفه، فسلّم على الأكبر من رسله ولم يسلّم على آلهم، فقال: ﴿سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ﴾،[٣] ثمّ قال: ﴿سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ﴾،[٤] ثم قال: ﴿سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ﴾[٥] ثمّ قال: سلام على آل محمد ﷺ فقال: ﴿سَلامٌ عَلى آلِ ياسِينَ﴾[٦] وياسين اسم محمد بلغة طي.

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) دعائم الإسلام ١: ٢٩؛ عيون أخبار الرضا ٢: ٢١٣/ ح ١.

(٣) الصافات: ٧٩.

(٤) الصافات: ١٠٩.

(٥) الصافات: ١٢٠.

(٦) الصافات: ١٣٠، وهي قراءة منسوبة إلى الإمام الرضا عليه السلام وإلى بعض الصحابة. انظر معجم القراءآت القرآنية في هذا الشأن، وانظر كلام ابن حجر في الباب الحادي عشر من الصواعق المحرقة.

ثمّ أنزل في كتابه ما فرّق به من الآل والأمّة فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّه خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى﴾[1] فرضي لهم ما رضي لنفسه، فبدأ لنفسه ثمّ بدأ برسوله ثم بآل رسوله، فجعل لنفسه نصيباً ثمّ للنبي ثمّ لآله، ثمّ قرّبهم إليه بالطاعة فقال: ﴿أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[2] فبدأ بنفسه ثمّ برسوله المخبر عنه ثمّ بالهداة المهديّين من عترته، ثمّ أكّد لهم الولاية فقال: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[3] فجعل ولايتهم مع ولاية الرسول مقرونة بولايته، كما جعل سهمهم مع سهم الرسول مقروناً بسهمه في القسمة والغنيمة فسبحان من فضّلهم ورفعهم واختارهم على العالمين.

ثمّ أنّه لما أنزلت آية الصدقة، نزّه نفسه ورسوله ونزّه أهل بيته، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾[4] إلى آخر الآية، فلم يجعل له سهماً ولا لرسوله ولا لآل رسوله في الصدقات؛ لأنّها من أوساخ الناس، وهم مطهّرون من الأدناس، فهم الآل الذين أمر الله بطاعتهم، وذوو القربى الذين أمر الله بمودّتهم وصلتهم، والموالي الذين أمر الله بطاعتهم ومعرفتهم، وأهل الذكر الذين أمر الله بمسألتهم، ورضي لهم ما رضي لنفسه، ونزّههم ممّا نزّه من نفسه، وجعلهم آل الرسول خاصّة، فقال: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً﴾[5] فهم آل الرسول وعترته وأهل الله وخاصّته، ومعدن التنزيل ونهايته، وسدنة الوحي وخزنته، كما قال أبو الحسن الرضا عليه السلام للمأمون في مشاجرته: أيحلّ لرسول الله صلى الله عليه وآله لو كان حيّاً أن يتزوّج إليك؟ فقال المأمون: نعم، فقال الرضا عليه السلام: لكنّه لا يحلّ له

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) المائدة: ٥٥.

(٤) التوبة: ٦٠.

(٥) الطلاق: ١٠ و١١.

أن يتزوّج إليّ، فقال المأمون: نعم لأنّك ابنه،[١] وهذا هو الفرق ما بين الآل والأصحاب؛ لأنّ المأمون كان يزعم أنّ آل رسول الله أصحابه وأمّته، فأبان لهم الإمام من آله وأصحابه، ثمّ أنّه قال له سبحانه في لفظ التخصيص: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾[٢] فلفظ الأمر هنا خاصّ ومعناه عامّ، لأنّه أدخله مع الأمّة لعموم الأمر، وميّزهم عنهم بتخصيص لفظ الأهل، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعد نزول هذه الآية يأتي إلى باب الزهراء عليها السلام فيقف هناك ويقل: الصلاة يا آل محمد الصلاة».[٣]

[الأمر الأول: أهل البيت عليهم السلام موضع سرّ الله]:

وبالتالي فأوّل الأوصاف المذكورة ما أشار إليه عليه السلام بقوله: «هم موضع سرّه».

والمراد بالسرّ علم لا يجوز إظهاره للعموم، والأئمّة عليهم السلام موضعه ومأواه، ومستقرّه ومقامه، وخُزّانه وحفّاظه، لا يظهرونه أو لا يظهرون منه إلاّ ما يحتمل على من يتحمّل، إذ العموم لا يقدر على تحمّل أسرار الله سبحانه، ولذلك قال علي بن الحسين عليهما السلام: لو عَلِم أبو ذر بما في قلب سلمان لقتله[٤].

وفي البحار من كتاب السيد حسن بن كبش بإسناده عن أبي بصير، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا أبا محمد إنّ عندنا سرّاً من سرّ الله وعِلماً من علم الله لا يحتمله مَلَك مقرّب ولا نبيّ مُرسَل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، والله ما كلّف الله أحداً ذلك الحمل غيرنا، ولا استعبد بذلك أحداً غيرنا، وإنّ عندنا سرّاً من سرّ الله وعِلماً من علم الله أمرنا الله بتبليغه، فبلّغنا عن الله عزّ وجلّ ما أمرنا بتبليغه، فلم نجد له موضعاً ولا أهلاً ولا حمالة يحملونه، حتّى خلق الله لذلك أقواماً

---

(١) الفصول المختارة للمفيد: ٣٧.

(٢) طه: ١٣٢.

(٣) ذخائر العقبى: ٢٤؛ بحار الأنوار ٣٧: ٣٦/ ح٣.

(٤) الكافي ١: ٤٠١/ ح٢.

خُلقوا من طينة خلق منها محمّد صلى الله عليه وآله وذرّيته، ومن نور خلق الله منه محمّداً وذريته، وصنعهم بفضل صنع رحمته التي منها محمّداً وذرّيته، فبلّغناهم عن الله عزّ وجلّ ما أمرنا بتبليغه، فقبلوه واحتملوا ذلك عنا فقبلوه واحتملوه، وبلغهم ذِكرنا فمالت قلوبهم إلى معرفتنا وحديثنا، فلولا أنّهم خُلقوا من هذا لما كانوا كذلك، ولا والله ما احتملوه.

ثمّ قال عليه السلام: إنّ الله خلق قوماً لجهنم والنار، فأمرنا أن نبلّغهم كما بلّغناهم، فاشمأزّوا في ذلك ونفرت قلوبهم وردّوه علينا ولم يحتملوه وكذّبوا به وقالوا: ساحر كذّاب، فطبع الله على قلوبهم وأنساهم ذلك، ثمّ أطلق الله لسانهم ببعض الحقّ، فهم ينطقون به وقلوبهم مُنكِرة، ليكون ذلك دفعاً عن أوليائه وأهل طاعته، ولولا ذلك ما عُبد الله في أرضه، فأمرنا الله بالكفّ عنهم والكتمان منهم، فاكتموا ممّن أمر الله بالكفّ عنهم، واستروا عمّن أمر الله بالستر والكتمان منهم.

قال: ثمّ رفع عليه السلام يده وبكى، وقال: «اللهمّ إنّ هؤلاء لشرذمة قليلون، فاجعل محياهم محيانا ومماتهم مماتنا، ولا تسلّط عليهم عدوّاً لك فتفجعنا بهم، فإنّك إن فجعتنا بهم لم تُعبد أبداً في أرضك».[1]

قال ميرزا حبيب الله الخوئي رحمه الله: وبهذه الرواية يحصل الجمع بين قولهم عليهم السلام «إنّ حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا مَلَك مقرب أو نبيّ مرسل أومؤمن امتحن الله قلبه للإيمان» وبين الخبر الخالي من الاستثناء، فإنّ الثاني محمول على السرّ المختص بهم عليهم السلام الذي لا يحتمله أحد غيرهم، والأوّل محمول على السرّ الذي هو أدنى من ذلك، وهو السرّ الذي تقدّم إليهم النصّ من الله سبحانه لإظهاره لبعض خواصّهم على مراتب استعدادهم، وهو الذي أشار إليه الصادق عليه السلام بقوله: «لو علم أبوذر ما في قلب سلمان لقتله» فإنّ أبا ذر لا

---

(١) الكافي ١: ٤٠٢/ ح٥.

استعداد له على احتمال السرّ الذي احتمله سلمان، وكذلك كميل بن زياد مع كونه من خواصّ أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام لا يحتمل ما احتمله أبو ذر رضي الله عنه، فهو وإن كان صاحب سرّه عليه السلام لكن بالنسبة إلى غيره من سائر الناس، ولذلك أنّه بعدما سأل منه عليه السلام عن الحقيقة وأجاب بقوله عليه السلام: ما لك والحقيقة؟ قال: أو لست صاحب سرّك؟ فلم يقرّه عليه السلام على عموم ما ادعاه، بل أجاب بقوله: بلى ولكن يترشّح عليك ما يطفح مني. فإنّ استدراكه عليه السلام بقوله: ولكن...، إشارة إلى أنّ ما يظهر من السرّ عليه من قبيل نداوة الطفحان ورشحته الفائضة من جوانبه، وأنّه ليس صاحب السرّ على نحو العموم.

وبالتالي: فقد وضح وظهر ممّا ذكرنا أنّ أسرار الله سبحانه هي علوم لا يجوز إظهار ما جاز إظهارها منها إلا للكمّل على اقتضاء مراتب الاستعداد.

وقد روي في الخرائج بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: أتى الحسين عليه السلام ناس فقالوا له: يا أبا عبد الله حدّثنا بفضلكم الذي جعل الله لكم، فقال: إنّكم لا تحتملونه ولا تطيقونه، قالوا: بلى نحتمل، قال: إن كنتم صادقين فليتنحّ اثنان وأحدّث واحداً، فإن احتمله حدثتكم، فتنحّى اثنان وحدّث واحداً، فقام طائر العقل ومرّ على وجهه وذهب، وكلّمه صاحباه فلم يردّ عليهما شيئاً وانصرفوا.[1]

وفيه بالاسناد المذكور قال: أتى رجل الحسين بن علي عليهما السلام فقال: حدّثني بفضلكم الذي جعل الله لكم، فقال: إنّك لن تطيق حمله، قال: بل حدّثني يا بن رسول الله، إنّي أحتمله، فحدّثه بحديث، فما فرغ الحسين عليه السلام من حديثه حتّى ابيضّ رأس الرجل ولحيته وأُنسي الحديث، فقال الحسين عليه السلام، أدركته رحمةُ الله حيث أُنسي الحديث.[2]

---

(١) الخرائج والجرائح ٢: ٧٩٥/ ح٤.

(٢) الخرائج والجرائح ٢: ٧٩٥/ ح٥.

[حديثنا صعب مستصعب]:

وفي البحار من كتاب المحتضر للحسن بن سليمان من كتاب ابن شريفة الواسطي يرفعه إلى ميثم التمار، قال: بينما أنا في السوق إذ أتى أصبغ بن نباتة فقال: ويحك يا ميثم، لقد سمعت من أمير المؤمنين عليه السلام حديثاً صعباً شديداً، قلت: وما هو؟ قال: سمعته يقول: إنّ حديث أهل البيت صعب مستصعب لا يحتمله إلا مَلَك مقرب أو نبيّ مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان. فقمت من فورتي فأتيت علياً عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين حديث أخبرني به أصبغ عنك قد ضقت به ذرعاً، فقال عليه السلام: ما هو؟ فأخبرته به، فتبسّم ثم قال: اجلس يا ميثم، أو كلّ علم يحتمله عالم؟ إنّ الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾[1] فهل رأيت الملائكة احتملوا العلم؟ قال: قلت: إنّ هذا أعظم من ذلك، قال: والأخرى، إنّ موسى بن عمران أنزل الله عليه التوراة فظنّ أن لا أحد أعلم منه، فأخبره أنّ في خلقه أعلم منه، وذلك إذ خاف على نبيه العُجب، قال: فدعا ربّه أن يرشده إلى العالم، فجمع الله بينه وبين الخضر عليه السلام، فخرق السفينة فلم يحتمل ذلك موسى، وقتل الغلام فلم يحتمله، وأقام الجدار فلم يحتمله.

وأمّا النبيّون فإنّ نبيّنا صلى الله عليه وآله أخذ يوم غدير خُمّ بيدي فقال: اللهمّ من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، فهل رأيت أحداً احتمل ذلك إلاّ من عصم الله منهم، فأبشروا ثمّ أبشروا، قد خصّكم بما لم يخصّ به الملائكة والنبيين والمرسلين فيما احتملتم ذلك في أمر رسول الله وعلمه، فحدّثوا عن فضلنا ولا حرج، وعن عظيم أمرنا ولا أثم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أمرنا معاشر الأنبياء أن نُخاطب الناس على قدرعقولهم».[2]

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) بحار الأنوار ٢٥: ٣٨٣ - ٣٨٤ / ح٣٨.

الثاني: [أهل البيت عليهم السلام ملتجأ أمر الله]

ما نبّه عليه عليه السلام بقوله: «**ولجاء أمره**» قال ابن ميثم البحراني: أشاد بكونهم عليهم السلام ملجأ أمره إلى أنّهم الناصرون له والقائمون بأوامر الله والذابّون عن الدين، فإليهم يلتجئ، وبهم يقوم سلطانه.

قال الخوئي رحمه الله: المستفاد من ظاهر كلامه عليه السلام أن المراد بالأمر هو الأمور الدينيّة وأنّهم ملجأ لنفس الأوامر، والأظهر الأقوى عندي أنّ المراد أنّهم لجاء للعباد في الأوامر الدينية، بمعنى أنّ الخلق إذا تنازعوا في شيء منها وعجزوا فيها عن النيل إلى الواقع فهم الملجأ والملاذ؛ لأنّهم أُولو الأمر، قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولي الأَمْرِ منْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذلكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْويلاً﴾.(١)

قال علي بن إبراهيم القمّي في تفسيره: حدّثني أبي عن حماد، عن حريز، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: نزل فإن تنازعتم في شيء فأرجعوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولى الأمر منكم.(٢)

وهو يدلّ على أنّ المنزل «فأرجعوه» مكان «فردّوه»، ويحتمل أن يكون تفسيراً له، ويدلّ أيضاً على أنّ الموجود في مصحفهم قول «وإلى أولي الأمر منكم»، وعلى ذلك فالآية صريحة في الدلالة على المطلوب من ردّ الأمور الدينية التي اختلف فيها إلى كتاب الله وإلى رسوله والأئمة عليهم السلام.

وأمّا على ما هو الموجود في هذه المصاحف التي بأيدينا فالدلالة أيضاً غير خفيّة على مذهبنا؛ لأنّ الردّ إلى الأئمة القائمين مقام رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته هو مثل الردّ إلى الرسول في حياته، لأنّهم الحافظون لشريعته والخلفاء في أمته، فجروا مجراه فيه، ومثلها قوله تعالى:

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) تفسير القمّي ١: ١٤١.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾.(١)

روي في البحار في تفسير العياشي عن عبد الله بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في هذه الآية، قال: هم الأئمة عليهم السلام.(٢)

وعن عبد الله بن جندب قال كتب إلي أبو الحسن الرضا عليه السلام: «ذكرت ـ رحمك الله ـ هؤلاء القوم الذين وصفت أنّهم كانوا بالأمس لكم إخواناً، والذين صاروا إليه من الخلاف لكم والعداوة لكم والبراءة منكم، والذي تأفّكوا ـ أي تكلّفوا ـ به من حياة أبي صلوات الله عليه ورحمته، وذكر في آخر الكتاب: إنّ هؤلاء القوم سنح لهم شيطان اغترّهم بالشبهة ولبّس عليهم أمر دينهم، وذلك لما ظهرت فريتهم واتّفقت كلمتهم ونقموا على عالمهم وأرادوا الهدى من تلقاء أنفسهم فقالوا: لم، ومن، وكيف، فأتاهم الهلاك من مأمن احتياطهم، وذلك بما كسبت أيديهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾،(٣) ولم يكن ذلك لهم ولا عليهم، بل كان الفرض عليهم والواجب لهم من ذلك الوقوف عند التحيّر وردّ ما جهلوا من ذلك إلى عالمه ومستنبطه، لأنّ الله يقول في محكم كتابه:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ﴾.(٤)

يعني آل محمد عليهم السلام، وهم الذين يستنبطون من القرآن ويعرفون الحلال والحرام، وهم الحجّة على خلقه.(٥)

[أهل البيت عليهم السلام هم ولاة الأمر]:

هذا وقد ظهر مما ذكر أنّ الأئمة عليهم السلام هم ولاة الأمر، وأنّهم المقصودون بأولي الأمر في الآيتين، أمّا الآية الثانية فلما ذكرنا، وأمّا الآية الأولى فللأخبار المستفيضة.

---

(١) النساء: ٨٣.

(٢) بحار الأنوار ٢٣: ٢٨٤.

(٣) فصّلت: ٤٦.

(٤) النساء: ٨٣.

(٥) بحار الأنوار ٢٣: ٢٩٥ - ٢٩٦/ ح٣٦.

[الدليل النقلي]:

أمّا الأخبار فمنها ما رواه في البحار عن تفسير فرات بن إبراهيم، عن عبيد بن كثير معنعناً، أنّه سُئل جعفر بن محمد عليهما السلام عن قول الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.(١)

قال: أولي الفقه والعلم، قلنا: أخاصّ أم عامّ؟ قال عليه السلام: بل خاصّ لنا.(٢)

وفي الكافي عن جابر الجعفي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية، قال: الأوصياء.(٣)

وفيه أيضاً عن بريد العجلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمانات إِلى أَهْلِها وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.(٤)

فقال عليه السلام: إيّانا عنى، أن يؤدّي الأول إلى الإمام الذي بعده الكتب والعلم والسلاح، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل الذي في أيديكم، ثمّ قال للناس: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(٥) إيّانا عنى خاصّة، أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا، فإن خضتم تنازعاً في أمر فردّوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولي الأمر منكم، كذا نزلت، وكيف يأمرهم الله عزّ وجلّ بطاعة ولاة الأمر ويرخّص في منازعتهم، إنّما قيل ذلك للمأمورين الذين قيل لهم: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.(٦)

والأخبار في هذا الباب كثيرة لا تحصى.

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) بحار الأنوار ٢٣: ٢٩٨/ ح٤٧.

(٣) انظر الكافي ١: ١٨٩/ ح١٦.

(٤) النساء: ٥٨.

(٥) النساء: ٥٩.

(٦) الكافي ١: ٢٧٦/ ح٢.

[الدليل العقلي]:

وأمّا دليل العقل فلأنّه سبحانه أمر بوجوب طاعة أولي الأمر على نحو العموم، فلا بدّ من كونه معصوماً، وإلاّ لزم أن يكون تعالى قد أمر بالقبيح، لأنّ من ليس بمعصوم لا يُؤمَن صدور القبيح عنه، فإذا وقع كان الاقتداء به قبيحاً، والمعصوم بعد الرسول صلى الله عليه وآله منحصر بإجماع الأمة في الأئمّة.

ويحتمل أن يكون المراد بالأمر في قوله عليه السلام: (ولجاء أمره) الأعمّ من الأمورالدينيّة، وربّما فسّر به في الآيتين أيضاً، فالمراد به على ذلك جميع الأمور المقدّرة المشار إليها في قولها سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾[1] وفي قوله: ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.[2]

وقد جاء في رواية الكافي عن الباقر عليه السلام أنّه لينزل في ليلة القدر إلى وليّ الأمر تفسير الأمور سنة سنة، يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا وكذا، وفي أمر الناس بكذا وكذا.[3] وهذا الاحتمال أقرب بالنظر إلى عموم وظيفتهم عليهم السلام.

الثالث: [أهل البيت عليهم السلام عيبة علم الله]

ما أشار إليه عليه السلام بقوله: «وعيبة علمه» يعني أنّ علمه مودع عندهم كالثياب النفسيّة المودعة في العيبة، وتشبيههم بالعيبة من حيث إنّهم كانوا حافظين وصائنين له عن الضياع والاندراس حسن الاستعارة بالعيبة الحافظة للباس عن الأدناس.

قال البحراني: وكونهم عيبة علمه مرادف لكونه موضع سرّه، إذ يقال في العرف: فلان عيبة العلم إذا كان موضع أسراره.

قال الخوئي: أمّا ترادفها في اللغة والعرف فقد صرّح به بعض اللغويّين

---

(١) القدر: ٤.

(٢) الدخان: ٤.

(٣) الكافي ١: ٢٤٨/ ح٣.

أيضاً، ولكن الظاهر أنّ السرّ أخصّ من العلم، لما قد عرفت سابقاً من أنّ السرّ هو العلم الذي يُكتم، وقد صرّح به غير واحد من اللغويين، وهو المتبادر منه أيضاً، فيكون حقيقة فيه. وعلى هذا فيكون العلم أعمّ منه، وهو الأنسب بالمقام أيضاً من حيث إنّ التأسيس أولى من التأكيد.

وكيف كان، فلا غبار على أنّ علم الله وعلم رسوله المتلقّى منه سبحانه مودع عندهم وهم الحافظون له.

[الدليل النقلي]:

ويدلّ عليه الأخبار المتواترة القطعية.

منها ما رواه الكليني في الكافي بإسناده عن يونس بن رباط قال: دخلت أنا وكامل التمّار على أبي عبد الله عليه السلام فقال له كامل: جُعلت فداك حديث رواه فلان. فقال: أذكره، فقال: حدّثني أنّ النبي صلى الله عليه وآله حدّث علياً عليه السلام بألف باب يوم توفّي رسول الله، كلّ باب يفتح له ألف باب، فذلك ألف ألف باب، فقال: لقد كان ذلك، قلت: جُعلت فداك فظهر ذلك لشيعتكم ومواليكم؟ فقال عليه السلام: يا كامل، باب أو بابان، فقلت له: جُعلت فداك فما يروي من فضلكم من ألف ألف باب إلاّ باب أو بابان؟ قال: فقال: وما عسيتم أن تروا من فضلنا؟ ما تروون من فضلنا إلاّ ألفاً غير معطوفة.[1]

وفي البحار من كتاب المحتضر للحسن بن سليمان من نوادر الحكمة يرفعه إلى أبي بصير قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عليه المفضّل بن عمر فقال: مسألة يابن رسول الله، فقال عليه السلام: سَل يا مفضّل، قال: ما منتهى علم العالم؟ قال عليه السلام: قد سألت جسيماً، لقد سألت عظيماً، ما السماء الدنيا في السماء الثانية إلاّ كحلقة درع ملقاة في أرض فلاة، وكذلك كلّ سماء عند سماء

(١) الكافي ١: ٢٩٧/ ح٩.

أخرى، وكذلك السماء السابعة عند الظلمة، ولا الظلمة عند النور، ولا ذلك كلّه في الهواء، ولا الأرضين بعضها في بعض، ولا مثل ذلك كلّه في علم العالم ـ يعني الإمام ـ إلا مثل مدٍ من خردل دققتَه دقّاً ثمّ ضربته بالماء، حتّى إذا اختلط ورغا أخذتَ منه لعقة بأصبعك، ولا علم العالم في علم الله إلاّ مثل حبّة من خردل دققته دقاً ثم ضربته بالماء حتّى إذا اختلط ورغا انتهزت منه برأس ابرة نهزة، ثمّ قال عليه السلام: يكفيك من هذا البيان بأقلّه، وأنت بأخبار الموت تصيب».[1]

وفي كتاب المحتضر أيضاً نقلاً من كتاب الأربعين رواية سعد الأربلي عن عمّار بن خالد، عن إسحاق الأزرق، عن عبد الملك بن سليمان قال: وجد في ذخيرة أحد حواري المسيح رقّ مكتوب بالقلم السرياني منقولاً من التوراة، وذلك لمّا تشاجر موسى والخضر عليهما السلام في قضية السفينة والغلام والجدار ورجع موسى إلى قومه، سأله أخوه هارون عمّا استعمله مع الخضر وشاهد من عجائب البحر.

قال: بينما أنا والخضر على شاطئ البحر إذ سقط بين أيدينا طائر أخذ في منقاره قطرة من ماء البحر ورمى بها نحو المشرق، ثم أخذ ثانية ورمى بها نحو المغرب، ثمّ أخذ ثالثة ورمى بها نحو السماء، ثمّ أخذ رابعة ورمى بها نحو الأرض، ثمّ أخذ خامسة وألقاها في البحر، فبهت الخضر وأنا، قال موسى: فسألت الخضر عن ذلك، فلم يجب، وإذا نحن بصياد يصطاد فنظر إلينا وقال: مالي أراكما في فكر وتعجّب؟ فقلنا: في أمر الطائر، فقال: أنا رجل صيّاد وقد علمتُ إشارته وأنتما نبيّان لا تعلمان، قلنا: ما نعلم إلاّ ما علّمنا الله عزّ وجلّ، قال: هذا طائر في البحر يسمّى مسلم، لأنّه إذا صاح يقول في صياحه مسلم، وأشار بذلك إلى أنّه يأتي في آخر الزمان نبي يكون عِلم أهل المشرق والمغرب وأهل السماء والأرض عند عِلمه مثل هذه القطرة الملقاة في البحر ويرث علمه ابنُ عمّه ووصيّه، فسكن ما كنّا فيه من المشاجرة واستقلّ كلّ واحد منا علمه بعد أن

---

(١) بحار الأنوار ٢٥: ٣٨٥/ ح٤٣.

كنّا به معجبين، ومشينا ثمّ غاب الصياد فعلمنا أنّه مَلَك بعثه الله إلينا يعرّفنا بنقصنا حيث ادّعينا الكمال.[١] وبهذه الأخبار يعرف المعيار إجمالاً لعلومهم عليهم السلام، وفيها كافية لن ألقى السمع وهو شهيد.

الرابع: [أهل البيت عليهم السلام موئل حكم الله]

ما أشار إليه عليه السلام بقوله: «وموئل حكمه» والمراد بالحكم أمّا الأحكام الشرعية _ أي خطاب الله المتعلق بأفعال المكلّفين من حيث الاقتضاء أو التخيير _ وإما القضاء الرافع للخصومات، وعلى أيّ تقدير فهم موئله ومنجاه، إليهم يلتجئ فيه، وبهم يحصل الخلاص والنجاة، لأنّ ما عندهم هو الحكم المتلقّى من الوحي الإلهيّ الذي هو مطابق للواقع والواقع مطابق له، وهو كلّه صواب لا ريب فيه، وهم المرشدون إليه والأدلاّء عليه.

ويشهد به ما في البحار من مجالس المفيد بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أما أنّه ليس عند أحد من الناس حقّ ولا صواب إلاّ شيء أخذوه منّا أهل البيت، ولا أحد من الناس يقضي بحقّ ولا عدل إلاّ ومفتاح ذلك القضاء وبابه وأوّله وسنّته أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فإذا اشتبهت عليهم الأمور كان الخطأ من قِبلهم إذا أخطأوا، والصواب من قِبل علي بن أبي طالب عليه السلام إذا أصابوا.[٢]

وفي البحار عن بصائر الدرجات عن المفضّل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «أُعطيت خصالاً ما سبقني إليها أحد: علمت المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب».[٣]

---

(١) المحتضر: ١٠٠ - ١٠١؛ بحار الأنوار ٢٦: ١٩٩ - ٢٠٠/ ح١٢.

(٢) بحار الأنوار ٢: ١٧٩/ ح١؛ أمالي المفيد: ٩٥ - ٩٦/ ح٦.

(٣) بحار الأنوار ٢٦: ١٤٧/ ح٢٧؛ بصائر الدرجات: ٢٨٦/ ح٢.

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «يا أبا بصير إنّا أهل بيت أُوتينا علم المنايا والبلايا وفصل الخطاب، وعرفنا شيعتنا كعرفان الرجل أهل بيته».[١]

والمراد بفصل الخطاب الحكم الفاصل بين الحقّ والباطل، أو المفصول الواضح الدلالة على المقصود، أو ما كان من خصائصهم من الحُكم المخصوص في كلّ واقعة والجوابات المسكتة للخصوم في كلّ مسألة.

إذا عرفت ما ذكرناه فنقول: إنّ اللازم حينئذ أخذ الأحكام منهم والرجوع إليهم، ولا يجوز الاستبداد بالعقول الناقصة والآراء الفاسدة في الأحكام الشرعية والاعتماد فيها على الأقيسة والاستحسانات، وقد قال أبوالحسن عليه السلام فيما رواه في بصائر الدرجات عن محمد بن حكيم، عنه عليه السلام؛ إنّما هلك مَن كان قبلكم بالقياس، وإنّ الله تبارك وتعالى لم يقبض نبيّه صلى الله عليه وآله حتّى أكمل له جميع دينه في حلاله وحرامه، فجاءكم بما تحتاجون إليه في حياته وتستغنون به وبأهل بيته بعد موته، وإنّها مخبية عند أهل بيته، حتّى أنّ فيه لأرش الخدش، ثم قال عليه السلام: «إنّ أبا حنيفة لعنه الله ممّن يقول: قال عليّ وقلت أنا»[٢].

وكذلك لا يجوز الرجوع في المرافعات إلى قضاة السوء، فمن رجع إليهم كان بمنزلة الذين قال عنهم الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾[٣] الآية.

الخامس: [أهل البيت عليهم السلام كهف الكتب السماويّة]

ما أشار إليه عليه السلام بقوله: «وكهف كتبه» تشبيههم بالكهف باعتبار أنّهم يُلتجأ إليهم فيها، أو أنّهم المأوى لها والحاوون لما فيها، كالكهف الذي يحوي من يأوي إليه.

قال العلاّمة الشيخ عبد الصمد التبريزيّ في الدّرة النجفية:

---

(١) بحار الأنوار ٢٦: ١٤٦/ ح٢٥؛ بصائر الدرجات: ٢٨٦/ ح٩.

(٢) بصائر الدرجات: ١٦٧/ ح٣.

(٣) النساء: ٦٠.

«وإنّهم أهلُ حفظها وعندهم عِلم ظاهرها وباطنها، وهذا الحكم ظاهر الصدق للرواية والدراية، أمّا الرواية فلقوله عليه السلام: لو كُسرت لي الوسادة ثمّ جلست عليها لحكمتُ بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الانجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، واللهِ ما من آية نزلت في برّ أو بحر أو سهل أو جبل أو سماء أو أرض أو ليل أو نهار إلاّ أنا أعلم فيمن نزلت، وفي أيّ وقت نزلت،[1] ولقول الصادق عليه السلام: إنّ الله عزّ وجلّ لم يُعطِ الأنبياء شيئاً إلاّ وقد أعطى محمداً صلى الله عليه وآله جميع ما أعطى الأنبياء، وعندنا الصحف التي قال الله عزّ وجلّ ﴿صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى﴾[2] قيل: هي الألواح؟ قال: نعم».[3]

وأمّا الدراية فإنّ الرجوع بكتب الأخبار والتتبّع بطريقتهم لأرباب الملل في احتجاجاتهم شاهد على المدّعى.

[مناظرة الإمام الرضا عليه السلام مع الجاثليق ورأس الجالوت وبقية المذاهب]:

وقد روى المجلسيّ قدس سره في البحار عن محمّد بن فضل الهاشمي في رواية طويلة نكتفي بذكر موضع الحاجة منها، قال: لمّا توفّي موسى بن جعفر عليه السلام أتيتُ المدينة فدخلت على الرضا عليه السلام قلت: إنّي سائر إلى البصرة وقد عرفت كثرة خلاف الناس، وقد نُعي إليهم موسى وما أشكّ أنّهم سيسألون عن براهين الإمام عليه السلام، ولو أريتني شيئاً من ذلك، فقال الرضا عليه السلام: لم يَخْفَ عليَّ هذا، فأبلغ أولياءنا بالبصرة أنّي قادم عليهم، ولا قوّة إلاّ بالله، ثمّ أخرج إليّ جميع ما كان للنبي صلى الله عليه وآله عند الأئمّة من بُردته وقضيبه وسلاحه وغير ذلك، فقلت: متى تقدم عليهم؟ قال: بعد ثلاثة أيام من وصولك ودخولك البصرة... إلى أن قال:

---

(١) شرح مائة كلمة لابن ميثم البحراني: ٢١٨.

(٢) النجم: ٣٦.

(٣) بصائر الدرجات: ١٥٧/ ح١١؛ بحار الأنوار ٢٦: ٦١/ ح١٣٨.

فلمّا كان اليوم الثالث من دخولي البصرة فإذا الرضا عليه السلام قد وافى، فقصد منزل الحسن بن محمد وأخلى له داره وقام بين يديه يتصرّف بين أمره ونهيه، فقال: يا محمد أحضر جميع القوم الذين حضروا عند محمد بن الفضل وغيرهم من شيعتنا، وأحضر جاثليق النصارى ورأس الجالوت، ومُر القوم يسألوا عمّا بدا لهم. فجمعهم كلّهم والزيديّة والمعتزلة... إلى أن قال: فقال لهم الرضا عليه السلام: لا تتفرّقوا فإني إنّما جمعتكم لتسألوا عمّا شئتم من آثار النبوّة وعلامات الإمامة التي لا تجدونها إلا عندنا أهل البيت: فهلمّوا مسائلكم، فسُئل عليه السلام عن كلّ مسألة، فأجابهم عمّا سألوا، حتّى انتهى الأمر إلى الجاثليق، فالتفت إليه الرضا عليه السلام فقال: هل دلّ الإنجيل على نبوّة محمد صلى الله عليه وآله، قال: لو دلّ الإنجيل على ذلك ما جحدنا، فقال عليه السلام: أخبرني عن السكتة التي لكم في السفر الثالث، فقال الجاثليق: إسم من أسماء الله تعالى ولا يجوز لنا أن نظهره، قال الرضا عليه السلام: فإن قررتك أنّه إسم محمد صلى الله عليه وآله وذكره، وأقرّ عيسى به، وأنّه بشّر بني إسرائيل بمحمّد صلى الله عليه وآله لتقرّ به ولا تُنكره، قال الجاثليق: إن فعلتَ أقررتُ، فإنّي لا أردّ الإنجيل ولا أجحده، قال الرضا عليه السلام: فخُذ على السفر الثالث الذي فيه ذِكر محمّد صلى الله عليه وآله وبشارة عيسى بمحمّد صلى الله عليه وآله، قال الجاثليق: هاتِ، فأقبل الرضا عليه السلام يتلو ذلك السِفر من الأنجيل حتّى بلغ ذكر محمد صلى الله عليه وآله فقال: يا جاثليق من هذا الموصوف؟ قال الجاثليق: صِفه، قال عليه السلام: لا أصفه إلاّ بما وصفه الله، هو صاحب الناقة والعصا والكساء، النبيّ الأمّيّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والأنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحلّ لهم الطيّبات ويُحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، يهدي إلى الطريق الأقصد والمنهاج الأعدل والصراط الأقوم، سألتُك يا جاثليق بحقّ عيسى روح الله وكلمته، هل تجدون هذه الصفة في الإنجيل لهذا النبي صلى الله عليه وآله؟

فأطرق الجاثليق مليّاً وعلم أنّه إن جحد الأنجيل كفر، فقال: نعم هذه الصفة من الإنجيل، وقد ذكر عيسى في الإنجيل هذا النبي ولم يصحّ عند النصارى أنّه صاحبكم، فقال الرضا عليه السلام: أمّا إذا لم تكفر بجحود الانجيل وأقررت بما فيه من صفة محمد صلى الله عليه وآله، فخُذ علي في السفر الثاني فإنّي أُوجدك ذِكره وذِكر وصيّه وذِكر ابنته فاطمة وذِكر الحسن والحسين، فلمّا سمع الجاثليق ورأس الجالوت علما أنّ الرضا عليه السلام عالم بالتوراة والانجيل، فقالا: واللهِ قد أتى بما لا يمكننا ردّه ودفعه إلاّ بجحود التوراة والانجيل والزبور، ولقد بشّر به موسى وعيسى ولكن لم يتقرّر عندنا بالصحّة أنّه محمد هذا، فأمّا اسمه فمحمد فلا يجوز لنا أن نقرّ لكم بنبوّته، ونحن شاكّون أنه محمّدكم أو غيره، فقال الرضا عليه السلام: احتججتم بالشكّ، فهل بعث الله قبل أو بعد من ولد آدم إلى يومنا هذا نبيّاً اسمه محمد أو تجدونه في شيء من الكتب التي أنزلها الله على جميع الأنبياء غير محمد؟ فأحجموا عن جوابه، قالوا: لا يجوز لنا أن نقرّ لك بأنّ محمداً هو محمّدكم؛ لأنّا إن أقررنا لك بمحمّد ووصيّه وابنته وابنيهما على ما ذكرتم أدخلتمونا في الإسلام كرهاً، فقال: الرضا عليه السلام: أنت يا جاثليق آمن في ذمّة الله وذمّة رسوله لا يبدرك منّا شيء تكره ممّا تخافه وتحذره، قال: أمّا إذ قد أمنتني فإنّ هذا النبي الذي اسمه محمّد وهذا الوصيّ الذي اسمه عليّ، وهذه البنت التي اسمها فاطمة، وهذان السبطان اللذان اسمهما الحسن والحسين في التوراة والأنجيل والزبور، قال الرضا عليه السلام: فهذا الذي ذكرته في التوراة والأنجيل والزبور من اسم هذا النبيّ وهذا الوصيّ وهذه البنت وهذين السبطين صدق وعدل أم كذب وزور؟ قال: بل صدق وعدل ما قال إلاّ الحقّ، فلمّا أخذ الرضا عليه السلام إقرار الجاثليق بذلك، قال لرأس الجالوت: فاسمع الآن يا رأس الجالوت السفر الفلاني من زبور داود، قال: هاتِ بارك الله عليك وعلى ولدك، فتلا الرضا

عليه السلام السفر الأول من الزبور حتّى انتهى إلى ذِكر محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، فقال: سألتُك يا رأس الجالوت بحقّ الله هذا في زبور داود ولك من الأمان والذمة والعهد ما قد أعطيته الجاثليق؟ فقال رأس الجالوت: نعم هذا بعينه في الزبور بأسمائهم، قال الرضا عليه السلام: بحقّ العشرة الآيات التي أنزلها الله على موسى بن عمران في التوراة، هل تجد صفة محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين في التوراة منسوبين إلى العدل والفضل؟ قال: نعم، ومن جحدها كافر بربّه وأنبيائه، قال له الرضا عليه السلام: فخُذ الآن في سفر كذا من التوراة، فأقبل عليه السلام يتلو التوراة ورأس الجالوت يتعجّب من تلاوته وبيانه وفصاحته، حتّى بلغ ذكر محمد، قال رأس الجالوت: نعم هذا أحماد وإليا وبنت أحماد وشبر وشبير، تفسيره بالعربية محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، فتلا الرضا عليه السلام إلى تمامه، فقال رأس الجالوت لمّا فرغ من تلاوته: والله يابن محمّد لولا الرئاسة التي حصلت لي على جميع اليهود لآمنتُ بأحمد واتّبعتُ أمرك، فوالله الذي أنزل التوراة على موسى والزبور على داود ما رأيتُ أقرء للتوراة والإنجيل والزبور منك، ولا رأيت أحسن تفسيراً وفصاحة لهذه الكتب منك.

إلى أن قال محمد بن فضيل: كان فيما أوصاني به الرضا عليه السلام في وقت منصرفه من البصرة أن قال لي: صِر إلى الكوفة فاجمع الشيعة وأعلِمْهم أنّي قادم عليهم إلى أن قال: انظر يا محمّد مَن بالكوفة من المتكلّمين والعلماء فأحضِرهم، فأحضرناهم، فقال لهم الرضا عليه السلام: إنّي أريد أن أجعل لكم حظّاً من نفسي كما جعلتُ لأهل البصرة، وإنّ الله قد علّمني كلّ كتاب أنزله، ثمّ أقبل على جاثليق ـ وكان معروفاً بالجدل والعلم والانجيل ـ فقال: يا جاثليق هل تعرف لعيسى صحيفة فيها خمسة أسماء يعلّقها في عنقه، إذا كان بالمغرب فأراد المشرق فتحها فأقسم على الله باسمٍ واحد من خمسة الأسماء أن تنطوي له الأرض، فيصير من المغرب إلى المشرق ومن المشرق إلى المغرب في لحظة؟

فقال الجاثليق: لا عِلم لي بها، وأمّا الأسماء الخمسة فقد كانت معه يسأل الله بها أو بواحد منها يُعطيه الله جميع ما يسأله.

قال: الله أكبر، إذاً ما تنكر الأسماء. فأمّا الصحيفة فلا يضرّ أقررتَ بها أم أنكرتها، اشهدوا على قوله.

ثمّ قال: يا معاشر الناس أليس أنصف الناس من حاجّ خصمه بملّته وكتابه ونبيّه وشريعته؟ قالوا: نعم، قال الرضا عليه السلام: فاعلموا أنّه ليس بإمام بعد محمّد إلاّ من قام بما قام به محمّد حين يُفضي الأمر إليه، ولا يصلح للإمامة إلاّ من حاجّ الأمم بالبراهين للإمامة. فقال رأس الجالوت: وما هذا الدليل على الإمام؟

قال: أن يكون عالماً بالتوراة والانجيل والزبور والقرآن الحكيم، فيحاجّ أهل التوراة بتوراتهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم وأهل القرآن بقرآنهم، وأن يكون عالماً بجميع اللغات حتّى لا يخفى عليه لسان واحد، فيحاجّ كلَّ قوم بلُغتهم، ثمّ يكون مع هذه الخصال تقيّاً نقيّاً من كلّ دنس، طاهراً من كلّ عيب، عادلاً منصفاً حكيماً رؤوفاً رحيماً مغفوراً عطوفاً صادقاً مشفقاً بارّاً أميناً مأموناً واثقاً قائماً، فقام إليه رجل فقال: يا بن رسول الله ما تقول في جعفر بن محمد؟ قال: ما أقول في إمامٍ شهدت أمّة محمّد قاطبة بأنّه كان أعلم أهل زمانه، قال: فما تقول في موسى بن جعفر؟ قال: كان مثله، قال: فإنّ الناس قد تحيّروا في أمره، قال: إنّ موسى بن جعفر عمّر برهة من الزمان فكان يكلّم الأنباط بلسانهم، ويكلّم أهل خراسان بالدريّة، وأهل روم بالروميّة، ويكلّم العجم بألسنتهم، وكان يرد عليه من الآفاق علماء اليهود والنصارى فيحاجّهم بكتبهم وألسنتهم، فلمّا نفذت مدّته وكان وقت وفاته أتاني مولى برسالته يقول: يا بُنّي إنّ الأجل قد نفد، والمدة قد انقضت، وأنت وصيّ أبيك، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا كان وقت وفاته دعا عليّاً وأوصاه ودفع إليه الصحيفة التي كان فيها الأسماء التي خصّ الله بها الأنبياء والأوصياء، ثمّ قال: يا علي ادن منّي، فغطّى رسول الله صلى الله عليه وآله رأس علي عليه السلام

بملاءة، ثمّ قال له: أخرج لسانك، فأخرجه فختمه بخاتمه، ثمّ قال: يا علي اجعل لساني في فيك فمصّه وأبلغ عني كلّ ما تجد في فيك: ففعل علي ذلك، فقال له: إنّ الله فهّمك ما فهّمني، وبصّرك ما بصّرني، وأعطاك من العلم ما قد أعطاني إلاّ النبوّة فإنّه لا نبّي بعدي، ثمّ كذلك إمام بعد إمام، فلمّا مضى موسى علمت كلّ لسان وكلّ كتاب، انتهى.[1]

* * *

والمراد بالكتب إمّا كتب الله وهو على تقدير رجوع الضمير فيه إليه سبحانه، فالمراد بها القرآن وما أُنزل قبله من الصحف والكتب السماويّة.

أمّا كونهم كهف القرآن والحافظين له والعاملين به: تأويله وتنزيله ظهره وبطنه وبطن بطنه وهكذا إلى سبعة أبطن، وكذلك سائر أوصافه من العموم والخصوص والإطلاق والتقييد والأحكام والتشابه إلى غير ذلك.

[عدد الكتب السماوية]:

وأمّا سائر الكتب السماويّة وهي مائة كتاب وأربعة كتب على ما تضمّنته رواية أبي ذر؛ قال: قلت: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال صلى الله عليه وآله: مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل منها على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ ـ وهو إدريس ـ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشرة صحائف، وأنزلت التوراة والأنجيل والزبور والفرقان، وكانت صحف إبراهيم كلّها أمثالاً.[2]

وروى في البحار من إرشاد القلوب بالإسناد إلى المفيد، يرفعه إلى سلمان

---

(١) بحار الأنوار ٤٩: ٧٣ - ٨١/ ح١.

(٢) عوالي اللئالي ١: ٩٢؛ الخصال للصدوق ٥٢٣ - ٥٢٦/ ح١٣.

الفارسي رضي الله عنه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا سلمان الويل كلّ الويل لمن لا يعرف لنا حقّ معرفتنا وأنكر فضلنا، يا سلمان أيّما أفضل محمّد صلى الله عليه وآله أم سليمان بن داود عليه السلام؟

قال سلمان: قلت: بلى محمّد أفضل، فقال: يا سلمان فهذا آصف بن برخيا قدر أن يحمل عرش بلقيس من فارس إلى سبأ في طرفة عين وعنده عِلمٌ من الكتاب، ولا أفعل أنا ذلك وعندي مائة كتاب وأربعة وعشرون كتاباً؟ أنزل الله على شيث بن آدم خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم الخليل عشرين صحيفة والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فقلت: صدقت يا سيدي، قال الإمام عليه السلام: إنّ الشاكّ في أمورنا وعلومنا كالمستهزئ في معرفتنا أو حقوقنا، وقد فرض الله ولايتنا في كتابه في غير موضع، وبيّن ما أوجب العمل به وهو مكشوف».[1]

ومن كتاب التوحيد عن هشام بن الحكم من خبر طويل قال: جاء بريهة جاثليق النصارى فقال لأبي الحسن عليه السلام: جُعلت فداك أنّى لكم التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء؟

قال: هي عندنا وراثة من عندهم نقرؤها كما قرؤوها ونقولها كما قالوها، إنّ الله لا يجعل حجّة في أرضه يُسئل عن شيء فيقول: لا أدري، الخبر.[2]

ومن بصائر الدرجات بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا محمّد عندنا الصحف التي قال الله ﴿صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى﴾، قلت: الصحف هي الألواح؟ قال: نعم.[3]

هذا كلّه على احتمال أن يكون المراد بالكتب الكتب المنزلة من الله سبحانه، وأمّا على تقدير رجوع الضمير في كتبه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فالمراد بالكتب القرآن وغيره ممّا أشير إليه في الأخبار. مثل ما رواه في البحار من البصائر

---

(١) بحار الأنوار ٢٦: ٢٢١ - ٢٢٢/ ح٤٧.

(٢) التوحيد للصدوق: ٢٧٠ - ٢٧٥/ ح٣٧.

(٣) بصائر الدرجات: ١٥٧/ ح٨.

بإسناده عن أبي الصباح الكناني، عن أبي جعفر عليه السلام قال: حدّثني أبي عمّن ذكره، قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وفي يده اليمنى كتاب، وفي يده اليسرى كتاب، فنشر الكتاب الذي في يده اليمنى فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم كتاب لأهل الجنّة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يُزاد فيهم واحد ولا ينقص منهم واحد، قال: ثمّ نشر الذي بيده اليسرى فقرأ: كتاب من الله الرحمن الرحيم لأهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم لا يُزاد فيهم واحد ولا ينقص منهم واحد».[1]

ومن البصائر أيضاً بإسناده عن الأعمش قال: قال الكلبي: يا أعمش أيّ شيء أشدّ ما سمعت من مناقب علي عليه السلام؟ قال: فقال: حدّثني موسى بن طريف عن عباية، قال: سمعت علياً عليه السلام وهو يقول: «أنا قسيم النار، فمن تبعني فهو منّي، ومن عصاني فهو من أهل النار» فقال الكلبي: عندي أعظم ممّا عندك، أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام كتاباً فيه أسماء أهل الجنة وأسماء أهل النار، فوضعه عند أم سلمة، فلمّا ولي أبو بكر طلبه فقالت: ليس لك، فلمّا ولي عمر طلبه فقالت: ليس لك، فلمّا ولي علي عليه السلام دفعته إليه.[2]

ومنه أيضاً بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا محمد إنّ عندنا الجامعة، وما يدريهم ما الجامعة! قال: قلت: جُعلت فداك وما الجامعة؟ قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله أملاه من فلق _ أي من شفته _ فيه، وخطّه علي عليه السلام بيمينه، فيها كلّ حلال وحرام وكلّ شيء يَحتاج إليه الناس حتّى الارش في الخدش».[3]

وفي الاحتجاج في حديث طويل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: وكان عليه السلام يقول: علمنا غابر ومزبور ونكت في القلوب ونقر في الأسماع، وإنّ عندنا الجفر

---

(١) بصائر االدرجات: ٢١١/ح٢؛ بحار الأنوار ١٧: ١٤٦ _ ١٤٧/ ح ٤٠.

(٢) بصائر الدرجات: ٢١١/ح٣.

(٣) بصائر الدرجات: ١٦٣/ ح ٤؛ بحار الأنوار ٢٦: ٢٢/ح ١١.

الأحمر والجفر الأبيض ومصحف فاطمة عليها السلام، وعندنا الجامعة فيها جميع ما يحتاج الناس إليه، فسُئل عن تفسير هذا الكلام، فقال عليه السلام: أمّا الغابر فالعلم بما يكون، وأمّا المزبور فالعلم بما كان، وأمّا النكت في القلوب فهو الإلهام، وأمّا النقر في الأسماع فحديث الملائكة نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم، وأمّا الجفر الأحمر فوعاءٌ فيه سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله ولن يخرج حتّى يقوم قائمنا أهل البيت، وأمّا الجفر الأبيض فوعاء فيه توراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وكتب الله الأُولى، وأمّا مصحف فاطمة عليها السلام ففيه ما يكون من حادث وأسماء من يملك ومن لا يملك إلى أن تقوم الساعة، وليس فيه قرآن، وأمّا الجامعة فهو كتاب طوله سبعون ذراعاً إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله من فلق فيه وخطّ علي بن أبي طالب عليه السلام بيده، فيه ـ والله ـ جميع ما يحتاج الناس إليه إلى يوم القيامة، حتّى أنّ فيه أرش الخدش والجلدة والنصف الجلدة» الحديث.[1]

السادس: [أهل البيت عليهم السلام جبال الدين]

ما أشار إليه عليه السلام بقوله: «وجبال دينه» قال الشارح المعتزلي: لا يتحلحلون عن الدين أو أنّ الدين ثابت بوجودهم كما أنّ الأرض ثابتة بالجبال، لولا الجبال لمادت بأهلها.[2]

وقال البحراني: وأشار بكونهم جبال دينه إلى أنّ دين الله سبحانه بهم يعتصم عن وصمات الشياطين وتبديلهم وتحريفهم كما يعتصم الخائف بالجبل ممّن يؤذيه.

قال ميرزا حبيب الله الخوئي: والمعيار متقاربان والمقصود واحد، وهو أنّ وجودهم سبب لبقاء الدين وانتظام أمر المسلمين، وبهم ينفى عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ٢: ١٣٤.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١: ١٣٨، ط مكتبة المرعشي النجفي - قم.

كما روي في البحار من كتاب قرب الاسناد عن هارون، عن ابن صدقة، عن جعفر بن محمد، عن آبائه عليهم السلام أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «في كلّ خلف من أمتي عدل من أهل بيتي ينفي عن الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجهّال، وإنّ أئمتكم وفدكم إلى الله، فانظروا من توفدون في دينكم وصلواتكم».[١]

ومن علل الشرائع بإسناده عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الله لم يدع الأرض إلاّ وفيها عالم يعلم الزيادة والنقصان من دين الله عزّ وجلّ، فإذا زاد المؤمنون شيئاً ردّهم، وإذا نقصوا أكمل لهم، ولولا ذلك لالتبس على المسلمين أمرهم»[٢].

وعن أبي حمزة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «لن تبقى الأرض إلاّ وفيها من يعرف الحقّ، فإذا زاد الناس فيه قال: قد زادوا، وإذا نقصوا منه قال: قد نقصوا، وإذا جاؤوا به صدّقهم، ولو لم يكن كذلك لم يُعرف الحقّ من الباطل»[٣] والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

السابع والثامن: [أهل البيت عليهم السلام سبب قوام الدين]

ما أشار إليه عليه السلام بقوله: «بهم أقام انحناء ظهره، وأذهب ارتعاد فرائصه» والمراد بذلك ـ على تقدير رجوع الضمير في ظهره وفرائصه إلى الدين ـ واضح، وهو أنّهم أسباب لقوام الدين ورافعون لإضطرابه حسبما عرفتَ آنفاً. وأمّا على تقدير رجوعها إلى النبي صلى الله عليه وآله فهو إشارة إلى أنّ الله سبحانه جعلهم أعضاداً يشدّون أزره ويقومون ظهره، وانحناء ظهره كناية عن ضعفه في بدء الإسلام، وارتعاد الفرائص كناية عن الشيء ببعض لوازمه، إذ كان ارتعاد الفرائص من لوازم شدّة الخوف، يعني أنّ الله أزال عنه صلى الله عليه وآله بمعونتهم خوفه

---

(١) بحار الأنوار ٢٣: ٣٠/ ح٤٦.

(٢) علل الشرايع ١: ٢٠٠/ ح٢٧.

(٣) علل الشرايع ١: ٢٠٠/ ح٣٠.

الذي كان يتوقّعه من المشركين على حوزة الدين، واتّصافهم عليهم السلام بهذين الوصفين ظاهر لا ريب فيه، لأنّهم لم يألوا جهدهم في نصرة النبي صلى الله عليه وآله وتقوية دينه قولاً أو فعلاً، وقد قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.(١)

وقد روى العامّة والخاصّة عن أبي هريرة قال: مكتوب على العرش «لا إله إلاّ أنا وحدي لا شريك لي، ومحمّد عبدي ورسولي أيّدتُه بعلي عليه السلام» فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.(٢)

فكان النصر عليّاً عليه السلام، ودخل مع المؤمنين فدخل في الوجهَين جميعاً، وبمضمونه أخبار أُخر من الطريقَين، وقال سبحانه أيضاً:

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.(٣)

قال أبو هريرة: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب عليه السلام وهو المعنيّ بقوله: «المؤمنين».(٤)

وبالجملة فانتصار النبي صلى الله عليه وآله بأمير المؤمنين عليه السلام وحمايته له باليد واللسان وجدّه في إعلاء كلمة الإسلام ممّا هو غني عن البيان.

بدر له شاهد والشعب من أحد ... والخندقان ويوم الفتح إن علموا(٥)

وكفى بذلك شاهداً مبيته على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى باهى الله سبحانه بذلك على ملائكته وأنزل:

---

(١) الأنفال: ٦٣.

(٢) أمالي الصدوق: ٢٨٤/ ح٣١٢؛ نظم درر السمطين: ١٢٠.

(٣) الأنفال: ٦٤.

(٤) بحار الأنوار ٩: ٩٤؛ مناقب آل أبي طالب ٢: ٣١١.

(٥) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٧؛ بحار الأنوار ٤٦: ١٢٧.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾[١] [٢]

وبرازه يوم الخندق لعمرو بن عبد ودّ، حتّى أنزل فيه: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[٣] بعليّ بن أبي طالب، وقتله عمراً على ما ورد في الروايات الكثيرة،[٤] وفي ذلك اليوم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ضربة عليّ أفضل من عبادة الثقلين.[٥]

وأمّا سائر الأئمة عليهم السلام فقد كانت هممهم مقصورة على حماية حمى الدين وإحياء أحكام سيّد المرسلين، بعضهم بالقتال والجدال كالحسين عليه السلام، وبعضهم باللسان والبيان كسائر المعصومين عليهم السلام، وذلك مع ما هم عليه من التقيّة والخوف، ولذلك أنّ الصادقَين عليهما السلام لما تمكّنا من إظهار الأحكام ونشر الشرايع، وزالت عنهما التقيّة التي كانت على غيرهما، قصرا أوقاتهما في إحياء الشريعة وإقامة السنّة على ما هو معروف، وقد كان أربعة آلاف نفر من أهل العلم خرّيجي مدرسة الإمام الصادق عليه السلام حتّى صنّفوا من أجوبته في المسائل أربعمائة كتاب وهي معروفة بكتب الأصول، فبوجودهم استقام أمر الدين واستحكمت شريعة خاتم النبيّين، وبقائمهم يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً.

* * *

(١) البقرة: ٢٠٧.

(٢) شرح الأخبار للقاضي النعمان ٢: ٣٤٥؛ شواهد التنزيل ١: ١٠٣/ ح١٤.

(٣) الأحزاب: ٢٥.

(٤) روضة الواعظين: ١٠٦؛ بحار الأنوار ٢٠: ٢٠٥.

(٥) كشف اليقين للعلاّمة الحلّي: ٨٣؛ عوالي اللئالي ٤: ٨٦/ ح١٠٢.

ومن خطبة له عليه السلام:

[يوصي بالتقوى والاعتبار بالقرون السالفة ويشير إلى المهدي عليه السلام]

«أُوصيكُمْ عِبَادَ اللَّه بِتَقْوَى اللَّه الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ فَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلًا لَكَانَ ذلِكَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ ع الذي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ رَمَتْهُ قَسِيُّ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ الْمَوْتِ وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً وَالْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ وَأَطْفَئُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ وَهَزَمُوا بِالْأُلُوفِ وَعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ «وَمِنْهَا» قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أُدَبِهَا مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا وَالتَّفَرُّغِ لَهَا فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ وَأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ». (شرح ابن أبي الحديد مج ٢ ص ٥٣٤ ط الأولى).

* * *

ضبط الألفاظ اللغوية:

(الرياش) والريش ما ظهر من اللباس، وقيل الرياش جمع الريش وهو اللباس الفاخر. و(المعاش) والمعيشة مكتسبة الإنسان الذي يعيش به، و(السلّم) كسكّر ما يُرتقى عليه، و(القسيّ) جمع القوس، و(النبل) السهام العربية، و(العمالقة) والعماليق أولاد عمليق من ولد نوح، و(الفراعنة) جمع فرعون، و(الرسّ) بتشديد السين نهر عظيم بين آذربيجان وإرمينيّة، وهو المعروف بالآن بالأرس، مبدؤه من مدينة طراز وينتهي إلى شهر الكر فيختلطان ويصبّان في البحر.

وقال في القاموس: بئر كانت لبقيّة من ثمود كذّبوا نبيّهم ورسّوه في بئر، و(مدّن المدائن) مصّرها، و(الجُنّة) بالضم نوع من السلاح يُتّقى به. (عسيب ذنبه) العسيب عظيم الذنب أو منبت الشعر منه، و(جران) البعير صدره أو مقدّم عنقه.

* * *

الشرح:

قوله عليه السلام: «أوصيكم عباد الله بتقوى الله» التي هي الزاد وبها المعاد، زاد مبلغ ومعاد منجح، وهي أن لا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

وإنّما عقّب بالموصول، أعني قوله «الذي ألبسكم الرياش وأسبغ عليكم المعاش» تأكيداً للغرض المسوق له الكلام، وتنبيهاً على أنّه سبحانه مع عظيم إحسانه ومزيد فضله وإنعامه حيث أنعم عليكم باللباس والرياش، وأكمل عليكم المعاش، اللذين هما سببا حياتكم وبهما بقاء نوعكم، كيف يسوغ كفران نعمته بالعصيان، ومقابلة عطوفته بالخطيئة، بل اللازم مكافاة نعمائه بالتقوى وعطاياه بالحسنى.

ثمّ لمّا كان رأس كلّ خطيئة هو حبّ الدنيا، وكان عمدة أسباب الغفلة والضلالة الركون إليها وطول الأمل فيها، نبّه على فنائها وزوالها بقوله: (ولو أنّ أحداً يجد إلى البقاء سلّماً) ووسيلة (أو لدفع الموت سبيلاً)، أو سبباً (لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام) لأنّه (الذي) اختصّ من سائر الخلق لكمال السلطنة والملك العظيم حيث (سخّر له ملك الجنّ والانس) والوحش والطير فهم يوزعون (مع النبوّة وعظيم الزلفة) والقربى إلى الحقّ سبحانه. ومعلوم أنّ النبوّة والتقرّب والمنزلة من الوسائل إلى البقاء لاستجابة الدعاء معهما، فهما مظنّتان للتوصّل إليه في الباطن كما أنّ الملك والسلطنة مظنّة لأن تكون وسيلة إليه في الظاهر، لكنّه مع نبوّته وعظم سلطانه وقدرته على ما لم يقدر عليه غيره لم يجد وسيلة إلى البقاء، فليس لأحد بعده أن يطمع في وجدانه. أمّا أنّه عليه السلام لم يجد

وسيلة إلى ذلك، فلأنّه (لمّا استوفى طُعمته) أي رزقه المقدّر (واستكمل مدّته) المقرّرة (رمته قسيُّ الفناء بنبال الموت) إسناد الرمي إلى القسيّ من المجاز العقليّ والنسبة إلى الآلة.

قال الشارح البحراني: ولفظ القسيّ والنبال استعارة لمرامي الأمراض وأسبابها التي هي نبال الموت. (وأصبحت الديار منه خالية والمساكن معطّلة ورثها قوم آخرون).

[سليمان عليه السلام وملك الموت]:

جاء في البحار من (العلل) و(العيون) عن أحمد بن زياد الهمداني، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن علي بن معبد، عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام، عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد قال: «إنّ سليمان بن داود عليه السلام، قال ذات يوم لأصحابه: إنّ الله تبارك وتعالى قد وهب لي مُلكاً لاينبغي لأحد من بعدي، سخّر لي الريح والإنس والجنّ والطير والوحوش، وعلّمني منطق الطير، وآتاني كلّ شيء، ومع جميع ما أُوتيت من الملك ما تمّ لي سرور يوم إلى الليل، وقد أحببتُ أن أدخل قصري في غد فأصعد أعلاه وأنظر إلى ممالكي، فلا تأذنوا لأحدٍ عليَّ لئلاّ يرد عليَّ ما ينغّص عليَّ يومي، قالوا: نعم.

فلمّا كان من الغد أخذ عصاه بيده وصعد إلى أعلى موضع من قصره، وقف متّكئاً على عصاه ينظر إلى ممالكه مسروراً بما أُوتي، فرحاً بما أُعطي، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه واللباس قد خرج عليه من بعض زوايا قصره، فلمّا بصر به سليمان عليه السلام قال: من أدخلك إلى هذا القصر وقد أردتُ أن أخلو فيه اليوم، فبإذن من دخلت؟

فقال الشاب: أدخلني هذا القصر ربُّه، وبإذنه دخلت، فقال عليه السلام: ربّه أحقّ به مني، فمن أنت؟ قال: أنا ملك الموت. قال: وفيما جئت؟

قال: جئت لأقبض روحك، قال: إمضِ لما أمرت به فهذا يوم سروري، وأبى الله عزّ وجلّ أن يكون لي سرور دون لقائه، فقبض ملك الموت روحه وهو متّكئ على عصاه.

فبقي سليمان متّكئاً على عصاه وهو ميّت ما شاء الله والناس ينظرون إليه، وهم يقدّرون أنّه حي، فافتتنوا فيه واختلفوا، فمنهم من قال: إنّ سليمان قد بقي متّكئاً على عصاه هذه الأيام الكثيرة ولم يتعب ولم ينم ولم يأكل ولم يشرب، إنّه لربّنا الذي يجب علينا أن نعبده، وقال قوم: إنّ سليمان ساحر، إنّه يرينا أنّه واقف ومتّكئ على عصاه بسحر أعيننا وليس كذلك. فقال المؤمنون: إنّ سليمان هو عبد الله ونبيّه يدبّر الله بما شاء.

فلمّا اختلفوا بعث الله عزّ وجلّ الأرضة فدبّت في عصاه، فلمّا أكلت جوفها انكسرت العصا وخرّ سليمان من قصره على وجهه، فشكر الجنّ للأرضة صنيعها، فلأجل ذلك لا توجد الأرضة في مكان إلاّ وعندها ماء وطين، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾.(١) (٢)

[قصة راعي الغنم مع صاحب الزرع]:

كان سليمان عليه السلام أنبه الملوك شأناً، وأعجبهم نبأ، وأمدّهم شوكة، وأبسطهم ولاية، ناهيك بما فيه من النبوّة والحكمة، فإنّه خُصّ بأمور ليس من سعة العقل أن يتصوّرها في مخلوق سواه، فذكروا أنّ أوّل ما ظهر من نجابته وتبريزه في القضاء مسألة راعي الغنم مع صاحب الزرع، قالوا: أتى يوماً صاحب الزرع إلى داود عليه السلام وقال له: إنّ هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت في زرعي فلم تُبقِ منه شيئاً، قال له داود: اذهب فإنّ الغنم لك، فأعطاه رقاب الغنم بالحرث، فمرّا على سليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة، فقال لهما: كيف قضى بينكما؟

---

(١) سبأ: ١٤.

(٢) علل الشرايع: ٧٣ - ٧٤/ ح٢؛ عيون أخبار الرضا ٢: ٢٣٩ - ٢٤٠/ ح٢٤؛ بحار الأنوار ١٤: ١٣٦ - ١٣٧/ ح١.

فأخبراه، فقال: لو وليتُ أمر كما لقضيت بغير هذا، فأخبرا بذلك داود النبي عليه السلام، فاستقدمه وقال له: كيف كنت تصنع في القضاء بينهما؟ قال: كنت أدفع الغنم إلى صاحب الحرث سنة فيكون له نسلها وصوفها ومنافعها، وينذر صاحب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا كان العام المقبل وصار الحرث كهيئته يوم أُكل فيدفع إلى أهله ويأخذ صاحب الغنم غنمه، فقال داود: القضاء ما قضيتَ،[1] وعلى ذلك الآية: ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾[2] والآية المشيرة إلى هذه القصة في قوله تعالى: ﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ﴾.[3]

[إجابة سليمان عليه السلام على أسئلة السماء]:

وأنزل الله على داود كتاباً من السماء مختوماً بخاتم من ذهب فيه ثلاث عشرة مسألة، فأوحى إليه أن: سَل عنها ابنك سليمان، فإن هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك، فدعا داود سبعين قسّاً وسبعين حبراً وأجلس سليمان بين أيديهم وقال: يا بُنيّ إنّ الله تعالى أنزل عليَّ كتاباً من السماء فيه مسائل أمرني أن أسألك عنها، فإن أخرجتها فأنت الخليفة من بعدي؟

فقال سليمان: ليسأل نبي الله عمّا بدا له وما توفيقي إلاّ بالله.

قال داود: يا بُنيّ ما أقرب الأشياء وما أبعدها؟ وما آنس الأشياء وما أوحشها؟ وما أحسن الأشياء وما أقبحها؟ وما أقلّ الأشياء وما أكثرها؟ وما القائمان؟ وما الساعيان؟ وما المشتركان؟ وما المتباغضان؟ وما الأمر الذي إذا ركبه الرجل حمد آخره؟ وما الأمر الذي إذا ركبه الرجل ذمّ آخره؟

---

(١) تفسير الطبري ١٧: ٦٨.

(٢) الأنبياء: ٧٩.

(٣) الأنبياء: ٧٨.

فقال سليمان: أمّا أقرب الأشياء فالآخرة، وأمّا أبعد الأشياء فما فاتك من الدنيا، وأمّا آنس الأشياء فجسدٌ فيه روح، وأمّا أوحش الأشياء فجسد لا روح فيه، وأمّا أحسن الأشياء فالايمان بعد الكفر، وأمّا أقبح الأشياء فالكفر بعد الايمان، وأمّا أقلّ الأشياء فاليقين، وأمّا أكثر الأشياء فالشكّ، وأمّا القائمان فالسماء والأرض، وأمّا الساعيان فالشمس والقمر، وأمّا المشتركان فالليل والنهار، وأمّا المتباغضان فالموت والحياة، وأمّا الأمر الذي إذا ركبه الرجل حمد آخره فالحلم عند الغضب، وأمّا الأمر الذي إذا ركبه الرجل ذمّ آخره فالحدّة عند الغضب، ففكّوا خاتم الكتاب فإذا جواب السؤال سواء على ما نزل من السماء. فقال القسّيسون والرهبان: لا نرضى حتّى نسأله عن مسألة، فإن أخرجها فهو الخليفة من بعدك.

فقال سليمان: سلوني وما توفيقي إلاّ بالله.

قالوا: ما الشيء الذي إذا صلح صلح كلّ شيء من الإنسان، وإذا فسد فسد كلّ شيء منه؟ فقال: هو القلب.

فقام داود وصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: إنّ الله تعالى يأمرني أن استخلف عليكم سليمان، فضجّوا وقالوا: غلام حدث يُستخلف علينا وفينا من هو أفضل منه وأعلم منه، فبلغ ذلك داود فدعا رؤساء أسباط بني اسرائيل وقال لهم: أروني عصيكم فأيّ عصاة أثمرت فإنّ صاحبها وليّ هذا الأمر بعدي، قالوا: رضينا، فجاؤا بعصيّهم، فقال لهم داود: ليكتب كلّ رجل منكم اسمه على عصاه، فكتبوا، ثمّ جاء سليمان بعصاه فكتب اسمه عليها، ثمّ أُدخلت العصيّ بيتاً وأغلق عليها الباب وسُدّ بالأقفال، ومرّت رؤساء أسباط بني إسرائيل، فلمّا أصبح فتح الباب فأخرج عصيّهم كما هي، وأمّا عصا سليمان فقد أورقت وأثمرت، فسلّموا إليه الأمر.[1]

---

(١) بحار الأنوار ١٤: ٥.

وفي المجلّد الأول من السيرة الحلبية ص ٢٧ ط _ ٢ مطبعة الأزهرية بمصر.

[من وصايا داود لسليمان عليهما السلام]:

«إنّ داود عليه السلام لمّا استخلف ولده سليمان أوصاه فقال: يا بُنيّ إيّاك والهزل فإنّ نفعه قليل ويهيّج العداوة بين الاخوان، ومن ثمّ قيل لا تمازح الصبيان فتهون عليهم، ولا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا تمازح الدنيّ فيجترء عليك، ولكلّ شيء بذور وبذر العداوة المزاح. وقد قيل: المزاح يذهب بالمهابة ويورث الضغينة، وقيل: آكد أسباب القطيعة المزاح، وقد قيل: من كثر مزاحه لم يخلُ من استخفاف به أو حقد عليه، واقطع طمعك من الناس فإنّ ذلك هو الغِنى، وإيّاك وما تعتذر فيه من القول أو الفعل، وعوّد لسانك الصدق، والزم الاحسان، ولا تُجالس السفهاء، وإذا غضبت فألصق نفسك بالأرض _ وقد جاء في الحديث (إذا جهل على أحدكم جاهل فإن كان قائماً جلس، وان كان جالساً فليضطجع).[1]

نوادر أخبار ملك سليمان عليه السلام:

قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالاَ الْحَمْدُ لِلَّه الَّذي فَضَّلَنا عَلى كَثيرٍ مِنْ عِباده الْمُؤْمنينَ وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبينُ﴾.[2]

وفي سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْه بِإِذْنِ رَبِّه وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ

---

(١) لم أعثر عليه بهذا اللفظ. وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع. انظر: الترغيب والترهيب ٣: ٤٥٠/ ح١٦؛ مسند أحمد ٥: ١٥٢.

(٢) النمل: ١٥ و١٦.

السَّعير يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحاريبَ وَتَماثيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾.(١)

وقوله سبحانه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ﴾.(٢)

قال الإمام الصادق عليه السلام في رواية إكمال الدين: «إنّ داود عليه السلام أراد أن يستخلف سليمان لأنّ الله عزّ وجلّ أوحى إليه يأمره بذلك، فلمّا أخبر بني اسرائيل ضجّوا من ذلك وقالوا: يستخلف علينا حدثاً وفينا من هو أكبر منه، فدعى أسباط بني اسرائيل فقال لهم: قد بلغني مقالتكم، فأروني عصّيكم فأيّ عصا أثمرت فصاحبها وليّ الأمر»(٣) الحديث المتقدّم الذكر.

وفي البحار من محاسن البرقي عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: استخلف داود سليمان وهو ابن ثلاثة عشر سنة، ومكث في ملكه أربعين سنة.(٤)

قوله: ﴿عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ قيل: إنّ النطق عبارة عن الكلام وهو مختصّ بالانسان، إلاّ أنّ سليمان لَمّا فهم معنى صوت الطير سمّاه منطقاً مجازاً، وقال علي بن عيسى: إنّ الطير كانت تكلّم سليمان عليه السلام معجزة له كما أخبر عن الهدهد، ومنطق الطير صوت يتفاهم به معانيها على صيغة واحدة، بخلاف منطق الناس الذي يتفاهمون به المعاني على صيغ مختلفة، ولذلك لم نفهم عنها مع طول مصاحبتها ولم تفهم هي عنّا، لأنّ إفصاحها مقصور على تلك الأمور المخصوصة، ولمّا جعل سليمان يفهم عنها كان قد علم منطقها.

قوله: ﴿وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كلّ شيء تؤتى الأنبياء والملوك، وقيل: من كلّ شيء يطلبه طالب لحاجته إليه وانتفاعه به.

---

(١) سبأ: ١٢ و١٣.

(٢) النمل: ١٦.

(٣) كمال الدين: ١٥٦ الباب ٧/ ح١٧.

(٤) بحار الأنوار ١١: ٥٦/ ح ٥.

وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾[1] قال الطبرسي: أي وسخّرنا لسليمان الريح مسير غدوّ تلك الريح المسخّرة مسير شهر، ومسير رواحها مسير شهر، والمعنى أنّها كانت تسير في اليوم مسيرة شهرين للراكب. قال قتادة: كانت تغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار، وتروح مسيرة شهر إلى آخر النهار. وقال الحسن: كانت تغدو من دمشق فتقيل باصطخر من أرض اصفهان وبينهما مسيرة شهر للمستريح، وتروح من اصطخر فتبيت بكابل وبينها مسيرة شهر، تحمله الريح مع جنوده، أعطاه الله الريح بدلاً من الصافنات الجياد.

قوله: ﴿وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي أذبنا له عين النحاس وأظهرناها له.

قوله: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ المعنى وسخّرنا له من الجنّ من بحضرته وأمام عينه ما يأمرهم به من الأعمال كما يعمل الآدميّ بين يدي الآدميّ بأمر ربّه تعالى، وكان يكلّفهم الأعمال الشاقة، وفيه دلالة على أنّه قد كان من الجنّ من هو غير مسخّر له.

قوله: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ﴾ أي من يعدل من هؤلاء الجنّ الذين سخّرناهم لسليمان عمّا أمرناهم به من طاعة سليمان نُذقه من عذاب النار في الآخرة عن أكثر المفسّرين. وقيل: نذقه العذاب في الدنيا، وأنّ الله سبحانه وكّل بهم ملكاً بيده سوط من نار، فمن زاغ منهم من طاعة سليمان ضربه ضربة أحرقته.

[بناء بيت المقدس]:

قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ﴾ وهي بيوت الشريعة، قيل: وهي القصور والمساجد يُتعبّد فيها، عن قتادة والجبائي، قال: وكان ممّا عملوا بيت المقدس، وقد كان الله عزّ وجلّ سلّط على بني إسرائيل الطاعون فهلك خلق كثير في يوم واحد، فأمرهم داود أن يغتسلوا ويبرزوا إلى الصعيد بالذراري والأهلين

---

(١) سبأ: ١٢.

ويتضرّعوا إلى الله تعالى لعلّه يرحمهم، وذلك صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد، وارتفع داود عليه السلام فوق الصخرة فخرّ ساجداً يبتهل إلى الله سبحانه وسجدوا معه، فلم يرفعوا رؤوسهم حتّى كشف الله عنهم الطاعون.

فلمّا أن شفّع الله داود في بني اسرائيل جمعهم داود بعد ثلاث وقال لهم: إنّ الله تعالى قد منّ عليكم ورحمكم، فجدّدوا شكراً بأن تتّخذوا من هذا الصعيد الذي رحمكم فيه مسجداً، ففعلوا، وأخذوا في بناء بيت المقدس، فكان داود عليه السلام ينقل الحجارة لهم على عاتقه، كذلك خيار بني اسرائيل حتّى رفعوه قامة، ولداود يومئذ سبع وعشرون ومائة سنة، فأوحى الله إليه أنّ تمام بنائه يكون على يد ابنه سليمان.

فلمّا صار داود عليه السلام ابن أربعين ومائة سنة توفّاه الله تعالى واستخلف سليمان، فأحبّ إتمام بيت المقدس، فجمع الجنّ والشياطين فقسّم عليهم الأعمال، يخصّ كلّ طائفة منهم بعمل، فأرسل الجنّ والشياطين في تحصيل الرخام والمها الأبيض الصافي من معادنه، وأمر ببناء المدينة من الرخام والصفاح وجعلها اثني عشر ربضاً، وأنزل كلّ ربض منها سبطاً من الأسباط.

فلمّا فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد فوجّه الشياطين فرقاً، فرقة يستخرجون الذهب واليواقيت من معادنها، وفرقة يقلعون الجواهر والأحجار من أماكنها، وفرقة يأتونه بالمسك والعنبر وسائر الطيب، وفرقة يأتونه بالدرّ من البحار، فأُوتي من ذلك بشيء لا يُحصيه إلاّ الله تعالى، ثمّ أحضر الصنّاع وأمرهم بنحت تلك الأشجار حتّى يصيّروها ألواحاً، ومعالجة تلك الجواهر واللآلي.

وبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمّده بأساطين المها الصافي، وسقّفه بألواح الجواهر، وفضّض سقوفه وحيطانه باللآلي واليواقيت والجواهر، وبسط أرضه بألواح الفيروزج، فلم يكن في الأرض بيت أبهى منه ولا أنور من ذلك المسجد، كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر.

وجعل فيه أشياء عجيبة: منها القبّة التي فيها السلسلة المعلقة ينالها صاحب الحقّ ولا ينالها المبطل، حتّى اضمحلت بحيلة غير معروفة، وكان من عجائب بنائه أنّه بنى بيتاً وأحكمه وَصَقَله، فإذا دخله الفاجر والورع تبيّن الفاجر من الورع، لأنّ الورع كان يظهر خياله في الحائط أبيض، والفاجر يظهر خياله أسود، وكان أيضاً ممّا اتّخذ من الأعاجيب أن نصب في زاوية من زواياه عصا آبنوس، فكان من مسّها من أولاد الأنبياء لم تضرّه، ومن مسّها من غيرهم أحرقت يده.

فلمّا فرغ من ذلك جمع إليه خيار بني اسرائيل فأعلمهم أنّه بناه لله تعالى، واتّخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيداً.

فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتّى غزا بخت نصّر بني إسرائيل فخرّب المدينة وهدمها، ونقض المسجد وأخذ ما في سقوفه وحيطانه من الذهب والدرّ واليواقيت والجواهر، فحملها إلى دار مملكته من أرض العراق.

قال سعيد بن المسيّب: لمّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس تغلّقت أبوابه، فعالجها سليمان فلم تنفتح، حتّى قال في دعائه: بصلوات أبي داود عليه السلام إلاّ فتحت الأبواب، ففرغ له عشرة آلاف من قرّاء بني اسرائيل: خمسة آلاف بالليل وخمسة آلاف بالنهار، ولا تأتي ساعة من ليل ونهار إلاّ ويعبد الله فيها.

قوله: ﴿وَتَماثِيلَ﴾ يعني صوراً من نحاس وشبه زجاج كانت الجنّ تعملها، ثمّ اختلفوا فقال بعضهم: كانت صوراً للحيوانات، وقال آخرون: كانوا يعملون صور السّباع والبهائم على كرسيّه ليكون أهيب له.

فذكروا أنّهم صوّروا أسدين أسفل كرسيّه، ونسرين فوق عمودي كرسيّه، فكان إذا أراد أن يصعد الكرسيّ بسط الأسدان ذراعيهما، وإذا علا على الكرسيّ نشر النسران أجنحتهما فظلّلاه من الشمس، ويقال: إنّ ذلك كان ممّا لا يعرفه أحد من الناس.

فلمّا حاول بخت نصّر صعود الكرسي بعد سليمان حين غلب على بني

إسرائيل لم يعرف كيف كان يصعد سليمان، فرفع الأسد ذراعيه فضرب ساقه فقدّها فوقع مغشيّاً عليه، فما جسر أحد بعده أن يصعد ذلك الكرسي.

قال الحسن: ولم تكن يومئذ التصاوير محرّمة وهي محظورة في شريعة نبيّنا صلى الله عليه وآله فإنّه قال: «لعن الله المصوّرين»[1] ويجوز أن يكره ذلك في زمن دون زمن، وقد بيّن الله سبحانه أنّ المسيح عليه السلام كان يصوّر بأمر الله من الطين كهيئة الطير، وقال ابن عباس: كانوا يعملون صور الأنبياء والعبّاد في المساجد ليقتدى بهم.

وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: والله ما هي تماثيل النساء والرجال، ولكنّها الشجر وما أشبهه.[2]

قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي صحاف كالحياض التي يُجبى فيها الماء أي يجمع، وكان سليمان عليه السلام يصلح طعام جيشه في مثل هذه الجفان، فإنّه لم يمكنه أن يطعمهم في مثل قصاع الناس لكثرتهم، ويقال إنّه كان يجمع على كلّ جفنة ألف رجل يأكلون من بين يديه.

﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ أي ثابتات لا يزلن عن أمكنتهنّ لعظمهنّ، وقيل: كانت عظيمة كالجبال يحملونها مع أنفسهم، وكان سليمان عليه السلام يُطعم جنده.

[صفة سليمان في ملكه وفي بدنه]:

وفي البحار عن صاحب الكامل قال: لمّا توفّي داود ملك بعده ابنه سليمان عليه السلام على بني اسرائيل، وكان عمره ثلاث عشر سنة، وآتاه مع الملك النبوّة وسخّر له الجنّ والإنس والشياطين والطير والريح، فكان إذا خرج من بيته إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام الإنس والجنّ متى يجلس فيه.

وكان سليمان أبيض جسيماً كثير الشعر يلبس البياض، وكان يأكل من

---

(١) تفسير مجمع البيان ٨: ٢٠٣.

(٢) تفسير مجمع البيان ٨: ٢٠٤.

كسبه، وكان كثير الغزو، وكان إذا أراد الغزو أمر فعُمل بساط من خشب يسع عسكره فيركبون عليه هم ودوابّهم وما يحتاجون إليه، ثمّ أمر الريح فسارت في غدوته مسيرة شهر وفي روحته كذلك، وكان له ثلاثمائة زوجة وسبعمائة سريّة، وأعطاه الله أخيراً أنّه لا يتكلّم أحد بشيء إلاّ حملته الريح فيعلم ما يقول.[١]

وفيه من كتاب قصص الأنبياء بالإسناد عن أبي حمزة، عن الأصبغ بن نباتة قال: خرج سليمان بن داود من بيت المقدس مع ثلاثمائة ألف كرسي عن يمينه عليها الإنس وثلاثمائة ألف كرسي عن يساره عليها الجنّ، وأمر الطير فأظلّتهم، وأمر الريح فحملتهم حتّى وردت بهم المدائن، ثمّ رجع وبات في اصطخر، ثمّ غدا فانتهى إلى جزيرة بركاوان، ثمّ أمر الريح فخفضتهم حتّى كادت أقدامهم يصيبها الماء، فقال بعضهم لبعض: هلَ رأيتم ملكاً أعظم من هذا؟ فنادى ملك: لثواب تسبيحة واحدة أعظم ممّا رأيتم.[٢]

وفيه منه عن الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان ملك سليمان ما بين الشامات إلى بلاد اصطخر.[٣]

وفيه عن الطبرسي قال: قال محمد بن كعب: بلغنا أنّ سليمان بن داود عليه السلام كان عسكره مائة فرسخ، خمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للجنّ، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير، وكان له ألف بيت من القوارير على الخشب فيها ثلاثمائة مهيرة وسبعمائة سرية، فيأمر الريح العاصف فترفعه، ويأمر الرّخاء فتسير به، فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إنّي قد زدتُ في ملكك أنّه لا يتكلّم أحد من الخلائق بشيء إلاّ جاءت الريح فأخبرتك.

وقال مقاتل: نسجت الشياطين لسليمان بساطاً فرسخ في فرسخ ذهباً في

---

(١) بحار الأنوار ١٤: ٧٩ نقلا عن صاحب الكامل.

(٢) بحار الأنوار ١٤: ٧٢/ ح١١.

(٣) بحار الأنوار ١٤: ٧٠.

ابريسم، وكان يوضع فيه منبر من ذهب في وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسيّ من ذهب وفضّة، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضّة وحولهم الناس، وحول الناس الجنّ والشياطين، وتظلّها الطير بأجنحتها حتّى لا تقع عليهم الشمس، وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الصباح.[1]

[عرش سليمان]:

وفيه من تفسير الثعلبي قال: وروي أنّ سليمان عليه السلام لمّا ملك بعد أبيه أمر باتّخاذ كرسيّ ليجلس عليه للقضاء، وأمر بأن يعمل بديعاً مهولاً، بحيث أن لو رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وتهيّب.

قال: فعُمل له كرسي من أنياب الفيلة، وفصّصوه باليواقيت واللؤلؤ والزبرجد وأنواع الجواهر، وحفّوه بأربع نخلات من ذهب شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر، على رأس نخلتين منها طاووسان من ذهب، وعلى رأس الآخرين نسران من ذهب بعضها مقابلاً لبعض، وجعلوا من جنبي الكرسي أسدين من الذهب، على رأس كلّ واحد منهما عمود من الزمرّد الأخضر، وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر، واتّخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر، بحيث يظلّ عريش الكروم النخل والكرسي.

قال: وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى فيستدير الكرسيّ كلّه بما فيه دوران الرحى المسرعة، وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها، وتبسط الأسدان أيديهما فتضربان الارض بأذنابهما،فكذلك كلّ درجة يصعدها سليمان عليه السلام.

فإذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه

---

(١) بحار الأنوار ١٤: ٨٠ - ٨١، تفسير مجمع البيان ٧: ٣٧٠.

على رأس سليمان، ثمّ يستدير الكرسي بما فيه ويدور معه النسران والطاووسان والأسدان مايلات برؤسهما إلى سليمان ينضحن عليه من أجوافها المسك والعنبر. ثمَّ تناولت حمامة من ذهب قائمة على عمود من جوهر من أعمدة الكرسي التوراة فيفتحها سليمان يقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء، ويجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي من الذهب المفصّص بالجوهر وهي ألف كرسي عن يمينه، وتجيء عظماء وتجلس على كراسي الفضّة على يساره وهي ألف كرسي حافّين جميعاً به، ثمَّ تحفّ بهم الطير فتظلّهم، وتتقدّم إليه الناس للقضاء.

فإذا دعى البيّنات والشهود لإقامة الشهادات دار الكرسي بما فيه مع جميع ما حوله دوران الرحى المسرعة، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما وينشر النسران والطاووسان أجنحتهما، فتفزع منه الشهود ويدخلهم من ذلك رعب ولا يشهدون إلاّ بالحق.[1]

[هدايا بلقيس]:

في تفسير مجمع البيان، أنّ بلقيس لمّا وقفت على كتاب سليمان وفيه ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[2] قالت لأشراف قومها ﴿إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى سليمان وقومه ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ أصانعه بذلك عن ملكي ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أي منتظرة ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[3] بقبول أم ردّ،وإنّما فعلت ذلك لأنّها عرفت عادة الملوك في حسن موقع الهدايا عندهم، وكان غرضها أن يتبيّن لها بذلك أنّه ملك أو نبيّ، فإن قبل الهدية تبيّن أنّه ملك وعندها ما يرضيه، وإن ردّها تبيّن أنّه نبيّ.

---

(١) بحار الأنوار ١٤: ٨٤ - ٨٥ نقلا عن تفسير الثعلبي.

(٢) النمل: ٣١.

(٣) النمل: ٣٥.

واختُلف في الهدية، فقيل: أهدت إليه وصفاء ووصائف، ألبستهم لباساً واحداً حتّى لا يُعرف ذكر من أنثى، وقيل: أهدت مائتي غلام ومائتي جارية، ألبست الغلمان لباس الجواري، وألبست الجواري ألبسة الغلمان، وقيل: أهدت له صفائح الذهب في أوعية من الديباج، فلمّا بلغ ذلك سليمان أمر الجن فموّهوا له الآجر بالذهب، ثمّ أمر به فأُلقي في الطريق، فلمّا جاؤوا رأوه ملقى في الطريق في كلّ مكان، فلمّا رأوا ذلك صغر في أعينهم ما جاؤوا به، وقيل أنّها عمدت إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الجواري الأقبية والمناطق، وألبست الغلمان في سواعدهم أساور من ذهب وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصّعات بأنواع الجواهر، وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة، وتاجاً مكلّلاً بالدرّ والياقوت المرتفع، وعمدت إلى حقّة فجعلت فيها درّة يتيمة غير مثقوبة وخرزة جزعيّة مثقوبة معوجّة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها اسمه المنذر بن عمرو وضمّت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأيٍ وعقل، وكتبت إليه كتاباً بنسخة الهدية، قالت فيها: إن كنتَ نبياً فميّز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحقّة قبل أن تفتحها، واثقب الدرّة ثقباً مستوياً، وأدخل الخرزة خيطاً من غير علاج إنس ولاجنّ، وقالت للرسول: أُنظر إليه إذا دخلت عليه، فإن نظر إليك نظرة غضب فاعلم أنّه مَلِك، فلا يهولنّك أمره، فأنا أعزّ منه، وإن نظر إليك نظر لطف فاعلم أنّه نبيّ مرسل.

فانطلق الرسول بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان فأخبره الخبر، فأمر سليمان الجنّ أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضّة ففعلوا، ثمّ أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى بضع فراسخ ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول الميدان حائطاً شُرَفه من الذهب والفضّة ففعلوا، ثم قال للجّن: عليّ بأولادكم، فاجتمع خلق كثير، فأقامهم على يمين الميدان ويساره، ثمّ قعد سليمان في مجلسه على سريره ووضع له أربعة آلاف كرسيّ عن يمينه ومثلها عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفّوا صفوفاً فراسخ، وأمر

الانس فاصطفّوا فراسخ، وأمر الوحش والسباع والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه ويساره، فلمّا دنا القوم من الميدان ونظروا إلى مُلك سليمان تقاصرت إليهم أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا.

فلمّا وقفوا بين يدي سليمان نظر إليهم نظراً حسناً بوجهٍ طلق، وقال: ما وراءكم؟ فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا له وأعطاه كتاب الملكة، فنظر فيه وقال: أين الحقّة؟ فأُتي بها وحرّكها وجاءه جبرئيل عليه السلام فأخبره بما في الحقّة، فقال: إنّ فيها درّة يتيمة غير مثقوبة وخرزة مثقوبة معوجّة الثقب، فقال الرسول: صدقتَ، فاثقُب الدرّة وأدخِل الخيط في الخرزة، فأرسل سليمان إلى الأرضة فجاءت فأخذت شعرة في فيها فدخلت فيها حتّى خرجت من الجانب الآخر، ثمّ قال: مَن لهذه الخرزة يسلكها الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا رسول الله، فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتّى خرجت من الجانب الآخر، ثم بيّن بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثمّ تجعله على اليد الآخرى ثمّ تضرب به الوجه، والغلام كان يأخذ من الآنية يضرب به وجهه، وكان الجارية تصبّ على باطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد، وكانت الجارية تصبّ الماء صباً والغلام يحدر الماء على يده حدراً، فميّز بينهما بذلك.

وقيل: أنّها أنفذت مع هداياها عصاً كان يتوارثها ملوك حمير، وقالت: أريد أن تعرّفني رأسها من أسفلها، وبقدح ماء وقالت: تملؤها ماء رواء ليس من الأرض ولا من السماء، فأرسل سليمان العصا إلى الهواء وقال: أيّ الرأسين سبق إلى الأرض فهو أسفلها، وأمر الخيل فأُجريت حتّى عرقت وملأ القدح من عرقها وقال: ليس هذا من ماء الأرض ولا من ماء السماء.

ثمّ قال سليمان: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ أي مما أعطاني الله من الملك والحكمة والنبوّة خير مما أعطاكم من الدنيا وأموالها، ﴿بَلْ

﴿أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[١] إذا أهدى بعضكم إلى بعض، وأمّا أنا فلا أفرح بها، أشار إلى قلّة اكتراثه بأموال الدنيا.

ثمّ قال للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بما جئت من الهدايا ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أي لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم على دفعها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً﴾ أي من تلك القرية ومن تلك المملكة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ فلمّا ردّ سليمان الهدية وميّز بين الغلمان والجواري إلى غير ذلك علموا أنّه نبيّ مرسل وأنّه ليس كالملوك الذين يغترّون بالمال.[٢]

* * *

وفي البحار من كتاب تنبيه الخاطر: روي أنّ سليمان بن داود عليه السلام مرّ في موكبه والطير والجنّ والإنس عن يمينه وعن شماله بعابد بني إسرائيل فقال: واللهِ يا ابن داود لقد آتاك الله مُلكاً عظيماً، فسمعه سليمان فقال: لَتسبيحة في صحيفة مؤمن خير ممّا أعطي ابن داود، وإنّ ما أعطي ابن داود يذهب وإنّ التسبيحة تبقى.[٣]

وكان سليمان إذا أصبح تصفّح وجوه الأغنياء والأشراف حتّى يجيء إلى المساكين ويقعد معهم ويقول: مسكين مع المساكين.[٤]

ومن إرشاد القلوب: كان سليمان مع ما هو فيه من الملك يلبس الشعر، وإذا جنّه الليل شدّ يديه إلى عنقه فلا يزال قائماً حتّى يُصبح باكياً، وكان قُوته من سفائف الخوص يعملها بيده، وإنّما سأل المُلك ليقهر ملوك الكفر.[٥] انتهى.

وجاء في المجلّد الأول من كتاب (ماذا في التاريخ) ص ١٦٩ تحت عنوان:

---

(١) النمل: ٣٦.

(٢) تفسير مجمع البيان ٧: ٣٨٠ - ٣٨٣.

(٣) بحار الأنوار ١٤: ٨٣/ ح٢٧.

(٤) بحار الأنوار ١٤: ٨٣/ ح٢٨.

(٥) بحار الأنوار ١٤: ٨٣/ ح٢٩، نقلاً عن إرشاد القلوب.

[سيرة نبي الله سليمان وتاريخه عليه السلام]:

«وهو الذي أفاء الله عليه بنِعم الدنيا والآخرة معاً، وجعل له مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فقد أكرمه الله تعالى بالنبوّة، وجمع له معها الملك، وزاده عليها بالحكمة حتّى لُقّب بالحكيم، ثمّ جعل مُلكه شاملاً للبشر والجنّ والشياطين والحيوانات والطيور والحشرات».

فكان يفهم لغتها جميعاً، وكانت كلّها تأتمر بأمره، وزاده سلطة على الرياح والسحاب، ومع هذا كلّه فإنّه لم يخرج عن تواضعه، ولم يغادر خوف الله قلبه، ولم يتعالَ على المساكين، وكان يعمل بيده لقوت نفسه.

وممّا يُذكر من كرامات سليمان عليه السلام أنّ الله تعالى لمّا أمر داود عليه السلام أن يجعل الخلافة لولده سليمان من بعده وكان لا يزال حدثاً ابن ثلاث عشرة سنة فقط، أنكر ذلك بنو إسرائيل وضجّوا قائلين:

إنّ داود يستخلف فينا حدثاً لأنّه ابنه، وفينا من هو أولى منه وأقدر على إدارة الحكم، فدعا داود عليه السلام أكابرهم وأسباطهم وقال لهم: قد بلغني ما قلتم من أنّ سليمان صبيّ لا يليق للخلافة، ولكنّ هذا أمر الله، وإن شئتم أن تختبروا مقدرة سليمان وجدارته فوجّهوا إليه ما يقضي به الإمتحان من الأسئلة، ثمّ دعاه داود عليه السلام وأراد امتحانه بحضرتهم ليبين لهم فضله وحكمته.

فوجّه إليه إسئلة كثيرة، وقد أجاب عليها بأجمعها ممّا أخضع شوكة المعارضين لاستخلافه، فمن جملة تلك الأسئلة أنّه قال له: يا بُنيّ أيّ شيء أبرد؟ فقال سليمان عليه السلام: عفو الله على عبده، وعفو الناس بعضهم عن بعض، فقال داود: أيّ شيء أحلى؟ فأجاب سليمان عليه السلام: المحبّة من الله في عباده. فقال بعض كبار بني اسرائيل له: ما الشيء إذا صلح صلح معه كلّ شيء في الانسان، وإذا فسد فسد كلّ شيء فيه؟ فقال سليمان عليه السلام: ذاك هو القلب.

وممّا نُقل عن الثعلبي أنّ كتاباً نزل من السماء على نبيّ الله داود وفيه ثلاث عشرة مسألة، أمر الله أن يسأل عنها ابنه سليمان عليه السلام، فتكون برهاناً له على تعيينه خليفة من الله تعالى.

فدعا داود عليه السلام سبعين قسّاً وسبعين حبراً، وأجلس سليمان بينهم فقال: يا بُنيّ أخبِرني ما أقرب الأشياء؟ وما أبعد الاشياء؟ وما آنس الاشياء وما أوحشها؟ وما أحسن الاشياء وما أقبحها؟ وما أقل الاشياء وما أكثرها؟ وما القائمان وما المختلفان وما المتباغضان؟ وما الأمر الذي إذا ركبه الرجل حمد آخره؟ وما الأمر الذي إذا ركبه ذمّ آخره؟

فقال سليمان عليه السلام: أمّا أقرب الأشياء فالآخرة، وأبعد الأشياء ما فاتك من الدنيا، وأمّا آنس الأشياء فجسد فيه روح ناطق، وأوحشها جسد بلا روح، وأمّا أحسن الأشياء فالايمان بعد الكفر، وأقبحها الكفر بعد الايمان، وأمّا أقل الاشياء فاليقين، وأكثرها الشكّ.

وأمّا القائمان فالسماء والأرض، والمختلفان فالليل والنهار، وأمّا المتباغضان فالموت والحياة، وأمّا الذي إذا ركبه الرجل حمد آخره فالحلم عند الغضب، وأمّا الذي إذا ركبه ذمّ آخره فالحدّة عند الغضب.

ولمّا أتّم سليمان عليه السلام الجواب عن جميع تلك الأسئلة، فكّ داود خاتم الكتاب بحضرة القوم فإذا المسائل مكتوبة فيه مع أجوبتها كما ذكرها سليمان عليه السلام، فعندئذ سلّم بنو إسرائيل لسليمان بالحكمة والخلافة، وظهر لهم أهليّته وجدارته لما خصّه الله تعالى به.

ومن جملة دلائل حكمة سليمان واستحقاقه للخلافة بعد أبيه، حكمة مسألة الغنم التي أكلت الكرم، فحكم بنتاجها لصاحب الكرم تلك السنة مقابل تلف ثمره، بعد أن كان الحكم تمليك الغنم لصاحب الكرم، وقد أشار الله تعالى لذلك في كتابه المجيد فقال تعالى:

﴿وَدَاوُدَ وسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً...﴾.[1]

حكاية سليمان مع النملة:

روي أنّ سليمان عليه السلام كان على ساحل البحر ينتظر بعض جنوده، فأبصر نملة تحمل حبّة حنطة وهي تسعى إلى الماء، فتعجّب من قصدها الماء مع أنّها تهرب منه لو وقعت فيه قهراً، فما أن وصلت إلى شاطئ البحر حتّى خرجت ضفدع فدنت من النملة ثمّ فتحت فاها فدخلت النملة في فيها باختيارها، فأطبقت الضفدع فمها عليها وغاصت في البحر، فما لبثت إلاّ بُرهة يسيرة حتّى رجعت الضفدع فقفزت إلى البرّ ثمّ فتحت فاها فخرجت النملة من فيها وليس معها حبّة الحنطة، فلمّا نظر سليمان النملة تقدّم إليها وسألها عن شأنها مع الضفدع، وأين ذهبت معها، وكيف أرجعتها، وأين وضعت حبّة الحنطة؟

فقالت له النملة: اعلم يا نبّي الله أنّه يوجد في قعر هذا البحر صخرة مجوّفة، في وسطها دودة عمياء ولا تستطيع الخروج منها لطلب معاشها، وقد وكّلني الله تعالى برزقها وسخّرني مع هذا الضفدع لتأمين معاشها، فأنا أحمل طعامها من البرّ، وهذا الحيوان يقلّني في فمه إليها، فإذا وصل بي إلى الصخرة وضع فمه على ثقبها ثمّ قذف بي إلى داخلها، فأوصل الحبّة إلى الدودة فأضعها في فمها ثمّ أعود إلى هذا الحيوان فيحملني إلى البرّ ثانية، وهذه قصّتي يا نبي الله.

فدهش نبي الله سليمان من تلك القصة فزاد في تمجيد الله سبحانه، ثمّ سألها: هل سمعتِ لها تسبيحاً؟ فقالت: نعم سمعتها تردّد دائماً هذا الدعاء:

«يا من لا ينساني في جوف هذه الصخرة تحت هذه اللجّة من رزقه، لا تنسَ عبادك المؤمنين من رحمتك الواسعة».[2]

---

(١) الأنبياء: ٧٧.

(٢) بحار الأنوار ١٤: ٩٧ - ٩٨/ ح٤؛ الدعوات للراوندي: ١١٥/ ح٢٦٤.

قصّة بلقيس ملكة سبأ مع سليمان:

روي أنّ نبي الله سليمان عليه السلام سافر إلى بلاد اليمن في بعض رحلاته، وكانت الطير تضلّله من حرارة الشمس، فلمّا حان وقت الصلاة نزل عن بساطه وانصرفت الطيور لسبيلها في تلك البرهة، وكان من جملتها الهدهد، فتوغّل في طيرانه، فصادف هدهداً مثله فتعارفا وجعل كلّ منهما يسأل رفيقه عن حاله وحال بلاده، فأخبره هدهد سليمان عن عظمة سليمان وكثرة جنوده وبطشه وما آتاه الله من المال والنبوّة وتسخير الإنس والجن والوحوش والطير له في كلّ ما أراد.

وجعل هدهد بلاد سبأ يشرح لرفيقه عظمة ملكة سبأ وكثرة جنودها وسعة بلادها، ودعاه للذهاب معه ليشاهد ذلك بعينه، فرغب هدهد سليمان بذلك وأحبّ أن ينقل أخبار ذلك لنبيّ الله سليمان، خصوصاً حينما سمع من رفيقه أنّ ملكة سبأ وقومها يعبدون الشمس دون الخالق القهّار، وطالت غيبة الهدهد، وانتهى سليمان من صلاته وجلس على بساطه فظلّلته الطير وبقي مكان الهدهد فارغاً، فسأل سليمان عنه وتهدّده إن لم يأت بسبب صحيح يدلّ على مضيّه، ثمّ أرسل العقاب وراءه، فصادفه راجعاً فأتى به إلى سليمان عليه السلام.

فسأله عن غيابه بدون إذنه، فشرح له قصّه ملكة سبأ وعظمة ملكها، وأنّها وقومها يعبدون الشمس ويسجدون لها دون الخالق القهّار، فأراد سليمان عليه السلام أن يتحقّق صحّة كلام الهدهد، فكتب كتاباً أرسله معه إلى ملكة سبأ، وأمره أن يعرّفه بحالها بعد قراءتها الكتاب، فأخذ الهدهد الكتاب ودخل على بلقيس وهي في قصرها من كوة كانت في أعلى القصر، فما شعرت إلاّ والكتاب قد سقط على صدرها وهي مستلقاة، فدهشت من ذلك وقد شاهدت الهدهد حينما دخل من الكوة وكيف ألقاه وخرج من حيث أتى.

فأخذت بلقيس الكتاب وإذا فيه: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ

تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.[1] وكانت عاقلة فلم تتسرّع بالغضب والاستنكار أو الردّ، بل أرسلت إلى أشراف قومها ووجوه أجناده، فلمّا حضروا قالت:

﴿يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ﴾.

وقرأت لهم الكتاب، وكانوا قد سمعوا عن سليمان وعظمة ملكه، فقالوا لها:

﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ﴾.

فجعلت تفكّر وتدبّر، ثمّ انتهى بها التفكّر إلى أن تداري سليمان وتغريه بالأموال والهدايا، وتمتحن صحّة نبوّته، فإن كان مَلِكاً دنيويّاً قبل الهدايا ومغريات الملك، وحينئذ يمكنها الانتصار عليه مهما بلغت عظمته، وإن كان نبيّاً فلا يرضى بديلاً عن التوحيد وعبادة الله تعالى، ولن تغريه الهدايا مهما عظمت وغلت، وفي هذه الحالة لن تستطيع الانتصار عليه ولو كان لها أضعاف قوّتها.

ثمّ جمعت الهدايا المتنوّعة، فجهّزت خمسمائة غلام ألبستهم لباس الجواري، وخمسمائة جارية ألبستهنّ لباس الرجال. وجهّزت له خمسمائة لبنة من ذهب ومثلها من فضة، وعصا نفيسة كانت تتوارثها الملوك السابقة، لا يُعرف رأسها من أسفلها، وأضافت إلى كلّ هذه الهدايا درّة يتيمة غير مثقوبة، ودرّة مثقوبة معوجّة الثقب أرسلتها مع العصا لاجراء امتحان آخر.

ثمّ دعت رجلاً من الأشراف فرأسته على الوفد الناقل للهدايا، فبعثت معه قدحاً، وضمّت إليه رجالاً من قومها من أصحاب الرأي والعقل، وأمرتهم بحمل الهدايا إلى سليمان عليه السلام، وأرسلت معهم رسالة إلى سليمان، وأوصتهم بطلب الجواب على أسئلتها هذه: منها أن يعرّفها رأس العصا، وأن يثقب الدرة ثقباً مستقيماً، وأن يُدخل في المثقوبة خيطاً دون أن يعالجه إنس ولاجان، ثمّ يملأ القدح بماء لا من السماء نزل ولا من الأرض نبع ولا من البحار أُخذ.

---

(١) النمل: ٣٠ و٣١.

ثمّ أوصت القيّم على الوفد أن تأمّل أحوال سليمان حين تدخل عليه، فإن هو نظر إليك نظر غضب وإرهاب فاعلم أنه مَلِكَ عادي، فلا يهولنّك أمره، فأنا أعزّ منه، وإن نظر إليك نظرة حلم وعطف فاعلم أنّه نبي مرسل، فاحذر من مخالفته.

فلمّا تحرّكت قافلة الهدايا في المسير، صادف مجيء الهدهد فنظر إلى جميع ما أعدّته بلقيس من الهدايا والتحف لسليمان فسارع ليخبره الخبر، فبادر سليمان بعد إخباره إلى إعداد ما يلزم فعله في مقابلة ذلك الوفد المرسل من عند ملكة سبأ.

فأمر جنوده من الإنس والجنّ والطير والوحش أن يصطّفوا على جانبي طريق الوفد إلى بُعد أميال. فلمّا دنا رُسل بلقيس من الميدان ونظروا إلى عظمة سليمان عليه السلام وكثرة جيوشه وعظمة ملكه وشدّة سطوته ووفرة غِناه، تصاغرت عندهم نفوسهم واستحقروا هداياهم واستضعفوا شأنهم وشأن ما حملوه معهم، فعدلوا عن تقديم هداياهم خجلاً بها.

ثمّ أقبلوا خاشعين حتّى وقفوا بين يدي سليمان عليه السلام بخشية وخوف وتهيّب. ولكنّ نبيّ الله استقبلهم بوجه باشّ، ورحّب بهم ترحيباً صادقاً، وشجّعهم على الحديث عن مهمّتهم وعن ملكتهم وديارهم.

فتقدّم إليه رئيسهم وناوله رسالة بلقيس وفيها أسئلتها وطلباتها، ولمّا قرأ سليمان أسئلة بلقيس طلب الدرّة، ثمّ أمر (الأرضة) أن تثقبها ثقباً مستقيماً، ثمّ طلب الخرزة المثقوبة فتقدّمت إليه دودة بيضاء وقالت: أنا لها يا رسول الله، فأخذت خيطاً بفمها ودخلت في ثقب الخرزة حتّى خرجت من الطرف الآخر. وطلب العصا وأمر برميها في الهواء قائلاً: أيّ الطرفين كان أقرب إلى الأرض فهو رأسها، وأخيراً استحضر الكأس وأمر بفرسان تُجري الخيل حتّى عرقت عرقاً كثيراً فملأ القدح منه وقال: هذا ماء ليس من ماء السماء ولا من ماء الأرض ولا من البحار.

وبعد أن أرى الوفد مقدرته وحسن تدبيره، طلب استعراض الهدايا، فلمّا عُرضت عليه غضب وقال: ليس من أجل هذا طلبنا طاعتكم، بل نحن طلبنا الإسلام وعبادة الواحد

الديّان، فأرجِعوا هداياكم إلى ملكتكم وأنذروها وقومها بالمجيء إليَّ مسلمين ولله خاضعين، فإن لم يفعلوا فلنأتينّهم بجنود لا يستطيعون مقاومتها.

فلمّا رجع رسول بلقيس إليها بهداياها وبتهديد سليمان عليه السلام لها ولقومها علمت أنّه نبيّ لا طاقة لها بمقاومته، فتجهّزت للخروج إليه مع وجوه قومها...

ونزل جبرئيل عليه السلام على سلمان عليه السلام بنبأ خروجها إليه في حاشيتها، ففكّر سليمان في أمر يُدهشها فيه ويريها مقدرته التي خصّه الله تعالى بها، فالتفت إلى أشراف عسكره قائلاً:

﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؟

وكانت بلقيس قد خلّفت عرشها في قصرها بمدينة سبأ بعد أن أوثقته في الأرض ووكّلت به ثقات قومها، لأنّه رائع الصنعة من حيث النقش أو الترصيع بالمجوهرات، فلمّا سأل سليمان عليه السلام عمّن يأتيه به.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾.

ولكنّ سليمان كأنّه أراد أعجل من ذلك.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

وكان القائل آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيّه من بعده، وابن أخته، وكان عنده جزء من ثلاثة وسبعين جزءاً من أجزاء اسم الله الأعظم، وفعلاً سأل آصف ربّه تعالى فقام العرش من مكانه بقدرة الله تعالى وطويت له الأرض حتّى كان بطرفة عين أمام كرسي سليمان، وقد كان عند نبي الله سليمان عليه السلام مثل ما عند وزيره آصف من العلم باسم الله الأعظم، ولكنّه تعمّد أن يترك وزيره وابن أخته به ليرُي أمّته طاقة آصف على الإيمان بالمعجزة بقدرة الله تعالى وأنّه خليفته فيهم من بعده.

فلمّا رآه سليمان عليه السلام: ﴿مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾.

فلمّا جائت بلقيس استقبلها سليمان استقبالاً حسناً، فلمّا صارت أمامه ﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟

فبهتت وحارت في أمرها وجعلت تنظر إليه وهي تراه شبيهاً بعرشها، وكانت حليمة لا تتسرّع في أحكامها قبل أن تتثبّت، لذا قالت ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وبذلك لم تنفِ ولم تُثبت، فلمّا رأى نبي الله سليمان دهشتها وعجبها حمد الله تعالى على ما آتاه من العلم ونعمة الإسلام.

ثمّ إنّ بلقيس أسلمت وتابت إلى الله تعالى من عبادة الأوثان توبة نصوحاً، وتزوّجها سليمان وردّها إلى أرضها وممالكها بعد أن أقرّها على ملكها.

وكان نبي الله سليمان عليه السلام يعتكف غالباً في مسجد بيت المقدس، فلمّا بلغ من العمر ثلاثاً وخمسين سنة أي بعد أربعين سنة من توليه الملك _ إذ أنّه تولّى الملك وهو ابن ثلاثة عشر سنة _ أحبّ يوماً أن يعمد إلى أعلى قصره ويتأمّل وحده بناء مسجده من عَلٍ، فأمر أن يمنع دخول أي شخص حتّى لو كان من خواصّه وجنوده، ثمّ صعد وحده حتّى بلغ أعلى مطلّ تحت القبّة المصنوعة من قوارير، وأطلّ على العمال وهم يشهدون المسجد، وكان قد بقي من مدة كمال بنائه ما يقرب من سنة.

وفجأة نظر فلمح شجرة خرنوب من ناحية من نواحي البلدة، وكان متّكئاً على عصاه فاضطربت جوارحه، لأنّ الله تعالى كان قد عرّفه أنّ آية موته خروج شجرة خرنوب من بيت المقدس، وبعد هذا الاضطراب الذي أصابه التفت فرأى شاباً جميل الوجه في زيّ حسن يخرج إليه، فغضب وقال: من أدخلك هذا القصر، ومن الذي سمح لك في دخوله، ومن أنت؟

فقال: أمّا الذي أمرني بالدخول فهو صاحب القصر، وأمّا الاستئذان عليك فلم يكن لي عادة أن أستأذن في الدخول على الملوك والسلاطين.

فعلم عندئذٍ أنّ هذا ملك الموت، فسأله عليه السلام: فيم جئت؟ قال: جئت لأقبض روحك.

عندئذٍ سأل ربّه أن يخفي عن الجنّ موته لجهتين: الأولى ليداوموا على

أعمالهم في عمارة بيت المقدس، الثانية يعلمهم هم والإنس أنّهم لا يعلمون الغيب وأنّ عِلمه عند الله.

فأجابه الله تعالى، وقبض عزرائيل عليه السلام روحه، وقومه ينظرون إليه وهو متّكئ على عصاه، وهم يحسبونه حيّاً مدّة سنة كاملة.

وكان وزيره آصف خلال تلك المدة يُدير أمر المملكة وينظّم أعمال الجنّ والإنس، فلمّا كمل بناء المسجد بعد سنة ولم يعد موجب لبقاء جثمانه قائماً، أرسل الله تعالى دودة الأرض فأكلت العصا فقط.

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾.(١)

وتبيّنت الجنّ أنّهم لو كانوا علموا بموته يوم وفاته كانوا يخلّصون أنفسهم من عذاب العمل طيلة هذه المدة، فظهر لهم ولغيرهم أنّهم عاجزون عن معرفة الأشياء إلاّ ما عرّفهم الله تعالى».

* * *

[ضرورة الاعتبار من التاريخ]:

ثم نبّه عليه السلام على الاعتبار بأحوال القرون الخالية والأمم الماضية فقال: «وإنّ لكم في القرون السالفة لعبرة» وأشار إلى وجه العبرة على سبيل الاستفهام التقريري قصداً للتذكير والتذكر بقوله: «أين العمالقة وأبناء العمالقة».

[تاريخ العمالقة]:

قوله عليه السلام: «أين العمالقة وأبناء العمالقة» قال الشارح المعتزلي: العمالقة أولاد لاوز بن ارم بن سالم بن نوح عليه السلام، كان الملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم، فمنهم عملاق بن لاوز، ومنهم طسم بن لاوز أخوه، ومنهم جديس بن لاوز أخوهما، وكان العزّ والملك بعد عملاق بن لاوز في طسم، فلمّا ملكهم عملاق بن طسم

---

(١) سبأ: ١٤.

بغى وأكثر الفساد في الأرض، حتّى كان يطأ العروس ليلة إهدائها إلى بعلها، وإن كانت بكراً افتضّها قبل وصولها إلى البعل، ففعل ذلك بإمرأة من جديس يقال لها غفيرة بنت غفار، فخرجت إلى قومها وهي تقول:

لا أحدٌ أذل من جديس أهكذا يُفعل بالعروس

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته، فصنع الأسود طعاماً ودعى العملاق إليه، ثمّ وثب به وبطسم فأتى على رؤسائهم، ونجا منهم رباح بن مز فصار إلى ذي جيشان بن تبّع الحميري ملك اليمن فاستغاث به على جديس، فسار ذوجيشان في حمير فأتى بلاد جوّ وهي قصبة اليمامة واستأصل جديساً كلها وأخرب اليمامة، فلم يبق لجديس باقية ولا لطسم إلاّ اليسير منهم، ثمّ ملك بعد طسم وجديس وباز بن ايم بن لاوز بن ارم فسار بولده وأهله ونزل برمل عالج، فبغوا في الأرض حيناً حتّى أفناهم الله، ثمّ ملك الأرض بعد وباز عبد طعحم بن أثيف بن لاوز فنزلوا بالطايف حيناً ثم بادوا.

قال الشارح: وممن يعدّ من العمالقة عاد وثمود.

فأمّا عاد فهو ابن عويص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام كان يعبد القمر، يقال إنّه كان رأى من صلبه أولاداً وأولاد أولاد أربعة آلاف، وأنّه نكح ألف جارية، وكانت بلاده الأحقاف المذكورة في القرآن، وهي من شجر عمان إلى حضرموت، ومن أولاده شدّاد بن عاد صاحب المدينة المذكورة في سورة الفجر.

وأمّا ثمود فهو ابن عامر بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانت دياره بين الشام والحجاز إلى ساحل بحر الحبشة.[1]

«أين الفراعنة وأبناء الفراعنة» وهم ملوك مصر، فمنهم الوليد بن الريّان فرعون يوسف عليه السلام، ومنهم الوليد بن مصعب فرعون موسى، ومنهم فرعون بن الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وأخرب بيت المقدس.[2]

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ٩٣ - ٩٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ٩٥.

«أين أصحاب مدائن الرسّ» وهم (الذين) جحدوا ربّ العالمين و(قتلوا النبيّين) مظلومين (وأطفئوا سنن المرسلين) وشرايع الدين (وأحيوا سُنن الجبّارين) وبدع الشياطين (وأين) الملوك (الذين ساروا بالجيوش وهزموا الألوف) وفتحوا الأمصار (وعسكروا العساكر) وجمعوهم (ومدّنوا المدائن) وبنوها.

في بيان مدائن الرسّ وقصّة أصحابها:

قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ﴾[1] وفي سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ﴾.[2]

قال الطبرسي: أي وأهلكنا عاداً وثمود وأصحاب الرسّ ـ وهو بئر رسّوا فيها نبيّهم ـ أي ألقوه فيها، عن عكرمة.

وقيل: إنّهم كانوا أصحاب مواشٍ ولهم بئر يقعدون عليها، وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذّبوه فانهار البئر وانخسفت بهم الأرض فهلكوا.

وقيل: الرسّ قرية باليمامة يقال لها فلج قتلوا نبيّهم فأهلكهم الله، عن قتادة.

وقيل: كان لهم نبيّ يسمّى حنظلة فقتلوه فُأهلكوا، عن سعيد بن جبير والكلبي.

وقيل: هم أصحاب رسّ، والرسّ بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيباً النجّار فنُسبوا إليها، عن كعب ومقاتل.[3]

وفي البحار من تفسير علي بن إبراهيم: أصحاب الرسّ هم الذين هلكوا لأنّهم استغنوا الرجال بالرجال والنساء بالنساء.[4]

ومن معاني الأخبار: معنى أصحاب الرسّ أنّهم نُسبوا إلى نهر يقال له: الرسّ من بلاد المشرق.[5]

---

(١) الفرقان: ٣٨.

(٢) ق: ١٢.

(٣) تفسير مجمع البيان ٧: ٢٩٦.

(٤) بحار الأنوار ١٤: ١٥٢ - ١٥٣/ ح٢.

(٥) بحار الأنوار ١٤: ١٥٣/ ح٣.

وقد ذكروا في الرسّ أقوالاً كثيرة أعرضنا عنها وذكرنا موضع الحاجة.

* * *

[الإمام المهدي على لسان عليّ عليه السلام]:

قوله عليه السلام: «قد لبس للحكمة جُنّتها الخ».

قال العلاّمة المجلسي قدس سره: إنّه اشارة إلى القائم عليه السلام ونقله الشارح المعتزلي عن الشيعة الإماميّة.

وقالت الصوفيّة: إنّه عليه السلام يعني به وليّ الله في الارض، وعندهم لا تخلو الدنيا من الأبدال والأولياء.

وقالت الفلاسفة: إنّ مراده عليه السلام به العارف.

وقالت المعتزلة: إنّه يريد به العالم بالعدل والتوحيد، وزعموا أنّ الله لا يُخلي الأمّة من جماعة من المؤمنين العلماء بالتوحيد والعدل، وإنّ الاجماع إنما يكون حجّة باعتبار قول أولئك، لكنّه لمّا تعذّرت معرفتهم بأعيانهم اعتبر إجماع الجميع، وإنّما الأصل قول أولئك.

قال الشارح المعتزلي بعد نقل هذه الأقوال: وليس يبعد أن يريد عليه السلام به القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله في آخر الوقت إذا خلقه الله تعالى وإن لم يكن الآن موجوداً، فليس في الكلام ما يدلّ على وجوده الآن، وقد وقع اتّفاق الفرق من المسلمين أجمعين على أنّ الدنيا والتكليف لا ينقضي إلاّ عليه،[1] انتهى.

قال الخوئي في شرح النهج: أمّا ما ذكره من كون المراد به القائم عليه السلام فهو كما ذكره غير بعيد، لظهور اتّصافه عليه السلام بهذه الأوصاف وكونه مظهراً لها، وأمّا ما زعمه ـ كسائر المعتزلة ـ من أنّه عليه السلام غير موجود الآن وإنّما يخلقه الله في آخر الزمان فهو زعمٌ فاسد ووهم باطل، لقيام البراهين العقلية والنقلية على

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ٩٦.

أنّ الأرض لو تبقى بغير حجّة لانخسفت وساخت، وعلى أنّه لابدّ من وجوده في كلّ عصر وزمان، وأنّه إمّا ظاهر مشهود أو غائب مستور، وأنّ القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله مخلوق من غابر الزمان وموجود الآن، وهو غائب مستور لمصالح مقتضية لغيبته، والانتفاع بوجوده الشريف حال الغيبة كالانتفاع بالشمس المجلّلة للعالم المحجوبة بالسحاب.

وبعد قيام الأدلة المحكمة على ذلك كلّه فلا يُعبأ بالاستبعادات الوهميّة للمنكرين، والاستدلالات السخيفة الهيّنة للمبطلين على ما أُشير إليها في كتب أصحابنا الإماميّة المؤلّفة في الغيبة مع أجوبتها المتقنة.

* * *

معرفة الحكمة وتفسيرها:

هذا والحكمة اسم لمجامع الخير كلّه، قال أبو البقاء: هي في عُرف العلماء استعمال النفس الانسانيّة باقتباس العلوم النظريّة، واكتساب الملكة التامّة على الأفعال الفاضلة قدر طاقتها.

وقال بعضهم: هي معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة، وهي العلم النافع المعبّر عنها بمعرفة ما لها ومعرفة ما عليها.

وقال ابن دريد: كلّ ما يؤدّي إلى ما يلزمه أو يمنع من قبيح، وقيل: ما يتضمّن صلاح النشأتَين.

وقال في البحار: العلوم الحقّة النافعة مع العمل بمقتضاها، قال: وقد تُطلق على العلوم الفائضة من جنابه تعالى على العبد بعد العمل بما علم.[1]

وقد تفسّر بأنها معرفة الله وطاعته، وقد تفسّر بأنها العلم الذي يرفع الانسان عن فعل القبيح، وفسّرت في قوله تعالى: ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[2]

---

(١) بحار الأنوار ١: ٢١٥؛ الخصال للصدوق: ١١١/ ح٨٣

(٢) النحل: ١٢٥.

بالنبوّة، وفي قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[١] بالفقه والمعرفة وفي قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٢] بالقرآن والشريعة وفي قوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٣] بتحقيق العلم وإتقان العمل.

وفي الصافي من الكافي وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قال: طاعة الله ومعرفة الإمام.[٤]

وعنه عليه السلام: معرفة الإمام واجتناب الكبائر التي أوجب الله عليها النار.[٥]

وعن العياشي عنه عليه السلام: إنّ الحكمة المعرفة والتفقّه في الدين، فمن فقه منكم فهو حكيم.[٦]

وعن مصباح الشريعة عنه عليه السلام: الحكمة ضياء المعرفة وميراث التقوى وثمرة الصدق، ولو قلت: ما أنعم الله على عباده بنعمة أنعم وأعظم وأرفع وأجزل وأبهى من الحكمة، لقلت: قال الله ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٧] أي لا يعلم ما أودعتُ وهيّأتُ في الحكمة إلاّ من استخلصتُه لنفسي وخصصته بها، والحكمة هي الكتاب، وصفة الحكيم الثبات عند أوائل الأمور والوقوف عند عواقبها، وهو هادي خلق الله إلى الله.[٨]

وعن الخصال عن النبي صلى الله عليه وآله: رأس الحكمة مخافة الله.[٩]

---

(١) آل عمران: ٤٨.

(٢) البقرة: ١٢٩؛ آل عمران: ١٦٤؛ الجمعة: ٢.

(٣) البقرة: ٢٦٩.

(٤) تفسير الصافي ١: ٢٩٨.

(٥) تفسير الصافي ١: ٢٩٨؛ تفسير العيّاشي ١: ١٥١ / ح٤٩٦.

(٦) تفسير الصافي ١: ٩٨، تفسير العيّاشي ١: ١٥١/ ح٤٩٨.

(٧) البقرة: ٢٦٩.

(٨) تفسير الصافي ١: ٢٩٩؛ مصباح الشريعة: ١٩٨.

(٩) تفسير الصافي ١: ٢٩٩؛ الخصال: ١١١ / ح٨٣.

وعنه وعن الكافي عنه عليه السلام: أنّه كان ذات يوم في بعض أسفاره إذ لقاه ركب فقالوا: السلام عليك يا رسول الله، فالتفت إليهم وقال: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون، قال: فما حقيقة إيمانكم؟ قالوا: الرضا بقضاء الله والتسليم لأمر الله والتفويض إلى الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: علماء حكماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء، فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتّقوا الله الذي إليه ترجعون.[1]

[معاني الحكمة في القرآن]:

وقد جاء معنى الحكمة في القرآن على أربعة أوجه:

أحدها: مواعظ القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾[2] يعني مواعظ القرآن.

ثانيها: الحكمة بمعنى الفهم والعلم ومنه قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾،[4] يعني الفهم والعلم.

ثالثها: الحكمة بمعنى النبوّة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[5] ـ يعني النبوّة ـ وقوله: تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾.[7]

---

(١) تفسير الصافي ١: ٢٩٩ / ح٢٦٩؛ الخصال: ١٤٦/ ح١٤٥؛ الكافي ٢: ٥٣/ ح١.

(٢) البقرة: ٢٣١.

(٣) مريم: ١٢.

(٤) لقمان: ١٢.

(٥) النساء: ٥٤.

(٦) ص: ٢٠.

(٧) البقرة: ٢٥١.

رابعها: القرآن بما فيه من عجائب الأسرار، ومنه قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾[١] وجميع هذه الوجوه عند التحقيق ترجع إلى العلم.

وبالتالي فحقيقة الحكمة نور من أنوار صفات الحقّ يؤيّد الله به عقل من يشآء من عباده، فهي ليست ممّا تُدرك بالعقول وبالبراهين العقلية والنقليّة.

وذلك أنّ المعقولات مشتركة بين أهل الدين وأهل الكفر، فالمعقول ما يحكم العقل عليه ببرهان عقليّ، وهذا ميسّر لكلّ عاقل بالدراية وعالم بالقراءة، فمن صفّى عقله عن شوب الوهم والخيال فيدرك عقله المعقولات بالبرهان درايةً عقليّة، ومن لم يُصفِّ العقل عن هذه الآفات فهو يدرك المعقول قراءةً بتفهيم أستاذ مرشد.

أمّا الحكمة فليست من هذا القبيل، وما يذّكّر إلاّ أُولو الألباب، وهم الذين لم يقنعوا بقشور العقول الانسانيّة، بل سعوا في طلب لبّها بمتابعة الأنبياء عليهم السلام، فأخرجوهم من ظلمات قشور العقول الانسانيّة إلى نور لبّ المواهب الربّانيّة، فتحقّق لهم أنّ ﴿مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾. وقد استوعبنا ذلك في كتابنا (الحكمة والحكماء).[٢]

* * *

تبع حكيم حكيماً سبعمائة فرسخ في سبع كلمات:

عن معاوية بن وهب عن أبي عبدالله عليه السلام قال: تبع حكيم حكيماً سبعمائة فرسخ في سبع كلمات، فلمّا لحق به قال له: يا هذا ما أرفع من السماء، وأوسع من الأرض، وأغنى من البحر، وأقسى من الحجر، وأشدّ حرارة من النار، وأشدّ برداً من الزمهرير، وأثقل من الجبال الراسيات؟ فقال له: يا هذا الحقّ أرفع من السماء، والعدل أوسع من

---

(١) نحل: ١٢٥.

(٢) مخطوط.

الارض، وغنى النفس أغنى من البحر، وقلب الكافر أقسى من الحجر، والحريص الجشع أشدّ حرارة من النار، واليأس من روح الله أشدّ برداً من الزمهرير، والبُهتان على البريء أثقل من الجبال الراسيات.[١]

[بين إفلاطون وسقراط]:

كتب إفلاطون إلى سقراط: إنّي أسألك عن ثلاثة أشياء فإن أجبتَ عنها تلمّذت لك. فكتب إليه سقراط: سَل وبالله التوفيق. فكتب إفلاطون إليه: أيّ الناس أولى بالرحمة، ومتى تضيّع أمور الناس، وبماذا تتلّقى الرحمة والنعمة من الله تعالى؟ فأجابه: أولى الناس بالرحمة ثلاثة: الحكيم الذي في مملكة السلطان الفاجر، فهو في الدهر حزين لما يسمع ويرى، والعاقل في تدبير الجاهل، فهو في الدهر متعب مغموم، والكريم المحتاج إلى اللئيم، فهو في الدهر له خاضع ذليل؛ وتُضيّع أمور الناس إذا كان الرأي عند من لا يعقل، والسلاح لمن لا يستعمله، والمال عند من لا يُنفقه؛ وتتلقّى نعمة الله بكثرة الشكر له ولزوم طاعته واجتناب معصيته؛ فأقبل إفلاطون إليه وتتلمذ له حتّى مات.

[بزرجمهر في السجن]:

غضب أنوشروان على وزيره بزرجمهر فسجنه في بيت كالقبر وصفّده بالحديد وألبسه الخشن من الصوف وأمر أن لا يزاد في كلّ يوم على قرصين من الخبز وكفّ ملح جريش ودورق ماء، وأن تُنقل ألفاظه إليه، فأقام شهوراً لا تُسمع له لفظة، فقال أنوشروان: أدخِلوا عليه أصحابه ومروهم أن يسألوه ويفاتحوه الكلام وعرّفونيه، فدخل إليه جماعة من المختصّين به فقالوا له: أيّها الحكيم نراك في هذا الضيق والحديد والشدّة التي دفعت إليها، ومع هذا فإنّ

---

(١) الخصال: ٣٤٨/ ح٢١؛ بحار الأنوار ٧٥: ٣١/ ح٩٩.

سحنة وجهك وصحّة جسمك على حالها لم تتغيّر، فما السبب في ذلك؟ فقال: إنّي عملت جوارش من ستّة أخلاط، فآخذ منه كلّ يوم شيئاً، فهو الذي أبقاني على ماترون. فقالوا: فصفه لنا فعسى أن نُبتلى بمثل بلواك أو أحد من إخواننا فنستعمله أو نصفه له. فقال: الخليط الأول الثقة بالله، والثاني أنّ كلّ مقدّر كائن، والثالث الصبر خير ما استعمله الممتحن، والرابع إن لم أصبر فأيّ شيء أعمل؟ ولِمَ أُعن على نفسي بالجزع؟ والخامس قد يمكن أن أكون في شرٍّ أصعب مما أنا فيه، والسادس من ساعة إلى ساعة فرج.[1]

[حكمة فيثاغورس]:

كان فيثاغورس الحكيم اليوناني إذا جلس على كرسيّه أوصى بهذه الوصايا السبع: قوّموا موازينكم واعرفوا أوزانها، عدّلوا الخط تصحبكم السلامة، لا تشعلوا النار حيث ترون السكّين يقطع، عدّلوا شهواتكم تستديموا الصحّة، استعملوا العدل تحظ بكم المودّة، عاملوا الزمان كالولاة الذين يُستعملون عليكم ويُعزلون عنكم، لا ترفّهوا أبدانكم وأنفسكم فتفقدوا في أوقات الشدائد إذا وردت عليكم.

[حكمة أرسطاطاليس]:

أمر أرسطاطاليس عند موته أن يُدفن ويُبنى عليه بيت مثمّن يُكتب على كلّ ثُمن منه كلمة من هذه الكلمات الجامعات لجميع الأمور التي بها يصلح الناس: «العالم بُستان ساقيته الدولة، الدولة سلطان محجّته الشريعة، الشريعة سياسة يسوسها الملك، الملك راع يعضده الجيش، الجيش أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمعه الرعيّة، الرعيّة عبيد يستملكهم العدل، العدل ألفة بها صلاح العالم».

---

(١) الفرج بعد الشدّة للقاضي التنوخي ١: ٣٨.

[حكاية الملك ووزراءه الأربعة]:

كان ملك من الملوك من ذوي البصيرة والرأي والتقى والصلاح قد اتّخذ له جملة من الحكماء الروحانيّين يستروح بهم ويسكن إلى حكمتهم، وكان أربعة من عظمائهم أقربهم منزلة منه وأخصّهم عنده: فارسيّ ويسمى المنُجّح، وهندي ويسمّى المُصحّح، ورومي ويسمّى المُفصح، وعربي ويسمى الموضّح، فجمعهم يوماً عنده وقال: أيّها الحكماء أريد أن أسألكم عن أشياء تختلج في ذهني فأجيبوني. قالوا: نعم أيّها الملك سَل. قال: أيهّا الحكماء بما السعادة في الدنيا والآخرة ونجاة النفوس الفاخرة؟ قال الحكيم الفارسي: بالتسليم لأمر الله. قال الحكيم الهندي: بالرضا بقضاء الله. قال الحكيم الرومي: بالتوكّل على الله. قال الحكيم العربي: بالخشية من أمر الله والطاعة لله.

فقال: أيّها الحكماء بم تزكو الأعمال ويفوز المرء بعد الانتقال؟ قال الحكيم الفارسي: بطاعة الربّ وعصيان الهوى. قال الحكيم الهندي: بكثرة الصيام وبرّ الأيتام. قال الحكيم الرومي: بأداء الشكر والانعطاف على من شمله الفقر. قال الحكيم العربي: بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

فقال: أيّها الحكماء فبما الخلاص والكون مع الخواصّ؟ قال الحكيم الفارسي: بالاجتهاد في العبادة والاعتماد على الزهادة والاغتنام للافادة. قال الحكيم الهندي: بتصحيح اليقين وإيثار الدين وتحقيق النبيّين. قال الحكيم الرومي: بطول الرحمة واتّباع الحكمة والشكر على النعمة. قال الحكيم العربي: بحسن الصمت وإزالة المقت والقيام بواجب الوقت.

فقال الملك: أيّها الحكماء فبم السموّ والافتخار؟ فقال الحكيم الفارسي: بحكمةٍ زاهرة ونفس طاهرة ودولة قاهرة وعشرة فاخرة. قال الحكيم الهندي: بعلومٍ مضيئة ونفس رضيّة ومملكة هنيّة وعطيّة زكيّة. قال الحكيم الرومي:

بهداية شاملة ونفس فاضلة ونعمة متوالية ومواهب متواصلة. قال الحكيم العربي: ببصيرة رشيدة، ونفس سعيدة، وولاية حميدة، وسماحة مفيدة.

فقال: أيّها الحكماء فبم دوام الملك وحراسته من الهلك؟ قال الحكيم الفارسي: ببسط العدل، وكثرة الفضل، واستشارة أهل العدل. قال الحكيم الهندي: بالقيام بالقسطاس، والاقناط من الناس، وقهر العدوّ بشدّة البأس. قال الحكيم الرومي: بحسن السيرة في الرعيّة، والعدل في البريّة، والحكم بينهم بالسويّة، وكثرة البذل والعطيّة. قال الحكيم العربي: بجمع الأموال، وحسن الأعمال، وكثرة الإفضال، والرأفة والإجمال.

فقال: أيّها الحكماء فبم زوال النعم والتعرّض لحلول النقم؟ قال الحكيم الفارسي: بالجرأة على المحارم، والهجوم على المآثم، وارتكاب العظائم، واستثقال المكارم. قال الحكيم الهندي: بإهانة السادات، وترك الواجبات، واتّباع الشهوات. قال الحكيم الرومي: بالكسل الفاضح، واستعمال القبائح، وترك القبول من الناصح، والميل من الصالح إلى الطالح. قال الحكيم العربي: باتّباع الفضول، ومشاورة الجهول، وشرب الخمور، والعزف بالطنبور.

قال الملك: أيّها الحكماء فبم بقاء الملك ودوامه وعلوّه وتمامه؟ قال الحكيم الفارسي: بإغاثة اللهيف وإعانة الضعيف وأمن المخيف، وإنصاف الدنيّ من الشريف. قال الحكيم الهندي: بتدبير الحكم وإدرار النعم وإمداد الكرم وإنفاذ الهمم. قال الحكيم الرومي: بنفع الأولياء وقمع الأعداء ومؤانسة العقلاء وإبعاد الجهلاء. قال الحكيم العربي: بكثرة البرّ وترك الكبر والصدقة في السرّ.

فقال الملك: أيّها الحكماء بم تكمل السعادة وتستوجب الافادة؟ قال الحكيم الفارسي: بلين الجانب وإرفاد الطالب والصبر على المصائب والقيام بحقّ الصاحب. قال الحكيم الهندي: ببذل العطايا والعدل في القضايا والصبر على الرزايا والاحسان في البرايا. قال الحكيم الرومي: بطلب المعالي والنجاح

واصطفاء الثقاة من أهل الصلاح وترك رقدات الصباح. قال الحكيم العربي: بلين الكلام وإطعام الطعام واجتناب الآثام وإفشاء السلام.

* * *

وفي كتب الفرس أنّ أنوشروان جمع عمّال السواد وبيده درّة يقلّبها، فقال: أيّ شيء أضرّ بارتفاع السواد وأدنى إلى محقه؟ أيّكم قال ما في نفسي جعلت هذه الدرّة في فيه؟ فقال بعضهم: انقطاع الشرب، وقال بعضهم: احتباس المطر، وقال بعضهم: استيلاء الجنوب وعدم الشمال، فقال لوزيره: قُل أنت فإنّي أظنّ عقلك يعادل عقول الرعيّة كلّها أو يزيد عليها، فقال: تغيّر رأي السلطان في رعيّته وإضمار الحيف لهم، والجور عليهم، فقال: لله أبوك، بهذا العقل أهّلك آبائي وأجدادي لما أهّلوك له، ودفع إليه الدرّة فجعلها في فيه.

* * *

رُأيَ صورة حكيمين من الحكماء في بعض المساجد وفي يد أحدهما رقعة فيها: إن أحسنت كلّ شيء فلا تظنّ أنّك أحسنتَ شيئاً حتّى تعرف الله وتعلم أنّه سبب الأسباب وموجد الأشياء.

وفي يد الآخر: كنت قبل أن عرفت الله أشرب وأظمأ، حتّى إذا عرفته رويتُ بلا شرب.

* * *

تكلّم أمير المؤمنين علي عليه السلام بتسع كلمات ارتجلهنّ ارتجالاً، فقأن عيون الحكمة والبلاغة، وأيتمن جواهر الحكمة، وقطعن جميع الأنام عن اللحاق بواحدة منهنّ: ثلاث منها في المناجاة، وثلاث منها في الحكمة، وثلاث منها في الأدب.

فأمّا اللاتي في المناجات: فقال: «إلهي كفى بي عِزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً، أنت كما أحبّ، فاجعلني كما تحبّ».

وأمّا اللاتي في الحكمة: فقال: «قيمةُ كلّ امريءٍ ما يُحسنه، وما هلك امرؤٌ عرف قدره، والمرء مخبوء تحت لسانه».

واللاتي في الأدب: فقال: «أمنُن على مَن شئت تكن أميره، واحْتَج إلى من شئت تكن أسيره، واستغنِ عمّن شئت تكن نظيره».

* * *

[وصفة الحكيم لكل داء]:

قال رجل من الصالحين: مررت بجماعة من الناس مجتمعين، بينهم حكيم يصف لكلّ داءٍ دواء ولكلّ علّة شفاء، دنوتُ منه فسلّمت عليه فقلت: أيّها الحكيم هل عندك لدائي دواء ولعلّتي شفاء؟ قال: نعم عندي دواؤك إن عملت به شُفيت، وإن تركته بقيت. قال: فقلت: إن كان موافقاً صرت مرافقاً، فما هو؟ قال لي: خُذ عروق الفقر وورق الصبر، وهليلج الخضوع وترياق الخشوع، واجعله في هاون التوبة، واسحنه بمسحن التقوى، وانخله بمنخل العقل، وأفرغه في قدح المناجاة وأوقد عليه نار المحبّة، وروّحه بمروحة الزهد، واشربه بمعاليق الاستغفار، وتمضمض بماء الورع، فالنفس بيت كلّ دواء، والحميا بيت كلّ شفاء، ودع نفسك وما عوّدتها فإنّك تبرأ بإذن الله تعالى.

قال: فقلت: أيّها الحكيم ليس عندي ثمن الدواء. قال: اقصد باب الرضا وادع صاحبه بالضيق والفضا، وقل بالتذلّل والخضوع والاستكانة والخشوع: يا معدن الجود والاحسان لك الحمد يا منّان.

فقلت: أيّها الحكيم إنّ بيني وبينه قطعة ووحشة من سوء معاملة عاملته بها قبيحة غير صحيحة، فهربت منه خائفاً متوجّلاً.

فقال لي: يا ضعيف اليقين أما علمتَ بأنّ الله تعالى يغفر ذنوب المذنبين؟ ثم أنشأ يقول:

حاسبونا فدقّقوا ثم منّوا فأعتقوا
هكذا عادة الملوك بالمماليك ترفقُ
إنّ قلبي يقول لي ولساني يُصدّق
إنّ من مات عاشقاً ليس بالنار يحرقُ

قال: ثم قام ومضى عنّي فتفرّق الناس، فقلت لبعضهم: بالله عليك من هذا الحكيم؟ قال لي: أو لم تعرفه؟ قلت: أجل والله، قال: هذا علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام.

* * *

ومن رام الزيادة في معرفة الحكمة ومعرفة حال الحكماء أكثر مما ذكرنا هنا، فليرجع إلى كتابنا (الحكمة والحكماء).[1]

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى الأصل من شرح الكلمات في خطبته عليه السلام فأقول:

قوله عليه السلام: «قد لبس للحكمة جُنّتها» الظاهر أنّه أراد بجُنّة الحكمة مخافة الله، كما أنّ النبي صلى الله عليه وآله جعلها رأسها في قوله: «رأس الحكمة مخافة الله»[2] فاستعار لفظ الجُنّة لها باعتبار أنّ مخافته سبحانه ووجود وصف التقوى الموجب لقمع النفس عن الشهوات وقلعها عن العلائق والأمنيات مانع عن كون الحكمة غرضاً عن إلهام الهوى، وعن وقوع الحكيم في الهلاك والردى، كما أنّ الجُنّة _ وهو ما يُستتر به من السلاح كالدرع ونحوه _ مانعة للابسها عن إصابة سهام الأعداء.

فيكون محصّل المعنى أنّ ذلك الحكيم قد اتّصف بمخافة الله سبحانه وخشيته التي هي بمنزلة الجُنّة للحكمة لأجل حفظ حكمته وكونها وقاية لها عمّا يصادمها، كما أنّ الجُنّة تحفظ الانسان عن صدمات الأعداء.

---

(١) مخطوط.

(٢) مستدرك الوسائل ١١: ٢٢٩ / ح١٢٨٢٣؛ الاختصاص للمفيد: ٣٤٣.

قوله عليه السلام: «وأخذها بجميع أدبها» أي أخذ الحكمة على وجه الكمال وقام بآدابها (من الاقبال عليها والمعرفة بها والتفرّغ لها) يعني أنّه لما علم أنّه لاخصلة أعظم وأشرف وأرفع وأبهى من الحكمة، وعرف أنّه من يُؤتها فقد أُوتي خيراً كثيراً، أقبل بالكليّة عليها وقصرت همّته ونهمته فيها، وعرف شرفها وقدرها ونفاستها، وتفرّغ لها وتخلّى عن جميع العلائق الدنيويّة التي تضادّها، وتنحّى عن كلّ ما سواها.

«فهي عند نفسه ضالّته التي يطلبها وحاجته التي يسأل عنها» ذلك مثل قوله عليه السلام: «الحكمة ضالّة المؤمن».[1]

[دلالة قوله عليه السلام «فهو مغترب» على الإمام المهدي]:

«فهو مغترب» يعني هذا الشخص يخفي نفسه ويختار العزلة، وهو إشارة إلى غيبة القائم عليه السلام «إذا اغترب الاسلام» أي إذا ظهر الجور والفساد وصار الإسلام غريباً ضعيفاً بسبب اغتراب الصلاح والسداد، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: بدء الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدء.[2] ثمّ شبّه الإسلام بالبعير البارك في قلّة النفع والضعف على سبيل الاستعارة بالكناية، فأثبت له لوازم المشبّه به وقال: «وضرب بعسيب ذنبه» لأنّ البعير إذا أعيى وتأذّى ضرب بذنبه، «وألصق الارض بجرانه» أي مقدّم عنقه فلا يكون له تصرّف ولا نهوض، وقلّ أن يكون له نفع حال بُروكه.

ولمّا وصفه عليه السلام بلبسه لجُنّة الحكمة وإيثاره العزلة والغيبة عرّفه بأنّه «بقيّة من بقايا حجّته» على عباده «وخليفة من خلائف أنبيائه» في بلاده، وهذان الوصفان يقويّان الظنّ بكون نظره عليه السلام بما أورده في هذا الفصل إلى القائم المنتظر عليه السلام وآبائه الطاهرين عليهم السلام.

---

(١) الكافي ٨: ١٦٧/ ح١٨٦.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٣: ١٥٦، وفيه «إنّ الدين بدأ غريباً، وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء».

قال الشارح المعتزلي: فإن قلت: أليس لفظ الحجّة والخليفة مُشعراً بما يقوله الإماميّة _ أي كون المراد بها الإمام القائم عليه السلام.

قلت: لا، لأنّ أهل التصوّف يسمّون صاحبهم حجّة وخليفة، وكذلك الفلاسفة وأصحابنا لا يمتنعون من إطلاق هذه الألفاظ على العلماء المؤمنين في كلّ عصر لأنّهم حُجج الله _ أي إجماعهم حجّة _ وقد استخلفهم الله في أرضه ليحكموا بحكمه.[1]

[الرد على المعتزلي]:

قال الشارح الخوئي: أقول: فيه أوّلاً: منع صحّة إطلاق حجّة الله وخليفته على غير الأنبياء والأوصياء، إذ العصمة منحصرة فيهم، فتختصّ الحُجّيّة والخلافة بهم لمكان العصمة التي فيهم، وأمّا غيرهم فليس بمعصوم بالاتّفاق، فلا يكون قوله وفِعله حجّة، وحجّيّة إجماع العلماء أيضاً باعتبار دخول قول المعصوم في جملة أقوالهم لا من حيث أنّ كلاً من العلماء من حيث إنّه عالم قوله حجّة.

وثانياً: على فرض التنزّل والتسليم لصحّة إطلاقه على غيرهم، إنّ أميرالمؤمنين عليه السلام ليس بمعتزليّ المذهب ولا صوفيّ المذاق ولا فلسفيّ المسلك، فلا يُحمل لفظ الحجّة والخليفة في كلامه عليه السلام على اصطلاحاتهم، وإنّما يُحمل على المعنى الغالب إرادته من هذه اللفظة في كلماتهم عليهم السلام، وغير خفيّ على المتتبّع لأحاديثهم وكثير الأُنس بأخبارهم أنّهم كثيراً ما يُطلقون لفظ الحُجج ويريدون به الأئمّة الاثني عشر، وقد يطلقونه ويريدون به سائر المعصومين من الأنبياء والأوصياء، ويطلقون لفظ الحجّة أيضاً أحياناً بالقرائن على العقل والقرآن، ولم نر إلى الآن أن يُطلق هذا اللفظ في كلامهم على العارف أو العالم غير المعصوم أو أحد الأبدال المصطلح في لسان الفلاسفة والمعتزلة والمتصوّفة.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ٩٨ - ٩٩.

وعلى ذلك فحيثما أطلق لفظ حجّة الله في كلامهم خالياً عن القرائن فلا بدّ من حمله على المعنى الكثير الدوران في ألسنتهم وهو الإمام، لأنّ الظنّ يلحق الشيء بالأعمّ الأغلب.

[الردّ على ابن ميثم]:

ومن هذا كلّه ظهر ما في كلام الشارح البحراني أيضاً، فإنّه بعد ما جعل قوله عليه السلام: «قد لبس للحكمة جنّتها» إشارة إلى العارف مطلقاً ونفى ظهور كونه إشارة إلى الامام المنتظر عليه السلام، قال في شرح هذا المقام: قوله عليه السلام: «بقيّة من بقايا حُججه» أي على خلقه إذ العلماء والعارفون حُجج الله في الارض على عباده، وظاهر كونه خليفة من خلفاء أنبيائه لقوله صلى الله عليه وآله: «العلماء ورثة الأنبياء».[1] انتهى.

ويرد عليه ـ مضافاً إلى ما مرّ ـ أنّ استدلاله على خلافة العلماء والعرفاء بقوله «ورثة الأنبياء» واستظهاره من ذلك كون المراد بالخليفة في كلام أميرالمؤمنين عليه السلام هؤلاء لا وجه له.

أمّا أولاً: فلأنّ الدليل أخصّ من الدعوى، لإفادته وراثة العلماء فقط دون العرفاء مع أنّ المدّعى أعمّ.

وثانياً: أنّ قوله صلى الله عليه وآله: «العلماء ورثة الأنبياء» لم يُرد به الوراثة الحقيقيّة قطعاً، وإنّما هو من باب التشبيه والمجاز، يعني أنّ علومهم انتقلت إليهم كما أنّ أموال المورث تنتقل إلى الوارث، فكانوا بمنزلة الورثة.

قال الشارح الخوئي: وعلى ذلك فأقول: إنّ وراثة العلماء للأنبياء وخلافتهم عنهم على سبيل المجاز والاستعارة، ووراثة الإمام المنتظر عليه السلام وخلافته على سبيل الحقيقة، فلا بدّ من حمل لفظ الخليفة في كلامه عليه السلام عليه

---

(١) الدعوات للراوندي: ٦٣؛ الكافي ١: ٣٢/ ح٢.

لا على العالم، لأنّ اللفظ إذا دار بين أن يُراد منه معناه الحقيقي ومعناه المجازي، فالأصل الحقيقة كما بُرهن في علم الأصول.

موضوع الإمام المنتظر عليه السلام:

قضيّة الإمام الثاني عشر في الحقيقة كثيراً ما تعلو عليها نبرات الاستهتار والاستنكار من سائر فرق المسلمين، بل ومن غيرهم على الإماميّة في الاعتقاد بوجود إمام غائب عن الأبصار وليس له أثر من الآثار، زاعمين أنّه رأي فائل وعقيدة سخيفة، والمعقول من إنكارهم يرجع إلى أمرين:

الأوّل: [استبعاد طول العمر]

استبعاد بقائه طول هذه المدّة التي تتجاوز الألف سنة، وهذا الاستغراب والاستبعاد لا يتأتّى من أرباب الأديان، لأنّهم جميعاً يقولون بأكثر من هذه المدّة في أعمار البشر، فالبراهمة والبوذائيّون يعتقدون في براهما وكرشنا ومهاديو وبوذا أنّهم أحياء مضت على حياتهم ألوف ألوف من السنين، والمجوس يعتقدون أنّ الطبقة الأُولى للبشر ـ وهم طبقة مهاباد ـ كانوا يعيشون ألوف الملايين من السنين، والطبقة الثانية ـ وهم طبقة جي إفراميان ـ كانوا يعيشون ملايين السنين، وهكذا سائر طبقات البشر منهم مثل «كلشاه» و«جمشيد» و«افراسياد» وهوشنك» و«مَنُوجَهَر» وأمثالهم يعيشون أُلوفاً من السنين، وذلك مذكور في كتبهم الدينية مثل كتاب «الدساتير» وكتاب «زند» وكتاب «بازند» وكتاب «أوستا» وغيرها.

واليهود والنصارى يعتقدون بالتوراة، وقد جاء في الأبواب الأُولى من سفرها الأول ـ وهو سفر التكوين (براشيت) ـ أنّ آدم وأخنوخ ومهلائيل ونوحاً وغيرهم عاشوا بين ستمائة سنة وألف سنة وأكثر، ويضيف النصارى إلى ذلك أنّ المسيح عليه السلام حيّ وقد مضت على ولادته ما يقرب من ألفي سنة، واليهود يعتقدون أنّ (الياهو) ـ وهو من أنبياء بني إسرائيل ـ دعا الناس إلى

التوراة ثمّ غاب خمسمائة سنة، ثمّ ظهر ودعا إليها، ثمّ غاب ولا يزال حيّاً، وقد مضى على عمره ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة.

وجميع أهل الأديان القديمة والحديثة معتقدون بأنّه سيظهر في آخر الزمان عند فساد العالم وانتشار الظلم والجور مَن يصلحه ويبدّل الظلم بالعدل والفساد بالصلاح، وإن اختلفوا في ذلك المصلح، فالبراهمة يسمّونه بهرام ـ وترجمة بهرام في العربية (محمد) ـ واليهود يسمّونه الياهو، والنصارى يقولون هو المسيح، وأنّه هو الذي يقتل الدجّال كما جاء في أواخر مكاشفات يوحنّا من كتب الإنجيل (العهد الجديد).

وأمّا المسلمون فلا مجال لهم إلى استبعاد هذا العمر الطويل بعد أن يقرأوا في سورة الصافّات قوله تعالى: ﴿فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِه إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1] فجوّز إمكان البقاء واللبث إلى يوم البعث، وقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مائَةٍ سِنِينَ وَازْدادُوا تِسْعاً﴾[2] فأخبر أنّ أصحاب الكهف عاشوا أكثر من ثلاثمائة سنة، وقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِه فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ﴾[3] فأخبر أنّ نوحاً عليه السلام دعا قومه ما يقرب من ألف سنة إلى زمن الطوفان، ولا بدّ أنّه عاش بعد الطوفان طويلاً، وكان قبل الدعوة كثيراً، والأخبار وردت أنّ عمره كان يزيد على ألفي سنة، فإمكان هذا العمر الطويل ووقوعه ثابت في القرآن، وتحتّمه لصاحب الزمان ثابت بقوله تعالى في سورة الصفّ، وفي سورة الفتح، وفي سورة التوبة: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه﴾[4] فلا بدّ من يوم يُظهر الله فيه دين الإسلام على جميع الأديان حتّى يدين به أهل العالم، وليس هو إلاّ اليوم الموعود الذي يظهر فيه الإمام الثاني عشر، وبقوله تعالى في أُخريات سورة النساء

---

(١) الصافات: ١٤٣ و١٤٤.

(٢) الكهف: ٢٥.

(٣) العنكبوت: ١٤.

(٤) التوبة: ٣٣؛ الفتح: ٢٨؛ الصف: ٩.

عن المسيح عليه السلام: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾[1] فأخبر أنّ جميع أهل الكتاب مؤمنون بالمسيح ولم يقع ذلك، وهو ما جاءت به الأحاديث الشريفة من أنّ المسيح يكون مع المهدي، وأنّ الأمم كلّهم يؤمنون بهما، وقد تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنّ المهدي سيظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً، وقد رواها جميع فرق المسلمين من الخاصّة والعامّة، وذكر ابن حجر وحده منها خمسين حديثاً، فكيف ينكر مسلم قرأ القرآن وتصفّح الأحاديث بقاءه وظهوره وأنّه هو الذي سيحكم الأرض كلها وبه يدين أهل العالم جميعهم بدين الإسلام، وهو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما مُلئت ظلماً وجوراً، حتّى ترعى الشاة إلى جنب الذئب فلا يصيبها منه أذى كما ورد في الأحاديث،[2] والعدل إذا بسط في العالم استراح الانسان والحيوان معاً ورغد عيشهما.

فهذه الأديان كلها تصرّح بإمكان العمر الطويل للبشر ووقوعه، وأهل الأديان جميعاً مُذعنون به ولا يتأتّى لهم أن يستبعدوه، ولم يبقَ إلاّ الطبيعيّون والماديّون الملحدون الذين ينكرون وجود الله وقدرته ولا يدينون بدين وإن استبعدوه فليس لنا هنا معهم كلام، لأنّا إنّما نتكلّم في هذا المقام بعد إثبات التوحيد وقدرة الله، وأنّه هو القاهر فوق عباده، القدير على كلّ شيء، الذي يفعل ما يشآء ويحكم ما يريد، ونحن إذا أثبتنا قدرة الله تعالى على كلّ شيء وأنّه إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون، لم نُبق مجالاً للاستبعاد المادي والطبيعي لهذا العمر الطويل بعد أن أثبتنا له قدرة الله وأنّه الفاعل لما يشآء كيف يشآء.

وقد اعترف أهل العلم في هذا العصر الذي حدث فيه التطوّر العلمي والصناعي بإمكان بقاء الانسان طويلاً، وتصدّى كثير من الأطباء والعلماء إلى ايجاد وسائل تُعيد الشيخ شاباً أو تمنع شيخوخة الشاب حتّى يعيش أُلوفاً من

---

(١) النساء: ١٥٩.

(٢) انظر معجم أحاديث المهدي ٥: ١٤٨ و٤١٨.

السنين، وقد أعدّت الدول جوائز كبيرة لمن يتوصّل إلى هذا الاختراع، فاعترف كلّهم علماً وعملاً بإمكان هذا الأمر بنفسه لطبيب مخترع، فكيف باللطيف الخبير الذي هو على كلّ شيء قدير.

الثاني: [عدم الحكمة في الوجود مع الغيبة]

السؤال عن الحكمة والمصلحة في بقائه مع غيبته، وهل وجوده مع عدم الانتفاع به إلاّ كعدمه؟ ولكن ليت شعري هل يريد أولئك القوم أن يصلوا إلى جميع الحكم الربّانيّة والمصالح الإلهيّة وأسرار التكوين والتشريع، ولا تزال جملة أحكام إلى اليوم مجهولة الحكمة: كتقبيل الحجر الأسود مع أنّه [في الظاهر] حجر لا يضرّ ولا ينفع، وفرض صلاة المغرب ثلاثاً والعشاء أربعاً والصبح اثنين، وهكذا إلى كثير من أمثالها.

[حكاية الشيخ محمد حسين الاصفهاني عن الإمام المهدي عليه السلام]:

حدّثني العلاّمة المرحوم الشيخ جعفر نقدي عن حجّة الإسلام الشيخ محمد حسين الاصفهاني قدس سره قال: كان رجل من أهل العلم والفضيلة اسمه الشيخ حسن، وكان أكثر اختصاصه بعلم الحساب والاصطرلاب، فخطر يوماً في ذهنه أن يجتمع مع الإمام المنتظر حجّة آل محمد عليه السلام ويسأله عن يوم خروجه، فأوّل ما وضع دائرة الحساب حسب فنّه على مكّة وحصر شوارعها وطرقها وأسواقها وبيوتها في الخانات الحسابيّة ورقّمها، ثمّ أخذ يتتبّع خانة خانة ودائرة دائرة حسب تخطيطه حتّى استقصى جميع مكّة فلم يجده في مكّة، فانتقل إلى المدينة فحصرها كما حصر مكّة في الدوائر الحسابيّة فلم يجده في المدينة، ثم انتقل إلى النجف وهكذا كربلاء والكاظميّة، فوجده في الكاظميّة، فحصرها ثمّ ضيّق الدوائر حتّى حصره في الجلوخانة ما بين بابي الصحن الشريف، وكان هذا المكان سابقاً تُباع فيه الخرّازيّة، فذهب يفتّش وينظر وجوه

الناس ليصل إلى الإمام، فوقف على حانوت خرّاز وعلى باب الحانوت رجل جالس وامرأة واقفة تعامل صاحب الحانوت على قفل فيسومه صاحب الحانوت مثلاً بخمسة وثلاثين فلساً وهي تقول له: لا أملك إلاّ أربعة وثلاثين فلساً، فقال لها صاحب الحانوت: يا أمة الله هو عليّ أربع وثلاثين وأنا أربح منه فلساً واحداً، حتّى طال الالحاح من المرأة، فالتفت الشيخ إلى صاحب الحانوت قائلاً: ما يضرّك لو دفعت لها القفل بما عندها وهي صادقة في قولها، فقال له صاحب الحانوت: ما أنت وذاك؟ أوما بلغك أنّه من حُسن إسلام المرء تَرْكُه ما لا يعنيه؟ فقال الرجل الجالس: صحيح إنّ هناك أناساً يريدون أن يتوصّلوا إلى سرّ ليس من شأنهم، فانزعج الشيخ ولم يلتفت إلى قول الرجل وأنّه هو مطلوبه والذي هو في صدره، فانصرف يفتّش عن غرضه إلى أن وصل إلى باب الصحن الثانية فذكر قول الرجل وأنّه هو مطلوبه والذي يسعى في أثره، وأنّ الرجل وقف على سرّه، فرجع مسرعاً فلم ير الرجل، فسأل عنه صاحب الحانوت فقال له: قام ومضى في سوق الاستربادي، فأسرع يفتّش عليه فلم يجده، فرجع إلى صاحب الحانوت مستفسراً عنه فقال: لا أعرفه، إلاّ أنّه أكثر من عشرين سنة يتردّد عليّ ولا أحبّ أن أسأله من هو خوفاً ألاّ يرضى، إلاّ أنّ هذا الرجل من نوادر الزمن، فقال: كيف ذاك؟ فقال: يظهر أنّه من الأثرياء، لأنّه يذكر لي أنّ له قصراً في مكّة وفي المدينة والنجف وكربلاء وسامرّاء وأعتقد أنّه صادق. ثمّ إنّه عالم لأنّه لم تعترض لي مسألة فقهيّة فأسأل عنها الحجّة الشيخ محمّد حسن آل ياسين فيُجيبني، فإذا جاءني هذا الرجل فيسألني: هل عرضت لك مسألة فقهيّة؟ فأقول: بلى فسألت عنها الشيخ محمد حسن آل ياسين فأجابني بكذا، فيقول: صحيح، دليلُها من القرآن فلان آية وآية كذا، فيذكر جملة من الآيات القرآنيّة، ومن السنّة كذا وكذا، فيذكر جملة من الأحاديث النبوية، ثم إنّه

طبيب حاذق، ما وَصف لي دواء إلاّ وعوفي مرضي من وقته وساعته بذلك الدواء. فقال الشيخ: أما تعرفه؟ قال: لا والله ولا أحبّ أن أسأله، فقال الشيخ: هذا صاحب الأمر المنتظر، فقال صاحب الحانوت: من الأسف أنّه لا يعود إليّ بعد هذا، وهكذا كان؛ انتهى ما علق بخاطري.

وبالتالي فقد استأثر الله سبحانه بعلم جملة أشياء لم يُطلع عليها ملكاً مقرّباً ولا نبيّاً مُرسَلاً: كعلم الساعة وأخواتها ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَا ذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1].

وأخفى جملة أمور لم يعلم على التحقيق وجه الحكمة في إخفائها: كالاسم الأعظم وليلة القدر وساعة الاستجابة. والغاية أنّه لا غرابة في أن يفعل سبحانه فعلاً أو يحكم حكماً مجهول الحكمة لنا، إنّما الكلام في وقوع ذلك وتحقّقه، فإذا صحّ إخبار النبيّ صلى الله عليه وآله وأوصيائه المعصومين عليهم السلام لم يكن بدّ من التسليم والاذعان ولا يلزمنا البحث عن حكمته وسببه.

والقول الفصل أنّه إذا قامت البراهين في مباحث الإمامة على وجوب وجود الإمام في كلّ عصر، وأنّ الأرض لا تخلو من حجّة، وأنّ وجوده لطف وتصرّفه لطف آخر فالسؤال عن الحكمة ساقط.

[كلام محي الدين العربي في حق الإمام المهدي عليه السلام]:

والأدلّة والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله مستفيضة متواترة لا يسعها المقام. ونكتفي هنا بعبارة الشيخ محي الدين العربي، فقد ذكر في الباب السادس والستين والثلاثمائة من كتابه _ الفتوحات المكّيّة _ وهو من كبار علماء السنّة وأحد أقطابها قال ما نصّه في وصف الإمام:

«واعلم أنّه لابدّ من خروج المهدي عليه السلام، لكن لا يخرج حتّى تمتلأ

---

(١) لقمان: ٣٤.

الأرض جوراً وظلماً فيملؤها قسطاً وعدلاً، ولو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يلي هذا الخليفة، وهو من عترة رسول الله صلى الله عليه وآله من ولد فاطمة عليها السلام، جدّه الحسين بن علي بن أبي طالب ووالده الحسن العسكري ابن الإمام علي النقي ـ بالنون ـ ابن الإمام محمد التقي ـ بالتاء ـ ابن الإمام علي الرضا ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين علي ابن الإمام الحسين ابن الإمام علي ابن أبي طالب عليهم السلام، يواطئ اسمه اسم رسول الله، يُبايعه المسلمون ما بين الركن والمقام، يشبه رسول الله في الخَلق وينزل عنه في الخُلق، إذ لا يكون أحد مثل رسول الله في أخلاقه والله تعالى يقول: ﴿إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.[1]

هو أجلى الجبهة، أقنى الأنف، أسعد الناس به أهل الكوفة، يقسم المال بالسويّة، ويعدل في الرعيّة، يأتيه الرجل فيقول: يا مهدي أعطني ـ وبين يديه المال ـ فيحثي له ما استطاع أن يحمله، يخرج على فترة من الدين، يزع الله به ما لا يزع بالقرآن، يُمسي الرجل [من أتباعه] جاهلاً وبخيلاً، فيصبح عالماً شجاعاً كريماً، يمشي النصر بين يديه، يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً، يقفو أثر رسول الله ولا يُخطئ، له مَلَك يُسدّده من حيث لا يراه، يحمل الكَلّ ويُعين الضعيف ويساعد على نوائب الحقّ، يفعل ما يقول ويقول ما يفعل ويعلم ما يشهد، ويُصلحه الله في ليلة[2] يفتح المدينة الرومية بالتكبير مع سبعين ألف من المسلمين من ولد إسحاق، يشهد الملحمة العظمى مأدبة الله بمرج عكاء، يُبيد

---

(١) القلم: ٤.

(٢) وفي رواية أخرى: يُصلح الله له أمره في ليلة. «قد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لبعض أصحابه: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإنّ موسى بن عمران عليه السلام خرج ليقتبس لأهله ناراً، فرجع إليهم وهو رسول نبيّ، فأصلح الله تبارك وتعالى أمر عبده ونبيّه موسى عليه السلام في ليلة، وهكذا يفعل الله تبارك وتعالى بالقائم.

الظلم وأهله ويقيم الدين وينفخ الروح في الإسلام، يُعزّ الله به الإسلام بعد ذلّه، ويُحييه بعد موته، يضع الجزية ويدعو إلى الله بالسيف، فمن أبى قتل، ومن نازعه خذل، يُظهر الدين على ما هو عليه في نفسه حتّى لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله حيّاً لحكم به، فلا يبقى في زمانه إلاّ الدين الخالص عن الرأي، يخالف في غالب أحكامه مذاهب العلماء فينقبضون منه لذلك لظنّهم أنّ الله تعالى لا يحدث بعد أئمتهم مجتهداً.

وأطال في ذلك وفي ذكر وقايعه معهم، ثمّ قال: واعلم أنّ المهدي إذا خرج يفرح به جميع المسلمين خاصّتهم وعامّتهم، وله رجال إلهيّون يُقيمون دعوته وينصرونه وهم الوزراء له يتحمّلون أثقال المملكة ويُعينونه على ما قلّده الله له، ينزل عليه عيسى ابن مريم عليه السلام بالمنارة البيضاء شرقيّ دمشق متّكئاً على مَلَكين ملك عن يمينه وملك عن شماله، وفي زمانه يُقتل السفياني عند شجرة بغوطة دمشق ويخسف بجيشه في البيداء، فمن كان مجبوراً من ذلك الجيش مكرهاً يُحشر على نيّته، وقد جاءكم زمانه وأظلّكم أو أنه، وقد ظهر في القرن الرابع اللاحق بالقرون الثلاثة الماضية قرن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو قرن الصحابة ثمّ الذي يليه ثمّ الذي يلي الثاني، ثمّ جاء بينها فترات وحدثت أمور وانتشرت أهواء وسُفكت دماء فاختفى إلى أن يجيء الوقت المعلوم، فشهداؤه خير الشهداء، وأُمناؤه خير الأمناء، وقد استوزر الله له طائفة خبأهم الحقّ له في مكنون غيبه أطلعهم كشفاً وشهوداً على الحقائق وما هو أمر الله عليه في عباده، وهم على إقدام رجال من الصحابة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهم من الأعاجم ليس فيهم عربي لكن لا يتكلّمون إلاّ بالعربية، لهم حافظ من غير جنسهم ما عصى الله قطّ هو أخصّ الوزراء به.

وبعد فصل صحيفة يقول: فإن قلت: فما صورة ما يحكم به المهدي إذا خرج، هل يحكم بالنصوص أو الاجتهاد أو بهما؟ فالجواب أنّه يحكم بما ألقى

إليه ملك الإلهام من الشريعة، وذلك أن يُلهمه الله الشرع المحمّدي فيحكم به، كما أشار إليه حديث النبي صلى الله عليه وآله أنّه يقفو أثري،[1] فعرّفنا صلى الله عليه وآله أنّه متّبع لا مُبتدع، وأنّه معصوم في حكمه، إذ لا معنى للمعصوم في الحكم إلاّ أنّه لا يُخطئ، وحكم رسول الله لا يخطئ، فإنّه لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يُوحى، وقد أخبر عن المهدي أنّه لا يخطئ، وجعله ملحقاً بالأنبياء في ذلك الحكم، قال الشيخ: فعلم أنّه يحرم على المهدي القياس مع وجود النصوص التي منحه الله إياها على لسان ملك الالهام، بل حرّم بعض المحقّقين على جميع أهل القِبلة القياس لكون رسول الله صلى الله عليه وآله مشهوداً لهم، فإذا شكّوا في صحّة حديث أو حكم رجعوا إليه في ذلك فأخبرهم بالأمر الحقّ يقظة ومشافهة، وصاحب هذا المشهد لا يحتاج إلى تقليد أحد من الأئمّة غير رسول الله صلى الله عليه وآله... إلى آخر مقالته ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[2] وأطال في ذلك.[3] انتهى.

وجاء هذا المقال أيضاً في كتاب (مشارق الأنوار) تأليف الشيخ حسن العدوي الحمزاوي ص ١١٢ طبقة ١٣٠٧ سنة هجرية بالمطبعة العثمانيّة بمصر، وذكر أيضاً في كتاب (اليواقيت والجواهر) لعبد الوهاب الشعراني في الجزء الثاني ص ١٤٣ طبعة سنة ١٣٢١ هجرية بالمطبعة الأزهرية بمصر.

* * *

(١) إسعاف الراغبين للصبّان: ١٤١.

(٢) يوسف: ١٠٨.

(٣) الفتوحات المكّيّةلابن عربي، الباب ٣٦٦ من المجلّد الثالث.

الشرح:

إنّ مدار هذه الخطبة الشريفة على فصلين:

الفصل الاول

[إيقاظ الغافلين]

في إيقاظ الغافلين وتنبيه الجاهلين من رقدة الغفلة والجهالة، وهو قوله عليه السلام: (أيّها الغافلون غير المغفول عنهم) الظاهر أنّ الخطاب لكلّ من اتّصف بالغفلة من المكلّفين، أي الذين غفلوا عمّا أُريد منهم من المعارف الحقّة والتكاليف الشرعيّة، ولم يُغفل عنهم وعمّا فعلوا، لكون أعمالهم مكتوبة محفوظة في اللوح المحفوظ وصحائف الأعمال، وكلّ ما فعلوه في الزُّبر وكلّ صغير وكبير مُستطَر.

(والتاركون) لما أُمروا به من الفرائض والواجبات، (المأخوذ منهم) ما اغترّوا به من الأهل والمال والزخارف والقينات، (ما لي أراكم عن الله ذاهبين) كناية عن إعراضهم عن الله سبحانه والتفاتهم إلى غيره تعالى، (وإلى غيره راغبين) إشارة إلى رغبتهم في زهرة الحياة الدنيا وإعجابهم بها.

(كأنّكم نَعَم أراح بها سائم إلى مرعى وبيّ ومشرب دويّ) شبّههم بأنعامٍ ذهب بها سائم إلى مرعى ومشرب وَصْفُهما ما ذكر، والمراد بالسائم حيوان يسوم ويرعى، وهو المستفاد من الشارح المعتزليّ حيث قال: شبّههم بالنعم التي تتبع نعماً أخرى سائمة أي راعية، وإنّما قال ذلك لأنّها إذا تبعت أمثالها كان أبلغ في ضرب المثل بجهلها من الإبل التي يسيمها راعيها.

وفسّره الشارح البحرانيّ بالراعي، أي الذي يراعي النعم ويحفظها ويواظب عليها، من الرعاية وهو المراعاة والملاحظة، قال: شبّههم بالنعم التي أراح بها راعيها إلى مرعى كثير الوباء والداء، ووجه الشبه أنّهم ـ لغفلتهم ـ كالنعم، ونفوسهم الأمّارة القائدة لهم إلى المعاصي كالراعي القائد إلى المرعى الوبي ولذّات الدنيا ومشتهياتها، وكون تلك

اللذّات والمشتهيات محل الآثام التي هي مظنّة الهلاك الأُخرويّ والداء الدويّ، يشبه المرعى الوبيّ والمشرب الدويّ.

(إنّما هي كالمعلوفة للمُدى) السكاكين (لا تعرف ماذا يُراد بها إذا أحسن إليها) أي تزعم وتظن أنّ العلف إحسان إليها على الحقيقة، ولا تعرف أنّ الغرض من ذلك هو الذبح والهلاك، (تحسب يومَها دهرَها) يعني أنّها لكثرة إعجابها لعلفها في يومها تظنّ أنّ دهرها مقصور على ذلك اليوم ليس لها وراءه يوم آخر، وقيل: معناه أنّها تظن أنّ ذلك العلف والاطعام كما هو حاصل لها ذلك اليوم يكون حاصلاً لها أبداً، (وشبعها أمرها) أي تظنّ انحصار أمرها وشأنها في الشبع، مع أنّ غرض صاحبها من إطعامها وإشباعها أمر آخر.

الفصل الثاني

[إشارة إلى مناقب علي عليه السلام]

في الاشارة إلى بعض مناقبه الجميلة ومقاماته الجليلة، وهو قوله عليه السلام: «واللهِ لو شئتُ أن أخبر كلّ رجلٍ منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلتُ» أي لو أشاء لأخبر كل واحد منكم بأنّه من أين خرج، وأين دخل، وكيفية خروجه وولوجه، وأُخبر بجميع شأنه وشغله من أفعاله وأقواله ومطعمه ومشربه وما أكله وما ادّخره في بيته وغير ذلك ممّا أضمروه في قلوبهم وأسرّوه في ضمائرهم، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿أُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.[1]

«ولكن أخاف أن تكفروا فيَّ برسول الله صلى الله عليه وآله»،[2] قال الشارح المعتزلي: أي أخاف عليكم الغلوّ في أمري وأن تفضّلوني على رسول الله صلى الله عليه وآله، بل أخاف عليكم أن تدّعوا فيّ الألوهية كما ادّعت النصارى ذلك في المسيح لمّا أخبرهم بالأمور الغايبة، ومع أنّه قد كتم ما علمه حذراً من أن يكفروا فيه برسول الله

(١) آل عمران: ٤٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٠.

ﷺ، فقد كفر كثير منهم وادّعوا فيه النبوّة، وادّعوا فيه أنّه شريك الرسول في الرسالة، وادّعوا فيه أنّه هو مكان الرسول ولكن الملك غلط فيه، وادّعوا أنّه الذي بعث محمداً إلى الناس، وادّعوا فيه الحلول، وادّعوا فيه الاتحاد، ولم يتركوا نوعاً من أنواع الضلالة فيه إلاّ وقالوه واعتقدوه. وقال شاعرهم فيه من أبيات:

ومن أهلك عاداً وثموداً بدواهيه ... ومن كلّم موسى فوق طور أو يناديه

ومن قال على المنبر يوماً وهو راقيه ... سلوني أيها الناس فحاروا في معانيه

وقال بعض شعرائهم أيضاً:

إنّما خالق الخلائق مَن ... زعزع أركان حصن خيبرٍ جَذْبا

قد رضينا به إماماً ومولى ... وسجدنا له إلهاً وربّا[1]

* * *

في ناس هذا العصر من إذا وقعت أبصارهم أو سمعت آذانهم بالإخبار عن المغيّبات طاف على ثغورهم شبح ابتسامة، ولاح في أعينهم بريق الهزء، وارتسمت معالم وجوههم بإمارات الاستنكار، ولم كلّ هذا؟! لأنّنا في هذا العصر الآليّ لا نستطيع ـ إذا أردنا أن نحترم أنفسنا وعقولنا ـ أن نؤمن بوجود إنسان يعلم الغيب، إنسان تنقشع من أمام عينيه حُجب القرون وتنطوي المسافات، فيقرأ المستقبل البعيد أو الخاطر المحجوب كما يقرأ في كتاب مفتوح، ويعي حوادثه كأنّها بنت الساعة التي هو فيها.

وطبيعة الثقافة المنحرفة التي يلقاها إنسان هذا العصر في كلّ مكان هي التي تدفع بهؤلاء إلى أن يقفوا هذا الموقف ويتّجهوا هذا المتّجه في إنكار كلّ دعوة تذهب إلى أنّ في الانسان شيئاً آخر وراء غدده وخلاياه. فهذه الثقافة تعتبر الانسان آلة دقيقة الصنع فقط، فلا شيء وراء الغدد والأعصاب يمكن أن يعتبر موجّهاً للنشاط الإنساني وباعثاً له.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٢ - ١٣.

وليس هؤلاء سوى طائفة من الناس تنظر إلى الإنسان من أحد جوانبه، وتبني أحكامها على ما ترى، غير حاسبة أن ثمّة غير هذا الجانب، وأنّ حكمها على الانسان قبل الاحاطة به من أقطاره ضرب في الخبط العشوائيّ الذي لا يليق بمن يدّعي العلم ويستهديه فيما يفعل أو يقول، وهؤلاء أشبه بمن يحكم بأنّ لون الهرم أحمر لمجرّد أنّه رأى ضلعاً واحداً من أضلاعه بهذا اللون قبل أن يرى بقية الأضلاع.

في حين أنّ العلم التجريبي نفسه يؤمن بأنّ هناك قوّة خفيّة مودعة بالانسان تصله بالمجهول المحجوب في أحشاء الزمان أو ثنايا المكان، وتلك القوة هي المعبّر عنها بالروح، فكلّما كان الانسان على حال رفيعة من الصفاء العقليّ والطهارة الروحيّة والنقاء الوجدانيّ، كانت هذه القوى أنشط وأبلغ في النفوذ إلى المغيّب المحجوب.

وقد اكتشف الباحثون في العصور الأخيرة أنّ في الإنسان ملكات نفسيّة خارقة أهمّها ثلاث: تناقل الأفكار، رؤية الأشياء من وراء حاجز أو عن بُعد، والتنبّؤ.

وإذا كانت هذه الظاهرة حقيقة واقعيّة، وكانت القوانين العلميّة الحديثة لا تأباها، فلا حرج علينا إذن أن ندرسها عند علي أمير المؤمنين عليه السلام كما تبدو لنا في نهج البلاغة وغيره.

قد دلّت الأبحاث الحديثة على أنّ كلّ إنسان يملك مقداراً من هذه القوة الخارقة التي تكشف له عما اضطمّت عليه أحشاء المستقبل، ولكنّ الناس إذا تساووا في نوع هذه القوّة فإنّهم يختلفون في مقدارها.

فقد ثبت أنّ هذه الحاسّة توجد عند بعض الناس بقوّة تثير الدهشة، بينما توجد في بعض آخر على حال من الضعف والوهن لا تكاد تبين معه، فما السبب في هذا التفاوت؟

لقد تبيّن للباحثين أنّ قوّة هذه الحاسّة تتناسب تناسباً طرديّاً مع درجة الصفاء الروحيّ والنقاء الداخليّ اللذين يتمتّع بهما الشخص، فكلّما كان الانسان

صافي النفس نقيّ الضمير، منعتقاً من أسر التقاليد الاجتماعيّة الضارّة، منفلتاً من قيد الضرورات وما إليها، خالي النفس من العُقد والأحقاد والمطامع، كانت هذه الحاسّة فيه قويّة بالغة القوّة، وكلّما كان الانسان مشوّش النفس، موزّع الضمير، مستغرقاً في حواسّه، أسيراً لضرورات جسده وشهواته، كانت هذه الحاسّة فيه ضامرة لا تكاد تبين، فهذه الحاسّة لا تنشط إلاّ في ساعات الصفاء العقليّ والروحيّ والوجدانيّ، فعند ذلك تبلغ أقصى قوّتها.

فإذا شئنا أن نبحث عن هذه الظاهرة في حياة الإمام علي عليه السلام طالعتنا فيه على أتّم وأكمل ما تكون، فلقد بلغ من الصفاء الروحيّ حدّاً لم يُدانِه فيه إنسان على الإطلاق، ولم يزد عليه فيه إلاّ النبي صلى الله عليه وآله، وتاريخ حياته عليه السلام سلسلة ذهبيّة من هذه الظواهر الرائعة الفاتنة.

وإذا صحّ أنّ تجرّداً وصفاء وقتيّين يقوم بهما إنسان عاديّ يتيحان له إطلاق قواه الخارقة، فما قولك فيمن كانت حياته كلها تجرّداً وصفاء لا يعدله في بني الإنسان صفاء؟

إنّ هذه الظاهرة التي تبدو لأعيننا في تاريخه عليه السلام لتدلّ أنّه عليه السلام كان يدخل في وسعه أن يُطلق قواه الخارقة متى أراد، وأن يعي ما غاب عنه في أحشاء الزمان وطوايا المكان متى شآء.

ويصدّق قولنا هذا ما أثبته المؤرّخون وتسالموا عليه من إخباراته بالمغيّبات، وصدق ما أخبر به ووقوعه بعده بأزمان.

لقد تحدّث الإمام عليه السلام عن علمه بالمغيّبات في مناسبات كثيرة منها قوله: «فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ وَلَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً وَتُضِلُّ مِائَةً إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا وَمُنَاخِ رِكَابِهَا وَمَحَطِّ رِحَالِهَا وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلًا وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً وَلَوْ قَدْ

فَقَدْ نُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ الْأُمُورِ وَحَوَازِبُ الْخُطُوبِ لَأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ». (ابن ابي الحديد مج ٢ ط ١ ص ١٧٤).

وقد ذكر عليه السلام أنّه استقى علمه هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد أتى في كلام له بعد أن هزم أصحاب الجمل في البصرة على ذكر بعض ما يلمّ بالبصرة من الخطوب، فذكر فتنة الزنج، وذكر التتر، فقال له بعض أصحابه: لقد أُعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب، فضحك الإمام وقال للرجل: «لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1] فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله فَعَلَّمَنِيهِ وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي». (ابن ابي الحديد مج ٢ ط ١ ص ٣٦١).

وقال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي وَلَا تَتَرَامَوْا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صلى الله عليه وآله مَا كَذَبَ الْمُبْلِغُ وَلَا جَهِلَ السَّامِعُ». (ابن ابي الحديد مج ٢ ط ١ ص ١٩٣).

قلنا: لقد أخبر عليه السلام عن البصرة وما يلمّ بها من الخطوب، وذلك بعد فراغه من أصحاب الجمل بقوله: «... وَايْمُ اللهِ لَتُغْرَقَنَّ بَلْدَتُكُمْ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَسْجِدِهَا كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ أَوْ نَعَامَةٍ جَاثِمَةٍ». وقد صدّقت الحوادث هذه النبوءة، فقد ذكر ابن أبي الحديد أنّ البصرة غرقت مرّتين مرّة في أيام القادر بالله، ومرّة في أيام القائم بأمر الله، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلاّ مسجدها الجامع بارزاً كجؤجؤ الطائر حسب ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام، وخربت دورها وغرق كلّ ما في ضمنها وهلك كثير من أهلها، وأخبار هذين الغرقين معروفة عند أهل البصرة يتناقله خلفهم عن سلفهم. (الحديدي مج ١ ط ١ ص ٨٤).

---

(١) لقمان: ٣٤.

وأخبر عليه السلام عن هلاك البصرة بالزنج، فقال مخاطباً الأحنف بن قيس بعد حرب الجمل: «يَا أَحْنَفُ كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلَا لَجَبٌ (أي صوت) وَلَا قَعْقَعَةُ لُجُمٍ وَلَا حَمْحَمَةُ خَيْلٍ يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ وَيُلٌ لِسَكَكِكُمُ الْعَامِرَةِ وَالدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الْفِيَلَةِ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ أَنَا كَأَنِّي بِالدُّنْيَا لِوَجْهِهَا وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا» (الحديدي مج ٢ ط ١ ص ٣١٠).

هذه النبوءة صدّقتها الحوادث، ففي سنة خمسة وخمسين ومائتين ظهر المدعوّ علي بن محمد بن عبد الرحيم، وجمع الزنوج وخرج على المهتدي العبّاسي، واستشرى أمره، وكاد يبيد البصرة ويُفني أهلها، واستمرّت الحرب بينه وبين السلطة المركزيّة خمسة عشر عاماً، إلى أن قُتل في سنة سبعين ومائتين. وقد كتب ابن أبي الحديد فصلاً كبيراً عن هذه النبوءة في المجلّد الثاني من كتابه شرح النهج ص ٣١٠ و ٣٦١.

ولا يفوتنا التنبيه على تنبّؤه عليه السلام في النصّ الآنف بما ستكون عليه حال البصرة من الناحية العمرانيّة.

وأخبر عليه السلام عن هلاك البصرة بالتتر فقال:

«كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْماً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّيبَاجَ وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ وَيَكُونَ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ» (الحديدي مج ٢ ط ١ ص ٣٦١) وهذه النبوءة تحقّقت بظهور التتار واكتساحهم للممالك حتّى وصلوا إلى العراق، فلقيت البصرة منهم أعظم البلاء وأشنعه، فقد تكدّست الجثث في الشوارع والأزقّة، وحلّ بالناس منهم خوف عظيم. وقد وقعت هذه الأحداث في زمن ابن أبي الحديد، فكتب عنها فصلاً كبيراً في المجلّد الثاني من كتابه «شرح النهج» ص ٣٦١.

وتنبّأ عليه السلام بما سيحلّ بالكوفة من الظالمين فقال:

«كَأَنِّي بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلَازِلِ وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إِلَّا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِشَاغِلٍ وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ».(١)

وقد صدّقت الحوادث نبوءته، فقد تعاقب على الكوفة سلسلة من ولاة الجور وأعوان الظلمة، أذاقوها المصاب، وساموها العذاب، فزياد بن أبيه، وعبيد الله بن زياد، والحجّاج بن يوسف، ويوسف بن عمرو الثقفيّ، والمغيرة بن شعبة، وخالد بن عبد الله القسري وأضرابهم، هؤلاء كلّهم أقاموا الحكم في الكوفة على ركام من الجماجم وأنهار من الدماء.

ورمى الله كلّ واحد منهم ببلاء: فمن ذلك أنّ زياد ابن أبيه جمع الناس في المسجد ليلعن علياً، فخرج الحاجب وقال: أيّها الناس انصرفوا فإنّ الامير مشغول عنكم وقد أصابه الفالج في هذه الساعة، وابنه عبيد الله وقد أصابه الجذام، والحجّاج بن يوسف وقد تولّدت الحيّات في بطنه حتّى مات، وعمر بن هبيرة وابنه يوسف وقد أصابهما البرص، وخالد القسريّ وقد حُبس فطوّلت مدّته حتّى مات في الحبس جوعاً.

وتنبّأ عليه السلام بتغلّب معاوية على الخلافة، وسيطرته على الكوفة، وأنّه سيأمر أهل الكوفة من الشيعة بسبّ الإمام والبراءة منه، فقال:

«أَمَا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ يَأْكُلُ مَا يَجِدُ وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ فَاقْتُلُوهُ وَلَنْ تَقْتُلُوهُ أَلَا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ وَلَكُمْ نَجَاةٌ وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلَا تَبْرَءُوا مِنِّي فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَ الْهِجْرَةِ».(٢)

هذه النبوءة تحقّقت بتمامها، فقد غلب معاوية بعد صلح الحسن عليه السلام وأمر الناس بسبّ الإمام عليه السلام والبراءة منه، وقتل طائفة من عظماء أصحابه لأنّهم ثبتوا على ولائه فلم يتبرّؤا منه، كحجر بن عديّ وأصحابه، وعمرو بن الحمق الخزاعيّ ونظرائه.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣: ١٩٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٥٤.

وتنبّأ عليه السلام بما سيصير إليه أمر الخوارج من بعده، فقال مخاطباً الخوارج:

«... أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا وَ سَيْفًا قَاطِعًا وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً».(١)

ولمّا قُتل الخوارج قيل له: هلك القوم بأجمعهم. قال: «كَلَّا وَاللَّهِ إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَّابِينَ».(٢)

وقد صحّت نبوءته، فلم يمضِ زمن طويل حتّى نجم أمرهم مرّة أخرى واستمرّت بينهم وبين السلطات المركزيّة المتعاقبة حروب طاحنة، وكانت نهايتهم أن صاروا قطّاع طرق ولصوصاً سلاّبين.

وتنبّأ بعدد من يُقتل من أصحابه، وبقدر من يبقى من الخوارج قبل أن يشتبك معهم في النهروان، فقال: «مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ ـ النهر ـ، وَاللَّهِ لَا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ وَلَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ» فلم يُقتل من أصحاب الإمام إلاّ ثمانية، ولم ينجُ من الخوارج إلاّ تسعة. (الحديدي مج ١ ط ١ ص ٤٢٤).

وتنبّأ عليه السلام بخلافة مروان بن الحكم وبما سيحلّ بالأمّة منه ومن أولاده، فقال: «أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ وَهُوَ أَبُو الْأَكْبُشِ الْأَرْبَعَةِ وَسَتَلْقَى الْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ».(٣)

وقد تمّ كلّ ما قال: فقد كانت إمرة مروان قصيرة جدّاً، إذ لم تزد على تسعة أشهر، وكان له من الأبناء أربعة: عبد الملك، عبد العزيز، بشر، محمد، ولي عبد الملك الخلافة، ملك عبد العزيز مصر، ولي محمد الجزيرة، ولي بشر العراق، وقد حلّ بالمسلمين منهم ظلم عظيم.

وتنبّأ عليه السلام عن ظلم بني أميّة فقال: «وَاللَّهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّى لَا يَدَعُوا لِلَّهِ مُحَرَّماً إِلَّا اسْتَحَلُّوهُ وَلَا عَقْداً إِلَّا حَلُّوهُ وَحَتَّى لَا يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَا بِهِ

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ١٢٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥: ٧٣.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ١٤٦.

سُوءُ رَعْيِهِمْ وَحَتَّى يَقُومَ الْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ». (الحديدي مج ٢ ط ١ ص ١٨٦).

ولا يجهل أحد مبلغ ما نزل بالناس من ظلم بني أميّة وانتهاكهم للحرمات واستهتارهم بالفضيلة، حتّى صار خلفاؤهم مثلاً في الظلم والفسق والتهتّك.

وتنبّأ عليه السلام بولاية الحجّاج وبما سيحلّ بالعراق من بلوائه، فقال: «أَمَا وَاللَّهِ لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ الْمَيَّالُ يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ إِيهٍ أَبَا وَذَحَةَ».(١)

وقال من تتمة خطبة أخرى تنبّأ فيها بولاية الحجّاج بن يوسف الثقفي، ويوسف بن عمرو الثقفي: «وَسَتَلِيكُمْ مِنْ بَعْدِي وُلَاةٌ يُعَذِّبُونَكُمْ بِالسِّيَاطِ وَالْحَدِيدِ، وَسَيَأْتِيكُمْ غِلْمَانُ ثَقِيفٍ أَخْفَشُ وَجعبوب، يَقْتُلَانِ وَيَظْلِمَانِ، وَقَلِيلٌ مَا يَمْكُثَانِ».

قال ابن أبي الحديد (مج ٢ ط ١ ص ١٣٣): «الأخفش ضعيف البصر خلقة، والجعبوب القصير الذميم، وهما الحجّاج بن يوسف، ويوسف بن عمرو الثقفي.

وفي كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج: قاتلك الله أخيفش العينين، أصكّ الجاعرتين.

ومن كلام الحسن البصري يذكر فيه الحجّاج: أتانا أخيفش أعَيمش يمدّ بيد قصيرة البنان، ما عرق فيها عنان في سبيل الله. وكان المثل يُضرب بقصر يوسف بن عمرو، وكان يغضب إذا قيل له قصير.

ذكر ابن أبي الحديد (مج ١ ص ٢٠٩) من كتابه «شرح النهج» عن الأعمش عن اسماعيل بن رجاء قال: قام أعشى باهلة ـ وهو غلام يومئذ حدث ـ إلى علي عليه السلام وهو يخطب ويذكر الملاحم فقال: يا أمير المؤمنين ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة، فقال علي عليه السلام: «إنْ كنتَ آثماً فيما قلت يا غلام،

---

(١) نفس المصدر ٧: ٢٧٧.

فرماك الله بغلام ثقيف، ثمّ سكت، فقام رجال فقالوا: ومن غلام ثقيف يا أمير المؤمنين؟ قال: غلام يملك بلدتكم هذه، لا يترك الله حرمة إلاّ انتهكها، يضرب عنق هذا الغلام بسيفه، فقالوا: كم يملك يا أمير المؤمنين؟ قال: عشرين إن بلغها. قالوا: فيُقتل قتلاً أم يموت موتاً؟ قال: بل يموت حتف أنفه بداء البطن، يثقب سريره لكثرة ما يخرج من جوفه» قال إسماعيل بن رجاء: فو الله لقد رأيت بعيني أعشى باهلة وقد أُحضر في جملة الأسرى الذين أُسروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بين يدي الحجّاج، فقرّعه ووبخّه واستنشده شعره الذي يحرّض فيه عبد الرحمن على الحرب، ثمّ ضرب عنقه في ذلك المجلس.

* * *

إنّ الشريف الرضي رحمه الله لم يذكر في «نهج البلاغة» كلّ ما صحّ عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من إخباره بالمغيّبات، ولكنّ ابن أبي الحديد قد سدّ هذا النقص حين أفاض في ذكر ما صحّ في هذا الباب. وممّا يحسن ذِكره هنا أنّ ابن أبي الحديد لم ينقل كلّما وقع إليه من إخبار الإمام عليه السلام بالمغيّبات، بل حقّق فيما وقع إليه من ذلك، فطرح المشتبه أمره وذكر ما صحّ عنه عليه السلام.

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج (مج ٢ ط ١ ص ٥٠٨) «... وقد وقفت له على خطب مختلفة فيها ذكر الملاحم، فوجدتُها تشتمل على ما يجوز أن يُنسب إليه وما لا يجوز أن يُنسب إليه، ووجدت في كثير منها اختلالاً ظاهراً، وهذه المواضع التي أنقلها ليست من تلك الخطب المضطربة، بل من كلام وجدته متفرّقاً في كتب مختلفة».

وعلّل ابن أبي الحديد هذه الظاهرة الفذّة في الامام بقوله:

«واعلم أنّه غير مستحيل أن تكون بعض الأنفس مختصّة بخاصيّة تدرك بها المغيّبات، ولكن لا يمكن أن تكون نفس تدرك كلّ المغيبات، لأنّ القوّة المتناهية لا تحيط بأمور غير متناهية، وكلّ قوّة في نفس حادثة فهي متناهية، فوجب أن يُحمل كلام

أمير المؤمنين عليه السلام لا على أن يريد به عموم العالميّة، بل يعلم أموراً محدودة من المغيّبات ممّا اقتضت حكمة الباري سبحانه أن يؤهّله لعلمه...».

ولابن أبي الحديد هذا نصّ طويل ذكر فيه طائفة كبيرة من إخبارات الإمام بالمغيّبات، نذكره لطرافته ولما له من الصلة ببحثنا هذا على أن نتبعه بذكر ما أهمل ابن أبي الحديد ذكره في هذا النصّ، وذكره في مناسبات أخرى.

[إخبار علي عليه السلام بالمغيبات]:

قال ابن أبي الحديد في المجلد الثاني ص ١٧٥ من كتابه شرح النهج:

«... وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام إدّعاء الربوبيّة ولا ادّعاء النبوّة، ولكنّه كان يقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك، ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقاً، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة، كإخباره عن الضربة التي يُضرب في رأسه فتخضب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين عليه السلام، وما قاله في كربلاء حيث مرّ بها. وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده. وإخباره عن الحجّاج وعن يوسف بن عمرو، وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان. وما قدّمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يُقتل منهم وصلب من يُصلب. وإخباره بعدّة الجيش الوارد إليه من الكوفة لمّا شخص إلى البصرة لحرب أهلها، وإخباره عن عبد الله بن الزبير، وقوله فيه: «خبّ ضبّ يروم أمراً ولا يدركه، ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا، وهو بَعْدُ مصلوب قريش».

وكإخباره عن هلاك البصرة بالغرق، وهلاكها تارة أخرى بالزنج، وكإخباره عن ظهور الرايات السود من خراسان، وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببني رزيق وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده إسحاق بن ابراهيم، وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية. وكإخباره عن الأئمة الذين ظهروا من ولده بطبرستان كالناصر والداعي وغيرهما في قوله: «وإنّ لآل

محمد بالطالقان لكنزاً سيظهره الله إذا شآء، دعاؤه حقّ حتى يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله». وكإخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة، وقوله: «إنّه يقتل عند أحجار الزيت». وقوله عن أخيه إبراهيم المقتول ببا خمرا: «يُقتل بعد أن يظهر، ويُقهر بعد أن يَقهر» وقوله فيه أيضاً: «يأتيه سهم غرب تكون فيه منيّته، فيابؤساً للرامي شلّت يده ووهن عضده» وكإخباره عن قتلى (وَج) وقوله فيهم: «هم خير أهل الارض»، وكإخباره عن المملكة العلوية بالمغرب، وتصريحه بذكر كتامة وهم الذين نصروا أبا عبد الله الداعي المعلّم. وكقوله وهو يشير إلى أبي عبد الله المهدي وهو أوّلهم: «ثمّ يظهر صاحب القيروان الغضّ البَضّ[1] ذو النسب المحض المنتخب من سلالة ذي البداء، المسجّى بالرداء». وكان عبد الله المهدي أبيضاً مترفاً مشرباً بحمرة رخص البدن تار الأطراف، وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمد عليهم السلام وهو المسجّى بالرداء، لأنّ أباه أبا عبد الله جعفر أسجاه بردائه لمّا مات وأدخل إليه وجوه الشيعة يشاهدونه ليعلموا موته وتزول عنهم الشبهة في أمره.

وكإخباره عن بني بويه وقوله فيهم: «ويخرج من ديلمان بنو الصيّاد» أشار إليهم وكان أبوهم صيّاد السمك يصيد منه بيده ما يتقوّت هو وعياله بثمنه، فأخرج الله تعالى من ولده لصُلبه ملوكاً ثلاثة، ونشر ذرّيتهم حتّى ضُربت الأمثال بملكهم، وكقوله فيهم: «ثمّ يستشري أمرهم حتّى يملكوا الزوراء ويخلعوا الخلفاء» فقال له قائل: فكم مدّتهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: ماءة أو تزيد قليلاً، وكقوله فيهم: «والمترف بن الأجذم يقتله ابنُ عمّه على دجلة» وهو إشارة إلى عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة أبي الحسن، وكان معزّ الدولة أقطع اليد قُطعت يده في الحرب، وكان ابنه عزّ الدولة بختيار مترفاً صاحب لهو وطرب، وقتله عضد الدولة فنا خسرو ابن عمه بقصر الجصّ على دجلة في الحرب وسلبه ملكه.

---

(١) وفي بعض المصادر «النضّ».

فأمّا خلعهم للخلفاء فإنّ معزّ الدولة خلع المستكفي ورتّب عوضه المطيع، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة خلع الطائع ورتّب عوضه القادر، وكانت مدّة مُلكهم كما أخبر به عليه السلام.

وكإخباره عليه السلام لعبد الله بن العبّاس عن انتقال الأمر إلى أولاده، فإنّ علي بن عبد الله بن العباس لمّا ولد أخرجه أبوه عبد الله إلى علي عليه السلام، فأخذه وتفل في فيه وحنّكه بتمرة قد لاكها، ودفعه إليه وقال: «خُذ إليك أبا الاملاك...».

وكم له عليه السلام من الإخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى ممّا لو أردنا استقصاءه لكرّسنا كراريس كثيرة، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة (شرح النهج مج ٢، ط ١، ص ١٧٥).

[مجموعة أخرى من المغيبات]:

ونأخذ الآن في ذكر ما أهمل بن أبي الحديد ذكره في النصّ السابق، وأتى على ذكره في مناسبات أخرى:

١ ـ لمّا شجرهم ـ أي الخوارج ـ علي عليه السلام بالرماح قال: اطلبوا ذا الثدية، فطلبوه طلباً شديداً حتّى وجدوه في وهدة من الأرض تحت ناس من القتلى، فأُتي به وإذا رجل على ثديه مثل سبلات السنّور، فكبّر علي وكبّر الناس معه.[1]

٢ ـ قال عليه السلام لمن قال له: أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر! بعد كلام: «وإنّ في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله». قال ابن أبي الحديد: وكان ابنه قاتل الحسين طفلاً يحبو، وهو سنان بن أنس النخعي لعنه الله.[2]

٣ ـ وخطب ذات يوم فقام رجل من تحت منبره فقال: يا أمير المؤمنين إنّي مررت بوادي القرى فوجدت خالد بن عرفطة قد مات فاستغفرت له. فقال

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٢٧٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٢٨٦.

عليه السلام: «والله ما مات ولا يموت حتّى يقود جيش ضلالة، صاحب لوائه حبيب بن حمّاد» فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال: يا أمير المؤمنين أنا حبيب بن حمّاد، وإنّي لك شيعة ومحبّ. فقال عليه السلام: أنت حبيب بن حماد؟ قال: نعم، فقال له ثانية: واللهِ إنّك لحبيب بن حمّاد؟ فقال: إي والله. قال: أما والله إنّك لحاملها، ولتحملنّها ولتدخلنّ بها من هذا الباب، وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة. قال ثابت _ وهو راوي الحديث _: فو الله ما مات حتّى رأيت ابن زياد وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن علي عليه السلام وجعل خالد بن عرفطة على مقدّمته، وحبيب بن حمّاد صاحب رايته، فدخل بها من باب الفيل. وفي المجلد ٤ من شرح النهج لابن ابي الحديد ص ١٧ اختلاف في الرواية.

٤ _ كان عليه السلام جالساً في مسجد الكوفة وبين يديه قوم منهم عمرو بن حريث إذ أقبلت إمرأة مختمرة لا تُعرف، فوقفت فقالت لعلي عليه السلام: يا من قتل الرجال وسفك الدماء وأيتم الصبيان وأرمل النساء. فقال علي عليه السلام: «وإنّها لهي هذه السلقلقة الجلعة المجعة، وإنّها لهي هذه الشبيهة بالرجال والنساء، التي ما رأت دماً قطّ» قال يزيد الأحمسي _ وهو راوية الحديث _: فولّت هاربة منكّسة رأسها، فتبعها عمرو بن حريث، فلمّا صارت بالرحبة قال لها: والله لقد سررتُ بما كان منك اليوم إلى هذا الرجل فادخلي منزلي حتّى أهب لك وأكسوك، فلمّا دخلت منزله أمر الجواري بتفتيشها وكشفها ونزع ثيابها لينظر صدقه فيما قاله عنها، فبكت وسألته أن لا يكشّفها وقالت: أنا والله _ كما قال _ لي ركب النساء وأنثيان كأنثيين الرجال، وما رأيت دماً قط، فتركها وأخرجها ورجع إلى مجلسه مع الامام عليه السلام فحدّث بذلك.[1]

٥ _ قال عليه السلام لعمرو بن الحمق الخزاعي في حديث: «يا عمرو إنّك

---

(١) نفس المصدر ٢: ٢٨٨.

لمقتول بعدي، وإنّ رأسك لمنقول، وهو أوّل رأس نُقل في الاسلام، والويل لقاتلك، أما إنّك لا تنزل بقوم إلاّ أسلموك برمّتك إلاّ هذا الحيّ من بني عمرو بن عامر من الأزد، فإنّهم لن يسلموك ولن يخذلوك» قال شمير بن سدير الازدي ـ وهو الراوي ـ: فو الله ما مضت الأيام حتى تنقّل عمرو بن الحمق في خلافة معاوية في بعض أحياء العرب خائفاً مذعوراً حتّى نزل في قومه من بني خزاعة، فأسلموه فقُتل وحُمل رأسه من العراق إلى معاوية بالشام، وهو أوّل رأس حُمل في الإسلام من بلد إلى بلد.[1]

[قصة عمرو بن الحمق الخزاعي]:

قال الخوئي في كتابه (شرح النهج): ما رواه صاحب مدينة المعاجز عن الخصيبي مسنداً عن أبي حمزة الثمالي، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله سريّة فقال: تصلون ساعة كذا وكذا من الليل أرضاً لا تهتدون فيها سيراً، فإذا وصلتم إليها فخُذوا ذات الشمال فإنّكم تمرّون برجل فاضل خيّر فتسترشدونه فيأبى أن يُرشدكم حتّى تأكلوا من طعامه، ويذبح لكم كبشاً فيُطعمكم، ثمّ يقوم معكم فيرشدكم على الطريق، فاقرءوه مني السلام وأعلموه أنّي قد ظهرت في المدينة.

فمضوا فلمّا وصلوا إلى الموضع في الوقت ضلّوا، فقال قائل منهم: ألم يقل لكم رسول الله صلى الله عليه وآله خُذوا ذات الشمال، ففعلوا فمرّوا بالرجل الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله، فاسترشدوه الطريق، فقال: إنّي لا أرشدكم حتّى تأكلوا من طعامي، فذبح لهم كبشاً، فأكلوا من طعامه وقام معهم فأرشدهم الطريق، فقال: أظهر النبي صلوات الله عليه وآله بالمدينة؟ فقالوا: نعم، فأبلغوه سلامه، فخلّف في شأنه من خلّف ومضى إلى رسول الله

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٢٩٠.

ﷺ وهو عمرو بن الحمق الخزاعي ابن الكاهن بن حبيب بن عمرو بن القين بن درّاج بن عمرو بن سعد بن كعب، فلبث معه ما شاء الله.

ثمّ قال له رسول الله ﷺ: ارجع إلى الموضع الذي هاجرت إليّ منه، فإذا نزل أخي أمير المؤمنين الكوفة وجعلها دار هجرته فأْتِه.

فانصرف عمرو بن الحمق إلى شأنه، حتّى إذا نزل أمير المؤمنين عليه السلام أتاه فأقام معه في الكوفة. فبينا أمير المؤمنين جالس وعمرو بين يديه فقال له: يا عمرو ألك دار؟ قال نعم، قال: بعها واجعلها في الأزد فإنّي غداً لو قد غبت عنكم لطُلبت فتتبعك الأزد حتّى تخرج من الكوفة متوجّهاً نحو الموصل، فتمرّ برجل نصرانيّ فتقعد عنده فتستسقيه الماء فيسقيكه ويسألك عن شأنك فتخبره، وستصادفه مقعداً فادعه إلى الإسلام فإنّه يُسلم، فإذا أسلم فامرر بيدك على ركبتيه فإنّه ينهض صحيحاً سليماً ويتبعك.

وتمرّ برجل محجوب جالس على الجادّة فتستسقيه الماء فيسقيك ويسألك عن قصّتك وما الذي أخافك وممّن تتوقّع، فحدّثه بأن معاوية طلبك ليقتلك ويُمثّل بك لايمانك بالله وبرسوله ﷺ وطاعتك لي وإخلاصك في ولايتي ونصحك لله تعالى في دينك، فادعه إلى الإسلام فإنّه يُسلم، فامرر يدك على عينيه فإنّه يرجع بصيراً بإذن الله فيتبعانك ويكونان معك، وهما اللذان يُواريان جثّتك في الارض.

ثمّ تصير إلى الديرعلى نهر يدعى بالدجلة فإنّ فيه صدّيقاً عنده من علم المسيح عليه السلام ما تجده لك أعون الأعوان على سرّك، وما ذاك إلاّ ليهديه الله، فإذا أحسّت بك شرطة ابن أم الحكم وهو خليفة معاوية بالجزيرة ويكون مسكنه بالموصل فاقصد إلى الصدّيق الذي في الدير في أعلى الموصل فناده فإنّه يمتنع عليك، فاذكر اسم الله الذي علّمتك إياه فإنّ الدير يتواضع لك حتّى تصير في ذروته، فإذا رآك ذلك الراهب الصديق قال لتلميذ معه: ليس هذا أوان المسيح، هذا شخص كريم، ومحمد قد توفّاه الله، ووصيّه قد استشهد بالكوفة وهذا من

حواريه، ثمّ يأتيك ذليلاً خاشعاً فيقول لك: أيّها الشخص العظيم قد أهّلتني لما لم استحقّه، فبم تأمرني! فتقول: استر تلميذيّ هذين عندك، وتشرف على ديرك هذا فانظر ماذا ترى؟ فإذا قال لك: إنّي أرى خيلاً غامرة نحونا، فخلّف تلميذيك عنده وانزل واركب فرسك واقصد نحو غار على شاطيء الدجلة تستتر فيه، فإنّه لا بدّ من أن يسترك، وفيه فسقة من الجنّ والانس، فإذا استترت فيه عرفك فاسق من مردة الجنّ يظهر لك بصورة تنين فينهشك نهشاً يبالغ في إضعافك، فينفر فرسك، فتبدر بك الخيل فيقولون: هذا فرس عمرو ويقفون أثره.

فإذا أحسست بهم دون الغار فابرز إليهم بين دجلة والجادّة، فقف لهم في تلك البقعة فإنّ الله جعلها حفرتك، فالقهم بسيفك فاقتُل منهم ما استطعت حتّى يأتيك أمر الله، فإذا غلبوك حزّوا رأسك وشهروه على قناة إلى معاوية، ورأسك أوّل رأس يُشهر في الإسلام من بلد إلى بلد.

ثمّ بكى أمير المؤمنين عليه السلام وقال: بنفسي ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وثمرة فؤاده وقرّة عينه ابني الحسين، فإنّي رأيته يسير وذراريه بعدك يا عمرو من كربلا بغربيّ الفرات إلى يزيد بن معاوية عليهما لعنة الله.

ثمّ ينزل صاحبك المحجوب والمقعد فيواريان جسدك في موضع مصرعك، وهو من الدير والموصل على مأة وخمسين خطوة من الدير.[1]

[دخول جويرية على علي عليه السلام]:

٦ ـ قال ابن ابي الحديد: دخل جويرية بن مسهر العبدي على علي عليه السلام يوماً وهو مضطجع وعنده قوم من أصحابه، فناداه جويرية: أيّها النائم استيقظ، فلتضربنّ على رأسك ضربة تُخضب بها لحيتك. قال حبّة العرني ـ وهو الراوي ـ فتبسّم أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «وأحدّثك باجويرية بأمرك، أما والذي

(١) مدينة المعاجز: ١٧٩ - ١٨٢/ ح ٨٢٠.

نفسي بيده لتأتينّ إلى العُتلّ الزنيم، فليقطعنّ يدك ورجلك، وليصلبنّك تحت جذع كافر» قال حبّة العرني: فوالله ما مضت الايام على ذلك حتّى أخذ ابن زياد جويرية فقطع يده ورجله وصلبه إلى جانب جذع ابن مكعبر، وكان جذعاً طويلاً فصلبه على جذع قصير إلى جانبه.[1]

[إخباره عليه السلام بصلب ميثم التمار]:

٧ ـ قال الامام عليه السلام لميثم التمّار بمحضر من خلق كثير من أصحابه، وفيهم الشاكّ والمخلص: «يا ميثم إنّك تؤخذ بعدي وتُصلب، فإذا كان اليوم الثاني ابتدر منخراك وفمك دماً حتّى تخضب لحيتك، فإذا كان اليوم الثالث طُعنت بحربة تقضي عليك، فانتظر ذلك، والموضع الذي تُصلب فيه على باب دار عمرو بن حريث، إنّك عاشر عشرة أقصرهم خشبة وأقربهم من المطهّرة ـ يعني الأرض ـ ولأرينّك النخلة التي تُصلب على جذعها، ثمّ أراه إيّاها بعد ذلك بيومين. وقد تحقّقت هذه النبوءة بحذافيرها كما ذكر ذلك ابن أبي الحديد في حديث طويل يضيق به المقام في المجلد ١، ص ٢١٠ من شرحه.

[قصة رشيد الهجري]:

٨ ـ روى إبراهيم بن العباس النهدي في سند ينتهي إلى زياد بن النضر الحارثي أنّه قال: كنت عند زياد وقد أُتي برُشيد الهجري وكان من خواصّ أصحاب علي عليه السلام، فقال له زياد: ما قال لك خليلك إنّا فاعلون بك؟ قال: تقطعون يدي ورجلي وتصلبونني، فقال زياد: أما والله لأكذّبنّ حديثه، خلّوا سبيله، فلمّا أراد أن يخرج قال: رُدّوه، لا نجد شيئاً أصلح ممّا قال لك صاحبك، إنّك لا تزال تبغي لنا سوء إن بقيتَ، اقطعوا يديه ورجليه، فقطعوا يديه ورجليه

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٢٩١.

وهو لا يتكلّم، فقال: اصلبوه خنقاً في عنقه، فقال رشيد: قد بقي لكم عندي شيء ما أراكم فعلتموه، فقال زياد: اقطعوا لسانه، فلمّا أخرجوا لسانه ليقطع، قال: نفّسوا عني أتكلّم كلمة واحدة، فنفّسوا عنه فقال: هذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين عليه السلام، أخبرني بقطع لساني. فقطعوا لسانه وصلبوه. (ابن ابي الحديد مج ١، ط ١، ص ٣١٠).

٩ ـ حدّث سعد بن وهب فقال في حديث: فأتيته ـ يعني علياً ـ في كربلاء، فوجدته يُشير بيده ويقول: «هنا ههنا، فقال له رجل: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ثقل لآل محمد ينزل ههنا، فويلٌ لهم منكم، وويلٌ لكم منهم. فقال له الرجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: ويلٌ لهم منكم تقتلونهم، وويلٌ لكم منهم يُدخلكم الله بقتلهم النار» (ابن ابي الحديد مج ١، ط ١، ص ٢٧٨).

١٠ ـ قال ابن ابي الحديد في المجلد الثاني من شرح النهج، ط ١، ص ٥٠٨: ومن عجيب ما وقفت عليه من ذلك قوله في الخطبة التي يذكر فيها الملاحم، وهو يشير إلى القرامطة: «ينتحلون لنا الحبّ والهوى، ويُضمرون لنا البُغض والقِلى، وآية ذلك قتلهم ورّاثنا وهجرهم أحداثنا» وصحّ ما أخبر به لأنّ القرامطة قتلت من آل أبي طالب خلقاً كثيرة وأسماؤهم مذكورة في كتاب مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الاصفهاني، ومر أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابي في جيشه بالغري والحائر فلم يعرج على واحد منهما ولا دخل ولا وقف. وفي هذه الخطبة قال عليه السلام وهو يشير إلى السارية التي كان يستند إليها في مسجد الكوفة: «كأنّي بالحجر الاسود منصوباً ههنا، ويحهم إنّ فضيلته ليست في نفسه بل في موضعه وأُسّه، يمكث ههنا برهة ثمّ هاهنا برهة ـ وأشار إلى البحرين ـ ثمّ يعود إلى مأواه وأمّ مثواه» ووقع الأمر في الحجر الاسود بموجب ما أخبر به عليه السلام.

[إخباره عليه السلام بمقتل الحسين عليه السلام بكربلاء]:

١١ ـ ذكر ابن ابي الحديد (مج ١ من شرح النهج ص ٢٧٨) عن أبي

عبيدة، عن هرثمة بن سليم قال: غزونا مع علي عليه السلام صفّين، فلمّا نزل كربلاء صلّى بنا، فلمّا سلّم رفع إليه من تربتها فشمّها ثمّ قال: «واها لك يا تربة، ليحشرنّ منك قوم يدخلون الجنّة بغير حساب» قال فلمّا رجع هرثمة من غزاته إلى امرأته جرداء بنت سمير ـ وكانت من شيعة علي ـ حدّثها فيما حدث، فقال لها: ألا أعجبك من صاحبك أبي حسن؟ قال: لمّا نزلنا كربلاء وقد أخذ حفنة من تربتها فشمّها وقال: واهاً لك أيتها التربة، ليحشرنّ منك قوم يدخلون الجنّة بغير حساب. وما علمه بالغيب؟! فقالت المرأة له: دعنا منك أيّها الرجل، فإنّ أمير المؤمنين لم يقل إلاّ حقّاً. قال: فلمّا بعث عبيد الله بن زياد البعث الذي بعثه إلى الحسين عليه السلام كنت في الخيل التي بعث إليه، فلمّا انتهيت إلى الحسين عليه السلام وأصحابه عرفت المنزل الذي نزلنا فيه مع علي والبقعة التي رفع إليه من تربتها والقول الذي قاله، فكرهت مسيري، فأقبلت على فرسي حتّى وقفت على الحسين فسلّمت عليه وحدّثته بالذي سمعت من أبيه في هذا المنزل، فقال الحسين عليه السلام: أمعنا أم علينا؟ فقلت: يا ابن رسول الله لا معك ولا عليك، تركت ولدي وعيالي بالكوفة وأخاف عليهم من ابن زياد. فقال الحسين عليه السلام: فولِّ هرباً حتّى لا ترى مقتلنا، فوالذي نفسُ حسينٍ بيده لا يرى اليوم مقتلنا أحد ثمّ لا يُعيننا إلاّ دخل النار. قال: فأقبلت في الأرض اشتدّ هرباً حتّى خفي عليَّ مقتلُهم.

إلى غير ذلك ممّا لا نطيل بروايته، وقد وضح و اتّضح ممّا أوردناه من الأخبار تصديق ما ذكره عليه السلام في هذه الخطبة من علمه بالغيب وأنّه يعلم أعمال الناس وأفعالهم، ويطّلع على ما أعلنوه وما أسرّوه، ويعرف مهلك من يهلك، ومنجى من ينجو، ويخبر من ذلك ما يتحمّل على من يتحمّل من خواصه وبطانته وشيعته، ومن رام الوقوف على أكثر ممّا ذكرناه هنا فليرجع إلى كتابنا (مسند الإمام علي) في باب إخباره بالملاحم.

* * *

من كلام له عليه السلام:

[ينهى عن التنجيم ويدعو إلى الاستعانة بالله]

قال لبعض أصحابه لمّا عزم على المسير إلى الخوارج، وقد قال له: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيتُ أن لا تظفر بمرادك، من طريق علم النجوم.

فقال عليه السلام: «أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ وَتَخَوَّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ وَاسْتَغْنَى عَنِ الِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ وَتَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُوَلِيَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ لِأَنَّكَ بِزَعْمِكَ أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ وَأَمِنَ الضَّرَّ، ثم أقبل عليه السلام على الناس، فقال: أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ وَالْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ».

(شرح النهج لابن ابي الحديد مج ٢، ص ٧١، ط الأولى).

* * *

قال الشارح الخوئي قدس سره: إن هذا الكلام قاله عليه السلام لمّا عزم على المسير إلى حرب الخوارج، فقال له بعض أصحابه ـ وهو عفيف بن قيس أخو الأشعث بن قيس الكندي الملعون رأس المنافقين ومثير الفتن في أيام خلافة أمير المؤمنين، ولا سيّما في وقعة صفّين.

وكيف كان فقال له عفيف: «يا أمير المؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك» الذي هو الغلبة على أهل النهر (من طريق علم

النجوم) فقال له عليه السلام على سبيل الاستفهام التقريري «أتزعم أنّك تهدي إلى الساعة التي مَن سار فيها صُرف عنه السوء» لسعود الساعة، «وتُخوّف من الساعة التي مَن سار فيها حاق به الضرّ» وأحاط به سوء الحال بملاحظة نحوس الساعة، «فمن صدّقك بهذا فقد كذّب القرآن» أي من صدّقك بدعواك العلم بالساعتين فقد كذّب كتاب الله، لأنّ الله تعالى يقول:

﴿وَما تَدْري نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً﴾[1] ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ﴾[2] ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ﴾.[3]

إلى غير ذلك ممّا أفاد انحصار العلوم الغيبيّة في الله سبحانه.

وقال العلاّمة المجلسي رحمه الله: ويمكن حمل الكلام على وجه آخر، وهو أنّ قول المنجّم بأنّ صرف السوء ونزول الضر تابع للساعة، سواء قال إنّ الأوضاع العلوية مؤثّرة تامة في السفليّات ولا يجوز تخلّف الآثار عنها، أو قال بأنّها علامات تدلّ على وقوع الحوادث حتماً، فهو مخالف لما ثبت من الدين من أنّه سبحانه يمحو ما يشاء ويثبت، وأنّه يقبض ويبسط ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولم يفرغ من الأمر، وهو تعالى كلّ يوم في شأن. والظاهر من أحوال المنجّمين السابقين وكلماتهم جلّهم ـ بل كلّهم ـ أنّهم لا يقولون بالتخلّف وقوعاً أو إمكاناً، فيكون تصديقهم مخالفاً لتصديق القرآن وما عُلم من الدين والايمان من هذا الوجه.

ولو كان منهم من يقول بجواز التخلّف ووقوعه بقدرة الله واختياره، وأنّه تزول نحوسة الساعة بالتوكّل و الدعاء والتوسّل والتصدّق، وينقلب السعد نحساً

---

(١) لقمان: ٣٤.

(٢) النمل: ٦٥.

(٣) الأنعام: ٥٩.

والنحس سعداً، وبأنّ الحوادث لا يعلم وقوعها إلاّ إذا علم أنّ الله سبحانه لم تتعلّق حكمته بتبديل أحكامها، كان كلامه عليه السلام مخصوصاً بمن لم يكن كذلك، فالمراد بقوله «صُرف عنه السوء وحاق به الضرّ» أي حتماً هذا.[1]

ولمّا نبّه على فساد زعم المنجم بكون تصديقه موجباً لتكذيب كلام الله سبحانه، نبّه على فساده ثانياً بقوله: (واستغنى) أي مصدّقُك ومتّبعك (عن الاستعانة بالله) تعالى (في نيل المحبوب ودفع المكروه) لأنّك إذا كنت عارفاً بالساعة السعد والساعة النحس وهادياً إليهما فيهتدي بك التابعون لك والمصدّقون بك، ويتراقبون سعد الساعات فينالون الخير والسعادة، ويتّقون نحسها فيسلمون من النحوسة والكراهة، فيلزم على ذلك استغناؤهم بك عن الله، وغناهم برأيك عن اللجأ إلى الله والفزع إليه سبحانه.

وأيضاً ينبغي في قولك للعامل بأمرك أن يُوليك الحمد دون ربّه، لأنّك _ بزعمك _ أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن فيها الضّر، فكنت أنت المنعم عليه بتلك النعمة، فلا بدّ أن تستحقّ الحمد والثناء بذلك، ولزم أن يكون حمده على تلك النعمة راجعاً إليك.[2]

(ثم) إنّه عليه السلام بعد التنبيه على فساد زعم المنجّم بالوجوه الثلاثة (أقبل على الناس) ونهاهم عن الأخذ بالنجوم وحذّرهم عن تعلّمها، فقال: «أيّها الناس إيّاكم وتعلّم النجوم».

---

(١) بحار الأنوار ٥٥: ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٢) ذكر الصفوري في نزهة المجالس ج٢ ص ٢٠٧ ط مطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٣٧م: دخل علي مدينة فوجد فيها منجّماً يدّعي معرفة الغيب وعنده خلق كثير، فقال له علي رضي الله عنه: أنت في ضيافتي، فأعطاه رغيفاً وأخذ علي رغيفاً، وقال: كلّ واحد منا يثرد رغيفه في هذا الطعام، ثم قال له: ميّز رغيفك من رغيفي، فقال: لا أعلم، فقال: رغيف ثردته بيدك عجزت عن معرفته، فكيف تدّعي الغيب، فقال: يا أمير المؤمنين أأنت تعرف رغيفك؟ قال: لا، ولكنّي أسأل الله إلهي أن يميزه، فارتفع رغيفه فأكل منه نحو ثلاثة آلاف رجل من أهل تلك المدينة.

[النهي عن تعلم النجوم]:

قال الشارح البحراني رحمه الله: الذي يلوح من سرّ نهي الحكمة النبويّة عن تعلّم النجوم أمران:

الأوّل: اشتغال متعلّمها بها، واعتماد كثير من الخلق السامعين لأحكامها فيما يرجون ويخافون عليه فيما يسنده إلى الكواكب والأوقات، والاشتغال بالفزع إليه وإلى ملاحظة الكواكب عن الفزع إلى الله والغفلة عن الرجوع إليه فيما بهم من الأحوال، وقد علمت أنّ ذلك يضادّ مطلوب الشارع، إذ كان غرضه ليس إلاّ دوام التفات الخلق إلى الله وتذكّرهم لمعبودهم بدوام حاجتهم إليه.

الثاني: أنّ الأحكام النجوميّة إخبارات عن أمور ستكون، وهي تشبه الاطّلاع على الأمور الغيبيّة، وأكثر الخلق من العوامّ والنساء والصبيان لا يميّزون بينها وبين علم الغيب والإخبار به، فكان تعلّم تلك الأحكام والحكم بها سبباً لضلال كثير من الخلق وموهناً لاعتقاداتهم في المعجزات أو الإخبار عن الكائنات منها، وكذلك في عظمة بارئهم، وتشكّكهم في عموم الآيات الدالّة على اختصاص علم الغيب بالله سبحانه، وكان هذان الوجهان هما المقتضيان لتحريم الكهانة والسحر والعزائم ونحوها.

وكيف كان، فلمّا نهى الناس عن تعلّم النجوم بالوجهين الذين عرفت استثنى عن ذلك قوله: «إلاّ ما يُهتدى به في برّ أو بحر» لعدم استلزام تلك الجهتين المذكورتين، وقد نصّت على جواز الاهتداء بها الآيات الكريمة مضافة إلى الأخبار الكثيرة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.[2]

قال الطبرسي: لأنّ من النجوم ما يكون بين يدي الانسان، ومنها ما يكون

---

(١) الأنعام: ٩٧.

(٢) النحل: ١٦.

خلفه، ومنها ما يكون عن يمينه، ومنها ما يكون عن يساره، ويُهتدى بها في الأسفار وفي البلاد وفي القبلة وأوقات الليل، وإلى الطرق في مسالك البراري والبحار.[١] وقيل: أراد الاهتداء به في القبلة. قال ابن عباس: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنه فقال: «الجدي علامة قِبلتكم، وبه تهتدون في برّكم وبحركم».[٢]

قال الشارح الخوئي رحمه الله: وهذه الرواية موافقة لما رواه الصدوق مرسلاً قال: قال رجل للصادق عليه السلام: «أنا أكون في السفر ولا أهتدي إلى القبلة بالليل. قال: أتعرف الكوكب الذي يقال له جدي؟ قلت: نعم. قال: اجعله على يمينك، وإذا كنت في طريق الحجّ فاجعله بين كتفيك».[٣]

وروى أيضاً محمد بن سنان عن أحدهما عليهما السلام قال: سألته عن القبلة قال: ضع الجدي في قفاك وصلِّ.[٤]

هذا ولا ينحصر جواز تعلّمها فيما ذُكر، بل ربّما يجوز التعلّم لما يترتّب عليها من الأحكام الشرعيّة المتعلّقة بها في أبواب العبادات والمعاملات، بل قد يجب لوجوب الحكم المترتّب عليها، فيجب معرفتها من باب المقدّمة مثلاً لوجوب معرفة الأوقات الخمسة للصلاة، ومعرفة الحول المضروبة للزكاة وإتيان الحجّ والعمرة في الأشهر المعلومات، وضبط عدد الحولين لرضاع الحاملات، وتعيين أيام العدّة للمتوفّى عنها زوجها وللحامل وسائر المطلّقات، والعلم بما ضرب للدَّين المؤجّل من الأوقات، كما أُشير إلى ذلك في غير واحدة من الآيات، قال تعالى:

﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾[٥] وقال: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ

(١) تفسير مجمع البيان ٤: ١٢٠.

(٢) تفسير مجمع البيان ٦: ١٤٦.

(٣) من لا يحضره الفقيه ١: ٢٨٠.

(٤) وسائل الشيعة ٤: ٣٠٦/ ح٥٢٢٣.

(٥) الاسراء: ٧٨.

مَواقيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[1] وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.[2]

وقوله عليه السلام: «فإنّها تدعو إلى الكهانة» تعليل للنهي عن النجوم.

والكِهانة بالكسر. قال في البحار: هي عمل يوجب طاعة بعض الجان له، بحيث يأتيه بالأخبار الغايبة، وهي قريبة من السحر، قيل قد كان في العرب كهنة كشقّ وسطيح وغيرهما، فمنهم من يزعم أنّ له تابعاً من الجن يلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنّه يعرف الأمور بمقدّمات وأسباب يستدّل بها على مواقعها من كلام ممّن يسأله أو فعله أو حاله، وهذا يخصّونه باسم العرّاف، كالذي يدّعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضالّة ونحوهما.

ودعوة معرفة النجوم إلى الكهانة إمّا لأنّه ينجرّ أمر النجم إلى الرغبة في تعلّم الكهانة والتكسّب به، أو ادّعاء ما يدّعيه الكاهن.

ثمّ إنّه شبّه المنجّم بالكاهن وقال: المنجّم كالكاهن، ووجه الشبه إمّا الاشتراك في الإخبار عن الغائبات أو في الكذب والإخبار بالظنّ والتخمين والاستناد إلى الامارات الضعيفة والمناسبات السخيفة، أو في العدول والانحراف عن سبيل الحقّ والتمسّك في نيل المطالب ودرك المأرب بأسباب خارجة عن حدود الشريعة وصدّهم عن التوسّل إلى الله بالدعاء والصدقة وسائر أصناف الطاعة، أو في البُعد عن الرحمة والمغفرة.

وتجري بعض هذه الوجوه في التشبيهين في قوله عليه السلام: «والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر» والمشبّه في التشبيهات أقوى.

[حقيقة السحر]:

والسحر ـ على ما قيل ـ كلام أو كتابة أو رُقية أو أقسام وعزائم ونحوها يحدث

---

(١) البقرة: ١٨٩.

(٢) يونس: ٥.

بسببها ضرر على الغير، ومنه عقد الرجل عن زوجته، وإلقاء البغضاء بين الناس، ومنه استخدام الملائكة والجن واستنزال الشياطين في كشف الغائبات وعلاج المصاب واستحضارهم وتلبسّهم ببدن صبيّ أو امرأة وكشف الغائبات على لسانه انتهى.[١]

والظاهر أنّه لا يختصّ بالضرر، بل ربّما يفعل لعباً أو لإبداء أمر غريب. وعن صاحب العين: السحر عمل يقرب إلى الشياطين، ومن السحر الأخذة التي تأخذ العين حتّى تظنّ أنّ الأمر كما ترى وليس الأمر كما ترى، فالسحر عمل خفيّ لخفاء سببه يصوّر الشيء بخلاف صورته ويقلبه من جنسه في الظاهر ولا يقلبه من جنسه في الحقيقة، ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿يُخَيَّلُ إليه مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى﴾.[٢]

قال الشيخ في محكيّ كلامه عن التبيان: قيل في معنى السحر أربعة أقوال:

أحدها: أنّه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة يخيّل إلى المسحور أنّها حقيقة.

والثاني: أنّه أخذ بالعين على وجه الحيلة.

والثالث: أنّه قلب الحيوان من صورة إلى صورة وإنشاء الأجسام على وجه الاختراع، فيمكن الساحر أن يقلب الانسان حماراً وينشئ أجساماً.

والرابع: أنّه ضرب من خدمة الجنّ. وأقرب الأقوال الأوّل، لأنّ كلّ شيء خرج عن العادة الجارية فإنّه سحر لا يجوز أن يأتي من الساحر، ومن جوّز شيئاً من هذا فقد كفر، لأنّه لا يمكن مع ذلك العلم بصحّة المعجزات الدالّة على النبوات، لأنّه أجاز مثله على جهة الحيلة والسحر، وفي الرياض والسحر عرّف تارة بما في الكتاب، قال تعالى:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.[٣] [٤]

---

(١) بحار الأنوار ٥٥: ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٢) طه: ٦٦.

(٣) البقرة: ١٠٢.

(٤) تفسير التبيان للطوسي ١: ٣٧٤.

وفي الاحتجاج: من أكبر السحر النميمة يفرّق بها بين المتحابّين، وتجلب العداوة بين المتصافيين.[١] قيل: ومنه استخدام الجنّ، وعرف بأنّه عمل يستفاد منه حصول ملكة نفسانيّة يقتدر بها على أفعال غريبة وأخرى لوجه يدخل فيه علم الطلسمات والنيرنجات وغير ذلك، وذلك أن يقال: هو استحداث الخوارق إمّا بمجرد التأثيرات النفسانيّة وهو السحر، أو بالاستعانة بالفلكيّات فقط وهو دعوة الكواكب، أو على تمزيج القوى السماويّة بالقوى الأرضيّة، وهو الطلسمات، أو على سبيل الاستعانة بالأرواح الساذجة، وهو العزائم، قيل: والكلّ حرام في شريعة الإسلام.

وظاهره إجماع المسلمين عليه، وهو الحجّة مضافاً إلى النصوص المستفيضة منها، ويدخل فيه النيرنجات على ما ورد في الساحر أنّ دم الساحر حلال، وأن تعلّم السحر آخر العهد بالله تعالى، وحدّه القتل ونحو ذلك، وظاهرها التحريم مطلقاً، وقد استُثني منه السحر للترقّي ودفع المتنبّي، وربّما وجب كفايةً.

وروي في العيون في تفسير آية ﴿هارُوتَ وَمارُوتَ﴾[٢] أنّه كان بعد نوح قد كثرت السحرة والمموّهون، فبعث الله ملكين إلى نبيّ ذلك الزمان بذكر ما يسحر به السحرة وذكر ما يبطل به سحرهم ويردّ به كيدهم، فتلقّاه النبي من الملكين وأدّاه إلى عباد الله بأمر الله أن يقفوا به على السحر وأن يُبطلوه، ونهاهم أن يسحروا به الناس،[٣] وربما خصّت روايات الحلّ بغير السحر كالقرآن والذكر والتعويذ ونحوها جمعاً، وهو أحوط.

ثمّ إنّه عليه السلام بعد تشبيه المنجم بالكاهن، والكاهن بالساحر، والساحر بالكافر، أشار بقوله: «والكافر في النار» إلى نتيجة الجميع وهو دخول النار، إمّا على وجه الخلود ـ كما في الكافر ـ أو لا كما في غيره.

---

(١) الاحتجاج ٢: ٨٢.

(٢) البقرة: ١٠٢.

(٣) عيون أخبار الرضا ٢: ٢٤١.

فصل ووصل

استعرض العلاّمة الشيخ محمد جواد مغنية في كتابه (علي والقرآن) قول الإمام عليه السلام: «الكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار».

ثمّ قال: «وكلّنا يعرف القصّة المشهورة: حين أراد السفر إلى بعض أسفاره، وقال له بعض أصحابه: إن سرتَ في هذا الوقت خشيتُ أن لا تظفر بمرادك. فأجابه الإمام: من صدّقك بهذا القول فقد كذّب القرآن».[1]

ورأى ذات يوم منجّماً فسأله مُنكراً: أتدري ما في بعض هذه الدابّة أذَكَرٌ أو أنثى؟! من صدّقك فقد كذّب القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَا ذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.[2]

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «المنجّم ملعون، والكاهن ملعون، والساحر ملعون».[3]

وقال علماء الإماميّة: «من صدّق منجّماً أو كاهناً فقد كفر بما أُنزل على محمّد صلى الله عليه وآله».[4]

وأطالوا الكلام في هذا الباب، فشدّدوا النكير على من سلك غير طريق الحقّ والعلم، واستعمل الغشّ والكذب والرياء والتدليس في معاملاته وأقواله وأفعاله، وعلّلوا ذلك بأنّه بدعة في الدين وإخلال في النظام وإفساد للأخلاق الإنسانيّة، وأجمعوا على أنّ من عمل بالسحر يُقتل إن كان مسلماً، ويؤدّب إن كان كافراً، والآن يتّجه هذا السؤال: إذا كان السحر والكهانة والإخبار بالغيب

---

(١) انظر: الاحتجاج ١: ٣٥٧؛ بحار الأنوار ٣٣: ٣٦٢.

(٢) لقمان: ٣٤.

(٣) الخصال للصدوق: ٢٩٧/ ح٦٧.

(٤) المكاسب للشيخ الأنصاري ١: ٢٠٥ نقلاً عن المعتبر.

محرّماً عند علي وشيعته، فكيف أخبر عليه السلام بحوادث تقع بعد زمانه؟ فمن الجائز من الوجهة المنطقيّة أن يحدّد العلماء وقت الكسوف والخسوف استناداً إلى قياساتهم لدورات الأرض، أمّا أن يتنبّأ متنبّئ بحدوث حريق في مكان معيّن بعد عشرات السنين، أو بقيام ثورة في بلد من البلدان، أو بأنّه سيخلق من صُلب فلان حاكماً أو عالماً، أمّا هذا التنبؤ وما إليه ممّا لا تناله الخبرة العلمية فمستحيل.

ويمكننا أن نستخرج الجواب عن هذا السؤال من الإمام عليه السلام: «من أفتى بغير علمٍ لعنته الأرضُ والسماء».[1] «لا تقل ما لا تعلم وإن قلّ ما تعلم».[2] «ما من حركة إلاّ وتحتاج إلى علم».[3] وما إلى ذلك، ولو جُمعت أقواله في هذا الباب لجاءت في كتاب.

وما كان الإمام لينهى عن خُلقٍ ويأتي مثله. إذن لا بدّ أن يكون إخباره عمّا يقع في المستقبل تعلّماً من ذي علم، كما أشرنا إليه في بحث الملاحم وإخباره بالمغيبات حين أجاب من قال له: لقد أُعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب؟! فقال عليه السلام: «ليس هو علم غيب، وإنّما تعلّمٌ من ذي علم».[4]

وذو العلم الذي عناه الإمام وأخذ عنه هو النبيّ بالذات، فكلّ ما أخبره به ممّا لا يمكن معرفته بالنهج العلميّ فقد تعلّمه عن الرسول صلى الله عليه وآله، وتلقّاه الرسول وحياً من الله عزّ وجلّ ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾[5] والرسول بدوره يُطلع من ارتضى من وليّ حسب ما تستدعيه المصلحة.

---

(١) المحاسن للبرقي ١: ٢٠٥/ ح٥٨ و٥٩؛ دعائم الإسلام ١: ٩٦.

(٢) وسائل الشيعة ١٥: ١٦٩/ ح٢٠٢٢٤، وفيه «لا تقل ما لا تعلم، بل لا تقل كلّ ما تعلم».

(٣) تحف العقول: ١٧١؛ مستدرك الوسائل ١٧: ٢٦٨، وفيهما «ما من حركة الاّ وأنت محتاج فيها إلى المعرفة».

(٤) نهج البلاغة ٢: ١٠؛ الصراط المستقيم للبياضي ١: ١٦٧.

(٥) الجن: ٢٧.

[إخبار النبي صلى الله عليه وآله بالمغيبات]:

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله بمغيّبات كثيرة تحقّق قسم منها قبل زماننا، وقسم تحقّق في هذا الزمان، فمن القسم الأول: قوله صلى الله عليه وآله أنّ المسلمين بعده يحكمون ويفتحون كنوز كسرى وقيصر،[1] وقوله لأم الفضل حين ولدت عبد الله بن العباس: «إذهبي بأبي الخلفاء»،[2] ومنها قوله لعلي عليه السلام: «ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»،[3] «وأنّه لا يموت حتّى تُخضب لحيته من هامته».[4]

[إخباره صلى الله عليه وآله لقيس بعدم مسّه بضرر]:

ومنها قوله صلى الله عليه وآله لقيس بن خرشة العبيسي وقد قال له: يا رسول الله أبايعك على ما جاء من الله وعلى أن أقول الحقّ. قال: يا قيس عسى إن مرّ بك الدهر أن يليك ولاة لا تستطيع أن تقول معهم الحقّ، فقال قيس: لا والله لا أبايعك على شيء إلاّ وفيتُ به، فقال له رسول الله: إذاً لا يضرّك شيء، وكان قيس يعيب زياداً وابنه عبيد الله بن زياد ومن بعده، فبلغ ذلك عبيد الله بن زياد فأرسل إليه فقال له: أنت الذي تفتري على الله وعلى رسوله؟ فقال: لا والله ولكن إن شئت أخبرتُك بمن يفتري على الله وعلى رسوله، قال: ومن هو؟ قال: مَن ترك العمل بكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله، قال: ومن ذلك؟ قال: أنت وأبوك ومن أمّركما، قال: وأنت الذي تزعم أنّك لا يضرّك بشر؟ قال: نعم. قال: لتعلمنّ اليوم أنّكّ كاذب، آتوني بصاحب العذاب، فمال قيس عند ذلك فمات. السيرة الحلبية مج٣ ص٣٢ ط _ ٢ مطبعة الأزهرية بمصر.

---

(١) الكافي ٨: ٢١٦/ ح٢٦٤؛ روضة الواعظين: ٨٦.

(٢) تاريخ بغداد ١: ٨٥؛ كنز العمّال ١١: ٧٠٥/ ح٣٣٤٣٢.

(٣) عوالي اللئالي ٤: ٨٧/ ح١٠٦؛ بحار الأنوار ١٨: ١٣٢.

(٤) الارشاد ١: ٣٢٢؛ الاحتجاج ١: ٢٢٩؛ مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٦.

[إشارته إلى عائشة بأنّها صاحبة الجمل]:

وتنبحها كلاب الحوأب جاء في السيرة الحلبية مج ٣، ص ٣٢٠ ط ٢، مطبعة الأزهرية بمصر:

«ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لزوجاته: أيتّكنّ تنبحها كلاب الحوأب؟ وأيتكنّ صاحبة الجمل الأدبب؟ يُقتل حولها قتلى كثير وتنجو بعد ما كادت، فكانت تلك عائشة، فإنّه لما قتل عثمان بن عفان كانت عائشة بمكّة، لأنها خرجت إلى مكّة وهو محاصر، وكلّمها مروان بن الحكم في عدم الخروج وقال لها: لا تخرجي يا أماه، فجاء إليها طلحة والزبير بعد أن بايعا علياً على كره، واستأذنا علياً ـ كرم الله وجهه ـ في العمرة، فأذن لهما فقدما مكّة، وخرجت بنو أمية من المدينة ولحقت بمكّة قبل المبايعة لعلي، فخرج مروان وغيره من أهل المدينة، وجاء إلى عائشة يعلى بن أمية وكان عاملاً لعثمان باليمن فلمّا بلغه حصار عثمان قدم لنصرته فسقط من على بعيره في أثناء الطريق فكُسر فخذه وبلغه قتل عثمان، فلا زالوا بعائشة حتى وافقت على الخروج إلى العراق في طلب دم عثمان، ودفع لها ذلك الجمل يعلى بن أمية، اشتراه بمائتي دينار، وأعان الزبير بأربعماءة ألف دينار وصار يقول: من خرج في طلب دم عثمان فعليَّ جهازه، فحمل سبعين رجلاً من قريش، وطلبت عائشة عبد الله بن عمر أن يكون معها: فقال: معاذ الله أن أدخل في الفتنة، ويقال أن طلحة والزبير دعوا عبد الله بن عمر إلى الخروج معهم فقال لهم: أما تخافون الله أيها القوم وتدعوا هذه الأباطيل عنكم، وكيف أضرب في وجه علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ بالسيف وقد عرفت فضله وسابقته ومكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنّكما بايعتماه وسألتماه القيام بهذا الأمر ثم نكثتما بعد أن جعل الله عليكما شهيداً، وإنه ما غيّر ولابدّل، والقاتل لعثمان أخو زعيمتكم ورئيستكم يعني عائشة وأخوها محمد بن أبي بكر، فلما كانت عائشة في أثناء الطريق سمعت

كلاب تنبح، فسألت عن ذلك المحل، فقيل لها: هذا الحوأب، فأرادت الرجوع لمّا تذكرت ما قال لها رسول الله، فصرخت وأناخت بعيرها وقالت: والله أنا صاحبة الحوأب، ردّوني ردّوني، فعند ذلك أحضر طلحة والزبير خمسين وشهدوا أن هذا ليس بماء الحوأب وأن المخبر لها كذاب. قال الشعبي وهي أوّل شهادة زور وردت في الإسلام، وبالتالي سارت معها ونشبت الحرب حتى قُتل بسببها من المسلمين عشرة آلاف، ويقال اثنا عشر ألفاً».

ومنها قوله لأبي ذر: «كيف بك إذا أخرجوك من مكانك هذا»[١] مشيراً إلى قصّته مع عثمان ونفيه إلى الربذة.

ومنها قوله يوم بدر لعمّه العبّاس: «أين المال الذي استودعته زوجتك أم الفضل؟»[٢] وكان العبّاس ادّعى أنّه لا مال عنده. ومنها قوله لابنته فاطمة عليها السلام: «إنّك أوّل أهلي لحاقاً بي»[٣] فكان كما قال صلى الله عليه وآله.

ومنها قوله لعمّار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية، وآخر زادك من الدنيا ضياح من لبن»[٤] فقتله معاوية يوم صفين بعد أن شرب اللبن.

ومنها إخباره عن قتل ذي الثديّة رئيس الخوارج،[٥] فقُتل يوم النهروان. ومنها قوله للزبير: «ستقاتل علياً وأنت ظالم له»[٦] فخرج عليه يوم الجمل. ومنها ما أخبر به صلى الله عليه وآله عن بني مروان إذا بلغوا ثلاثين رجلاً اتّخذوا مال الله بينهم دولاً، وعباده خولاً، ودينه دغلاً.[٧]

---

(١) الخرائج والجرائح ١: ٦٥؛ بحار الأنوار ١٨: ١١٢.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ٤٦.

(٣) بحار الأنوار ٤٣: ٣٧؛ تفسير ابن كثير ٤: ٦٠٠.

(٤) دعائم الإسلام ١: ٣٩٢؛ الخصال: ٢٧٥.

(٥) الخصال: ٥٧٤؛ أبواب السبعين؛ شرح الأخبار ٢: ٦٣.

(٦) الاحتجاج ١: ٢٣٨؛ مناقب آل أبي طالب ١: ٩٥.

(٧) سليم بن قيس: ٣٠٣؛ بحار الأنوار ٣٣: ١٥٢.

ومنها أن كسرى ملك الفُرس أرسل رسله ليأتوه بالنبي ﷺ حيّاً وميتاً، فلما وصلوا إليه أخبرهم بأن كسرى قتله ولده شيرويه[١]، فجاء الحديث موافقاً.

ومنها إخباره عن وقعة الحرّة.[٢]

ومنها قوله: «إنّ زيد بن صوحان أحد الصحابة سيسبق منه عضو إلى الجنّة،[٣] فقُطعت يده يوم نهاوند في سبيل الله..

ومنها إشاراته وتلويحاته المتكرّرة إلى ما حدث لأهل بيته من بعده.[٤] وما إلى هذه ممّا لا يُحصى عددها، وهي مذكورة في أبواب شتّى من كتب التفسير والحديث والتاريخ والسيرة.

ومن القسم الثاني _ أي المغيّبات التي تحقّقت في هذا العصر _ ما جاء عن النبي ﷺ في صحيح البخاري (الجزء التاسع صفحة ٧٣ طبعة محمد علي صبيح) قال ﷺ: «يوشك أن ينحسر الفرات عن كنز من الذهب». إشارة إلى البترول.

وفي الكتاب المذكور صفحة ٦١: «سيتقارب الزمان وينقص العمل» إشارة إلى سرعة المواصلات والاستغناء بالآلات الفنّية عن اليد العاملة.

وفي مسند أحمد (ج١٢ ص ١٧٣ طبعة سنة ٩٥٣) قال ﷺ: «تتقارب الأسواق وتتقارب الأزمان» ومن أبرز المظاهر في هذا العصر تصدير الانتاج إلى جميع الاسواق بأمد قصير.

وفي كتاب (مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيّد البرية) تأليف الشيخ أحمد الصدّيق الغماري:

روى أحمد بن حنبل في مسنده عن النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى

---

(١) بحار الأنوار ٢٠: ٣٩٠؛ تاريخ الطبري ٢: ٢٩٧.

(٢) بحار الأنوار ١٨: ١٢٥، قال ﷺ: يُقتل بهذه الحرّة خيار أمّتي بعد أصحابي.

(٣) الخرائج والجرائح ١: ٦٦/ ح١١٦؛ بحار الأنوار ١٨: ١١٢/ ح٨١

(٤) شرح الأخبار ٣: ٣٦٠؛ بحار الأنوار ٥١: ٨٣

تكلّم الرجل عذبة سوطه وشراك نعاله».[١] إشارة إلى الراديو الصغير وما إليه من آلات الالتقاط أو الارسال التي يحملها الانسان معه كما يحمل علبة الدخان.

وجاء في الكتاب المذكور: «يخرج قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر»[٢] وفي رواية ابن أبي الحديد (مج ٢، ط ١، ص ١٩٠ من شرح النهج). قال صلى الله عليه وآله: «يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحس الأرض البقر بألسنتها».

إشارة إلى أرباب الصحف المأجورة الذين يعيشون على الأكاذيب والشتائم. فالصحف اليوم عندنا _ ولعلّي قويّ العزم على لا أن أستثني واحدة منها _ تتهادى في الكذب، ويزعمون أنّ ذلك يستهوي القرّاء فيزداد البيع، هذه الصحافة التي يطلقون عليها لقب صحابة الجلالة، والمأخوذ من مفهومها توجيه الشعب وإصلاحه، ورعاية حقوقه وردّ مظالمه، هذه الصحافة ترى أنّ الكذب والتهويل والجعجعة الفارغة تعود على مهنتها بالنفع والتعزيز والرواج في الشعب.

الغرض وأعجب ما جاء عنه صلى الله عليه وآله قوله: «سيرى الناس أموراً يتفاقم شأنها في نفوسهم يتسائلون بينهم هل كان النبي صلى الله عليه وآله ذكر ذلك». رواه أحمد بن حنبل في كتاب المسند،[٣] وقد مضى على وفاة بن حنبل ١٣٣٨ عام، ولم يكتفِ النبي صلى الله عليه وآله بالإخبار عن البترول في بلاد العرب، بل أخبر أنّ الذين يستخرجونه ويصفّونه حتّى يصبح حاضراً صالحاً للاستعمال هم المستعمرون شرار الناس وأراذلهم، فقد جاء في مسند أحمد بن حنبل: «ستكون معادن يحضرها شرار الناس»[٤] وفي حديث آخر: أراذل الناس.[٥]

---

(١) مسند أحمد ٣: ٨٤.

(٢) مجمع الزوائد ٨: ١١٦ وقال: رواه أحمد والبزّار.

(٣) مسند أحمد ٥: ١٦.

(٤) مسند أحمد ٥: ٤٣٠.

(٥) مجمع الزوائد ٧: ٣٣١.

وفي كتاب ـ الشجرة المباركة ـ للشيخ علي اليزدي حديث طويل نقله عن تفسير علي بن إبراهيم القمي من علماء القرن الثالث الهجري، جاء فيه عن النبي صلى الله عليه وآله: «تتقارب الأسواق، ويظهر الربا، وتتعامل الناس بالغيبة والرشا، ويتفقّه أقوام لغير الله، ويكثر أولاد الزنا ويتغنّون بالقرآن».[1]

ولم يبق شيء من هذه إلاّ تحقّق في هذا العصر، ولكنّ الذي يبعث على الدهشة أكثر من أيّ شيء قوله صلى الله عليه وآله: «يتعامل الناس بالغَيبة» (بفتح الغين) وهو إخبار عمّا يجري الان بين التجّار، يُبرق تاجر في الشرق لآخر في الغرب، فتتمّ الصفقة دون أن يشاهد أحدهما الآخر، ودون أن يحصل بينهم السوء والأخذ والردّ. وفي الكتاب المذكور عن الإمام عليه السلام: «ستخرج الأرض بركاتها، وتؤكل ثمرة الصيف في الشتاء وبالعكس، وتحمل الشجرة في كلّ سنة مرّتين، ويزرع الرجل الحنطة والشعير فينتج الصاع مئة... وتكون السنة كالشهر، والشهر كالأسبوع، والأسبوع كاليوم، واليوم كالساعة».[2]

وإذا أخبر النبي صلى الله عليه وآله أصحابه بهذه المغيّبات فأولى أن يُطلع علياً على أمثالها ونظائرها، وأيّ إنسان أحقّ بعلم النبي صلى الله عليه وآله من علي عليه السلام وهو منه بمنزلة الرأس من الجسد كما جاء في الحديث.

إذن جميع إخباراته عليه السلام بالغيب تستند إلى الرسول وتنتهي إليه، وليس للإمام إلاّ الرواية، فمن أنكر عليه الإخبار بالغيب فإنّما يُنكر على الرسول من حيث يريد أو لا يريد.

ومن الطريف أنّ بعض من أنكر واستكثر أن يخبر الإمام عن الرسول يؤمن ويعتقد بأنّ شقّاً وسطيحاً كانا يخبران الناس بالغيب وبظهور النبي صلى الله عليه وآله قبل زمانه.

---

(١) تفسير القميّ ٢: ٣٠٣ - ٣٠٧.

(٢) انظر مستدرك الوسائل ١١: ٣٧٧ - ٣٧٨ / ح ١٣٣٠٤.

قال الرازي في كتابه الكبير عند تفسير آية ﴿عالِمُ الْغَيْبِ﴾[1] إنّه كان في بغداد كاهنة في عهد السلطان سنجر بن ملك شاه تُخبر بالغيب فيأتي على وفق كلامها، وأنّه رأى كباراً من المحقّقين في علم الكلام والحكمة يؤمنون بأقوالها، وإنّ (أبو البركات) بالغ في كتاب ـ المعتبر ـ في شرح حالها، إنّه قد تفحّص عنها ثلاثين سنة حتّى تيقّن أنّها كانت تخبر بالمغيبات خبراً مطابقاً. وروى هذه القصة أيضاً ابن أبي الحديد في شرح النهج (مج ١، ط ١، ص ٤٢٧).

إمرأة لا يُعرف لها أصل ولا حقيقة تقول الغيب فيصدّقها العلماء المحقّقون، بل حتّى الرازي المشكّك الكبير يقول: «ليس علم الغيب مختصّاً بالأولياء، بل قد يوجد في السحرة أيضاً». وبعد فأيّ غرابة أن يحدّث الإمام بالغيب عن النبي صلى الله عليه وآله عن الله سبحانه؟

رُبّ قائل يقول: بأنّ ما قدّمته من الأدلّة إنّما يقنع، أو يجب أن يقتنع به المسلم الذي يؤمن بالله ونزول الوحي على محمد، لأنّ كلّ ما ذكرته مبنيّ على أساس التسليم بالقرآن وأصول الاسلام، أمّا الذي لا يؤمن بالله أصلاً، أو يؤمن ولا يعترف بنبوّة محمد فلا تلزمه الحجّة، وبالتالي لا يجب عليه التصديق بشيء ممّا قلت. وأُجيب بأنّي لا أطلب ممّن يشكك بمغيبات الإمام أن يغيّر دينه وعقيدته كي يصدّق ما أقول، ولكنّي أخاطب عقله ووجدانه إذا كان على شيء من التمييز والانصاف، وأوجّه إليه هذا السؤال: إذا أخبرك مُخبرٌ بوقوع حادثة ما، وصَدَق قولُه مئة بالمئة، فبماذا تفسّر هذا الصدق، مع العلم بأنّ تلك الحادثة لا تمتّ إلى التبنّوات العلميّة وخبرة الانسان بسبب؟!

بماذا تفسّر المغيّبات التي نقلناها عن الرسول صلى الله عليه وآله وعن الإمام علي عليه السلام؟ وإلى أيّ شيء نسند قول الإمام علي: «إنّ في الطالقان كنوزاً ليست من

---

(١) الجن: ٢٧.

ذهب ولا فضّة»[1] إشارة إلى بترول ايران. نقل هذا القول عن الإمام أبو الغنائم الكوفي في كتاب (الفتن) وقد مضى على وفاته مئات السنين.

بماذا تفسّر قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام حفيد الإمام علي عليه السلام: «إنّه يأتي على الناس زمان يرى ويسمع مَن في المشرق من في المغرب، وكلّ قوم يسمعون الصوت بلغتهم، وإنّ العرب تخرج من سلطان الأجانب وتملك نفسها بنفسها، وحينئذٍ تخلع أعنّتها، وإنّه لا يبقى صنف من الناس إلاّ ويحكم الناس». ذكر ذلك المجلسي مج ١٣ من البحار ص ١٣٥ و ١٦٣ و ١٦٨. والشيخ الطوسي في كتابه (الغيبة)، والمفيد في الارشاد، وقد مضى على وفاتيهما ما يقرب من ألف سنة.

نطق الإمام بهذه الحقائق منذ ألف سنة ومئتي سنة. ودُوّنت في الكتب منذ ألف سنة وأكثر. وقد تحقّقت بكاملها، ونحن الآن نراها ونعيش معها، فنسمع أهل الغرب يخاطبون أهل الشرق بواسطة الراديو، ويوجّهون الإذاعات إلى كلّ قوم بلغتهم، وعمّا قريب نشاهد الأوروبيين والأمريكيين بالتلفزيون، بعد أن وضع العلماء التصميم لأن يكون البعيد فيه كالقريب تماماً كالراديو، وسادت الديمقراطيّة في أكثر الشعوب، وأجهزت على أرستقراطية الأنساب والأموال، وحكم الناس كلّ فئة من الناس من نكروما إلى كاسترو إلى كلّ جنس ولون، وما أوشك أن يسير العرب في طريق الاستقلال حتّى خلعوا اللجام وشتم بعضهم بعضاً، فكأنّ مصيبة الاستعمار كانت تجمع كلمتهم، فلمّا استقلّوا أوكادوا ألقى كلّ عربي بأسه على رأس أخيه.

هذه صورة طبق الأصل عبّر بها الإمام عليه السلام عمّا سيقع قبل عشرات الأجيال، ومحال أن يعلم بحدوثها قبل الأوان إلاّ علام الغيوب ومَن ارتضى من عباده الصالحين.

* * *

(١) عقد الدرر: ١٢٢، ب ٥.

من كلام له عليه السلام على منبر الكوفة:

[يدعو الناس للإستفادة من علمه]

«سَلوني قبل أن تفقدوني، فإنّي بطرق السماء أدرى منّي بطرق الأرض. سَلوني هذا سفط العلم و(أشار إلى صدره) وهذا لعاب رسول الله صلى الله عليه وآله.[1] إنّي انطويت على مكنون علمٍ لو بُحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة».[2]

* * *

يستكثر بعض الناس على الإمام علي عليه السلام أن يقول ذلك لما فيه من الأنانيّة والدعوى، وأنّ إنساناً على هذه الأرض الجامعة بين الخير والشرّ في بنيها منذ جبلّتها لا يقدم على ما يشعر بعصمته وكماله.

ولكنّهم إذا رجعوا إلى قول محمد معلّم علي هذا حيث يقول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».[3] وإذا رجعوا إلى قول هذا المعلّم: «من زهد في الدنيا علّمه الله بغير تعلّم»[4] ثمّ إذا وقفوا على قول الإمام علي: «إنّ في السماء مدناً كمدنكم هذه تربط بينها أعمدة من نور». في تفسير علي بن إبراهيم القمي من علماء القرن الثالث الهجري (مج ٢، ص ٢١٩ من الطبعة النجفية)، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ هذه النجوم التي في السماء مدائن

---

(١) الأمالي للصدوق: ٤٢٢/ ح ٥٦٠؛ الاختصاص للمفيد: ٢٣٥.

(٢) بحار الأنوار ٧٤: ٣٣٢، من خطبة له عليه السلام أوّلها «أيّها الناس شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة»؛ ولم أعثر على الخطبة التي أشار إليها المؤلّف قدس سره كاملة مجموعة في المصادر التي بين يديّ.

(٣) عيون أخبار الرضا ١: ٧١/ ح٢٩٨؛ أمالي الصدوق: ٤٢٥؛ ذخائر العقبى لمحبّ الدين الطبري: ٧٧.

(٤) انظر تحف العقول: ٦٠؛ بحار الأنوار ٧٤: ١٦٣.

مثل المدائن التي في الأرض، مربوطة كلّ مدينة بعمود من نور، طول ذلك العمود مسيرة مائتين وخمسين سنة».

أقول: لو رجع هذا المنكر إلى تلك الأقوال لأراح نفسه من عناء التفكير في إنكار هذا القول على الإمام، واستحالة صدوره من إنسان يبحث في السماء وهو على الأرض.

فهل حفظ التاريخ لنا أنّ سائلاً أفحم علياً بعد أن قال: «سلوني قبل أن تفقدوني» وعلى العكس يحفظ لنا التاريخ أنّ كثيراً من السائلين المتعنّتين كانوا يتحدّونه وهو على المنبر بأسئلة في العلوم والفنون التي لا تمتّ إلى الوعظ والارشاد وأحكام الدين بصلة، وكان علي يجمعهم بما يُذهلهم فيما وعوا، ويُخزيهم فيما أسّروا، ومن شآء الكشف عن ذلك فليرجع إلى شرح العلامة ابن أبي الحديد لنهج الإمام [الذي ألقاه] منذ ألف عام.

ولقد ترى اليوم في الصحف أبواباً خاصة في العلوم والفنون، ونرى فيها باباً للسؤال والجواب يختصّ به رجل كإحسان عبد القدّوس في (روز اليوسف)، وكأمينة السعيد في مجلّة الهلال، ونرى عنوان هذا الباب _ اسألوني _، فهل كان إحسان هذا وهو _ صاحب البدائع _... وأمينة هذه وهي _ أم المؤمنين _ هل كانا أحقّ بكلمة (اسألوني) من علي بن أبي طالب عليه السلام وهو وزير محمد وعضده ووصيّه من بعده؟

ويُمعن بعض العلماء في تأويل كلمة الإمام هذه على الشكل الذي يحفظ تواضعه كإنسان، وأنّ أيّ انسان يجرأ على الدعوى بأنّه بما في السماء أعلم منه بما في الأرض.

يقول هذا البعض: إنّ الإمام مع افتراض سموّه وعلوّ كعبه في العلوم لم يخرج عن كونه إنساناً، وإلاّ كنّا مُغالين في تقديره، والنبي صلى الله عليه وآله كان قد تنبّأ لذلك بقوله: «يا علي يهلك فيك إثنان: عدوّ قالٍ، ومحبّ غال»[1] وحمل الإمام

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد٥: ٤.

على الحقيقة في قوله: «إنّي بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض» يدعونا لأن نكون مغالين في تحديد شخصه.

أقول: يمعن هؤلاء بتأويل قول الإمام في أنّه إنّما أطلق العام وأراد به الخاص ـ وهو من مجاز اللغة في علم البيان ـ فقد أراد بطرق السماء الخطط التي يضعها الله في السماء لهدي عباده في الأرض. وهذه الخطط هي النواميس الدينيّة التي يتنزّل بها الروح الأمين على الأنبياء والرسل المصطفين لتبليغ الرسالة الإلهيّة في الخلق. ويريد الإمام وفقاً لذلك بقوله: «سلوني قبل أن تفقدوني» أن يكون السؤال في حدود هذه الخطط لا أنّها في شيء العلوم والفنون.

ذلك ما أراده هؤلاء المتأوّلون. وأراني جريئاً على أن لا أحسب حساباً لهذا التأويل، وإنّما يصحّ التمحّل في ذلك حرصاً على تنزيه الرجل الناقص من أمثالنا.

فأمّا الرجل الكامل من أمثال علي عليه السلام فلا يصحّ أن نتأوّل عليه ولا له، لأنّه ثبت عن طريق النقل كونه معصوماً بقول معلّمه محمد صلى الله عليه وآله: «عليّ مع الحقّ»[1] وعن طريق العقل من أنّ الرجل الكامل لا يتهافت في تفكير ولا عمل، وأنّ في وجود الإنسان حقّاً يهيمن عليه فيعصمه من هذا التهافت. فضلاً عن أنّ علياً عليه السلام كان أزهد الناس بدنياه، والرسول يقول: «من زهد في الدنيا علّمه الله بلا تعلّم».[2]

ومن هنا نسمع له إخباره بالمغيّبات كقوله لكميل بن زياد: «لو شئتُ أن أصيّر لكم من الماء نوراً لفعلت».

يقول الإمام هذا القول في وقت لم تعرف الكهربائيّة وكيفية استخدام الشلاّلات في تحريك الدينامو وإيجاد التيّار الكهربائي.

وقوله عليه السلام: «والذي بعث محمّداً بالحقّ، لولا خوفي من أن تكفروا بي فيه لأمليت عليكم علم ما كان وما يجيء، فو الله ما فارقته حتى مرّ على سمعي بكلّ شيء».

---

(١) الخصال للصدوق: ٤٩٦؛ أمالي الصدوق: ١٥٠/ ح١٤٦.

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ٢: ٦٠٦ / ح٨٧٢٥.

تلك هي آثار محمد وأهل بيته ماثلة أمامنا في أقوالهم وأعمالهم تبعث فينا أقوى الايمان بأنّ علمهم قائم على الحكمة الملهمة، لأنّه وحي يتنزّل به الروح الأمين على نبيّه من لدن حكيم خبير.

وللإمام علي عليه السلام شخصيّتان عبقريّتان: إحداهما إنسانيّة ترابيّة تضعف حتّى يستسلم لأوهن الأحداث، كانصياعه للتحكيم بالكره عنه يوم صفّين، وكانقياده موثوقاً يوم تهديد عمر داره بالإحراق، وثانيهما جبروتيّة سماويّة تقوى حتّى لا يصمد أمامها جبروت، كجندلته عمرو بن عبد ود يوم الأحزاب، ودكّه حصن خيبر، ثمّ اقتلاع باب الحصن وهو ما لا تطيقه قوّة إنسان.

فشخصيّته الأُولى هي الصلة بينه وبين البشر، وشخصيّته الثانية هي الصلة بينه وبين الملكوت الأعلى.

وللتدليل على هاتين الشخصيّتين وأنّهما رُكّبتا فيه، قوله لسائل سأله حين رآه يعجز عن كسر قرص يابس من الشعير بيديه، فاستعان على كسره بركبته، قال له السائل: كيف تضعف عن كسر القرص وأنت داحي باب خيبر؟ فقال له الإمام عليه السلام: «ثكلتك أمّك تلك قوّة الله، وأمّا هذه فهي قوّتي». (ابن أبي الحديد مج ١، ط ١، ص ٤٢٦).

وبالتالي يقول الإمام عليه السلام: «إنّ في السماء مُدناً كمدنكم هذه تربط بينها أعمدة من نور».

[الحياة في كوكب المريخ]:

يقول العلماء الفلكيّون في العصر الحاضر تأييداً لقول الإمام عليه السلام: «إنّه من الممكن أن يكون المرّيخ مسكوناً بمخلوقات وُهبت العقل والذكاء». وقد أيّدت هذه النظرية بعض الوقايع التي لوحظت خلال السنوات الثلاث الأخيرة. وأهم هذه الأدلّة هو بلا شكّ الانفجار الغامض الذي حدث في المريخ عام

١٩٤٩م، وقد لاحظ هذه الظاهرة فلكيّ ياباني مشهور اسمه (تسوينو ساهيكي) الذي لم ينقطع عن مراقبة المريخ من ١٩٣٣. ولذلك فإنّ لتقريره وزناً كبيراً، وقد أحدث الانفجار الذي حدث تحديداً في ٩ ديسمبر ١٩٤٩م ضوءاً ساطعاً خلال عدّة دقائق، تكوّنت على أثره سحابة مضيئة رماديّة تميل إلى الاصفرار بلغ ارتفاعها ٦٤ كيلومتراً، وقطرها ١١٢ كيلومتراً.

ويرى العالم المذكور أنّ هذا الانفجار قد حدث بواسطة مخلوقات على درجة هائلة من الذكاء، فأمّا أنّ سكّان المريخ هم الذين أحدثوه، وأمّا أنّ جنساً آخر جاء من كوكب آخر أمكنه أن يضع قدمه في المريخ.

وقد وردت الأنباء بأنّ الدكتور (ا.س.سليفر) العالم الفلكي الذي كان قائداً للبعثة التي أرسلتها الجمعية الجغرافيّة الأهلية بالولايات المتحدة في عام ١٩٥٤م لتصوير المريخ من جنوب إفريقيا، أعلن أنّه لم يبق هناك شكّ في أنّ المناطق المعتمة فوق سطح المريخ هي نبات حيّ. ويؤخذ من بيان الجمعية الأهلية أنّ العلامة الجديدة المعتمة _ والتي تشغل مساحة قدرها ٢٠٠ الف ميل مربّع _ لم تكن منتظرة وأنّها ليست ثابتة، ممّا يدلّ على أنّ الفاصل بين الصحراء والمناطق المعتمة متغيّر. كما أعلنت أنّ هذا الكشف يؤيّد الاعتقاد أنّ المريخ كوكب غير ميّت، وأنّ الظلمة المخيّمة على بعض أجزائه مرجعها نموّ حياة آتية فيه، وأنّ واقع الدراسة أثبت أنّ معالم المريخ تشهد بأنّه كوكب حيّ فيه نوع ما من الحياة.

يقول العلماء الذين تابعوا دراسة المريخ: إنّ ما به من ماء يبلغ نحواً من خُمس اليابس، وإنّ قُطبيه مغطّيان بطبقة من الثلج والجليد. وقد ظهرت على وجه المريخ خطوط مستوية منتظمة، عُرف أنّها قنوات رئيسيّة لتوزيع المياه، عندما شوهد تغيّر أماكنها سنة بعد أخرى.

وقد أعلن أنّه قد أنشيء في المريخ أخيراً جسر طويل طوله مئات الكيلو مترات، كما لوحظ تغيير لون مساحات شاسعة فيه من اللون الأخضر إلى

الابيض إلى البنّي القاتم، وفي ٥ مارس ١٩٥٧ أعلنت الهيئات العلمية السوفيتية أنّه قد تحقّق وجود نباتات بالمريخ. وما دام الماء والنبات وُجدا فإنّ ذلك دليل على وجود الكائن الحيّ كائناً من كان. وإذا كان المريخ به أحياء، أليس ذلك دليلاً على وجود الأحياء في الكواكب التي في محيطه، إذ تُشابهه في كافّة الظروف المكيفة للحياة؟

[أصدقاء عالم الفضاء]:

وممّا أُذيع في ١٥ يناير ١٩٥٧م أنّه قد تكونت جمعية في مدريد تضمّ مائة عضو، تطلق على نفسها اسم جمعية (أصدقاء الزائرين في عالم الفضاء) وذلك لدراسة الظواهر غير العاديّة التي تؤكد بأنّ الأرض يزورها رجال من الفضاء، أو على الأقل من كواكب أخرى.

ويجتمع هؤلاء الأعضاء كلّ أسبوع في مدريد، وممّا يستندون إليه من أدلّة على زيارة الأرض لرجال من العالم المجهول ما يحتفظون به من حجر يؤكّدون أنّهم أخذوه من قائد طبق طائر تحت شجرة بحديقة جامعة مدريد في الساعة الثانية من صباح أحد أيّام شهر نوفمبر ١٩٥٤. وهذا الحجر كان في البدايةورديّ اللون، ثمّ تحوّل لونه إلى الأخضرار ثمّ إلى الاصفرار. وهو ملحيّ المذاق وقابل للاحتراق، وعلى سطحه رسوم كالكتابة الهيروغليفية، وقد أُرسلت قطعة من هذا الحجر إلى معلّمين جيولوجيين في أسبانيا، وإلى معهد علمي في نيويورك، ولكنّهما لم تستطيعا تحليله لافتقارهما إلى الأجهزة اللازمة التي تستطيع بها أداء هذا التحليل.

وقد صرّح الأميرال (بلمر فاهرناي) المشرف على توجيه الطائرات والقذائف الموجّهة، والمرشّح للعمل بمكتب الملاحة الجويّة في شؤون القذائف الموجّهة بامريكا، في حديث له في ١٧ يناير ١٩٥٧ بأنّه شاهد أجساماً

طائرة مجهولة يبدو أنّها موجّهة بفعل كائنات مفكّرة تخترق طبقات الجوّ، وأنّ هذه الاجسام تطير بسرعة مذهلة لا يمكن للعقل البشريّ أن يتصوّرها.

وقد جاء في تقرير نشر في ١١ مارس ١٩٥٧ لأحد طيّاري شركة (بان أمريكان) أنّ جسماً غريباً اعترض طائرته وهي في منتصف الطريق بين نيويورك وسان جون، وقال الطيّار: إنّ هذا الجسم واجه الطائرة بطريقة مباشرة، وأنّه اجتاز فترة عصيبة حتّى يتعدّاه. وقد أمضى ركّاب الطائرة مدّة من الوقت في المستشفى من أثر الصدمة والانفعال اللذين تسبّبا عن مجاورة الطيّارة للجسم الغريب.

وصرّح متحدّث رسمي أنّ طائرات أخرى تعرّضت لأكثر من جسم، ولم يمكن تحديد ماهيّة هذا الجسم.

أليس كلّ هذا تلميحاً ـ إن لم يكن تصريحاً ـ لما يقوله الامام علي عليه السلام من أربعة عشر قرناً: بأنّ في السماء مدناً كمدنكم هذه تربط بعضها ببعض أعمدة من نور.

وفي منتصف ١٩٥٧ أذيع أنّ رجال البوليس الفرنسي قد وجدوا في شمال فرنسا كتلاً من مادة تشبه المادة البركانيّة السوداء، وأنّها كانت نهاية آثار واضحة في الطريق. وقال القرويّون في هذه المنطقة أنّها نتيجة مرور طبق طائر نزل إلى الأرض في الليلة السابقة وعليه أربعة أشياء متحرّكة. وأفضى (ميشيل سيكيت) إلى رجال التحقيق بأنّه كان متّجهاً إلى داره بعد منتصف الليل حين بهرت عينيه قذيفة غريبة، فاختبأ وراء أحد أعمدة أسلاك البرق، فرأى طبقاً طائراً يهبط ومحرّكاته تزمجر وأضواء غريبة تشعّ، خلفها مخلوقات صغار الأجسام غير واضحي المعالم، فصاح ميشيل واتّجه بكلّ سرعته صوب محطّة السكّة، وقرّر خفير المحطّة وزوجته أنّهم انتبهوا على صوت صراخ ميشيل وخرجوا من المبنى ليروا الطبق الطائر والمخلوقات الصغيرة... وفي لحظة خاطفة اختفى الطبق ومن فيه.

وهناك حوادث تعدّدت وأصبحت عشرات في كافّة البلاد، كلّها تلتقي عند وجود أشياء غامضة لم يمكن تفسيرها. ويستند الفلكيّون في قرارهم بوجود حياة وأحياء في المريخ على أنّ ظروفه الجويّة تقارب ظروف الارض.

فكلّ مقوّمات الحياة التي نعرفها على الأرض ومستلزماتها متوافرة في المريخ، بل في الكواكب التي تقع على بُعد مقارب من بعد الأرض. أمّا الكواكب التي تقرب من الشمس أو تبعد عنها فقد قال الفلكيّون: إنّها كواكب ميّتة لأنّ الظروف التي يمكن العيش معها لا تتوافر فيها.

واهتمام العلماء في هذه الناحية إنّما ينصبّ على الحياة التي نألفها على وجه الأرض، فهل يمكن أن توجد حياة في ظروف تغاير ظروف الارض؟

إنّ الانسان يعلم بتجاربه على نفسه أنّه لا بدّ للحياة من وجود الهواء، وأن تكون درجة حرارة الجو المحيط به بما يتناسب ودرجة حرارته التي تبلغ ٣٧ درجة مئويّة، فما بالنا بالسمك؟ إنّه يعيش في الماء ولو خرج إلى الهواء لمات.

وحيوانات المناطق المتجمدة لو انتقلت إلى الحرارة العالية في منطقة خطّ الاستواء لماتت. ألا يمكن أن يكون هناك ـ قياساً على ذلك ـ حياة بلا هواء ـ مثلاً ـ لأحياء يسكنون في الكواكب التي ثبت أنّ جوّها خالٍ من الهواء. وإذا كانت درجة حرارة الكائن الحي مثلاً ١٠٠٠ درجة مئوية، ألا يمكنه بذلك أن يعيش في كواكب تقرب من الشمس. ولماذا نتخيّل أنّ الكائنات الحيّة في الكواكب ستكون ذات أنف وأذن وفم ويد وقدم. إنّ الكائن تتلائم أعضاؤه مع حاجاته المعيشيّة، فقد يكون العيش في الكواكب لا يحتاج إلى سمع... أوهواء... أو غذاء عن طريق الفم. فلا توجد الأعضاء الخاصة بهذه الحواس، أو لماذا لا يوجد الكائن أو ينقسم مثلاً... ويكون نموّ خلاياه وانقسامها عن عنصر معيّن يوجد في جوّ الكوكب. هذا إن كان الكائن الحيّ يتكاثر بانقسام خلاياه...

أو حتّى إن كان له خلايا... فلا بدّ أن تكون الكائنات في الكواكب على شكل يتناسب وظروف المعيشة، وبأعضاء تؤهّلها أن تحيا الحياة التي كتبها الله لها.

* * *

[لسنا وحدنا في الكون]:

جاء في ملحق جريدة الجريدة الجمهورية الأُسبوعي العراقية العدد ٨٤ الخميس ٢٣ تشرين ثاني ١٩٧٨م ٢٢ ذو الحجّة ١٣٩٨هـ تحت عنوان (لسنا وحدنا في الكون) ما نصّه:

نشرت الصحف في الأسبوع الماضي أنّ طبقاً طائراً قد هبط مرّتين بالقرب من المحطة «أمّ العيش» بالكويت، وترتّب على هبوطه توقّف محطة ضخّ النفط القريبة من مكان الهبوط عن العمل طوال فترة وجوده التي استمرّت سبع دقائق، ثمّ عادت للعمل تلقائياً بمجرّد إقلاع الطبق الطائر.

وصرّح المسؤولون أنّ الجسم الطائر الغريب ليس لطائرة عموديّة، لأنّه لم يترك أيّة آثار على الرمال ولم يصدر أيّ صوت، كما أنّ سبعة شهود عيان من المهندسين والفنيّين العاملين في شركة نفط الكويت قد شاهدوا الطبق الطائر.

[طبق طائر في الكويت]:

وبدأت الحادثة عندما اكتشف الفنّيّون العاملون في المركز الرئيسيّ لمحطّة ضخّ النفط في شركة نفط الكويت توقّف احدى محطّات الضخّ عن العمل على الشاشة الالكترونيّة التي تتنبّأ بحدوث أيّ عطل في المحطة، وعلى أثر ذلك تمّ إرسال مجموعة مكوّنة من سبعة من المهندسين والفنيين من ضمنهم خبير أجنبي إلى موقع المحطة في ـ أمّ العيش ـ لمعرفة أسباب العطل الفنّيّ المفاجيء، وكانت دهشة المجموعة هناك كبيرة عندما فوجئوا بوجود جسم أسطواني الشكل يفوق في حجمه الطائرة العاديّة، تعلوه قبّة حمراء اللون

يجثم على الأرض على بعد ٢٥٠ متراً من المحطة، وكانت دهشتهم أكبر عندما توجّهوا إلى محطّة الضخ حيث وجدوا بابها مفتوحاً وجميع أجهزتها متوقّفة عن العمل دون ظهور أيّ سبب فنّيّ لهذا التوقف، ممّا أدّى إلى سريان الخوف والتوتّر في نفوس المجموعة، وقد حاولوا الاقتراب من الجسم إلاّ أنّهم تردّدوا خوفاً منه خلال دهشتهم، وبعد سبع دقائق أخذ الجسم الغريب بالارتفاع نحو الأعلى في كلّ هدوء وصمت حيث اختفى عالياً في الفضاء.

المنطقة العربية والأطباق الطائرة:

هذه الحادثة ليست الوحيدة من نوعها، فقد شهدت المنطقة العربية بشكلّ عام ظهور كثير من الأجسام الطائرة المجهولة الهويّة _ الأطباق الطائرة _ في السنوات الأخيرة الماضية في عام ١٩٧٥، ذكرت وكالة اليونايتد بريس أنّ أجساماً طائرة غريبة ظهرت فوق سوريا والاردن والمغرب، وفي ٢٩ آب من عام ١٩٧٧م مرّ طبق طائر بسماء الكويت، وفي ٩ حزيران من عام ١٩٧٨ ظهر جسم طائر غريب أيضاً في سماء الكويت وشوهد من قبل مواطن كويتيّ، وفي ١ نيسان ١٩٧٨ ظهرت أطباق طائرة بشكل مثير في سماء طهران في إيران على ارتفاع ٤٥ ألف قدم وسرعة طيرانها ٥ آلاف كيلومتر في الساعة، وقد قدّر حجمها عشرين مرة بقدر حجم طائرة الجمبو الضخمة حسب تقادير برج المراقبة في مطار طهران. ولا ننسى الجسمين الطائرين اللذين ظهرا في قُطرنا هذا العام، ففي ٥ آذار ظهر جسم طائر في محافظة الديوانية، وجسم طائر آخر في سماء محافظة أربيل كما أوردت ذلك وكالة الأنباء العراقية نقلاً عن مراسليها هناك، وغيرها من الحوادث التي لا تُحصى في شتّى بقاع العالم، وخاصة في الأرجنتين وتشيلي والهند والولايات المتحدة وبيرو وبوليفيا وبريطانيا والاتحاد السوفيتي.

طبق طائر فوق الأراضي السوفيتية:

من الحوادث الأخرى الغريبة والمشابهة لما حدث لمحطّة ضخّ النفط في الكويت تلك التي جائت في كتاب ـ مشروع الكتاب الأزرق ـ ومشروع كوندان ـ وهو برنامج وضعته الحكومة الأمريكيّة أواخر الستّينات كان الهدف منه تشكيل فريق من العلماء والمختصّين لدراسة ظواهر الأجسام الطائرة المجهولة الهويّة (الأطباق الطائرة) يلاحظ عدّة صفات وظواهر مشتركة ومتشابهة، والعمل على كشف الخرافات والأساطير التي تدور حولها. ومن الحوادث الغريبة التي ذكرها الكتاب ما حدث في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٦١، تلك الحادثة التي أذهلت الخبراء والعلماء الأمريكان وأثارت دهشة البنتاجون الامريكيّ، ففي صيف عام ١٩٦١ وأثناء إقامة قاعدة صاروخيّة جديدة ضمن الشبكة الدفاعيّة لمدينة موسكو ظهرت فجأة أجسام طائرة مجهولة بقيت محلّقة فوق قاعدة الصواريخ. كانت عبارة عن جسم كبير يشبه السيجار، أسطوانيّ الشكل، محاط بهالة من الأضواء، وحوله أجسام أصغر منه تحلّق معه. أصابت الدهشة قائد المركز الدفاعيّ فأسرع وأعطى أوامره بإطلاق القذائف على الأجسام الطائرة وخاصّة الجسم الكبير منها، وعندما أُطلقت الصواريخ كانت تنفجر كلّها قريباً من الجسم الكبير ولا تُصيبه، وحدث نفس الشيء عندما انطلقت الدفعة الثانية من الصواريخ، أمّا الدفعة الثالثة فلم يُكتب لها الانطلاق أصلاً، ذلك أنّ جميع الأجهزة الكهربائية التي تعمل القاعدة على أساسها قد توقّفت عن العمل فجأة وبشكل لا تفسير له، تماماً كما حدث لمحطّة ضخّ النفط في الكويت.

وقد اتّضح للسوفيت بعد فترة طويلة أنّه لا علاقة للأمريكان بهذه الحادثة الخارقة.

صفات مشتركة للأطباق الطائرة:

إنّ أيّ باحث أو متتبع لموضوع الاطباق الطائرة يلاحظ جملة من الصفات المشتركة فيها بينها، على الرغم من اختلاف الزمان والمكان الذي تقع فيه الحوادث.

١ ـ إنّ الأجسام الطائرة الغريبة (الأطباق الطائرة) تظهر فجأة دون أن تكشفها أجهزة الرصد الأرضيّ والجويّ المتقنة ـ وخاصة الرادار ـ والتي أحرز الانسان فيها تقدّماً كبيراً، وهذا يدلّ على أنّ الأطباق الطائرة تسير على نظام لا يخضع إطلاقاً للقوانين الأرضيّة، ذلك أنّها تملك قوّة وقدرة ذكية ومتطوّرة ـ قياساً لتقدّم الانسان في مجال الفضاء ـ تستطيع بها أن تدخل أيّ مكان في العالم دون أن يكشفها الرادار، تماماً كما حدث في الكويت والاتحاد السوفيتي الذي يملك أجهزة رادار ورصد متقدّمة جداً.

٢ ـ أشكالها وحركاتها متشابهة (أسطوانيّة، دائريّة، مضيئة، مشعّة، تدور حول نفسها...).

٣ ـ إن حادثة توقّف محطّة ضخّ النفط فجأة في الكويت ومحطّة إطلاق الصواريخ في الاتحاد السوفيتي بمجرد ظهور الأجسام يدلّ على أنّها تمتلك قوّة متقدّمة جداً وغير معروفة، الأمر الذي يدلّ على أنّها تعود إلى عقل ذكيّ ومتطوّر جداً.

إنّ الأمر في الواقع يحتاج إلى نظرة جديدة حول هذا الموضوع، فالأطباق الطائرة التي تظهر للإنسان تحاول أن تؤكّد له حقيقة واحدة، هي أنّنا لسنا وحدنا في الكون.

وممّا تحقّق أخيراً في النصف الأوّل من العام الحالي وهو عام ١٣٧٩ هجرية: أنّ القمر ـ وقد اعتبره جميع العلماء كوكباً ميّتاً ـ ثبت أنّه ليس كذلك، فقد أعلن العالم السوفيتي (نيقولا كوزيريف) أنّ هناك نشاطاً بركانياً على سطح القمر، ثمّ بعد أن أطلقت روسيا صاروخها (مونيك) في يناير ١٩٥٩ الذي تجاوز الجاذبية الأرضيّة ومرّ بالقمر واتّخذ مداره حول الشمس، أعلن أنّه أمكن إثبات وجود بترول وغاز طبيعي في القمر، وهذه المادّة تتكوّن نتيجة تحلّل كائنات حيّة دُفنت أجيالاً متعددة، إذاً لقد ثبت أنّ القمر على الأقلّ كان به أحياء، إن لم يكن به حتّى الآن. فهل الكواكب الأخرى التي يقول عنها العلماء أنّ ظروفها لا

تساعد على وجود الحياة، أي الحياة بمعناها ومظاهرها التي نعرفها نحن بني الانسان، يتّضح أنّها _ كالقمر _ كان بها، أو مازال بها حياة وأحياء.

هذا وقد أصدر العالمان الروسيان (أوبارني وفسنكوف) كتاباً عنوانه (الكون) بحثا فيه موضوع الكواكب الأخرى وهل فيها حياة، وذلك على أثر الأبحاث التي قام بها علماء الفلك والكيمياء والفضاء الكوني وعلى رأسهم العالم (أميارتسوميان) و(شاني)، ويقول الكتاب إنّه بعد عدد لا يُحصى من التجارب ثبت أنّ الحياة لا تنتقل من كوكب إلى آخر. وإنّما تتولّد من جديد وبشكل جديد يتّفق مع ظروف كلّ كوكب، وأنّ نشأة الحياة لم تكن مجرّد مصادفة، وأنّ هناك كثيراً من الكواكب المسكونة في هذا الكون.

ويقول الكتاب كذلك: إنّ الوقت الذي ينطلق فيه المستكشفون من الأرض إلى أعماق الفضاء بات قريباً، وإنّنا سنرى في الكواكب عوالم خفيّة فيها أشكال الحياة العجيبة تتنفّس وتتطوّر وتتّجه دائماً نحو الكمال.

إنّ الصواريخ التي ترتفع من الأرض إلى الكواكب الأخرى، والأطباق الطائرة التي تهبط من الكواكب إلينا، والنهضة الخطيرة التي نهض بها علم السفر في الفضاء، والطفرة التي استحدثها التقدّم الفكريّ في العلوم في حياة الانسان. كلّ ذلك سيجعل اليوم الذي نعرف فيه الكثير عن الحياة والأحياء في الكواكب قريباً، وأقرب ممّا كان الانسان يتصوّر. وسنعرف أنّ الامام علياً عليه السلام سبق العلم في تقريره:

«إنّ في السماء مدناً كمدنكم هذه تربط بينها أعمدة من نور».

* * *

[حديث علي عليه السلام مع ذعلب]:

وبالتالي لمّا قال عليه السلام «سلوني»: قام إليه رجل يقال له ذعلب، جاء في كتاب «مسند الامام علي» (تأليف مؤلّف هذا الكتاب حسن السيّد علي القبانچي

النجفي، يقع هذا المسند في عشر مجلدات، نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لطبعه كما وفّقنا لتأليفه)[1] جاء في المجلّد الأول في باب إبطال الرؤية:

محمد بن أبي عبد الله رفعه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «بَيْنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِ الْكُوفَةِ إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ ذِعْلِبٌ ذُو لِسَانٍ بَلِيغٍ فِي الْخُطَبِ شُجَاعُ الْقَلْبِ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ قَالَ وَيْلَكَ يَا ذِعْلِبُ مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبّاً لَمْ أَرَهُ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ رَأَيْتَهُ قَالَ وَيْلَكَ يَا ذِعْلِبُ لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْأَبْصَارِ وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَيْلَكَ يَا ذِعْلِبُ إِنَّ رَبِّي لَطِيفُ اللِّطَافَةِ لَا يُوصَفُ بِاللُّطْفِ عَظِيمُ الْعَظَمَةِ لَا يُوصَفُ بِالْعِظَمِ كَبِيرُ الْكِبْرِيَاءِ لَا يُوصَفُ بِالْكِبَرِ جَلِيلُ الْجَلَالَةِ لَا يُوصَفُ بِالْغِلَظِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ لَا يُقَالُ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ لَا يُقَالُ لَهُ بَعْدٌ شَاءَ الْأَشْيَاءَ لَا بِهِمَّةٍ دَرَّاكٍ لَا بِخَدِيعَةٍ فِي الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا غَيْرُ مُمْتَزِجٍ بِهَا وَلَا بَائِنٌ مِنْهَا ظَاهِرٌ لَا بِتَأْوِيلِ الْمُبَاشَرَةِ مُتَجَلٍّ لَا بِاسْتِهْلَالِ رُؤْيَةٍ نَاءٍ لَا بِمَسَافَةٍ قَرِيبٌ لَا بِمُدَانَاةٍ لَطِيفٌ لَا بِتَجَسُّمٍ مَوْجُودٌ لَا بَعْدَ عَدَمٍ فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَارٍ مُقَدِّرٌ لَا بِحَرَكَةٍ مُرِيدٌ لَا بِهَمَامَةٍ سَمِيعٌ لَا بِأَلَةٍ بَصِيرٌ لَا بِأَدَاةٍ لَا تَحْوِيهِ الْأَمَاكِنُ وَلَا تَضْمُنُهُ الْأَوْقَاتُ وَ لَا تَحُدُّهُ الصِّفَاتُ وَ لَا تَأْخُذُهُ السِّنَاتُ سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ وَالِابْتِدَاءَ أَزَلُهُ بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ وَبِتَجْهِيرِهِ الْجَوَاهِرَ عُرِفَ أَنْ لَا جَوْهَرَ لَهُ وَ بِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ وَالْيُبْسَ بِالْبَلَلِ وَالْخُشُنَ بِاللَّيِّنِ وَالصَّرْدَ بِالْحَرُورِ مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا وَمُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا دَالَّةً بِتَفْرِيقِهَا عَلَى مُفَرِّقِهَا وَبِتَأْلِيفِهَا عَلَى مُؤَلِّفِهَا وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2] فَفَرَّقَ بَيْنَ قَبْلٍ وَبَعْدٍ لِيُعْلَمَ أَنْ لَا قَبْلَ لَهُ وَلَا بَعْدَ لَهُ شَاهِدَةً بِغَرَائِزِهَا أَنْ لَا غَرِيزَةَ لِمُغْرِزِهَا مُخْبِرَةً بِتَوْقِيتِهَا أَنْ لَا وَقْتَ لِمُوَقِّتِهَا حَجَبَ بَعْضَهَا عَنْ

---

(١) وقد طبع الكتاب بعد شهادة المؤلف في الجمهورية الإسلامية وفي بيروت، كما حصل على أكثر من جائزة علمية وتقديريّة، وقد عني سبطه سماحة الشيخ طاهر السلامي بمراجعته وتصحيحه مشكورا.

(٢) الذاريات: ٤٩.

بَعْضٍ لِيُعْلَمَ أَنْ لَا حِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ كَانَ رَبّاً إِذْ لَا مَرْبُوبَ وَإِلَهاً إِذْ لَا مَأْلُوهَ وَعَالِماً إِذْ لَا مَعْلُومَ وَسَمِيعاً إِذْ لَا مَسْمُوعَ.

ثمّ أنشأ عليه السلام يقول:

ولم يزل سيّدي بالحمد معروفا ... ولم يزل سيّدي بالجود موصوفا
وكنت[1] إذ ليس نور يستضاء به ... ولا ظلام على الآفاق معكوفا
وربّنا بخلاف الخلق كلّهمُ ... وكلّ ما كان في الأوهام موصوفا
ومن يُرده على التشبيه ممتثلاً ... يرجع أخا حصر بالعجز مكتوفا
وفي المعارج يلقي موج قدرته ... موجاً يعارض طرف الروح مكفوفا
فاترك أخا جدلٍ في الدين منعمقاً ... قد باشر الشكّ فيه الرأي مأووفا
واصحب أخا ثقة حبّاً لسيده ... وبالكرامات من مولاه محفوفا
أمسى دليل الهدى في الأرض منتشراً ... وفي السماء جميل الحال معروفا[2]

ثمّ قال عليه السلام: سلوني! فقام إليه رجل من أقصى المسجد متوكّئاً على عكّازة فلم يزل يتخطّى الناس حتّى دنا منه، فقال: يا أمير المؤمنين دُلّني على عمل إذا أنا عملتُه نجّاني الله من النار وأدخلني الجنّة. فقال له عليه السلام: «اسمع يا هذا ثمّ افهم ثمّ استيقن، قامت الدنيا بثلاثة: بعالمٍ ناطق مستعمل لعلمه، وبغنيٍّ لا يبخل بماله على أهل دين الله عزّ وجلّ، وفقير صابر، فإذا كتم العالمُ عِلمه وبخل الغنيّ ولم يصبر الفقير فعندها الويل والثبور، وعندها يعرف العارفون الله أنّ الدار قد رجعت إلى بدئها (أي إلى الكفر بعد الايمان)، أيّها السائل فلا تغترّنّ بكثرة المساجد وجماعة أقوام أجسادهم مجتمعة وقلوبهم شتّى، أيّها السائل إنّما الناس ثلاثة: زاهد وراغب وصابر، فأمّا الزاهد فلا يفرح بشيء من الدنيا أتاه ولا يحزن على شيء منها فاته، وأمّا الصابر فيتمنّاها بقلبه، فإن أدرك منها شيئاً صرف عنها

---

(١) في بعض النسخ: «وكان».

(٢) التوحيد: ٣٠٨ - ٣٠٩/ ح٢؛ ورواه الكليني في الكافي ولم يذكر الشعر. الكافي ١: ١٣٨ - ١٣٩/ ح٤.

نفسه لما يعلم من سوء عاقبتها، وأمّا الراغب فلا يبالي من حِلٍّ أصابها أم من حرام. قال: يا أمير المؤمنين فما علامة المؤمن في ذلك الزمان؟ قال: ينظر إلى ما أوجب الله عليه من حقّ فيتولاّه، وينظر إلى ما خالفه فيتبرّأ منه وإن كان حبيباً قريباً، قال: صدقتَ يا أمير المؤمنين، ثمّ غاب الرجل فلم نره، وطلبه الناس فلم يجدوه، فتبسّم علي عليه السلام على المنبر ثمّ قال: ما لكم، هذا أخي الخضر عليه السلام».[1]

[كلام الإمام علي عليه السلام مع ابن الكوا]:

وفي (مسند الإمام علي عليه السلام) في باب «سلوني» عن الأصبغ بن نباتة قال: خطبنا أمير المؤمنين عليه السلام على منبر الكوفة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيّها الناس سلوني، فإنّ بين جوانحي علماً جمّاً، فقام إليه ابن الكوّا فقال: يا أمير المؤمنين ما الذاريات ذروّاً؟ قال: الرياح. قال: فما الحاملات وقراً؟ قال السحاب. قال: فما الجاريات يُسراً؟ قال: السفن. قال: فما المقسّمات أمراً؟ قال: الملائكة. قال: يا أمير المؤمنين وجدت كتاب الله ينقض بعضه بعضاً. قال: ثكلتك أمّك يا ابن الكوّا! كتاب الله يصدّق بعضُه بعضَه ولا ينقض بعضه بعضاً، فسَلْ عمّا بدا لك».

قال: يا أمير المؤمنين سمعتُه يقول: ﴿رَبّ الْمَشارِق وَالْمَغارِب﴾[2] وقال في آية أخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾[3] وقال في آية أخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِق وَالْمَغْرِب﴾.[4] قال: ثكلتك أمّك يا ابن الكوّا! هذا المشرق وهذا المغرب. وأمّا قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ فإنّ مشرق الشتاء على حِدة ومشرق الصيف على حدة، أما تعرف بذلك من قُرب الشمس وبُعدها؟ وأمّا قوله: ﴿رَبّ الْمَشارِق

(١) التوحيد للصدوق: ٣٠٤ - ٣٠٧/ ح١ (حديث ذعلب).

(٢) المعارج: ٤٠.

(٣) الرحمن: ١٧.

(٤) الشعراء: ٢٨؛ المزمل: ٩.

وَالْمَغارِبِ﴾ فإنّ لها ثلثماءة وستّين بُرجاً، تطلع كلّ يوم من برج وتغيب في آخر فلا تعود إليه إلاّ من قابل في ذلك اليوم.

قال: يا أمير المؤمنين كم بين موضع قدمك إلى عرش ربك؟ قال: ثكلتك أمُّك يا ابن الكوّا! سَل متعلّماً ولا تسأل متعنّتاً، من موضع قدمي إلى عرش ربّي أن يقول قائل مُخلصاً: «لا إله إلا الله».

قال: يا أمير المؤمنين فما ثواب من قال: «لا إله إلا الله»؟ قال: من قال: «لا إله إلاّ الله» مخلصاً طُمست ذنوبه كما يطمس الحرف الأسود من الرقّ الأبيض، فإن قال ثانية «لا إله إلاّ الله» مخلصاً خرقت أبواب السماوات وصفوف الملائكة حتّى تقول الملائكة بعضها لبعض: اخشعوا لعظمة الله، فإذا قال ثالثة «لا إله إلا الله» مخلصاً تنته دون العرش، فيقول الجليل: اسكني فوعزّتي وجلالي لأغفرنّ لقائلك بما كان فيه، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1] يعني إذا كان عمله صالحاً ارتفع قوله وكلامه.

قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن قوس قزح؟ قال: ثكلتك أمّك! لا تقل (قوس قزح) فإنّ قزحاً اسم شيطان، ولكن قُل: (قوس الله)، إذا بدت يبدو الخصب والريف.

قال: أخبرني يا أمير المؤمنين عن المجرّة التي تكون في السماء؟

قال: هي شرج في السماء، وأمان لأهل الأرض من الغرق، ومنه أغرق الله قوم نوح بماء منهمر. قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن المحو الذي يكون في القمر؟ قال عليه السلام: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، رجل أعمى يسأل عن مسألة عمياء، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾؟[2] قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن أصحاب رسول

---

(١) فاطر: ١٠.

(٢) الاسراء: ١٢.

الله صلى الله عليه وآله. قال: عن أيّ أصحاب رسول الله تسألني؟ قال: يا أمير المؤمنين عن أبي ذر الغفاري. قال عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر». قال: يا أمير المؤمنين فأخبرني عن سلمان الفارسي؟ قال: بخ بخ سلمان منّا أهل البيت، ومن لكم بمثل لقمان الحكيم، عَلِم عِلم الأوّل والآخر. قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن حذيفة بن اليماني. قال: ذلك امرؤٌ عَلِم أسماء المنافقين، إن تسألوه عن حدود الله تجدوه بها عالماً. قال: يا أمير المؤمنين فأخبرني عن عمّار بن ياسر؟ قال: ذاك امرؤٌ حرّم الله لحمه ودمه على النار أن تمسّ شيئاً منها. قال: يا أمير المؤمنين فأخبرني عن نفسك؟ قال كنتُ إذا سألتُ أُعطيت، واذا سكتُّ ابتُديت. قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً﴾ الآية؟ قال: كفرت أهلُ الكتاب اليهود والنصارى وقد كانوا على الحقّ، فابتدعوا في أديانهم وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، ثمّ نزل عليه السلام عن المنبر وضرب بيده على منكب ابن الكوّا، ثمّ قال: يا ابن الكوّا وما أهل النهروان منهم ببعيد. فقال: يا أمير المؤمنين ما أريد غيرك ولا أسأل سواك. قال: فرأينا ابن الكوّا يوم نهروان، فقيل له: ثكلتك أمك! بالأمس تسأل أمير المؤمنين عمّا سألته وأنت اليوم تقاتله، فرأينا رجلاً حمل عليه فطعنه فقتله.[1]

* * *

[علي عليه السلام وآخر الزمان]:

قال عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني» فقام إليه صعصعة بن صوحان وميثم التمار وكميل بن زياد وعمر بن صالح، فقالوا: سيّدنا حدّثنا بما يجري في آخر الزمان، فإنّ حديثك يُحيي قلوبنا ويزيد في إيماننا.

---

(١) الاحتجاج ١: ٣٨٥ - ٣٨٨.

قال: «نعم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ستجتمع في آخر الزمان في أمّتي مائة خصلة لم تجتمع في غيرها من الأمم: يكون منهم قوم لهم وجوه جميلة وضمائر رديّة، من رآهم أعجبوه، ومن عاملهم ظلموه، الوجوه وجوه الآدميّين والقلوب قلوب الشياطين، هم أمرّ من الصبر وأنتن من الجيفة وأهرش من الكلب وأروغ من الثعلب، لا يتناهون عن منكر فعلوه، إن حدّثتهم كذّبوك، وإن ائتمنتهم خانوك، وإن كان لك مال حسدوك، وإن بخلت عليهم هلبوك، سمّاعون للكذب، أكّالون للسحت، يستحلّون الزنا والخمر والمغاني والطرب، الفقير بينهم هالك، والقويّ عندهم مالك، ويطيع الرجل زوجته ويعصي والديه، ويكثر ما بينهم سفك الدماء، فتقلّ المكاسب وتختلف المذاهب، ويحكم فيهم كلّ سلطان جائر، وشُربت الخمور، ورُكبت الذكور، واكتفت الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وعلت الفروج السروج، ويتشبّهنّ بالرجال، وتحجّ الناس على ثلاثة أقسام: الأغنياء للنُزهة، والأوساط للتجارة، والفقراء للمسألة، فيختبط الإسلام وتظهر دولة الصبيان، مساجدهم معمورة بالأذان وقلوبهم خالية من الإيمان، فإذا دخلت السوق لم تسمع إلاّ ذامّاً لربّه، هذا يقول: لم أبع شيئاً، وهذا يقول: لم أربح شيئاً؛ إلى أن قال عليه السلام: فإذا اجتمعت هذه الخصال توقّعوا ظهور القائم عجل الله فرجه».[1] وهذا الباب واسع من أراد الزيادة فليرجع إلى كتابنا الكبير (مسند الإمام علي) في باب «سلوني قبل أن تفقدوني».

* * *

(١) قد وردت روايات كثيرة من هذا الحديث في تفسير القمّي ٢: ٣٠٧ في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله لسلمان الفارسيّ رضي الله عنه.

ومن كلام له عليه السلام:

في مدح الكوفة

«كأنّي بك يا كوفة تُمَدّينَ مَدَّ الأَديمِ العُكاظيّ، تُعرَكينَ بالنَوازل، وتُركَبينَ بالزَلازِل، وإنّي لَأعلمُ أنّه ما أَرادَ بكِ جَبّارٌ سُوءاً إلّا ابتَلاهُ اللهُ بشاغِلٍ ورَماهُ بقاتِلٍ» (ابن ابي الحديد مج ١ ط ١ ص٢٨٦).

* * *

ضبط الألفاظ اللغوية:

الأديم: الجلد المدبوغ الذي لم تتمّ دباغته، وعُكاظ ـ بالضمّ ـ موضع بناحية مكّة كانت العرب تجتمع فيه في كلّ سنة ويقيمون به سوقاً مدّة شهراً، ويتعاكظون أي يتفاخرون ويتناشدون الشعر، ويُنسب إليه الأديم لكثرة البيع فيه. والعرك: الدلك والحكّ، وعركه أي حمل عليه الشر، وعركت القوم في الحرب: إذا مارستهم حتّى أتعبتهم.

* * *

[الشرح]:

إنّ هذا الكلام من جملة ما أخبر به عليه السلام من المغيّبات، فقد بيّن فيه حال الكوفة وحال أهلها وتجاذب أيدي الظالمين وتسلّطهم عليهم بالظلم والعدوان.

وفي قوله عليه السلام: «كأنّي بك يا كوفة» إشارة إلى أن المخبَر به لا محالة واقع، ووقوعه مشاهد بعين اليقين. وقوله: «تُمدين مدّ الأديم العُكاظيّ» وجه الشبه شدّة ما يقع بأهلها من الظلم والبلاء، كما أنّ الأديم العكاظيّ مُستحكم الدباغ شديد المدّ.

وقوله: «تُعركين بالنوازل وتركبين بالزلازل» أراد بهما الشدائد والمصائب التي نزلت بأهل الكوفة والظلم والبلايا التي حلّت بها وأوجبت اضطراب أهلها، وهي كثيرة مذكورة في كتب السير والتواريخ.

وقوله: «وإنّي لأعلم أنّه ما أراد بك جبّارٌ سوءاً» إشارة إلى تحقيق وقوع المخبر به، يعني أنّه معلوم بعلم اليقين أنّه ما أراد بك جبار سوءاً إلاّ ابتلاه الله بشاغل ورماه بقاتل.

قال ابن ابي الحديد المعتزلي: فأمّا ما همّ به الملوك وأرباب السلطان فيها من السوء ودفاع الله تعالى عنها فكثير. قال المنصور لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام: إنّي قد هممتُ أن أبعث إلى الكوفة من ينقض منازلها ويجمّر نخلها ويستصفي أموالها ويقتل أهل الريبة منها، فأشِر عليَّ. فقال عليه السلام: يا أمير المؤمنين إنّ المرء ليقتدي بسلفه، ولك أسلاف ثلاثة: سليمان أُعطي فشكر، وأيوب ابتُلي فصبر، ويوسف قَدَر فغفر، فاقتدِ بأيّهم شئت.

فصمت قليلاً ثمّ قال: قد غفرت.

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في كتاب المنتظم: إنّ زياداً لمّا حصبه أهل الكوفة وهو يخطب على المنبر قطع أيدي ثمانين منهم، وهّم أن يخرّب دورهم ويجمّر نخلهم، فجمعهم حتّى ملأ بهم المسجد والرحبة يعرضهم على البراءة من علي عليه السلام، وعلم أنّهم سيمتنعون فيحتجّ بذلك على استئصالهم وإخراب بلدهم. قال عبد الرحمن بن السائب الأنصاري: فإنّي لمع نفر من قومي والناس يومئذ في أمر عظيم، إذ هوّمتُ تهويمة فرأيت شيئاً أقبل طويل العنق مثل عنق البعير أهدر أهدل، فقلت: ما أنت؟ فقال: أنا النقّاد ذو الرقبة بُعثت إلى صاحب هذا القصر، فاستيقظت فزعاً فقلت لأصحابي: هل رأيتم ما رأيت؟ قالوا: لا، فأخبرتهم، وخرج علينا خارج من القصر فقال: انصرفوا فإنّ الأمير يقول لكم: إنّي عنكم اليوم مشغول، وإذا بالطاعون قد ضربه، فكان يقول: إنّي لأجد في النصف من جسدي حرّ النار، حتّى مات، فقال عبد الرحمن بن السائب:

ما كان منتهياً عمّا أراد بنا حتّى تناوله النقّاد ذو الرقبهْ
فأثبت الشقّ منه ضربة عظمت كما تناول ظلماً صاحب الرحبه[١]

وابنه عبيد الله وقد أصابه الجذام، والحجّاج بن يوسف وقد تولّدت الحيّات في بطنه حتّى مات، وعمر بن هبيرة وابنه يوسف وقد أصابهما البرص، وخالد القسريّ وقد حُبس وضُرب فطوّلت مدّته في الحبس حتّى مات جوعاً.

[الكوفة وفضلها]:

وفي قوله عليه السلام: «ما أراد بك جبّار سوءاً إلاّ ابتلاه الله» إشعار بمدح الكوفة وفضلها وأنّها المدينة المقدّسة.

ولا غرو فقد كانت قاعدة للعلم، ومركزاً للسياسة الإسلاميّة، وعاصمة للخلافة الكبرى، ودار هجرة المسلمين. وكفاها فخراً ما رواه أبو سعيد الخدريّ عن النبي صلى الله عليه وآله «الكوفة جُمجمة العرب ورُمح الله وكنز الإيمان»[٢] وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «نعمت المدرة، إنّه يحشر من ظهرها يوم القيامة سبعون ألفاً وجوههم في صورة القمر»[٣] وقوله: «مدينتنا ومحلّتنا ومقرّ شيعتنا».[٤] وقال الصادق عليه السلام: «اللهمّ ارمِ مَن رماها، وعادِ من عاداها»[٥] وقوله: «تربة تحبّنا ونحبّها».[٦]

وعن عبد الله بن الوليد قال: دخلنا على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فسلّمنا عليه وجلسنا بين يديه، فسألنا: من أنتم؟ قلنا: من أهل الكوفة، فقال: أما إنّه ليس من بلد من

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣: ١٩٨ - ١٩٩.
(٢) فضل الكوفة للشريف العلوي: ٧٢، وفيه: «الكوفة جمجمة الإسلام، وكنز الإيمان، وسيف الله ورمحه، يضعه الله حيث يشاء...».
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣: ١٩٨.
(٤) نفس المصدر.
(٥) نفس المصدر.
(٦) نفس المصدر.

البلدان أكثر محبّاً لنا من أهل الكوفة، ثمّ هذه العصابة خاصّ، إنّ الله هداكم لأمرٍ جهله الناس، أحببتمونا وأبغضنا الناس، وصدّقتمونا وكذّبنا الناس، واتّبعتمونا وخالفنا الناس، فجعل الله محياكم محيانا، ومماتكم مماتنا.[1] وقول سلمان الفرسي رضي الله عنه: «أهل الكوفة أهل الله، وهي قبّة الإسلام يحنّ إليها كلُّ مسلم».[2]

إذاً فلا بدع من أن تكون الكوفة مركزاً للأدب والعلم، ومدرسة للثقافة، وجامعة يأوي إليها مختلف طبقات الناس من كل فجّ عميق، ولقد ازدلفت إليها زرافات من خيار الصحابة ورجالات التابعين وروّاد العلم وحفّاظ الحديث، فكان منهم قضاة، وكان منهم نقباء، وذلك ممّا زاد في قيمتها التاريخية وأهميّتها العلميّة، كما أنّها أنجبت علماء وأدباء وشعراء هم مفاخر التاريخ الإسلامي وغرّة واضحة في جبهة الدهر.

[الكوفة رائدة الأدب العربي]:

كانت الكوفة ـ ولا سيّما في العصر الأمويّ ـ ملتقى العلماء والأدباء والشعراء، يزدحمون في المسجد الأعظم وغيره من الجوامع العامّة والنوادي والمحافل للمفاخرة والمناظرة، وكان أشراف الكوفة يخرجون إلى ضواحيها أيضاً لمثل هذا الغرض، لما كان في ضواحيها من جالية العرب وأهل البادية من القبائل التي نزحت إلى هناك بعد الإسلام، فكانت الكوفة وضواحيها يومئذ كسوق عُكاظ في الجاهليّة، تتألّف فيها من فحول شعرائها حلقات المناشدة والمفاخرة ومجالس العلم والأدب، وكان الشعر في الكوفة أكثر منه في البصرة، وقد وقف المختار بن أبي عبيدة في أثناء حروبه بالعراق على أشعار مدفونة في القصر الأبيض بالكوفة، وذلك ممّا يدلّ على عناية الكوفيّين بالشعر.

---

(١) الكافي ٨: ٢٣٦ / ح٣١٦.

(٢) معجم البلدان للحموي ٤: ٤٩٢. وروى ابن أبي شيبة في المصنّف ٧: ٥٥٤/ ح١٢ عن سلمان قال: الكوفة قبّة الإسلام، يأتي على الناس زمان لا يبقى فيها مؤمن إلاّ بها أو قلبه يهوي إليها.

في الكوفة احتكّ العرب بغيرهم من الأمم المتمدّنة، وفيها اشتغل المسلمون بجمع أخبار العرب وأشعارهم وأمثالهم، وفيها وُلدت الآداب اللسانيّة، فتكاثرت فيها الأندية الأدبيّة، وذلك من أهمّ البواعث على زهو الشعر فيها، فلا غرو إذا نبغ فيها الشعراء والأدباء أمثال الكميت بن زيد الأسدي، وأبي الطيّب المتنبّئ، وأبي العتاهية، ودعبل الخزاعي، وحمّاد عجرد وحمّاد الراوية وغيرهم من فطاحل الشعراء.

ومن المعتقد أنّ شعراء السياسة في الكوفة أكثر من غيرهم من سائر الطبقات، إذ قلّما نبغ شاعر لم يتعرّض لحزب من الأحزاب التي كانت مؤلّفة فيها يومئذ، لا سيّما والكوفة كانت معروفة بأنها علويّة المبدأ على الأكثر، فكان فيها من أنصار العلويّين والهاشميّين ومن أنصار الأمويّين، وفيها من أنصار الخوارج وآل المهلّب وغيرهم.

وإنّ من يلقي نظرة في التاريخ الإسلاميّ في العهد العبّاسيّ الأوّل يرى أنّ سوق المناظرة والمفاخرة كانت رائجة بين الكوفيّين والبصريّين في مسائل شتّى في الفقه والنحو والأدب واللغة وغيرها، الأمر الذي كوّن المنافرة بين الفريقين بالطبع، وانتمت إلى كلّ مذهب طائفة، حتّى قيل: (مذهب الكوفيّين ومذهب البصريّين).

وكان خلفاء الدولة العباسيّة يقدّمون الكوفيّين لأنّهم كانوا من أنصارهم لمّا قاموا لطلب الخلافة في الكوفة، فكانوا يقرّبونهم دون البصريّين، ويختارون منهم أساتذة لأولادهم: فالكسائيّ والفرّاء والمفضّل الظبّي والشرقي بن القطامي كلّهم من أهل الكوفة وقد علّموا أبناء الخلفاء.

وقد جرت مفاخرة طويلة بين أبي بكر الهذلي البصري وبين أبي العيّاش بالكوفة بمحضر أبي العباس السفاح، وكلّ يتعصّب لبلده فيصفها بكلّ ما في وُسعه من الصفات الفاضلة، فنرى أبا العباس يتعصّب لأبي عيّاش الكوفي ويقول بعد انتهاء المفاخرة: «الكوفة بلاد الأدب ووجه العراق ومبزغ أهله، وهي غاية الطالب ومنزل خيار الصحابة وأهل الشرف، وإنّ البصرة لأشبه الناس بهم».

مرّت على الكوفة أدوار متناقضة مُنيت خلالها بحروب وحوادث مدهشة،

فكانت الأفكار فيها تتضارب والنزعات تتخالف، فربّما أخذت الحقائق بأعضاد ذويها، وربّما ساعدت الحظوظ وثّابة النهمة والشره، وكلّما خبا ذِكر أحد الفريقَين تربّص الفريق الآخر به الدوائر حتّى تتضاءل مِرّةُ صاحبه وتلين قوّته، ولم يزل تباين الخطط بهذه العاصمة حتّى حكم عليها بالتدمير وألحقها بحديث أمس الدابر.

[مسلم بن عقيل وأهل الكوفة]:

نعم انتابتها سلسلة حوادث، أشهرها حادثة مسلم بن عقيل سفير الحسين عليه السلام ورسوله إلى أهل الكوفة، فقد دخلها سنة ستّين للهجرة طالباً البيعة للإمام الحسين، فبايعه أهل الكوفة بيعة واحدة، ثمّ ما أسرع أن تفرّقوا عنه عندما دخلها ابن زياد.

يروي ابن أعثم الكوفي عن ابن اسحاق صاحب المغازي وابن هشام وغيرهم: أنّ أهل الكوفة لما تفرّقوا عن مسلم بن عقيل عليه السلام وبقي وحيداً امتطى ظهر جواده وهمّ بالخروج من الكوفة، إلاّ أنّه بقي يتردّد في شوارعها لعدم اهتدائه الطريق المنهي إلى خارجها، وبينما هو يسير إذ عرض له سعيد بن أحنف فعرف مسلماً بشمائله، فاستوقفه وسأله عن سبب خروجه هذا وأنّه على خلاف الغرض الذي جاء له، فقال له مسلم: إنّي لما يأست من الجماعة الذين بايعوني وتفرّقوا عني صمّمت على ترك الكوفة عَلّي أرى جماعة يُبايعوني ولا ينكثون، فقال له سعيد: لا يكون ذلك أبداً لأنّ القوم أخذوا عليك الطرق، وبثّوا الأرصاد والعيون والحرس من أجلك، فإذا وقعت عليك أعينهم قبضوك قبض اليد، فقال مسلم، إذن ما الرأي؟ قال: الرأي أن نذهب سويّة إلى دارٍ آمنة ومكان حصين لا يطّلع علينا أحد من القوم. فأجابه مسلم ومضيا حتّى انتهيا إلى دار محمد بن كثير.

وما أن شعر بهما محمد حتّى انكبّ على أقدام مسلم يقبّلهما وهو يقول: ما أسعدني ومَن مثلي! فقد حظوتُ بالدين والدنيا، وكانت في دار محمد مواضع خفيّة

واقية قلّما يهتدي أحد لمعرفة من بها، ولكنّ الحرس الكثير والعيون المتطايرة والإرصادات المبثوثة استطاعت أن تكشف هذا الخبر، وسرعان ما طيّر إلى ابن زياد وما كان أشدّ فرحه بذلك، وبالفعل أمر ابنه خالد أن يصحب معه فوجاً من العسكر وأن يطوّقوا دار محمد بن كثير، وهكذا كان، ولمّا لم يكن مع محمد من الأعوان ما يكتفي بهم لصدّ هذا العمل فقد قُبض عليه وعلى ابنه بسهولة وبُعثا إلى ابن زياد، غير أنّه خفي عليهم موضع مسلم، وكلّما فتّشوا عليه زادوا بمقامه جهلاً وضلالاً، فراجع خالد دار الامارة بذاك وأطلعها على الحال.

ومن الجهة الثانية فإنّ سليمان بن صرد الخزاعي والمختار بن أبي عبيدة الثقفي وورقاء بن عازب وجماعة من أشراف أهل الكوفة لمّا علموا بخبر محمد وأنّه أُخذ هو وابنه صمّموا على أن يكوّنوا لهم أتباعاً وأعواناً ويهاجموا دار الامارة ويُنقذوا محمداً وابنه، وأن يخيّموا خارج الكوفة ويُعلنوا نصرة الحسين عليه السلام ويكوّنوا جيشاً قويّاً على أعدائه. هذا ما تآمروا عليه وصمّموا على تنفيذه صبح اليوم التالي. إلاّ أنّ من القضاء والقدر أن قدم عامر بن الطفيل مع عشرة آلاف جنديّ من عسكر أهل الشام قبل طلوع فجر تلك الليلة خاضعين لأوامر ابن زياد، فسُرّ ابن زياد بذلك سروراً عظيماً، وفي صبيحة تلك الليلة أحضر ابن زياد محمد بن كثير فسبّه وشتمه ما شاء، فقال له محمد: لستُ بالمكان الذي استحقّ من مثلك كلّ هذا الشتم، ولستَ بالمحلّ الذي تقتدر أن تشتم مثلي، فما أنت إلاّ لئيم حسبٍ خسيسُ نسبٍ أُلصقت بأبي سفيان إلصاقاً، وشرّ ما أولد هذا الإلصاق من الفساد والشر والفتن بين المسلمين، فإنّما أنت نغل وابن زنا.

وبينما هما بالكلام إذ علت أصوات الرجال وكثر الهتاف والغوغاء، وإذا هم بأربعين ألف رجل أو أكثر يحاصرون دار الامارة على أتمّ ما يكون من الاستعداد لمواجهة الطوارئ الحادثة، فلم يُبالِ ابن زياد ولم يُرعه ذلك، بل استمر مع محمد بن كثير واسترسل بجبروته وغطرسته، فأقسم لابن كثير برأس يزيد أن لا مزيد على هذا الاعتداء، وأن يسلّم مسلم بن عقيل لا محالة وإلاّ

جعله طُعمة لحدّ السيوف. فقال له ابن كثير: لا، لستَ بالمقام الذي تتمكّن به من مسّ شعرة من بدني فضلاً عن إراقة قطرة من دمي.

وكان ابن زياد مغضباً في تلك الساعة، إلاّ أنّه بعيد نظر بعاقبة الأمر، فخفّف من غلوائه فجأة وألان طرفاً من لسانه حالاً مع ابن كثير، فقال له: حسناً فلتعرف هل روحك أعزّ عليك أم روح مسلم بن عقيل؟ فقال ابن كثير: أمّا روح مسلم فلها من خالقها وبارئها من يحميها وينصرها، وأمّا روحي فبينها وبين أن تُسلب ثلاثون ألفاً من السيوف المخضّبة بدماء صناديد الرجال.

وهاج بابن زياد غضبه واتّقدت عيونه، فنظر ما حوله فلم يجد إلاّ دواة ضرب بها جبهة محمد فتكسّرت أوصالاً، وسالت دماء محمد على وجهه ولحيته فجرّد سيفه وحمل على ابن زياد، فصرخ ابن زياد صرخة دوى لها كلّ من في دار الامارة من الجنود والغلمان، وحالت أشراف من الكوفة بين محمد وبين ابن زياد، إلاّ أنّ معقلاً الذي كان هاني بن عروة جرحه قبل هذا هجم على محمد، فاستقبله محمد استقبال الأسد لفريسته، فضربه ضربة واحدة شطرته شطرين، فثار ابن زياد وترك وسط المجلس وتجنّب ناحية منه، ثمّ صاح بغلمانه وحاشيته أن دونكم الرجل! فانثالوا على محمّد وابنه بأسيافهم من كلّ جانب، وكان محمّد يقاتلهم ويُضاربهم ذات اليمين مرّة وذات الشمال أخرى، وأماماً تارة وخلفاً أخرى، حتّى عثرت رجله بحبل الشاذروان فسقط على الأرض، فانكبّ عليه الحرس والغلمان انكبابة واحدة ما أمهلوه بها حتّى قضوا عليه.

وأمّا ابنه فاستمر على قتال القوم متّجهاً نحو باب دار الامارة، وقتل في الأثناء عشرين أو أكثر، فلمّا كان قريباً من الباب طعنه أحد الغلمان من خلفه طعنه أكبّه على وجهه، فتلاقفوه بالسيوف والرماح حتّى قُتل رحمه الله.

وكان أهل الكوفة والجند الشامي في تلك الأثناء في تضارب وتصادم وتسايف وتنابل، فضجّ الجيش الشامي من جري الكوفيين وشدّة مقاومتهم،

فشكوا ذلك إلى ابن زياد، فقال لهم: إنّ أهل الكوفة يشدّون حرصاً على محمد وابنه فارموا برأسيهما إليهم، فإذا رأوهم تفتر حركتهم ويسكن هياجهم، فُرمي الرأسان للناس من أعلى القصر، فما اكترث الناس بقتلهما بل اشتدّوا ودامو يحاربون الجيش حتّى حجزهم الليل وعاد كلّ منهم إلى داره ولم يبق منهم بباب القصر أحد، وكان ابن زياد غير آمن من هياج الكوفة عليه وانتصارها لمسلم، فجدّ في أثر مسلم وبثّ الأرصاد أيضاً والعيون عليه.

ولمّا انتهى خبر هذه الوقعة إلى مسلم ترك دار محمد بن كثير وخرج، إلاّ أنّه لا يدري أين يتّجه، وجيش ابن زياد أخذ الطرق عليه، وكان عدده اثني عشر ألف وُزِّعوا في طرق الكوفة وشوارعها، وكان بين كلّ الفرق والأقسام إشارات خاصّة يجتمعون بمجرد المبادرة لها. فقصد مسلم جهة من الجهات من دون أن يعلم ما هي وإلى أين تنتهي، وبينما هو سائر اذ عرض له قسم من هذه الأقسام، فصاحوا به: من أنت وإلى أين تريد؟ فقال: إنّي رجل من فزارة أريد الرواح إلى قبيلتي. فقالوا له: ارجع لا يمكن العبور من ههنا، فترك هذا الطريق وأخذ محلّة دار البيع فعارضه خالد بن عبيد الله بن زياد في ألف رجل فلم يُفسحوا له، فترك هذا الطريق أيضاً، فرجع وأخذ طريق الكناسة فعارضه الخادم الشامي في ألفي رجل، فرجع وأخذ طريق السوق، إلاّ أن رجلاً يقال له «الحراث» التفت إلى رجوع مسلم بسرعة من طريق الكناسة وأخذه طريق السوق فقطع أنّه هو مسلم بعينه، فمضى مسرعاً إلى دار الامارة ـ وكان الليل قد أوشك أن يصبح ـ وقال لنعمان الحاجب: إنّ مسلماً قصد السوق الفلاني راكباً فرسه متوجّهاً إلى باب البصرة، فركب نعمان من وقته ومعه خمسون فارساً وقصد السوق، فطرق سمع مسلم وقع حوافر الخيل فعرف أنّهم في طلبه، فلم يَر بُدّاً من أن يترجّل ويهمز جواده خالياً، وهكذا فعل ومرّ الجواد يسارع في الشوارع، فلحقه نعمان مع فوارسه حتّى ظفروا به في محلّة الحلاّجين خالياً فأخذوه إلى ابن زياد وأعلموه الحال، فبعث ابن زياد برجاله وحراسه إلى رؤوس المحلات ومفارق الطرق ومعابر الناس ومداخل الأسواق فأقامهم فيها، وأمر المنادي أن

يُنادي في الناس كافّة أنّه: من دلّنا على مسلم أو عرّفنا بمكانه أو جاء به إلينا فله منّا المكافأة الجزيلة والعطايا الوفيرة والمنزلة الرفيعة والمرتبة السامية وغير ذلك، ممّا بعث بمحبّي المال والجاه وعشّاق الذهب والفضة أن يصبحوا له عيناً واحدة على مسلم، يتجسّسون عليه في الصبح المضيء والليل المظلم.

وأمّا مسلم فبعد مغالطة نعمان وفرسانه أخذ يمشي في الأزقّة والطرق جائعاً عطشاناً لا يهتدي لسبيل ولا يركن إلى دليل، وخاف أن يظفر به الناس، فرأى في أحد الشوارع مسجداً خرباً فالتجأ إليه وقضى بياض نهاره فيه، حتّى إذا جنّ الليل قام وأخذ يجوب الطرق وكلّها مسدودة في وجهه سدّاً محكماً، وكان عبوره بمحلّة ابن جبلة من كندة فوقع نظره على دار عالية البنيان جلس أمامها يستريح بعض الشيء ممّا حلّ به، وكانت الدار لأم ولد يقال لها طوعة كانت قبلاً تحت الأشعث بن قيس، ولمّا طلّقها صارت تحت أسيد الحضرمي وأولدها غلاماً إسمه بلال.[1]

* * *

(١) انظر قصّة شهادة مسلم عليه السلام في الإرشاد ٢: ٣٩ - ٦٦؛ تاريخ الطبري ٤: ٢٦٣ - ٢٨٤؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٤٣ - ٣٥٤.

من خطبة له عليه السلام:

[يوصي بالوفاء وعدم الغدر ويذكر سوء عصره]

«إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ». (شرح النهج لابن أبي الحديد مج١، ص٢١٦، ط الأولى).

* * *

ضبط الألفاظ الغريبة:

(التوأم) معروف، يقال هذا توأم هذا، وهذه توأم هذه، وهما توأمان. (والجنّة) بالضم الترس. و(الكيس) الفطنة والعقل. (والحوّل القُلّب) البصير بتقليب الأمور وتحويلها. (والانتهاز) المبادرة، يقال انتهز الفرصة: اغتنمها وبادر إليها. (والحريجة) التحرّج والتأثّم، أي التحرّز من الحرج والاثم.

* * *

المعنى لهذه الفقرات النيّرة:

إنّ الوفاء والصدق من جنود العقل، كما إنّ الغدر والكذب من جنود الجهل، وتقابل الأوليين مع الآخرين تقابل العدم والمَلَكة، لأنّ عدّ هذه الأوصاف من جنود العقل والجهل باعتبار مباديها الراسخة ومَلَكاتها في النفس دون آثارها التي من الأعمال والأفعال.

وعلى هذا فالوفاء مَلكة نفسانيّة تنشأ من لزوم العهد كما ينبغي والبقاء عليه، والغدر ضدّ الوفاء عمّن من شأنه الوفاء، والصدق ملكة تحصل من لزوم مطابقة الأقوال للواقع، والكذب عدم الصدق لمن من شأنه الصدق.

ولمّا كان الوفاء والصدق متشاركين في كونهما من جنود العقل، متلازمين غالباً، لا جرم شبّههما بالتوأمين، قال: (إنّ الوفاء توأم الصدق) ثمّ قال عليه السلام: (ولا أعلم جُنّة أوقى منه) أي أشدّ وقاية منه من عذاب الآخرة ومن عار الدنيا المترتّبين على الغدر وخلف الوعد، مضافاً إلى ما فيه من الثمرات والمنافع الدنيويّة والأُخرويّة. فمن ثمراته الدنيويّة اعتماد الناس على قول الوفيّ وثقتهم به وركونهم إليه، واستحقاق المدح الثناء عند الخالق والخلائق. ومن هنا قيل في المثل: (الوفاء مليح، والغدر قبيح).

[وفاء السموأل]:

وحتّى الآن وقد مضت قرون وقرون يُضرب المثل بوفاء السموءل فيقال: (أوفى من السموءل).

ومن وفائه أنّ امرء القيس بن الحجر لمّا أراد الخروج إلى أحد الملوك استودع السموءل دروعاً، فلمّا مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام، فتحرّز منه السموءل، فأخذ الملك إبناً له كان مع ظئرٍ خارجاً من الحصن، ثمّ صاح بالسموءل فأشرف عليه، قال له الملك: هذا ابنك في يدي، وقد علمتَ أنّ امرء القيس ابن عمّي وأنا أحقّ بميراثه، فإن دفعت إليّ الدروع وإلاّ ذبحتُ ابنك. فقال السموءل: أجّلني، فأجّله، فجمع أهل بيته ونساءه فشاورهم فكلٌّ أشار إليه بدفع الدروع، فأبى قال: ما كنت لأحقر أمانة، فقال للملك: فاصنع ما أنت صانع، إنّ الغدر طوق لا يبلى، ولإبني هذا أخوة، فذبح الملك ابنه وهو ينظر إليه ورجع خائباً، فلمّا دخلت أيام الموسم وافى السموءل بالدروع الموسم فدفعها

إلى ورثة امرئ القيس. وهذا أقصى ما يُتصوّر في الوفاء. لذلك ضُرب به المثل واستمرّ حتّى اليوم فيقال: (أوفى من السموءل).[1]

[قصة المنذر بن ماء السماء ويوماه البؤس والسعد]:

جاء في التاريخ: أنّ المنذر بن ماء السماء _ ملك الحيرة _ جدّ النعمان بن المنذر _ خرج يتصيّد، فأجرى فرسه خلف صيد، فذهب الفرس به في الأرض ولم يقدر على كبح جماحه، فانفرد عن أتباعه، وأخذته السماء فطلب ملجأ يلجأ إليه، فدفع إلى بناء فإذا فيه رجل من طيء يدعى حنظلة ومعه امرأة له، فقال لهما: هل من مأوى؟ فقال حنظلة: نعم، فخرج إليه فأنزله ولم يكن للطائيّ غير شاة، وهو لا يعرفه، فقال لامرأته: أرى رجلاً ذا هيئة، وما أخلقه أن يكون شريفاً خطيراً، فما الحيلة؟ قالت: عندي شيء من طحين كنت ادّخرته، فاذبح الشاة، وأخرجت الطحين وخبزت منه، وقام الطائي إلى شاته فاحتلبها ثمّ ذبحها واتّخذ من لحمها مضيرة (طعام يُطبخ باللبن) فأطعمه من لحمها، وسقاه من لبنها، واحتال له بشراب فسقاه، وقطع بقيّة ليلته يحدّثه، فلمّا أصبحا لبس المنذر ثيابه وركب فرسه ثم قال: يا أخا طيء اطلب ثوابك، أنا الملك المنذر، قال: أفعل إن شآء الله، ثمّ اتّجه نحو الحيرة.

ومكث الطائي بعدها زماناً فأصابه جهد وساءت حاله، فقالت له إمرأته: لو أتيتَ الملك لأحسن إليك، فأقبل إلى الحيرة، وكان المنذر وقد جعل له يومين: يوم بؤس مَن صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم مَن لقيه فيه أحسن إليه وأغناه، فصادف الطائيّ مجيئه يوم بؤس المنذر، فإذا هو واقف في خيله في السلاح، فلمّا نظر إلى الطائي عرفه وساءه مكانه، وجاء الطائي حتّى وقف بين يديه فقال له المنذر: أنت حنظلة؟ قال: نعم. قال: أفلا جئت في غير هذا اليوم؟ قال: أبيتَ اللعن وما عليّ بهذا اليوم؟ قال: والله لو سنح لي في هذا اليوم ابني لم

(١) المحبر لمحمّد بن حبيب البغدادي: ٣٤٩.

أجد بدّاً من قتله، فاطلب حاجتك من الدنيا وسَل ما بدا لك فإنّك مقتول. قال: أبيتَ اللعن وما أصنع بالدنيا بعد نفسي؟ والله ما أتيتك إلاّ زائراً ولأهلي من خيرك مائراً، فلا تكن مبرّتهم قتلي. فقال: لا بدّ من ذلك، فاسأل حاجة أقضها لك قبل موتك. قال: تؤجّلني سنة أرجع فيها إلى أهلي وأحكم منهم ما أريد ثمّ أصير إليك فأنفِذ فيّ حكمك. فقال المنذر: ومَن يكفل بك حتّى تعود. فنظر في وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو بن شراحيل الشيباني ـ أبا الحوفزان ـ وكان صاحب الردافة فقال:

يا شريكٌ يا بن عمروٍ	ما من الموت مَحالَه
يا شريكٌ يابن عمرو	يا أخا من لا أخا لَه
يا أخا شيبان فُكَّ	اليوم رهناً قد أنالَه
يا أخا كلّ مضافٍ	وحيا من لا حَيا لَه
إنّ شيبان قبيلي	أكرم الناس رجالَه
وأبو الخيرات عمرو	وشراحيل الحِمالَه
رتّباك اليوم في المجد	وفي حسن المقالَه

فوثب شريك وقال: أبيت اللعن، يدي بيده ودمي بدمه إن لم يَعُدْ إلى أجله. فأطلقه المنذر، فلما كان من القابل قعد المنذر في مجلسه في يوم بؤسه ينتظر حنظلة فأبطأ عليه، فأمر بشريك فقُدّم ليُقتل، فلم يشعر إلاّ وراكب قد طلع، فإذا هو حنظلة وقد تحنّط وتكفّن ومعه نادبته تندبه، وقد قامت نادبة شريك تندبه، فلمّا رأى المنذر ذلك عجب من وفاء الطائيّ وقال له: ما حملك على قتل نفسك؟ فقال: أيّها الملك: الوفاء، ومَن لا وفاء له لا دين له، قال: وما دينك؟ قال: النصرانيّة، فاستحسن ذلك منه وأطلقهما معاً وأبطل تلك البدعة، وكان ذلك سبب تنصّره وتنصّر أهل الحيرة فيما زعموا.[1]

---

(١) معجم البلدان ٤: ١٩٨ - ١٩٩.

وأرجح دليل يتمسّك به الإنسان لمبتغاه، وأوضح سبيل يهدي سالكه إلى بلوغ مناه، كتاب الله الذي مَن تمسّك به هداه، ومن استدلّ به أرشده إلى هداه، وقد دلّ بمنطوقه أنّ الوفاء يجب على كلّ عاقل أن يرعاه، ويحرم عليه أن يخون عهده وينقض عراه، فقال عزّ وجلّ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[1] وقال تقدّس اسمه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً﴾[3] فهذه الآيات مع اختلاف محالّها وتعدّد أسبابها متّفقة على وجوب الوفاء بالعهود والتمسّك بحبالها وتجنّب نقضها، ولو لم يكن في الوفاء فضيلة إلاّ أنّ المتّصف به يعدّ في زمرة الصادقين وينزّه نفسه عن التحلّي بسمة المنافقين لكفى، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا سُئل عن صفات المنافقين قال: «إذا عاهد غدر».[4] فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخِلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون ويحلّ بين الناس في رتب الكرامة.

ثمّ إنّه عليه السلام بعد الترغيب في الوفاء وبيان حسنه، حذّر من الغدر بقوله: «ولا يغدر من علم كيف المرجع» يعني من كان له علم بحالة الغادر في الآخرة وبما يستحّق بغدره من الجحيم والعذاب الأليم لا يصدر منه غدر ولا تكون له رغبة إليه.

قال عليه السلام على منبر الكوفة: «أيّها الناس، لولا كراهية الغدر لكنتُ من أدهى الناس، ألا إنّ لكلّ غدرة فجرة، ولكلّ فجرة كفرة، ألا وإنّ الغدر والفجور والخيانة في النار».[5]

* * *

(١) المائدة: ١.

(٢) النحل: ٩١.

(٣) الاسراء: ٣٤.

(٤) الخصال: ٢٥٤/ ح١٢٩؛ بحار الأنوار ٦٩: ٢٦١/ ح٣٤.

(٥) الكافي ٢: ٣٣٨/ ح٦؛ بحار الأنوار ٣٣: ١٩٧/ ح٤٨٣.

وقال عليه السلام: «قد يرى الحوّلُ القُلّب وجه الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله، ثمّ ينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين».

يقول الإمام عليه السلام هذا وهو صادق في قوله، فكم أدرك مدرك متفقّه في حياته حيلة الوصول إلى مفاتن الدنيا، ثمّ حال بينه وبين تلك المفاتن وازع من دين ورادع من شرف أو كرامة أو إنسانية، فإذا بالرجل الانتهازي الذي لم يتوفّر على كرامة النفس ونُبل الضمير وشرف الدين، إذا به يتحلّل من كلّ ذلك، ويُقبل على دنياه طويل الأمل عريض الشهوات.

فمن هو ذلك المتحرّج الورع الزاهد؟ ثم من هو هذا المتحلّل المتحرّر؟ ذاك علي عليه السلام وهذا معاوية، ذاك علي وتابع علي منذ كان ويكون حتّى الحشر، وهذا معاوية وتابع معاوية منذ كان ويكون حتّى الحشر، ذاك علي والقليل النادر من الناس الذين تفهّموا حياة علي وفقهوا رسالة محمد على لسان علي، وهذا معاوية والكثير الغالب من الناس الذين آثروا الدنيا على الدين، والذين لم يفهموا من الدنيا إلاّ أنّها أداة للمتعة، ولم يفقهوا من الدين إلاّ أنّه واسطة لا غاية، وأنّ الغاية التي تبرّره إنّما هي بُلغة من العيش تضخم في عين الضعيف إيمانه حتّى تراها ملء الدنيا، أطائب من طعام، ولذائذ من شراب، ثمّ طرائف من لباس وسكن ومفاتن من جمال ومتع.

تلك هي فلسفة هذه الكلمة وحكمتها التي حيّرت عقول المؤرّخين، فضلّ بها من سفه، واهتدى بها من عقل، ضلّ بها من لم يعصمه دينه ولا شرفه بين يدي هواه، فكان مثالاً لمعاوية وأخلافه فينا حتّى يومنا هذا وحتّى تقوم الساعة. واهتدى بها من عصمه عقله عن أن يتردّى في هوّة لا ينشله منها إلاّ التحسّس من دينه كيف قام رغم المحن التي تعاقبت عليه، ومن عقله كيف نضج وهو يعلّل دنياه كيف قامت فاستقامت وكلّها بهرج زائف.

تلك هي الحكمة التي فاه بها عليٌّ في صدر هذا البحث ردّاً على من

يقول في عهده وبعد عهده من عبيد الشهوات، يقولون في معرض التحليل السياسي: إنّ علياً لا يُحسن السياسة، وإنّ معاوية هو الجدير بها، حتّى اضطرّوه إلى القول: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنّه يفجر ويغدر، ولولا كراهية الغدر كنتُ من أدهى الناس».[1]

ولا تليق السياسة بالغدر والفجور، فإنّ السياسة إذا لم تقم على الصدق والصراحة والعدل فإنّما هي ظلم وبُهتان وفجور، ولا تليق هذه الخلال بمن يسود أمّته ويخلف الله في خلقه.

تلك هي الحكمة في قول الإمام وتعليله، وتلك هي الغاية من إقدامه في السياسة على كلّ ما هو حق، وإحجامه فيها عن كلّ ما هو باطل.

إذا أفسد الدهرُ أخلاقَنا ... فَعِث فالسياسة أن تُفسِدا
ونافق تَسُد فبغير النفاق ... لم يكُ سيّدنا سيّدا

* * *

ألم ترَ ما حلّ بالمرتضى ... عليٍّ وما قيل في شأنه
أبى أن ينافق عصر النفاق ... ففاز ابنُ هند بسلطانه

* * *

وقالوا السياسة عند الطليق ... وليس لحيدر فيها يدُ
ولو كان خبّاً لكانت له ... يدٌ في السياسة لا تُجحدُ

* * *

إنّ سياسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع شؤونها قد عبّرت عن جميع القيم السياسيّة الخيّرة التي أعلنها الإسلام، فهي لا تقرّ الغدر ولا المكر ولا الخداع، ولا تؤمن بأيّ وسيلة من وسائل النفاق الاجتماعي وإن توقّف عليها النجاح السياسيّ المؤقّت، لأنّ

---

(١) بحار الأنوار ٣٣: ١٩٧؛ و ٤٠: ١٩٣.

الخلافة الإسلاميّة من أهمّ المراكز الحسّاسة في الإسلام، فلا بدّ لها من الاعتماد على الخُلق الرصين والايمان العميق بحقّ المجتمع والأمة.

وإنّ الغدر لا ينبعث إلاّ عن نفس لا تؤمن بالمُثل الانسانيّة والقِيم الدينيّة، ينبعث ممّن لا حراجة له في الدين ولا سلامة ضمير ولاشرف نفس.

فالدين يمنع من كلّ ذلك، ولا يوصف بالغدر رجل له حريجة في الدين. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي إيّاك والغدر، فإنّ كلّ غادر يأتي يوم القيامة مائلاً شدقه وله لواء يُعرف به فيقال: هذه غدرة فلان».[1]

كما أنّه لا يأتلف الغدر مع شيء من المآثر الفاضلة، لأنّه ينمّ عن خسّة في الطبع ودناءة العنصر وعدم مبالاة بنواميس الدين.

[آل الأشعث والغدر]:

وكانت العرب تجتنب الغدر وتأنف منه وتعدّه وصمة في جبين الرجل مدى الدهر، وكانوا يضربون المثل بغدرة آل الأشعث، وقالوا: (أعرق العرب في الغدر آل الأشعث) فإنّ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث غدر بأهل سجستان، وغدر أبوه محمد بأهل طبرستان بعد أن عقد بينهم وبينه عهداً، فغزاهم فأخذوا عليه الشعاب وقتلوا ابنه أبا بكر وفضحوه. وغدر الأشعث ببني الحارث بن كعب ـ وكان بينه وبينهم عهد ـ فغزاهم وأسروه، ففدى نفسه بمأتي قلوص فأدّى مأة وعجز عن البقية، ولمّا أسلم أهدره الإسلام. وغدر قيس أبو الأشعث ببني مراد، فإنّه كان بينه وبينهم عهد إلى أجل وآخره يوم الجمعة فغزاهم يوم الجمعة، فقالوا له: لم ينتهِ الأجل، فكان جوابه: إنّه لا يحلّ لي القتال يوم السبت لأنّه يهودي، فقتلوه وهزموا جيشه. وغدر معديكرب أبو قيس ببني

(١) الكافي ٢: ٣٣٨/ ح ٥ باختصار أوّله.

مهرة، وقد كان بينهم صلح فغزاهم غادراً، فقتلوه وشقّوا بطنه وملأوه حصى وقالوا: (اشبع لا شبعتَ يا ابن بغايا ضَرِيّة).[1]

فالغدر ضامن العثرة، قاطع ليد النصرة، والغالب في الغدر مغلوب، ولا عُذر لغادر.

يقول الشاعر العربي:

أخلق بمن رضيَ الخيانة شيمةً ... ألاّ يُرى إلاّ صريع حوادثِ

ما زالت الأرزاء تلحق بؤسها ... أبداً بغادر ذمّة أو ناكث

[غدرة خالد بن الوليد]:

وكانوا ينصبون الألوية في الأسواق الحافلة بالناس للتعريف بغدرة الغادر والتشهير به ليتجنّبه الناس.

وغدرة خالد بن الوليد ببني جذيمة أعقبته عاراً وخزياً طول الزمن، وقد تبرّأ النبي صلى الله عليه وآله من فعله وغدره. وكان صلى الله عليه وآله قد أرسله داعياً لا مقاتلاً، وكانت بينه وبينهم إحنة، فإنّهم قتلوا عمّه الفاكه بن المغيرة في الجاهلية، فلمّا نزل على ماء لهم أخذوا السلاح فَرَقاً منه، فصاح بهم: ضعوا السلاح فإنّ الناس أسلموا، فلمّا وضعوا السلاح آمنين أمر جنده فكتّفوهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فساءه وأنكره ورفع يديه مبتهلاً إلى الله تعالى قائلاً: اللهمّ إنّي أبرأ إليك من فعل خالد، وأرسل أمير المؤمنين علياً عليه السلام ومعه مال ليودي بني جذيمة حتّى ميلغة الكلب.

هكذا جاء في صحيح البخاري مج ٣ من كتاب المغازي، والاستيعاب بترجمة خالد، وتاريخ الطبري ج ٣ ص ١٢٣، وكامل ابن الأثير في حوادث سنة ٨.

وكم أوقع الغدر في المهالك من غادر، وضاقت عليه من موارد الهلكات

---

(١) المحبر لمحمد بن حبيب البغدادي: ٢٤٤ - ٢٤٥.

فسيحات المصادر، وطوّقه غدره طوق خزي، وأوقعه في خطّة حتفه، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.(١)

[قصة ثعلبة بن حاطب]:

ويشهد لصّحة هذه الأسباب قصّة ثعلبة بن حاطب الأنصاري، وذلك أنّ ثعلبة هذا كان من أنصار النبي صلى الله عليه وآله، فجاءه يوماً وقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يرزقني مالاً. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ويحك يا ثعلبة، قليلٌ تؤدّي شكره خير من كثير لا تُطيقه. ثمّ أتاه بعد ذلك مرّة أخرى فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا ثعلبة أما لك في رسول الله أُسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردتُ أن تسير الجبال معي ذهباً وفضّة لسارت. ثمّ أتاه بعد ذلك مرّة ثالثة فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يرزقني مالاً، والذي بعثك بالحقّ نبيّاً لئن رزقني الله مالاً لأُعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه، وعاهد الله تعالى على ذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهمّ ارزق ثعلبة مالاً، فاتّخذ ثعلبة غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحّى عنها ونزل وادياً من أوديتها، وهي تنمو كما ينمو الدود، وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له حمامة المسجد، فلمّا كثرت الغنم وتنحّى صار يصلّي مع رسول الله صلى الله عليه وآله الظهر والعصر، ويصلّي بقيّة الصلوات في غنمه، فكثرت ونمت حتّى بَعُد عن المدينة، فصار لا يشهد إلاّ الجمعة، ثمّ كثرت ونمت فتباعد أيضاً عن المدينة حتّى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقّى الناس يسألهم عن الأخبار، فذكره رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم فقال: ما فعل ثعلبة؟ قالوا: يا رسول الله اتّخذ غنماً ما يسعها وادٍ، فقال صلى الله عليه وآله: يا ويح ثعلبة، فأنزل الله تعالى آية الصدقة، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله رجلين: رجل من بني سليم ورجل من جهينة، وكتب لهما

(١) فاطر: ٤٣.

أنصاب الصدقة وكيف يأخذانها، وقال لهما: مرّا بثعلبة بن حاطب وبرجل آخر من بني سليم فخُذا صدقاتهما، فخرجا حتّى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: ما هذه إلاّ جِزية _ أو ما هذه إلاّ أخت الجزية _ انطلقا حتّى تفرغا ثمّ عودا إلي، فانطلقا، وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار إبله فعزلها للصدقة ثمّ استقبلهما بها، فلمّا رأياه قالا: ما هذا؟ قال: خُذاه نفسي به طيّبة، فمرّا على الناس وأخذا الصدقات ثمّ رجعا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما، فقرأه، ثمّ قال: ما هذه إلاّ جزية أو ما هذه إلاّ أخت الجزية، اذهبا حتّى أرى رأياً. قال: فذهبا من عنده وأقبلا على رسول الله صلى الله عليه وآله، فلمّا رآهما قال قبل أن يتكلّما: يا ويح ثعلبة. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِه لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِه بَخِلُوا بِه وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ * أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾.[1]

وكان عند رسول الله صلى الله عليه وآله رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك فخرج حتّى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة، قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتّى أتى النبي صلى الله عليه وآله فسأله أن يقبل صدقته، فقال: إنّ الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة، فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ووجهه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هذا عملك، قد أمرتُك فلم تُطعني، فلمّا أبى رسول الله أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، وقُبض رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يقبل منه شيئاً، ثمّ أتى إلى أبي بكر حين استُخلف فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله صلى الله عليه وآله وموضعي من الأنصار، فاقبل صدقتي، فقال أبوبكر: لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وآله منك فلا أقبلها أنا، فقُبض أبوبكر ولم يقبلها، فلمّا ولي عمر أتاه فقال: يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي، فلم

---

(١) التوبة: ٧٥ – ٧٨.

يقبلها منه وقال: لم يقبلها رسول الله ولا أبوبكر فأنا لا أقبلها، وقُبض عمر ولم يقبلها، ثمّ ولي عثمان بن عفّان فسأله أن يقبل صدقته، فقال له: لم يقبلها رسول الله ولا أبوبكر ولا عمر فأنا لا أقبلها، ثمّ هلك ثعلبة في خلافة عثمان.[1]

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره، ووسمه بسمة عار قضت عليه بخسران، فأيّ خزيٍ أرجح من ترك الوفاء بالميثاق، وأيّ سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق؟

وكان يقال: لم يغدر غادر قطّ إلاّ لصغر همّته من الوفاء، واتّضاع قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم.

ولمّا حلف محمّد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام وهما وليّا عهد، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذلني الله إن خذلتُه، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال الفضل بن الربيع: قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العبّاس أجد في نفسي أنّ أمري لا يتمّ. فقلت له: ولم ذلك أعزّ الله الأمير؟ قال: لأنّي كنت أحلف وأنا أنوي الغدر. وكان كذلك لم يتمّ أمره.

* * *

[قصة سابور وبنت الملك الغادرة]:

وورد في أخبار العرب: أنّ الضَيزَن بن معاوية بن قضاعة كان ملكاً بين دجلة والفرات، وكان له هناك قصر مشيد يُعرف بالجوسق، وبلغ مُلكه الشام، فأغار على مدينة سابور ذي الأكتاف فأخذها وقتل منهم خلقاً كثيراً، ثمّ إنّ سابور جمع جيوشاً وسار إلى الضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شيء، ثمّ أنّ النضيرة بنت الضيزن عركت _ أي حاضت _ فخرجت من الربض _ وكانت من أجمل أهل دهرها، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا

(١) بحار الأنوار ٢٢: ٤٠؛ فيض القدير ٤: ٦٨٨ - ٦٨٩.

حضن _ وكان سابور من أجمل أهل زمانه، فرآها ورأته فعشقها وعشقته، وأرسلت إليه تقول: ما تجعل لي إن دللتُك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبي؟ فقال: أحكّمك. فقالت: عليك بحمامة مطوّقة وورقة فاكتب عليها بحيض جارية ثمّ أطلقها فإنّها تقعد على حائط المدينة فتداعى المدينة كلها _ وكان ذلك طلسماً لا يهدمها إلاّ هو ففعل ذلك، فقالت له: وأنا أسقي الحرس الخمر، فإذا صُرعوا فاقتلهم، ففعل ذلك فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة وقتل الضيزن واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها، فلمّا دخل بها لم تزل ليلتها تتضوّر وتململ في فراشها وهو من حرير محشوّ بريش النعام _ فالتمس ما كان يؤذيها فإذا هو ورقة آسٍ التصقت بعكنتها وأثّرت فيها، وقيل كان ينظر إلى مخّ عظمها من صفاء بشرتها. ثمّ إنّ سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها، وقيل أنّه أمر رجلاً فركب فرساً جموحاً وضفر غدائرها بذنبه ثمّ استركضه فقطعها قطعاً.[1]

[جزاني جزاء سنمار]:

وتقول العرب في المثل: (جزاني جزاء سنّمار) وهو أنّ أزدجرد بن سابور لمّا خاف على ولده بهرام _ وكان قبله لا يعيش له ولد _ سأل عن منزل صحّي مري فدُلّ على ظهر الجزيرة، فدفع ابنه بهرام إلى النعمان _ وهو عامله على أرض العرب _ وأمره أن يبني له جوسقاً، فامتثل أمره وبنى له جوسقاً كأحسن ما يكون، وكان الذي بنى الجوسق رجلاً يقال له سنّمار، فلمّا فرغ من بنائه عجبوا من حسنه، فقال: لو علمتُ أنّكم توفوني أجره لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت. فقالوا: وإنّك لتبني أحسن من هذا ولم تبنه، ثم أمر به فطُرح من أعلى الجوسق فتقطّع. فكانت العرب بعد ذلك تقول: (جزاني جزاء سنّمار) إلى كثير وكثير من هذه النظائر.[2]

---

(١) تاريخ الطبري ١: ٤٨٤ - ٥٨٥.

(٢) تاريخ الطبري ١: ٤٩٩.

وخرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتّى ألجؤها إلى خباء أعرابي، فأجارها وجعل يُطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت، فجاء ابن عمه يطلبه فوجده ملقى، فتبعها حتّى قتلها وأنشد يقول:

ومن يصنع المعروف مَعْ غير أهله ... يُلاقي كما لاقى مجيرُ أمّ عامرِ
أعدّ لها لمّا استجارت ببيته ... أحاليب ألبان اللقاح الدرائر
وأسمنها حتّى إذا ما تمكّنت ... فَرَتْهُ بأنياب لها وأظافر
فقُل لذوي المعروف هذا جزاء من ... يجود بمعروفٍ على غير شاكر[1]

* * *

(١) قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا: ٨٣

من خطبة له عليه السلام:

[التحذير من اتباع الهوى وطول الأمل]

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ اصْطَبَّهَا صَابُّهَا أَلَا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ وَغَداً حِسَابٌ وَلَا عَمَلَ».

(شرح النهج لابن أبي الحديد مج ١ ص ٢١٨، ط الأولى).

* * *

ضبط الألفاظ الغريبة:

(الحذّاء) السريعة. ومن الناس من يروي جذّاء بالجيم والذال أي انقطع خيرها ودرّها. (والصبابة) بضمّ الصاد المهملة: بقيّة الماء في الاناء. (والاصطباب) افتعال من الصبّ وهو الإراقة.

* * *

المعنى:

إنّ مقصوده عليه السلام بهذه الخطبة: النهي عن اتّباع الهوى، والمنع من طول الأمل في الدنيا، فإنّهما من أعظم الموبقات وأشدّ المهلكات، كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.[1]

---

(١) النازعات: ٣٧ - ٤١.

يعني من تجاوز الحدّ الذي حدّه الله وارتكب المعاصي وفضّل الدنيا على الآخرة واختارها عليها فإنّ النار منزله ومأواه، وأمّا من خاف مقام مسألة ربّه فيما يجب عليه فعله أو تركه، ونهى نفسه عن الحرام الذي تهواه وتشتهيه فإنّ الجنّة مقرّه ومثواه، ولكونهما من أعظم المهلكات كان خوفه منهما أشد، كما أشار اليهما بقوله عليه السلام: «أيّها الناس إنّ أخوف ما أخافه عليكم اثنتان» أي خصلتان، إحداهما (اتّباع الهوى) والمراد به ميل النفس الأمّارة بالسوء إلى مقتضى طباعها من اللذات الدنيوية إلى حدّ الخروج عن قصد الشريعة.

[إتباع الهوى]:

ولا ريب أنّ حبّ الهوى يعمي البصيرة، وقد قيل: حبّك الشيء يُعمي ويُصمّ. قال بعض الصالحين: رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي، وذاك لأنّ الإنسان يحبّ نفسه، ومن أحبّ شيئاً عمي عن عيوبه فلا يكاد يلمح عيب نفسه، وقد قيل في ذلك:

أرى كلّ إنسان يرى عيب غيره ... ويعمى عن العيب الذي هو فيه[1]

ولهذا استعان الصالحون على معرفة عيوبهم بأقوال غيرهم، علماً منهم أنّ هوى النفس لذاتها يصمّها عن أن تدرك عيبها، وما زال الهوى مردياً قتّالاً، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[2] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوىً متّبع، وإعجاب المرء بنفسه.[3]

[مجامع الهوى خمسة]:

ومجامع الهوى خمسة أمور جمعها قوله سبحانه:

﴿أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ

(١) فيض القدير للمناوي (٦): ٥٩١، ولم ينسبه.

(٢) النازعات: ٤٠.

(٣) عوالي اللئالي ١: ٢٧٣/ ح٩٦.

أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.(١)

والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة جمعها قوله سبحانه:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.(٢)

[طول الأمل]:

والخصلة الثانية (طول الأمل) والمراد بالأمل تعلّق النفس بحصول محبوب في المستقبل، ويرادفه الطمع والرجاء، إلاّ أنّ الأمل كثيراً ما يستعمل فيما يستبعد حصوله، والطمع فيما قرب حصوله، والرجاء بين الأمل والطمع، وطول الأمل عبارة عن توقّع أمور دنيويّة يستدعي حصولها مهلة في الأجل وفسحة من الزمان المستقبل.

ثم أنّه عليه السلام بعد تحذيره عن اتّباع الهوى وطول الأمل أشار إلى ما يترتّب عليهما من المفاسد الدينيّة والمضار الأخرويّة فقال: «أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ» وذلك لأنّ اتّباع الهوى يوجب صرف النظر إلى الشهوات الدنيويّة وقصر الهمّة في اللذّات الفانية، وهو مستلزم للاعراض عن الحقّ، وهو واضح، لأنّ حبّك للشيء صارفك عمّا وراه، وشاغلك عمّا عداه.

«وأمّا طول الأمل فيُنسي الآخرة» وذلك لما عرفت من أنّ طول الأمل عبارة عن توقّع أمور محبوبة دنيويّة، فهو يوجب دوام ملاحظتها، ودوام ملاحظتها مستلزم لإعراض النفس عن ملاحظة أحوال الآخرة، وهو مستعقب لانمحاء تصوّرها في الذهن، وذلك معنى النسيان لها.

قال بعضهم: سبب طول الأمل هو حبّ الدنيا، فإنّ الإنسان إذا أنس بها

---

(١) الحديد: ٢٠.

(٢) آل عمران: ١٤.

وبلذّاتها ثقل عليه مفارقتها وأحبّ دوامها، فلا يتفكّر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، فإنّ من أحبّ شيئاً كره الفكر فيما يُزيله ويُبطله، فلا تزال نفسه تتمنّى البقاء في الدنيا وتقدّر حصول ما تحتاج إليه من أهل ومال وأدوات وأسباب، ويصير فكره مستغرقاً في ذلك، فلا يخطر الموت ولا الآخرة بباله.

وإن خطر بخاطره الموت والتوبة والاقبال على الأعمال الأخرويّة أخّر ذلك من يوم إلى يوم، ومن شهر إلى شهر، ومن عام إلى عام، وقال: إلى أن أكتهل ويزول سنّ الشباب، فإذا اكتهل قال: إلى أن أصير شيخاً، فإذا شاخ قال: إلى أن أتمّ هذه الدار وأزوّج ولدي فلاناً، وإلى أن أعود من هذا السفر، وهكذا يسوّف التوبة، كلّما فرغ من شغل عرض له شغل آخر ـ بل أشغال ـ حتّى يختطفه الموت وهو غافل عنه غير مستعدّ له مستغرق القلب في أمور الدنيا، فتطول في الآخرة حسرته، وتكثر ندامته، وذلك هو الخسران المبين.

[النهي والتحذير من طول الأمل]:

وقد وردت أخبار كثيرة في ذمّ طول الأمل والتحذير منه وبيان ما يترتّب عليه من المفاسد.

ففي الحديث القدسيّ: يا موسى لا تطوّل في الدنيا أملك فيقسو لذلك قلبك، وقاسي القلب منّي بعيد.[1] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر رحمه الله: «يا أبا ذر إيّاك والتسويف بأملك، فإنّك بيومك ولست لما بعده، فإن يكن غدٌ لك فكن في الغد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن غد لك لم تندم على ما فرّطت، يا أبا ذر كم مُستقبلٍ يوماً لا يستكمله، ومُنتظرٍ غداً لا يبلغه، يا أبا ذر لو نظرتَ إلى الأجل ومصيره لأبغضتَ الأمل وغروره، يا أبا ذر إذا أصبحتَ فلا تُحدّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح، وخُذ من صحّتك قبل

(١) الجواهر السنيّة: ٣١؛ بحار الأنوار ٧٤: ٣١.

سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنّك لا تدري ما اسمك غداً».[١]

وعن أنس أنّ النبي صلى الله عليه وآله خطّ خطاً وقال: هذا الانسان، وخط خطّاً إلى جنبه وقال: هذا أجله، وخطّ آخر بعيداً منه فقال: هذا الأمل، فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقرب.[٢]

وفي رواية أنّه اجتمع عبدان من عباد الله، فقال أحدهما للآخر: ما بلغ من قصر أملك؟ فقال: أملي إذا أصبحتُ أن لا أُمسي، وإذا أمسيتُ أن لا أصبح. فقال: إنّك لطويل الأمل، أمّا أنا فلا أؤمّل أن يدخل لي نَفَس إذا خرج، ولا يخرج لي نَفَس إذا دخل.

وفي الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

تؤمّل في الدنيا طويلاً ولا تدري ... إذا جنّ ليلٌ هل تعيش إلى فجرِ
فكم من صحيحٍ مات من غير علّة ... وكم من مريضٍ عاش دهراً إلى دهر
وكم من فتىً يُمسي ويُصبح آمناً ... وقد نُسجت أكفانُه وهو لا يدري

* * *

(١) أمالي الطوسي: ٥٢٦؛ مكارم الأخلاق: ٤٥٩.

(٢) العهود المحمّديّة للشعراني: ٥٥٩.

ومن خطبة له عليه السلام:

[يدعو فيها للزهد والشكر عند النعم]

«أَيُّهَا النَّاسُ الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلَا يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ وَلَا تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ وَكُتُبٍ بَارِزَةِ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ».

(شرح النهج لابن ابي الحديد مج ٢، ص ٨٢، ط ١).

* * *

ضبط الألفاظ الغريبة:

(الزهادة) كسعادة، والزهد بمعنى ترك الميل إلى الشيء، وفي الاصطلاح إعراض النفس عن الدنيا وطيّباتها، وقيل: هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة. و(عزب) الشيء غاب وذهب. و(أعذر الله إليكم) أظهر عذره.

المعنى: [الحث على الزهد]

إنّ مقصوده عليه السلام بهذه الخطبة بيان معنى الزهد والتنبيه على لزومه لكونه من عظائم مكارم الصالحين، وجلائل صفات المتّقين، وعمدة مقامات السالكين إلى الله تعالى بقدمَي الطاعة واليقين، والرغبة ضدّه، والأوّل من جنود العقل، والثاني من جنود الجهل، وقد فسّره بقوله عليه السلام: «أيّها الناس الزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم، والورع عن المحارم» وهذه الثلاثة من لوازم الزهد.

وإنّما قلنا إنّها من لوازمه لأنّ الزهد في الحقيقة عبارة عن إعراض النفس عن الدنيا وإقبالها إلى الآخرة، ومن هنا قيل إنّه جَعْلُ القلب حيّاً بمشاهدة أحوال الآخرة وميّتاً

في طمع الدنيا، ومن المعلوم أنّ إعراض النفس عن الدنيا مستلزم لقصر الأمل فيها، والإقبال على الآخرة مستلزم للشكر، إذ الكفران موجب للعذاب باعث للسخط والعقاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.(١)

وكذلك يلزمه الورع عن المحارم والكفّ عنها، إذ لا يُنال ما عند الله إلاّ بالورع، قال الإمام الصادق عليه السلام في رواية الوسائل: «عليكم بالورع، فإنّه الدين الذي نلازمه وندين الله تعالى به، ونريدهُ ممّن يوالينا، لا تُتعبونا بالشفاعة».(٢)

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أبا ذر من لم يأتِ يوم القيامة بثلاث فقد خسر. قلت: وما الثلاث فداك أبي وأمّي؟ قال: وَرَعٌ يحجزه عمّا حرّم الله عزّ وجلّ عليه، وحلم يردّ به جهل السفيه، وخُلق يداري به الناس».(٣)

ولمّا كان ملازمة هذه الأمور الثلاثة بأجمعها شاقّة صعبة في حقّ الأغلب من الناس، لاجرم رخصّ لهم في طول الأمل بقوله: «فإن عزب» بَعُد «ذلك عنكم فلا يغلب الحرامُ صبرَكم، ولا تنسوا عند النعم شُكركم» يعني أنّكم إن لم تتمكّنوا من الإتيان بالأمور الثلاثة، فلا محالة لا تتركوا الاثنين، إذ ما لا يُدرك كلّه لا يُترك كلّه.

وإنّما رخّص في ترك طول الأمل ولم يرخّص في ترك الشكر أو الورع، لأنّ طول الأمل ليس محرّماً بالذات وإن كان ينجرّ إلى المحرّم أحياناً، بخلاف الكفران والتقحّم في المحارم، فإنّهما محرّمان بالذات، والترخيص فيهما موجب للاغراء بالقبيح.

ثم أكّد ملازمة الزهادة وعلّل لزومها بقوله عليه السلام: «فقد أعذر الله إليكم بحُجج مُسفرة وكُتب بارزة العذر واضحة» يعني أظهر عذره إليكم في تعذيبكم لو خالفتم تكاليفه بإقامة الحجج الظاهرة المضيئة وإنزال الكتب الواضحة التي

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) وسائل الشيعة ١٥: ٢٤٨/ ح٢٠٤١١.

(٣) بحار الأنوار ٧٤: ٨٧

أبرز فيها عذره، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[1] و﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.[2]

أو أنّه سبحانه أزال عذره بإقامة البراهين العقلية والنقليّة والحُجج الباطنيّة والظاهريّة، فلم يبق لكم مقام للاعتذار وأن تقولوا يوم القيامة: ﴿رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى﴾.[3]

ومن الخير أن نشير إلى بعض ما ورد في فضيلة الزهد من الآيات والأحاديث الشريفة.

قال الله سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾.[4]

فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم، وهو غاية المدح والثناء.

[موكب قارون]:

استعرض الله سبحانه في هذه الآية الشريفة قصّة قارون وطغيانه وتجبّره لما رآى كثرة ما عنده من خزائن المال، وأنّ هذا إنّما أُوتيه باستحقاق، فخرج يوماً على قومه في زينة تبهر العقول، خرج في أربعة آلاف من أتباعه ومواليه على خيول مصفّحة بالذهب، عليها من اليواقيت والفلزّات ما يخطف الأبصار ويُدهش الأفكار، وعلى قومه من ألبسة الحرير والديباج ما لم تره عين، فأخذه الزهو والعجب وأظهر التكبّر على موسى ـ وهو ابن عمّه أو ابن خالته ـ فكفر وتحدّى أمر موسى واستهزأ به وأوغل في إيذائه، وصرف

---

(١) الأنفال: ٤٢.

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) طه: ١٣٤.

(٤) القصص: ٧٩ و٨٠.

وجه الناس وموّه عليهم إلى أن موسى إنّما هو ساحر وليس بنبيّ مرسل، وألجأه الحسد لموسى أنّه دعى إمرأة من بني اسرائيل بغيّاً فقال لها: إنّي أعطيك ألفين على أن تجيئي غداً إذا اجتمعت بنو اسرائيل عندي فتقولي: يا معشر بني إسرائيل ما لي ولموسى قد آذاني. قالت: نعم، فأعطاها خريطتين عليهما خاتمه، فلمّا جاءت بيتها ندمت وقالت: يا ويلتي قد عملت كلّ فاحشة، فما بقي إلاّ أن أفتري على نبيّ الله، فلمّا أصبحت أقبلت ومعها الخريطتان حتى قامت بين بني إسرائيل، فقالت: إنّ قارون قد أعطاني هاتين الخريطتين على أن آتي جماعتكم فأزعم أنّ موسى يراودني عن نفسي، ومعاذ الله أن أفتري على نبيّ الله، وهذه دراهمه عليها خاتمه. فعرف بنو اسرائيل خاتم قارون. فغضب موسى فدعا الله عليه، فأوحى الله إليه: إنّي أمرت الأرض أن تطيعك، وسلّطتها عليه فمُرها. فقال موسى: يا أرض خُذيه ـ وهو على سريره وفرشه ـ، فأخذته حتى غيّبت سريره، فلمّا رأى قارون ذلك ناشده الرحم، فقال: خذيه، فأخذته حتى غيّبت قدميه، ثم أخذته حتى غيّبت ركبتيه، ثم أخذته حتى غيّبت حقويه، وهو يُناشده الرحم، فأخذته حتى غيّبته، فأوحى الله إليه: يا موسى ناشدك الرحم واستغاثك فأبيتَ أن تُغيثه، لو إيّاي دعا واستغاثني لأغثته.

ولمّا ابتلعته الأرض قال بنو إسرائيل: إنّما فعل ذلك موسى ليرث ماله لأنّه كان ابن عمّه، فخُسف بداره وبجميع أمواله بعده بثلاثة أيام ﴿فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ بنفسه لنفسه ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ حين خرج عليهم في زينته ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ وهي كلمة تندّم واعتراف ﴿لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ﴾[1] أي لا يفوز بثواب الله وينجو من عقابه الجاحدون لنعمه، العابدون معه سواه.[2]

---

(١) القصص: ٨٢

(٢) تفسير مجمع البيان ٧: ٤٦١ - ٤٦٢.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.(١)

وقال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾.(٢)

ومن الأحاديث الشريفة ما جاء في أصول الكافي، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصّره عيوب الدنيا داءها ودواءها، وأخرجه من الدنيا سالماً إلى دار السلام».(٣)

وقال عليه السلام: «جُعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا».(٤)

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ من أعوان الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا».(٥)

وإنّ رجلاً سأل علي بن الحسين عليه السلام عن الزهد، فقال: عشرة أشياء، فأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا، ألا وإنّ الزهد في آية من كتاب الله عزّ وجلّ ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.(٦) (٧)

وعن سفيان بن عيينة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام وهو يقول: «كلّ قلب فيه شكّ أو شرك فهو ساقط، وإنّما أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم في الآخرة».(٨)

---

(١) طه: ١٣١.

(٢) الشورى: ٢٠.

(٣) الكافي ٢: ١٢٨/ ح١.

(٤) الكافي ٢: ١٢٨/ ح٢.

(٥) الكافي ٢: ١٢٨/ ح٣.

(٦) الحديد: ٢٣.

(٧) الكافي ٢: ١٢٨/ ح٤.

(٨) الكافي ٢: ١٢٩/ ح٥.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ علامة الراغب في ثواب الآخرة زهده في عاجل زهرة الحياة الدنيا، أما إنّ زهد الزاهد في هذه الدنيا لا ينقصه ممّا قسم الله عزّ وجلّ له فيها وإن زهد، وإنّ حرص الحريص على عاجل زهرة الدنيا لا يزيده فيها وإن حرص، فالمغبون من حُرم حظّه من الآخرة».[1]

[موعظة علي عليه السلام لنوف صاحبه]:

في كتاب (مسند الإمام علي عليه السلام) عن أمالي الشيخ المفيد، عن نوف البكّالي: قال: بتّ ليلة عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فرأيته يكثر الاختلاف من منزله وينظر إلى السماء، قال: فدخل كبعض ما كان يدخل، قال: أنائم أنت أم رامق؟ فقلت: بل رامق يا أمير المؤمنين، ما زلت أرمقك منذ الليلة بعيني وأنظر ما تصنع، قال: يَا نَوْفُ طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا الرَّاغِبِينَ فِي الْآخِرَةِ أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بِسَاطاً وَتُرَابَهَا فِرَاشاً وَمَاءَهَا طِيباً وَالْقُرْآنَ شِعَاراً وَالدُّعَاءَ دِثَاراً ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضاً عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ عليه السلام.

يا نوف إنّ الله أوحى إلى عيسى عليه السلام: قل للملأ من بني اسرائيل لا يدخلوا بيتاً من بيوتي إلاّ بقلوب طاهرة وأبصار خاشعة وأكفّ نقيّة، وقل لهم: اعلموا إنّي غير مستجيب لأحد منكم دعوة ولأحد من خلقي قِبَله مظلمة، يا نوف إيّاك أن تكون عشّاراً أو شاعراً أو شرطياً أو عرّيفاً أو صاحب عرطبة ـ وهي الطنبور ـ أو صاحب كوبة ـ وهي الطبل ـ فإنّ نبيّ الله خرج ذات ليلة فنظر إلى السماء فقال: إنها الساعة التي لا تُردّ فيها دعوة إلاّ دعوة عِرّيف أو دعوة شاعر أو شرطيّ أو صاحب عرطبة أو صاحب كوبة.[2]

---

(١) الكافي ٢: ١٢٩/ ح٦.

(٢) أمالي المفيد: ١٣٣، المجلس ١٦؛ بحار الأنوار ٤١: ١٦.

[رسول الله صلى الله عليه وآله وليلة الإسراء]:

وفي إرشاد القلوب للديلميّ عن أمير المؤمنين عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: قال الله تعالى له في ليلة الإسراء: «يا أحمد إن أحببت أن تكون أورع الناس فازهد في الدنيا وارغب في الآخرة. فقال: يا إلهي وكيف أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة؟ فقال: خُذ من الدنيا خفّاً من الطعام والشراب واللباس، ولا تدّخر شيئاً لغدٍ، ودُم على ذِكري. إلى أن قال: يا أحمد هل تعرف ما للزاهدين عندي في الآخرة؟ قال: لا يا ربّ، قال: تُبعث الخلائق ويُناقشون بالحساب وهم من ذلك آمنون، إنّ أدنى ما أُعطي للزاهدين في الآخرة أن أعطيهم مفاتيح الجنان كلّها حتّى يفتحوا أيّ باب شاؤا، ولا أحجب عنهم وجهي، ولأمتّعنّهم بأنواع التلذّذ من كلامي، ولأُجلسنّهم في مقعد صدق، فأذكّرهم ما صنعوا وتعبوا في دار الدنيا، وأفتح لهم أربعة أبواب: باب تدخل عليهم الهدايا بكرة وعشيّاً من عندي، وباب ينظرون منه إليّ كيف شاؤا بلا صعوبة، وباب يطّلعون منه إلى النار فينظرون إلى الظالمين كيف يُعذَّبون، وباب تدخل عليهم منه الوصائف والحور العين. قال: يا ربّ فمن هؤلاء الزاهدون الذين وصفتهم؟ قال: الزاهد الذي ليس له بيت يخرب فيغتمّ بخرابه، ولا ولد يموت فيحزن بموته، ولا له مال يذهب فيحزن بذهابه، ولا يعرفه إنسان يشغله عن الله عزّ وجلّ طرفة عين، ولا له فضل طعام فيُسئل عنه، ولا له ثوب ليّن.

يا أحمد، وجوه الزاهدين مصفرّة من تعب الليل وصوم النهار، وألسنتهم كلال إلاّ من ذِكر الله، قلوبهم في صدورهم مطعونة من كثرة ما يخالفون أهواءهم، قد ضمروا أنفسهم من كثرة صمتهم، قد أعطوا المجهود من أنفسهم، لا من خوف نار ولا من شوق جنّة ولكن ينظرون في ملكوت السماوات والأرضين فيعلمون أنّ الله سبحانه وتعالى أهل للعبادة».[1]

---

(١) إرشاد القلوب، الباب ٥٤؛ وعنه بحار الأنوار ٧٤: ٢١ - ٣٠/ ح٦.

[أوجه الزهد]:

وبالتالي: الزهد على ثلاثة أوجه:

الأول الزهد الذي ليس فوقه زهد، أن يكون المرء لا يسرّه أنّ الدنيا كلها له يُعَمَّرُ عمرها ويحتوي ملكها ولا يصل إليه شيء من مكارهها، فلا يسأل عليها ولا يرضى بها ولا يتمنّاها لنفادها وانقراضها، فهذا هو الزهد الذي ليس فوقه زهد، وهو غير موجود إلاّ ما بقي ذِكره في الكتب ويتردّد على الألسنة منه في المحاضر.

الوجه الثاني: أن يزهد الانسان في الدنيا وقلبه معلّق بها محبّ لها مائل إليها، فهو يمنع نفسه قسراً عنها مخافة سوء عواقبها، فهو من نفسه في جهاد، ومن علاجها في اجتهاد، فهو زاهد صابر.

والوجه الثالث: أن يزهد فيما حرّم الله عليه، وهو اللازم للعباد والمفروض عليهم الذي ليس للعبد فيه عذر ولا له عليه حجّة، وهو دون الوجه الثاني، وله فيه نجاة من النار برحمة الله العزيز الغفار. قال بعض العلماء: «لن يصل الانسان إلى ما يريد من الطاعة، ولن يبلغ إلى بُغيته من العبادة إلاّ بالزهد في الدنيا والصبر على تركها».

وصفوة القول: إنّ الزهد في الدنيا ليس بإهمال النفس وحرمانها المتاع المباح وإضعاف الجسم وإدخال الضرر بتقتير العيش والتعرّض للمعاطب والتصدّي إلى المهالك، فإنّ استعمال ما تصحّ به القوى وتحيا به النفس ويُعين على العمل واجب متعيّن، وحقيقة الزهد كما قال تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾.[1]

* * *

جاء في دائرة المعارف البستانية: الزهد لغةً: الاعراض عن الشيء احتقاراً له، من قولهم: شيء زهيد ـ أي قليل ـ وهو عند الصوفيّة أخذ قدر الضرورة من الحلال. وقيل: بغض الدنيا والاعراض عنها. وقيل: ترك راحة الدنيا طلباً لراحة

(١) الحديد: ٢٣.

الآخرة. وقيل: هو أن يخلو قلبك ممّا خلت منه يدك. وقيل: هو أخذ قدر الضرورة من الحلال المتيقّن الحلّ، فهو أخصّ من الورع، إذ هو ترك المشتبه وهذا زهد العارفين؛ وأعلى منه زهد المقرّبين، وهو الزهد فيما سوى الله تعالى من دنيا وجنّة وغيرهما، إذ ليس لصاحب هذا الزهد إلاّ الوصول إليه تعالى والقرب منه، ويندرج فيه كلّ مقصود لغيرهم.

وقد اختلف العلماء في تفسير المزهود فيه، فقيل: الدنيا والدرهم، وقيل: المطعم والمشرب والملبس والمسكن، وقيل: الحياة. ويشتمل الزهد عندهم على ثلاثة أمور كلّها من القلب دون الجوارح، ومن ثم كان أبو سليمان يقول: لا نشهد إلى أحد بالزهد لأنّه في القلب، فمنشأ أوّل تلك الأمور الثلاثة من صحّة اليقين وقوّته، فإنّ الله تعالى يتكفّل بأرزاق عباده. وفي حديث مرفوع: من سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق مما في يده.[1] ومنشأ الثاني من كمال اليقين، ومن ثم روي أنّ من دعائه صلى الله عليه وآله: اللهمّ اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلّغنا به جنّتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا.[2] ولهذا قيل: من زهد في الدنيا هانت عليه المصائب. ومنشأ الثالث من سقوط منزلة المخلوقين من القلب وامتلائه من محبّة الحقّ.

وقد عرّف بعض الصوفية الزهد بقوله: إنه إسقاط الرغبة عن الشيء بالكليّة، فلا يفرح بموجود ولا يأسف على مفقود، وثمرته القناعة من الدنيا بقدر الضرورة من زاد الطريق: وهو مطعم يدفع الجوع، وملبس يستر العورة، ومسكن يصونه عن الحرّ والبرد، وأثاث يحتاج إليه. وأقسامه ثلاثة: وهي زهد

(١) فقه الرضا: ٣٥٤؛ الكافي ٢: ١٣٩/ ح٨.

(٢) عوالي اللئالي ١: ١٥٩/ ح١٤٤.

العوام وهو ترك الحرام، وزهد الخواص وهو ترك ما زاد عن الضرورة من الحلال، وزهد خواص الخواص وهو ترك ما سوى الله تعالى. وأنشد بعضهم:

وما الزهد إلاّ في انقطاع العلائق ... وما الحقّ إلاّ في وجود الحقائقِ
وما الحبّ إلاّ حبّ من كان قلبه ... عن الخلق مشغولاً برب الخلائقِ[1]

* * *

وكان شقيق بن إبراهيم البلخي يقول: ثلاث خصال هي تاج الزاهد: الأولى أن يميل على الهوى ولا يميل مع الهوى، والثانية ينقطع الزاهد إلى الزهد بقلبه، والثالثة أن يذكر كلّما خلا بنفسه كيف مدخله في قبره وكيف مخرجه، ويذكر الجوع والعطش والعري، وطول القيامة والحساب والصراط وطول الحساب والفضيحة البادية، فإذا ذكر ذلك شغله عن ذكر دار الغرور، فإذا كان ذلك كان من محبّي الزهّاد، ومن أحبّهم كان معهم.

وقال إبراهيم بن أدهم: أقرب الزهّاد من الله عزّ وجلّ أشدّهم خوفاً، وأحبّ الزهّاد إلى الله أحسنهم له عملاً، وأفضل الزهّاد عند الله أعظمهم فيما عنده رغبة، وأكرم الزهّاد عليه أتقاهم له، وأتمّ الزهّاد زهداً أسخاهم نفساً وأسلمهم صدراً، وأكمل الزهّاد زهداً أكثرهم يقيناً.

وقال أيضاً: الزاهد يكتفي من الأحاديث والقال والقيل وما كان وما يكون، يقول الله تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[2] يوم يقال ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾.[3]

وقال شقيق البلخيّ: والزاهد والراغب كرجلين يريد أحدها المشرق والآخر

---

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤١: ٢٥٠، أنّ أبا العبّاس البلخي أنشده بمدينة السلام، وبعده:

يصدّ عن الدنيا ولم يرضَ بالمُنى ... وصار إلى المولى بأرضى الطرائق

(٢) المرسلات: ١٢ - ١٥.

(٣) الاسراء: ١٤.

يريد المغرب، هل يتّفقان على أمر واحد وبغيتهما مخالفة هواهما؟ دعاء الراغب: الله ارزقني مالاً وولداً وخيراً، وانصرني على أعدائي، وادفع عنّي شرورهم وحسدهم وبغيهم وبلاءهم وفتنهم آمين. ودعاء الزاهد: اللهم ارزقني علم الخائفين، وخوف العاملين، ويقين المتوكّلين، وتوكّل الموقنين، وشكر الصابرين، وصبر الشاكرين، وإخبات المغلبين، وإنابة المخبتين، وزهد الصادقين، وألحقني بالشهداء والأحياء المرزوقين، آمين ربّ العالمين. هذا دعاء هل من شيء من دعاء الراغب يحيط به؟ لا والله! هذا طريق وذاك طريق.

كلام الإمام الصادق عليه السلام في الزهد:

جاء في كتاب (إحياء الأحياء) روي في الكافي عن علي بن إبراهيم، عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة قال: دخل سفيان الثوري على أبي عبد الله عليه السلام فرأى عليه ثياب بيض كأنها غرفئ البيض، فقال له: إنّ هذا اللباس ليس من لباسك، فقال له: اسمع منّي وعِ ما أقول لك، فإنّه خير لك عاجلاً وآجلاً إن أنت متّ على السنّة والحقّ ولم تمت على بدعة، أُخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان في زمان مقفر جدب، فأمّا إذا أقبلت الدنيا فأحقّ أهلها بها أبرارُها لا فجّارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفّارها، فما أنكرتَ يا ثوريّ؟! فو الله إنّني ـ لمع ما ترى ـ ما أتى علي مُذ عقلت صباح ولا مساء ولله في مالي حقّ أمرني أن أضعه موضعاً إلاّ وضعته.

قال: فأتاه قوم ممّن يُظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشّف، فقالوا له: إنّ صاحبنا حصر عن كلامك ولم تحضره حُججه، فقال لهم عليه السلام: فهاتوا حُججكم، فقالوا له: إنّ حُججنا من كتاب الله، فقال لهم: فأدلوا بها فإنها أحقّ ما اتُّبع وعُمل به، فقالوا: يقول الله تبارك وتعالى مُخبراً عن قوم من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ

كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] فمدح فعلهم، وقال في موضع آخر: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾.[2]

فنحن نكتفي بهذا، فقال رجل من الجلساء: إنّا ما رأيناكم تزهدون في الأطعمة الطيّبة ومع ذلك تأمرون الناس بالخروج من أموالهم حتى تمتّعوا أنتم منها؟

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: دعوا عنكم ما لا تنتفعون به، أخبروني أيها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه، ومحكمه من متشابهه الذي في مثله ضلّ من ضلّ وهلك من هلك من هذه الأمّة؟ فقالوا له: أو بعضه فأمّا كلّه فلا، فقال لهم: فمن ههنا أُتيتم، وكذلك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله، فأمّا ما ذكرتم من إخبار الله عزّ وجلّ إيّانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحُسن فعالهم فقد كان مباحاً جائزاً ولم يكونوا نُهوا عنه، وثوابهم منه على الله عزّ وجلّ، ذلك أن الله جلّ وتقدّس أمر بخلاف ما عملوا به فصار أمره ناسخاً لفعلهم، وكان نهي الله تبارك وتعالى رحمة منه للمؤمنين ونظراً لكيلا يضرّوا بأنفسهم وعيالاتهم، منهم الضعفة الصغار والولدان والشيخ الفاني والعجوز الكبيرة الذين لا يصيرون على الجوع، فإن تصدّقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعاً، ومن ثمّة قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الانسان وهو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الانسان على والديه ثم الثانية على نفسه وعياله، ثم الثالثة على قرابته الفقراء، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة في سبيل الله وهو أخسّها أجراً».

وقال صلى الله عليه وآله للأنصاري حين أعتق عند موته خمسة أو ستّة من الرقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار: «لو أعلمتموني أمره ما تركتكم تدفنونه مع

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) الدهر: ٨.

المسلمين، ترك صبية صغاراً يتكفّفون الناس» ثم قال عليه السلام: حدّثني أبي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إبدأ بمن تعول الأدنى فالأدنى».

ثم هذا ما نطق به الكتاب رداً لقولكم ونهياً عنه مفروضاً من الله العزيز الحكيم، قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلكَ قَواماً﴾[1] أفلا ترون أن الله تبارك وتعالى قال غير ما أراكم تدعون الناس إليه من الأثرة على أنفسهم، وسمّى مَن فعل ما تدعون الناس إليه مسرفاً، وفي غير آية من كتاب الله يقول: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[2] فنهاهم عن الاسراف ونهاهم عن التقتير ولكن أمر بين أمرين، لا يعطي جميع ما عنده ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له للحديث الذي جاء عن النبي صلى الله عليه وآله: إن أصنافاً من أمتي لا يُستجاب لهم دعاؤهم: رجل يدعو على والديه، ورجل يدعو على غريم ذهب له بمال فلم يكتب عليه ولم يُشهد عليه، ورجل يدعو على امرأته وقد جعل الله عزّ وجلّ تخلية سبيلها بيده، ورجل يقعد في بيته ويقول: ربّ ارزقني، ولا يخرج ولا يطلب الرزق، فيقول الله له: عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض بجوارح صحيحة فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتباع أمري، ولكيلا تكون كلاًّ على أهلك، فإن شئت رزقتك، وإن شئت قتّرت عليك وأنت غير معذور عندي، ورجل رزقه الله مالاً كثيراً فأنفقه ثم أقبل يدعو: يا ربّ ارزقني، فيقول الله عزّ وجلّ: ألم أرزقك رزقاً واسعاً، فهلاّ اقتصدتَ فيه كما أمرتُك ولم تسرف وقد نهيتُك عن الاسراف؟ ورجل يدعو في قطيعة رحم.

ثم علّم الله نبيّه صلى الله عليه وآله كيف ينفق وذلك أنه كانت عنده أوقية من الذهب، فكره أن تبيت عنده فتصدّق بها، فأصبح وليس شيء، وجاءه من يسأله فلم يكن

---

(١) الفرقان: ٦٧.

(٢) الأنعام: ١٤١؛ الأعراف: ٣١.

عنده ما يعطيه، فلامه السائل واغتمّ هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه، وكان رحيماً رقيقاً، فأدّب الله عزّ وجلّ نبيّه صلى الله عليه وآله بأمره فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾[1] يقول: إنّ الناس قد يسألونك ولا يعذرونك، فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حسرت من المال.

فهذه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله يصدّقها الكتاب، والكتاب يصدّقه أهله من المؤمنين.

وقال أبو بكر عند موته حيث قيل له: أوصِ، فقال: أوصي بالخُمس والخمس كثير فإنّ الله عزّ وجلّ قد رضي بالخُمس، فأوصى بالخمس، وقد جعل الله له الثُلث عند موته، ولو علم أن الثلث خير له أوصى به، ثم من قد علمتم بعده في فضله وزهده سلمان الفارسي رضي الله عنه وأبو ذر رحمه الله، فأمّا سلمان فكان إذا أخذ عطائه رفع منه قوته لسنته حتى يحضر عطاؤه من قابل، فقيل له: يا أبا عبد الله أنت في زهدك تصنع هذا وأنت لا تدري لعلّك تموت اليوم أو غداً؟ فكان جوابه أن قال: ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم عليّ الفناء، أما علمتم يا جهلة أنّ النفس قد تلتاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنّت، وأما أبو ذر رضي الله عنه فكانت له نويقات وشويهات يحلبها ويذبح منها إذا اشتهى أهله اللحم، أو نزل به ضيف، أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خصاصة، نحر لهم الجزور أو من الشياه على قدر ما يذهب عنهم بقرم اللحم فيقسمه بينهم ويأخذ هو كنصيب واحد منهم لا يتفضّل عليهم، ومن أزهد من هؤلاء وقد قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله ما قال؟ ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم.

---

(١) الاسراء: ٢٩.

واعلموا أيّها النفر أنّي سمعت أبي يروي عن آبائه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوماً: «ما عجبت من شيء كعجبي من المؤمن أنّه إن قُرض جسده في دار الدنيا بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك ما بين مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له، وكلّ ما يصنع الله به فهو خير له» فليت شعري هل يحيق فيكم ما قد شرحت لكم منذ اليوم أم أزيدكم، أما علمتم أنّ الله قد فرض على المؤمنين في أوّل الأمر أن يقاتل الرجل منهم عشرة من المشركين ليس له أن يولّي وجهه عنهم، ومن ولاّهم يومئذ دبره فقد تبوّأ مقعده من النار، ثم حوّلهم عن حالهم رحمة منه لهم، فصار الرجل منهم عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفاً من الله عزّ وجلّ للمؤمنين، فنسخ الرجلان العشرة.

وأخبروني أيضاً عن القضاة أجورةً هم حيث يقضون على الرجل منكم نفقة امرأته إذا قال: إنّي زاهد وإنّي لا شيء لي، فإن قلتم «جورة» ظلمتم أهل الإسلام، وإن قلتم «بل عدول» خصمتم أنفسكم، وحيث تردّون صدقة من تصدّق على المساكين عند الموت بأكثر من الثلث.

أخبروني لو كان الناس كلّهم كالذين تريدون زهّاداً لا حاجة لهم في متاع غيرهم، فعلى من كان يُتصدّق بكفّارات الأيمان والنذور والصدقات من فرض الزكاة من الذهب والفضة والتمر والزبيب وسائر ما وجب فيه الزكاة من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك إذا كان الأمر كما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدنيا إلاّ قدّمه وإن كان به خصاصة، فبئس ما ذهبتم إليه وحملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه وأحاديثه التي يصدّقها الكتاب المنزل، وردّكم إيّاها بجهالتكم وتركككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي.

وأخبروني أين أنتم عن سليمان بن داود حيث سأل الله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه الله جلّ اسمه ذلك وكان يقول الحقّ ويعمل به، ثمّ لم

نجد الله عز وجل عاب عليه ذلك ولا أحداً من المسلمين. وداود النبي قبله في مُلكه وشدّة سلطانه، ثم يوسف النبي حيث قال لملك مصر ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1] فكان من أمره الذي كان أن اختار مملكة الملك وما حولها إلى اليمن، وكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم، وكان يقول الحقّ ويعمل به، فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه، ثم ذوالقرنين عبد أحبّ الله فأحبّه الله وطوى له الأسباب وملّكه مشارق الأرض ومغاربها، وكان يقول الحقّ ويعمل به، ثم لم نجد أحداً عاب ذلك عليه، فتأدّبوا أيها النفر بآداب الله عز وجل للمؤمنين، واقتصروا على أمر الله ونهيه، ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم ممّا لا علم لكم به، ورُدّوا العلم إلى أهله تُؤجروا وتعذروا عند الله تبارك وتعالى، وكونوا في طلب علم ناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه وما أحلّ الله فيه ممّا حرّم، فإنّه أقرب لكم من الله وأبعد لكم من الجهل، ودعوا الجهالة لأهلها، فإنّ أهل الجهل كثير وأهل العلم قليل، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.[2] [3]

* * *

(١) يوسف: ٥٥.

(٢) يوسف: ٧٦.

(٣) الكافي ٥: ٦٥ - ٧٠/ ح١، كتاب المعيشة؛ بحار الأنوار ٦٧: ١٢٢ - ١٢٨ / ح١٣.

من كلام له عليه السلام:

يصف الدنيا

«مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ وَآخِرُهَا فَنَاءٌ فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ مَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ».

(شرح النهج لابن أبي الحديد مج ٢، ص ٨٤ ط ١).

* * *

ضبط الألفاظ الغريبة:

(العناء) بالمدّ التعب والمشقة. و(فُتن) بالبناء على المجهول من الفتنة بمعنى الضلالة. و(حزن) بالبناء على المعلوم من باب فرح. (واتته) من المواتاة، قال الطريحي: هو حسن المطاوعة والموافقة، ومنه الحديث: خير النساء المواتية لزوجها.[1]

* * *

المعنى: [عشرة أوصاف للدنيا]

إنّ هذا الكلام له عليه السلام مسوق للتنفير عن الدنيا والذمّ لها، وقد ذكر من أوصافها أموراً عشرة:

الأوّل: [عناء في بداية الطريق] قوله عليه السلام: «ما أصف من دار أوّلها عناء» وهو إشارة إلى أنّ الإنسان فيها في تعب ومشقّة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[2] أي في شدّة منذ حمله وولادته ورضاعه وفطامه ومعاشه وحياته وموته، ثم إنّه

---

(١) مجمع البحرين ١: ٣٣.

(٢) سورة البلد (٩٠): الآية ٤.

سبحانه لم يخلق خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق، ويكفي في الاشارة إلى متاعب الانسان فيها ما نقل عن الحكيم برزويه في صدر (كتاب كليلة ودمنة) في معرض تطويع نفسه بالصبر على عيش النساء:

أو ليست الدنيا كلها أذىً وبلاء، أو ليس الانسان يتقلّب في ذلك من حين يكون جنيناً إلى أن يستوفي أيّامه، فقد حقّق في كتب الطبّ أنّ مبدء نشوء الانسان هو الماء الدافع يخرج من بين الصلب والترائب، وذلك الماء إذا ما وقع في الرحم اختلط بماء المرأة ودمها وغلظ، ثم الريح يمخض ذلك الماء والدم حتى يتركه كالرائب الغليظ، ثم يقسّمه في الأعضاء، فإن كان ذكراً فوجهه قِبل ظهر أمّه، وإن كان أنثى فوجهها قِبل بطن أمّها، وذقنه على ركبتيه ويداه على جنبيه، مُقبَض في المشيمة كأنه مصرور في صرّة، ويتنفس من متنفّس شاقٍ، وليس منه عضو إلاّ كأنّه مقموط، فوقه حزّ البطن وتحته ما تحته، وهو منوط بمعاء من سرته إلى سرّة أمّه، ومنها يمتصّ ويعيش من طعام أمّه وشرابها.

فهو بهذه الحالة في الغمّ والظلمات والضيق، حتى إذا كان وقت ولادته سلّط الله الريح على بطن أمّه وقوي عليه التحريك، فتصوّب رأسه قِبل المخرج، فيجد من ضيق المخرج وعصره ما يجده صاحب الرهق، فإذا وقع على الأرض فأصابته ريح أو مسّته يد وجد من ذلك من الألم ما لا يجده من سلخ جلده.

ثم هو في ألوان من العذاب إن جاع فليس له استطعام، وإن عطش فليس له استسقاء، أو وجع فليس له استغاثة، مع ما يلقاه من الرفع والوضع واللف والحلّ، إذا أُنيم على ظهره لا يستطيع تقلّباً، أو أُقعد لا يستطيع تمدّداً.

فلا يزال في أصناف هذا العذاب ما دام رضيعاً، فإذا أفلت من ذلك أُخذ بعذاب الأدب فأُذيق منه ألواناً، وإذا أدرك فهم المال والأولاد والشره والحرص ومخاطرة السعي والطلب.

وكلّ هذا يتقلّب معه فيها أعداؤه الأربعة: المرّة والبلغم والدم والريح، والسم المميت والحياة اللاذعة مع خوف السباع والناس وخوف البرد والحرّ، ثم ألوان عذاب الهرم إن بلغه.

والثاني: [فناء في آخر الطريق] أنّ (آخرها فناء): إذ كلّ نفس ذائقة الموت مشرفة على الفوت، ومفارقة للأهل والأولاد، مهاجرة عن الوطن والبلاد، وكلّ شيء هالك إلاّ وجهه، وكلّ إنسان ملاقٍ ربّه.

والثالث: [الحساب في الحلال] أنّه (في حلالها حساب) قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾.[3]

قال الطبرسي: لا يشغله حساب عن حساب، فيحاسب الجميع على أفعالهم في حالة واحدة. وسُئل أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يحاسبهم في حالة واحدة؟ فقال: كما يرزقهم في حالة واحدة.[4]

والحساب يوم القيامة ممّا يجب أن يؤمن به، وأما أنّ المحاسب عليه والمسؤول عنه ماذا؟ فقد اختلفت الأخبار فيه، فبعضها كالآيات واردة على نحو العموم أو الاطلاق، وبعضها مخصوصة أو مقيّدة.

ففي الحديث النبويّ المعروف بين الخاصّة والعامّة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يزول قدم عبد يوم القيامة من بين يدي الله عزّ وجلّ حتى يُسأل عن أربع خصال: عمرك فيما أفنيته، وجسدك فيما أبليته، ومالك من أين اكتسبته وأين وضعته،

---

(١) الغاشية: ٢٦.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) النور: ٣٩.

(٤) تفسير مجمع البيان ٧: ٢٥٦.

وعن حبّنا أهل البيت. فقال عمر بن الخطاب: وما علامة حبّكم يا رسول الله؟ فقال: محبّة هذا، ووضع يده على رأس أمير المؤمنين عليه السلام.[١]

وجاء في تفسير مجمع البيان أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سُئل عن هذه الآية ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[٢] فقال صلى الله عليه وآله: يُحشر عشرة أصناف من أمّتي أشتاتاً قد ميّزهم الله عن المسلمين وبدّل صورهم، فبعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكوسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت ثمّ يُسحبون عليها، وبعضهم عُمي يتردّدون، وبعضهم صُمٌّ بُكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم، يسيل القيح من أفواههم لعاباً، يتقذّرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مُصلّبون على جذوع من النار، وبعضهم أشدّ نتناً من الجيف، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم.

فأمّا الذين على صورة القردة فالقتّاة من الناس، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت، وأما المنكوسون على رؤوسهم فأكلة الربا، والعمي الجائرون في الحكم، والصمّ والبُكم المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون ألسنتهم العلماء والقضاة الذين خالفت أعمالهم أقوالهم، والمقطّعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران، والمصلّبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان، والذين أشدّ نتناً من الجيف فالذين يتمتّعون بالشهوات واللذّات ويمنعون حقّ الله في أموالهم، والذين هم يلبسون الجباب من القطران فأهل الفخر والخيلاء.[٣]

---

(١) شرح الأخبار للقاضي النعمان ١: ١٥٧؛ أمالي المفيد: ٣٥٣/ ح٥؛ المعجم الأوسط للطبراني ٢: ٣٤٨.

(٢) النبأ: ٣٨.

(٣) تفسير مجمع البيان ١٠: ٢٤٢.

ومن الأسئلة الموجّهة للعباد يوم المعاد السؤال عن النعيم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.[1]

اختلف العلماء في هذا النعيم ما هو، روى الصدوق بإسناده عن إبراهيم بن العباس الصولي قال: كنّا بين يدي علي بن موسى الرضا عليه السلام فقال: ليس في الدنيا نعيم حقيقيّ، فقال له بعض الفقهاء ممّن بحضرته: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أما هذا النعيم في الدنيا هو الماء البارد؟ فقال له الرضا عليه السلام ـ وعلا صوته ـ: هكذا فسّرتموه أنتم وجعلتموه على ضروب، فقالت طائفة: هو الماء البارد، وقال غيرهم: هو الطعام الطيّب، وقال آخرون: هو النوم الطيّب.

ولقد حدّثني أبي عن أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ أقوالكم هذه ذُكرت عنده في قوله تعالى: ﴿لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ فغضب وقال: إنّ الله تعالى لا يسأل عباده عمّا تفضّل عليهم به ولاً يمنّ بذلك عليهم، والامتنان مُستقبح من المخلوقين، فكيف يُضاف إلى الخالق عزّ وجلّ ما لا يرضى به للمخلوقين، ولكنّ النعيم حبّنا أهل البيت وموالاتنا، يسأل الله عنه بعد التوحيد والنبوّة، لأنّ العبد إذا وافى بذلك أدّاه إلى نعيم الجنّة الذي لا يزول.

ولقد حدّثني بذلك أبي محمد بن علي عن أبيه، عن الحسين بن علي، عن أبيه عليهم السلام أنّه قال له: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي أوّل ما يسئل عنه العبد بعد موته شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، وأنك وليّ المؤمنين بما جعله الله لك، فمن أقرّ بذلك وكان معتقده صار إلى النعيم الذي لا زوال له.[2]

وروى العيّاشي بإسناده في حديث طويل، قال: سأل أبو حنيفة أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية، فقال له عليه السلام: ما النعيم عندك يا نعمان؟ قال: القوت من الطعام والماء البارد. فقال: لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتّى يسألك عن

---

(١) التكاثر: ٨

(٢) عيون أخبار الرضا ١: ١٣٦ - ١٣٧/ ح٨

كلّ أكلة أكلتَها وشربة شربَتها ليطولنّ وقوفك بين يديه. قال: فما النعيم جُعلت فداك؟ قال: نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداء، وبنا هداهم الله للإسلام، وهي النعمة التي لا تنقطع.

والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم الله به عليهم، وهو النبي صلى الله عليه وآله وعترته عليهم السلام.[1]

وفي كتاب أصول الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ثلاثة أشياء لا يُحاسَب عليهنّ المؤمن: طعام يأكله، وثوب يلبسه، وزوجة صالحة تعاونه ويُحصن بها فرجه.[2]

الرابع: قوله عليه السلام: «في حلالها حساب» وهو إشارة إلى ما يظهر في صحيفة الانسان يوم القيامة من الآثار المكتوبة عليه، ممّا خاض فيه من مباحات الدنيا، وتوسّع فيه من المأكل والمشارب والمناكح والمراكب، وما يظهر في لوح نفسه من محبّة ذلك فيعوقه عن اللحوق بالمجرّدين عنها الذين لم يتصرّفوا فيها تصرّف الملاّك، فلم يكتب عليه في شيء منها ما يحاسبون عليه، وإليه إشارة سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله «إنّ الفقراء ليدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام، وإنّ فقراء أمتي ليدخلون الجنة سعياً»[3] وما ذاك إلاّ لكثرة حساب الأغنياء بتعويقهم بثقل ما حملوا من محبّة الدنيا وقنياتها عن اللحوق بدرجة المخفّين منها.

[العقوبة على المحرمات]:

الخامس: قوله عليه السلام: «في حرامها عقاب» وهو واضح لا غبار عليه، وإلى هذا الوصف وسابقه نظر الشاعر في قوله:

---

(١) تفسير العيّاشي؛ وعنه بحار الأنوار ٧: ٢٥٨؛ تفسير الصافي ٥: ٣٧٠.

(٢) الكافي ٦: ٢٨٠/ ح ٢.

(٣) تفسير مجمع البيان ٧: ١٦١؛ بحار الأنوار ٧: ١٢٢.

الدهر يومان فيومٌ مضى	عنك بما فيه ويوم جديد
حلال يومَيك حساب وفي	حرام يوميك عقاب شديد
تجمع ما يأكله وارث	وأنت في القبر وحيد فريد
إنّي لغيري واعظ تارك	نفسي وقولي من فعالي بعيد
حلاوة الدنيا ولذّاتها	تكلّف العاقل ما لا يريد[١]

السادس: قوله عليه السلام: «من استغنى فيها فُتن» لأنّ الاستغناء شاغل عن ذكر الله، مضلّ عن سبيل الله، فهو بلاء ابتلاه الله به كما نطق به القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.[٢]

السابع: [الفقر يجلب الحزن] أنّ «من افتقر فيها حزن» لظهور أنّ الافتقار فيها لطالبها موجب لشدّة المحنة ومنتهى الحزن والكآبة. قال النبيّ صلى الله عليه وآله: الفقر أشدّ من القتل.[٣] وقال: أوحى الله إلى إبراهيم فقال: يا إبراهيم خلقتك وابتليتك بنار نمرود، فلو ابتليتك بالفقر ورفعت عنك الصبر فما تصنع؟ قال ابراهيم عليه السلام: يا رب الفقر إليّ أشدّ من نار نمرود. قال الله تعالى: فبعزّتي وجلالي ما خلقت في السماء والأرض أشدّ من الفقر.[٤]

وقال صلى الله عليه وآله: الفقر الموت الأكبر.[٥] وقال: لولا رحمة ربي على فقراء أمتي كاد الفقر أن يكون كفراً.[٦]

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٢٣٩، نسبه لبعض الشعراء.

(٢) التغابن: ١٥.

(٣) بحار الأنوار ٦٩: ٤٧.

(٤) بحار الأنوار ٦٩: ٤٧.

(٥) مشكاة الأنوار: ٢٢٨.

(٦) بحار الأنوار ٦٩: ٤٧.

وقال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «من ابْتلي بالفقر فقد ابتلي بأربع خصال: بالضعف في يقينه، والنقصان في عقله، والرقّة في دينه، وقلّة الحياء في وجهه، فنعوذ بالله من الفقر».[1]

هذا ولشدّته دعا سيّد العابدين وزين الساجدين عليه السلام أن يصرفه الله عنه ولا يبتليه به، حيث قال:

«اللهم لا طاقة لي بالجهد، ولا صبر لي على البلاء، ولا قوّة لي على الفقر، فلا تحظر عليّ رزقي، ولا تكلني إلى خلقك، بل تفرّد بحاجتي، وتولَّ كفايتي، وانظر إليّ في جميع أموري، فإنّك إن وكلتني إلى نفسي عجزت عنها ولم أقم ما فيه مصلحتها، وإن وكلتني إلى خلقك تجهّموني، وإن ألجأتني إلى قرابتي حرموني، وإن أعطوني أعطوني قليلاً نكداً، ومنّوا علي طويلاً، وذمّوا كثيراً، فبفضلك اللهمّ فأغنني، وبعظمتك فأنعشني، وبسعتك فابسُط يدي، وبما عندك فاكفني».[2]

لذلك جعل الله تعالى للفقراء الصابرين عنده منزلة ودرجة سامية رفيعة، حتّى ورد في الحديث المتقدّم الذكر: يدخل الفقراء إلى الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، ومقداره خمسماءة عام.

وفي جامع الأخبار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى منادياً فينادي: أين الفقراء؟ فيقوم عُنق من الناس فيؤمر بهم إلى الجنّة، فيقول خزنة الجنّة: قبل الحساب؟ فيقولون: ما أعطونا شيئاً فيحاسبون عليه، فيقول الله تعالى: صدقوا، عبادي ما أفقرتُكم هواناً بكم، ولكن ادّخرت هذا لكم لهذا اليوم، انظروا وتصفّحوا وجوه الناس فمن أتى إليكم معروفاً

---

(١) بحار الأنوار ٦٩: ٤٧ و٤٨.

(٢) إقبال الأعمال لابن طاووس ١: ٣٥٣، في أدعية الليلة العشرين من شهر رمضان؛ بحار الأنوار ٩٨: ٥١ و٥٢.

فخذوا بيده وأدخلوه الجنة».[١] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خير هذه الأمة فقراؤها، وأسرعها تصعّداً في الجنة ضعفاؤها»[٢] وقال صلى الله عليه وآله: «اللهمّ أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»[٣] وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ لي حرفتين اثنتين فمن أحبّهما فقد أحبّني ومن أبغضهما فقد أبغضني: الفقر والجهاد.[٤] وقال صلى الله عليه وآله: «الفقر أزين للمؤمنين من العذار الحسن على خدّ الفرس».[٥]

وسئل عن الفقر فقال: «خزانة من خزائن الله، وسئل عنه ثانياً فقال: كرامة من الله، وسُئل عنه ثالثاً فقال: شيء لا يُعطيه الله إلاّ نبياً مرسلاً أو مؤمناً كريماً على الله».[٦]

[مقام الفقراء في الجنة]:

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ في الجنّة غرفة من ياقوتة حمراء ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لا يدخل فيها إلاّ نبيّ فقير أو مؤمن فقير»،[٧] وقال صلى الله عليه وآله: يقوم فقراء أمتي يوم القيامة وثيابهم خضر وشعورهم منسوجة بالدرّ والياقوت، وبأيديهم قضبان من نور يخطبون على المنابر، فيمرّ عليهم الأنبياء فيقولون: هؤلاء من الملائكة، وتقول الملائكة: هؤلاء من الأنبياء، فيقولون: نحن لا ملائكة ولا أنبياء، بل من فقراء أمّة محمد صلى الله عليه وآله، فيقولون: بم نلتم هذه الكرامة؟ فيقولون: لم تكن أعمالنا شديدة، ولم نصم الدهر، ولم نقم الليل، ولكن أقمنا على الصلوات الخمس، وإذا سمعنا ذكر محمد فاضت دموعنا على خدودنا.[٨]

---

(١) رواه الصدوق في ثواب الأعمال: ١٦٦؛ والمجلسي في بحار الأنوار ٦٩: ٤٢.

(٢) جامع السعادات ٢: ٦٣.

(٣) سنن الترمذي ٤: ٥٧٧/ ح٢٣٥٢؛ تذكرة الفقهاء للعلاّمة الحلّي ٥: ٢٣٧.

(٤) مستدرك الوسائل للنوري ١١: ١٤/ ح١٢٢٩٥؛ ذيل تاريخ بغداد لابن النجّار ٢: ١٤٣.

(٥) عوالي اللئالي ١: ٤٠.

(٦) بحار الأنوار ٦٩: ٤٧.

(٧) بحار الأنوار ٦٩: ٤٧.

(٨) مستدرك الوسائل ١٠: ٣١٨/ ح١٢٠٨٣.

[أحاديث في فضل الفقر والفقراء]:

وقال صلى الله عليه وآله: كلّمني ربّي فقال: يا محمّد، إذا أحببتُ عبداً أجعل له ثلاثة أشياء: قلبه حزيناً، وبدنه سقيماً، ويده خالية من حطام الدنيا، وإذا أبغضتُ عبداً أجعل له ثلاثة أشياء: قلبه مسروراً، وبدنه صحيحاً، ويده مملوّة من حطام الدنيا[١]، وقال صلى الله عليه وآله: «الناس كلّهم مشتاقون إلى الجنّة، والجنّة مشتاقة إلى الفقراء».[٢] وقال صلى الله عليه وآله: «الفقر فخري»[٣]، وقال صلى الله عليه وآله: «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر»[٤]، وقال صلى الله عليه وآله: يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الأخ إلى أخيه في الدنيا، فيقول: وعزّتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة، أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف، فمن أطعمك فيّ أوكساك فيّ يريد بذلك وجهي فخُذ بيده فهو لك ـ والناس يومئذ قد ألجمهم العرق ـ فيتخلّل الصفوف وينظر من فعل ذلك به ويُدخله الجنة،[٥] وقال صلى الله عليه وآله: أكثروا معرفة الفقراء واتّخذوا عندهم الأيادي، فإنّ لهم دولة، قالوا: يا رسول الله وما دولتهم؟ قال: إذا كان يوم القيامة قيل لهم: انظروا إلى من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً فخُذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنّة.[٦]

وقال صلى الله عليه وآله: ألا أخبركم بملوك أهل الجنة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: كلّ ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين لا يُؤبه به، لو أقسم على الله لأبرّه.[٧]

---

(١) بحار الأنوار ٦٩: ٤٨.

(٢) بحار الأنوار ٦٩: ٤٩.

(٣) بحار الأنوار ٦٩: ٤٩.

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ١: ٥٠٢/ ح٣٢٥٨.

(٥) رواه المجلسي في بحار الأنوار ٧٨: ١٩٣ عن الإمام الصادق عليه السلام باختلاف في اللفظ والمعنى.

(٦) انظر كشف الخفاء للعجلوني ١: ٣٧ - ٣٨.

(٧) بحار الأنوار ٣٦: ٣٤٧.

ودخل صلى الله عليه وآله على رجل فقير ولم ير له شيئاً فقال: «لو قُسّم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم».[١]

وقال صلى الله عليه وآله: «إذا أبغض الناس فقراءهم، وأظهروا عمارة الدنيا، وتكالبوا على جمع الدراهم والدنانير، رماهم الله بأربع خصال: بالقحط من الزمان، والجور من السلطان، والجناية من ولاة الحكام، والشوكة من الأعداء».[٢]

وروى الصدوق في الأمالي بسند معتبر عن الصادق عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة وقف عبدان مؤمنان للحساب كلاهما من أهل الجنّة، فقير في الدنيا وغنّي في الدنيا، فيقول الفقير: يا ربّ على مَ أُوقف؟ فو عزّتك إنّك لتعلم أنّك لم تولني ولاية فأعدل فيها أو أجور، ولم ترزقني مالاً فأؤدّي منه حقاً أو أمنع، ولا كان رزقي يأتيني منها إلاّ كفافاً على ما علمتَ وقدّرت لي. فيقول الله عزّ وجلّ: صدق عبدي، خلّوا عنه يدخل الجنّة. ويبقى الآخر حتّى يسيل منه من العرق ما لو شربه أربعون بعيراً لكفاها، ثم يدخل الجنّة، فيقول له الفقير: ما حبسك؟ فيقول: طول الحساب، مازال الشيء يجيئني بعد الشيء يُغفر لي ثم أُسأل عن شيء آخر، حتى تغمّدني الله عزّ وجلّ برحمته وألحقني بالتائبين، فمن أنت؟ فيقول: أنا الفقير الذي كنت معك آنفاً، فيقول: لقد غيّرك النعيم بعدي.[٣]

* * *

(١) انظر مشكاة الأنوار: ٥٠٥.

(٢) رواه المتّقي في كنز العمّال ١٦: ٣٩/ ح٤٣٨٤١ باختلاف يسير.

(٣) عدّة الداعي: ١٠٦؛ بحار الأنوار ٧: ٢٥٩.

من خطبة له عليه السلام:

[في الاهتمام بفروع الدين وصلة الرحم والانفاق]

«إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الْإِسْلَامِ وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ وَحَجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيُرْحِضَانِ الذَّنْبَ وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ وَمَنْسَأَةٌ فِي الْأَجَلِ وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ وَصَدَقَةُ الْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ».

(شرح النهج لابن أبي الحديد مج ٢، ص ٢٣٦، ط الأولى).

* * *

ضبط الألفاظ الغريبة:

(ذروة الشيء): أعلاه، و(الملّة): الدين، و(الجُنّة): الوقاية، و(يرحضان): يغسلان، و(المثراة): المكثرة وهي محلّ للكثرة والثروة، و(المنسأة) محلّ النسأ وهو التأخير.

* * *

الشرح: [أسباب القرب الى الله]

إنّ هذه الخطبة الشريفة مسوقة للارشاد إلى بعض أسباب القرب والوسائل التي يتوسّل بها إلى الله سبحانه، وللأمر بالافاضة إلى ذكر الله، وببعض ما يدرك به رضوان الله. ولمّا كانت أسباب الزُلفى والتقرّب كثيرة خصّ عليه السلام أفضلها بالبيان، وهي ـ على ما ذكره ـ عشرة أمور:

أوّلها: الإيمان بالله

وإليه أشار بقوله: «إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله سبحانه وتعالى الايمان به وبرسوله». قدّم الإيمان على غيره لكونه أصلاً بالنسبة إليه، والمراد به هنا التصديق المجرّد عن الاقرار والعمل، بقرينة ذكر كلمة الاخلاص التي هي الاقرار، وسائر العبادات التي هي من باب الأعمال بعده.

[الفرق بين الإسلام والإيمان]:

والفرق بين الإسلام والإيمان: الإيمان هو التصديق القلبيّ، والإسلام هو التسليم والانقياد الظاهريّ.

والايمان يشارك الإسلام، والإسلام لا يشارك الايمان، وهو أعلى درجة من الاسلام وأرفع.

وفي رواية أبي الصباح الكنانيّ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيّهما أفضل الايمان أو الإسلام؟ فإنّ من قبلنا يقولون: إنّ الإسلام أفضل من الإيمان. فقال عليه السلام: الإيمان أرفع من الإسلام، قلت: فأوجدني ذلك. قال: ما تقول فيمن أحدث في المسجد الحرام متعمّداً؟ قال: قلت: يُضرب ضرباً شديداً. قال: أصبت، فما تقول فيمن أحدث في الكعبة متعمّداً؟ قلت يُقتل. قال: أصبت، ألا ترى أنّ الكعبة أفضل من المسجد، وأنّ الكعبة تشرك المسجد والمسجد لا يشرك الكعبة، وكذلك الإيمان يشرك الإسلام، والإسلام لا يشرك الإيمان؟[1]

فإنّ المستفاد من هذه الرواية أنّه كلّ ما وُجد الإيمان وُجد الإسلام ولا عكس.

أمّا من جهة أن الإسلام عبارة عن التصديق بالظاهر _ أعني الاعتراف باللسان _ والايمان عبارة عن التصديق بالباطن، والأول غير مستلزم للثاني، ولذلك كذبّ الله الأعراب بقوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ في دعواهم وصف الإيمان لأنفسهم حيث قالوا: ﴿آمَنَّا﴾،

---

(١) الكافي ٢: ٢٦/ ح ٤.

وذلك لأجل أنّهم لم يكونوا مصدّقين بالباطن ولم يكونوا على ثقة وطمأنينة فيما أقرّوا به ظاهراً، وأثبت لهم وصف الإسلام بقوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا﴾[١] باعتبار شهادتهم بالتوحيد والرسالة واعترافهم ظاهراً.

ويدلّ على ما ذكرنا ما رواه في الكافي بإسناده عن سماعة، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أخبرني عن الإسلام والإيمان أهما مختلفان؟ فقال عليه السلام: إنّ الإيمان يشارك الإسلام، والإسلام لا يشارك الإيمان.

فقلت: فصفهما لي. فقال: الإسلام شهادة أن لا إله إلاّ الله والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله، وبه حُقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس، والإيمان الهُدى وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام، وما ظهر من العمل به، والايمان أرفع من الإسلام بدرجة. إنّ الايمان يشارك الإسلام في الظاهر، والإسلام لا يشارك الايمان في الباطن وإن اجتمعا في القول والصفة.[٢]

وعن عجلان بن أبي صالح قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أوقفني على حدود الايمان. فقال: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، والاقرار بجميع ما جاء من عند الله، والصلوات الخمس، وأداء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت، وولاية وليّنا، وعداوة عدوّنا، والدخول مع الصادقين.[٣]

فإنّ المراد بالدخول مع الصادقين: الدخول في زمرة آل محمّد عليهم السلام والكون معهم، كما قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.[٤]

[مراتب الإيمان]:

جاء في أصول الكافي عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن بكر بن صالح، عن

---

(١) الحجرات: ١٤.

(٢) الكافي ٢: ٢٥/ ح١.

(٣) الكافي ٢: ١٨/ ح٢.

(٤) التوبة: ١١٩.

القاسم بن بريد، قال: حدّثنا أبو عمر الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أيّها العالِم أخبرني أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال: ما لا يقبل الله شيئاً إلاّ به. قلت: وما هو؟ قال: الإيمان بالله الذي لا إله إلاّ هو أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظّاً. قال: قلت: ألا تخبرني عن الإيمان، أقولٌ هو وعمل، أم قولٌ بلا عمل؟ فقال عليه السلام: الإيمان عمل كلّه، والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله بيّن في كتابه واضح نوره، ثابتة حجّته، يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه. قال: قلت له: صفه لي جُعلت فداك حتّى أفهمه. قال: الايمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل: فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزايد رجحانه. قلت: إنّ الايمان ليتمّ وينقص ويزيد؟ قال: نعم. قلت: كيف ذاك؟ قال: لأنّ الله تبارك وتعالى فرض الايمان على جوارح ابن آدم وقسّمه عليها وفرّقه فيها، فليس من جوارحه إلاّ وقد وكّلت من الايمان بغير ما وكّلت به أختها، فمنها قلبه الذي به يعقل ويفقه ويفهم، وهو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلاّ عن رأيه وأمره، ومنها عيناه اللتان يُبصر بهما، وأذناه اللتان يسمع بهما، ويداه اللتان يبطش بهما، ورجلاه اللتان يمشي بهما، وفرجه الذي الباه من قِبله، ولسانه الذي ينطق به، ورأسه الذي فيه وجهه، فليس من هذه جارحة إلاّ وقد وكّلت من الإيمان بغير ما وكّلت به أختها بفرض من الله تبارك وتعالى اسمه، وينطق به الكتاب لها ويشهد به عليها، ففرض على القلب غير ما فرض على العينين، وفرض على العينين غير ما فرض على اللسان، وفرض على اللسان غير ما فرض على اليدين، وفرض على اليدين غير ما فرض على الرجلين، وفرض على الرجلين غير ما فرض على الفرج، وفرض على الفرج غير ما فرض على الوجه.

فأمّا ما فرض على القلب من الايمان: فالاقرار والمعرفة والعقد والرضا والتسليم بأن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً، وأنّ محمداً عبده ورسوله، والاقرار بما جاء من عند الله من نبيّ أو كتاب، فذلك ما فرض الله على القلب من الاقرار والمعرفة، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِلاَّ مَنْ

أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾[1] وقال: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2] وقال: ﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾[3] وقال: ﴿إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ﴾.[4]

فذلك ما فرض الله سبحانه على القلب من الاقرار والمعرفة، وهو عمله وهو رأس الايمان.

وفرض الله على اللسان القول والتعبير عن القلب بما عقد عليه وأقرّ به، قال الله تبارك وتعالى اسمه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[5] وقال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[6] فهذا ما فرض الله على اللسان وهو عمله.

وفرض على السمع أن يتنزّه عن الاستماع إلى ما حرّم الله، وأن يُعرض عمّا لا يحلّ له مما نهى الله سبحانه عنه، والاصغاء إلى ما أسخط الله سبحانه، فقال في ذلك:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[7] ثم استثنى الله سبحانه موضع النسيان فقال: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[8] وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبابِ﴾[9] وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ

---

(١) النحل: ١٠٦.

(٢) الرعد: ٢٨.

(٣) المائدة: ٤١.

(٤) البقرة: ٢٨٤.

(٥) البقرة: ٨٣

(٦) العنكبوت: ٤٦.

(٧) النساء: ١٤٠.

(٨) الأنعام: ٦٨.

(٩) الزمر: ١٧ و١٨

* وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾[١] وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾[٢] وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.[٣]

فهذا ما فرض الله على السمع من الإيمان أن لا يُصغي إلى ما لا يحلّ له، وهو عمله وهو من الإيمان.

وفرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرّم الله عليه، وأن يُعرض عما نهى الله عنه ممّا لا يحلّ له، وهو عمله وهو من الإيمان، فقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[٤] فنهاهم عن أن ينظروا إلى عورات غيرهم، وأن يحفظوا عوراتهم أن يُنظر إليها، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٥] من أن تنظر إحداهن إلى عورة غيرها من النساء، وتحفظ عورتها من أن يُنظر إليها، ثم نظم تعالى ما فرض على القلب واللسان والسمع والبصر في آية أخرى، فقال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾[٦] يعني بالجلود الفروج والأفخاذ، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.[٧]

فهذا ما فرض الله على العينين من غضّ البصر عمّا حرّم الله، وهو عملهما وهو من الإيمان.

وفرض على اليدين أن لا يبطش بهما إلى ما حرّم الله، وأن يبطش بهما إلى ما أمر

---

(١) المؤمنون: ١ - ٤.

(٢) القصص: ٥٥.

(٣) الفرقان: ٧٢.

(٤) النور: ٣٠.

(٥) النور: ٣١.

(٦) فصّلت: ٢٢.

(٧) الإسراء: ٣٦.

الله ﷻ، وفرض عليهما من الصدقة وصلة الرحم والجهاد في سبيل الله والطهور للصلوات، فقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[1] وقال: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها﴾[2] فهذا ما فرض الله على اليدين، لأنّ الضرب من علاجهما.

وفرض على الرجلين أن لا يمشي بهما إلى شيء من معاصي الله، وفرض عليهما المشي إلى ما يُرضي الله ﷻ، فقال: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً﴾[3] وقال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.[4]

وقال فيما شهدت الأيدي والأرجل في أنفسهما وعلى أربابهما من تضييعهما لما أمر الله ﷻ به وفرضه عليهما: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[5] فهذ أيضاً ممّا فرض الله ﷻ على اليدين وعلى الرجلين، وهو عملهما، وهو من الإيمان.

وفرض على الوجه السجود له بالليل والنهار في مواقيت الصلاة، فقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[6] وهذه فريضة جامعة على الوجه واليدين والرجلين، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾.[7]

---

(١) المائدة: ٦.

(٢) محمّد: ٤.

(٣) الاسراء: ٣٧.

(٤) لقمان: ١٩.

(٥) يس: ٦٥.

(٦) الحجّ: ٧٧.

(٧) الجنّ: ١٨.

وقال فيما فرض على الجوارح من الطهور والصلاة بها، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ لمّا صرف نبيّه صلى الله عليه وآله إلى الكعبة عن بيت المقدس أنزل الله عزّ وجلّ عليه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾[1] فسمّى الصلاة إيماناً، فمن لقي الله عزّ وجلّ حافظاً لجوارحه، موفّياً كلّ جارحة من جوارحه ما فرض الله عزّ وجلّ عليها، لقي الله عزّ وجلّ مستكملاً لايمانه وهو من أهل الجنّة، ومن خان في شيء منها أو تعدّى ما أمر الله عزّ وجلّ فيها، لقي الله عزّ وجلّ ناقص الإيمان.

قلت: قد فهمت نقصان الايمان وتمامه، فمن أين جاءت زيادته؟ فقال عليه السلام: قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[2] وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾.[3]

ولو كان كلّه واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ولاستوت النعم فيه، ولاستوى الناس وبطل التفضيل، ولكن بتمام الايمان دخل المؤمنون الجنّة، وبالزيادة في الايمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، وبالنقصان دخل المفرّطون النار.[4]

الثاني: الجهاد من الوسائل إلى الله سبحانه

(الجهاد) في سبيله فإنه ذروة الإسلام، ولمّا كان ذروة كلّ شيء عبارة عن أعلاه، جعل الجهاد ذروة الإسلام باعتبار رفعته وعلوّ رتبته فيه وتقدّمه على سائر العبادات البدنيّة، باعتبار اقتضائه قوّة التصديق واليقين بما جاء به خاتم

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) التوبة: ١٢٤ و١٢٥.

(٣) الكهف: ١٣.

(٤) الكافي ٢: ٣٣ - ٣٧/ ح١.

النبيّين ما لا تقتضيه سائر الطاعات والقربات، وإلاّ لما ألقى المجاهد نفسه إلى المهالك مع غلبة ظنّه بأنه عاطب هالك، ولولا سيف المجاهدين لما اخضرّ للإسلام عود ولما قام له عمود، وهو باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة.

والثالث: كلمة الاخلاص

أي الكلمة المتضمّنة لاخلاص الله تعالى وتنزيهه عن الشركاء والأنداد، وهي كلمة التوحيد _ أعني لا إله إلا الله _ تلك الكلمة الطيّبة المباركة. وعلّل عليه السلام كونها أفضل القرب بقوله: (فإنّها الفطرة) أي الفطرة المعهودة الواردة في الكتاب العزيز، المأمور باتّباعها بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.[1] قال في مجمع البيان: أي اتّبع فطرة الله وهي التوحيد التي فطر الناس _ أي خلق الناس _ عليها ولها وبها، أي لأجلها والتمسّك بها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كلّ مولود يُولد على الفطرة بأنّ الله عزّ وجلّ خالقه».[2] ولمّا كانت كلمة الاخلاص متضمّنة للفطرة التي هي التوحيد والمعرفة جعلها نفس الفطرة، تسميةً للدالّ على مدلوله.

والرابع: [الصلاة ركن الدين وعموده]

(إقام الصلاة فإنها الملّة) قال الطريحي: الملّة في الأصل ما شرع الله لعباده على ألسنة الأنبياء ليتوصّلوا به إلى جوار الله. وتُستعمل في جملة الشرائع دون آحادها، ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد أمّة محمّد صلى الله عليه وآله، بل يقال ملّة محمّد، قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾[3] أي دينه.[4]

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) تفسير مجمع البيان: ٥٨ – ٥٩.

(٣) الحجّ: ٧٨.

(٤) مجمع البحرين ٤: ٢٣٢.

والصلاة هي الركن الأعظم من الدين، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الصلاة عماد الدين[١]، فإنّه لمّا كان قوام الدين وثباته بها جعلها عماداً له، كما صرّح بذلك في قوله صلى الله عليه وآله: «مثل الصلاة مثل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود ثبتت الأطناب والأوتاد والغشاء، وإذا انكسر العمود لم ينفع طنب ولا وتد ولا غشاء».[٢] وقال صلى الله عليه وآله: «الصلاة عماد الدين، فمن ترك صلاته متعمّداً فقد هدم دينه».[٣]

وكيف كان فالآيات والروايات في فضلها وعقوبة تاركها كثيرة فوق حدّ الاحصاء، ونحن نشير إلى بعضها تنبيهاً للغافل.

قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾.[٤]

وفي سورة النساء: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً﴾.[٥]

وفي سورة مريم: ﴿أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾.[٦]

وفي سورة العنكبوت: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾.[٧]

وفي سورة أرأيت: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ﴾.[٨]

أي غافلون غير مبالين بها.

---

(١) أمالي الطوسي: ٥٢٩؛ عوالي اللئالي ١: ٣٢٢.

(٢) بحار الأنوار ٧٩: ٢١٨/ ح٣٦.

(٣) بحار الأنوار ٧٩: ٢٠٢/ ح١.

(٤) الإسراء: ٧٨ و٧٩.

(٥) النساء: ١٠٣.

(٦) مريم: ٥٩.

(٧) العنكبوت: ٤٥.

(٨) الماعون: ٥ و٦.

قال علي بن ابراهيم القمي: عنى به التاركين، لأنّ كلّ إنسان يسهو في الصلاة.[١] وفي المجمع عن الصادق عليه السلام: هو الترك لها والتواني عنها.[٢]

جاء في الخصال للشيخ الصدوق قدس سره عن أمير المؤمنين عليه السلام: ليس عمل أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من الصلاة، فلا يشغلكم عن أوقاتها شيء من أمور الدنيا، فإنّ الله عزّ وجلّ ذمّ أقواماً فقال: ﴿الذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ﴾،[٣] يعني أنّهم غافلون استهانوا بأوقاتها.[٤]

وفي الكافي بإسناده عن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يتقرّبّ به العباد إلى ربّهم وأحبّ ذلك إلى الله عزّ وجلّ ما هو؟ فقال عليه السلام: ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة، ألا ترى أنّ العبد الصالح عيسى بن مريم عليه السلام قال: ﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا﴾.[٥][٦]

وقال عليه السلام: «أحبّ الاعمال إلى الله عزّ وجلّ الصلاة، وهي آخر وصايا الأنبياء عليهم السلام، فما أحسن الرجل يغتسل أو يتوضّأ فيُسبغ الوضوء ثم يتنحّى حيث لا يراه أنيس، فيُشرف الله عليه وهو راكع أو ساجد، إنّ العبد إذا سجد فأطال السجود نادى إبليس: يا ويلاه أطاعوا وعصيتُ، وسجدوا وأبيتُ».[٧]

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا قام العبد المؤمن في صلاة نظر الله إليه _ أو قال: أقبل الله عليه _ حتّى ينصرف، وأقلّته الرحمة من فوق رأسه إلى أفق السماء، والملائكة تحفّه من حوله إلى أفق السماء، ووكّل

---

(١) تفسير القمّي ٢: ٤٤٤.

(٢) تفسير مجمع البيان ١٠: ٤٥٦.

(٣) الماعون: ٦.

(٤) الخصال ٢: ٦٢١، في حديث طويل.

(٥) مريم: ٣٢.

(٦) الكافي ٣: ٢٦٤/ ح١.

(٧) الكافي ٣: ٢٦٤/ ح٢.

الله به ملكاً قائماً على رأسه يقول: أيّها المصلّي لو تعلم مَن ينظر إليك ومن تناجي ما التفتَّ ولا زلت من موضعك أبداً».[١]

وقال الإمام الرضا عليه السلام: الصلاة قربان كلّ تقيّ.[٢]

وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: مَن قبل الله منه صلاة واحدة لم يُعذّبه، ومن قبل منه حسنة لم يعذّبه.[٣]

وقال عليه السلام: من صلّى ركعتين يعلم ما يقول فيهما انصرف وليس بينه وبين الله ذنب.[٤]

وقال النبي صلى الله عليه وآله: ما من صلاة يحضر وقتها إلاّ نادى مَلَك بين يدي الناس: أيّها الناس قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم فأطفؤها بصلاتكم.[٥]

وقال صلى الله عليه وآله: لا تضيّعوا صلاتكم، فإنّ من ضيّع صلاته حشره الله تعالى مع قارون وفرعون وهامان، وكان حقّاً على الله أن يُدخله النار مع المنافقين، فالويل لمن لم يحافظ على صلاته.[٦]

وقال صلى الله عليه وآله: من ترك الصلاة حتّى تفوته من غير عذر فقد حبط عمله. ثم قال صلى الله عليه وآله: بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة.[٧]

وقال صلى الله عليه وآله: من ترك الصلاة لا يرجو ثوابها ولا يخاف عقابها فلا أبالي يموت يهوديّاً أو نصرانياً أو مجوسياً.[٨]

---

(١) الكافي ٣: ٢٦٥/ ح٥.

(٢) الكافي ٣: ٢٦٥/ ح٦.

(٣) الكافي ٣: ٢٦٦/ ح١١.

(٤) الكافي ٣: ٢٦٦/ ح١٢.

(٥) مكارم الأخلاق: ٣٠٠؛ عوالي اللئالي ١: ٣٥٣/ ح٨.

(٦) مسند الرضا عليه السلام: ٦٣/ ح٢٠؛ بحار الأنوار ٧٩: ٢٠٢/ ح٢.

(٧) بحار الأنوار ٧٩: ٢٠٢/ ح٢.

(٨) بحار الأنوار ٧٩: ٢٠٢ - ٢٠٣/ ح٢.

والأخبار في موضوع الصلاة كثيرة وكثيرة جداً، وفيما أوردناه هنا كفاية للمهتدي المترشد، وإنّما المهم الاشارة إلى علّة وجوب الصلوات الخمس في الأوقات المعيّنة وأسرارها.

أمّا علّة وجوبها في الأوقات المعيّنة:

فقد ورد في الفقيه عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم عن مسائل، فكان فيما سأله أنّه قال: أخبرني عن الله عزّ وجلّ لأيّ شيء فرض هذه الخمس الصلوات في خمسة مواقيت على أمّتك في ساعات الليل والنهار؟».

فقال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ الشمس عند الزوال لها حلقة _ أي دائرة نصف النهار _ تدخل فيها، فإذا دخلت فيها زالت الشمس، فيسبّح كلّ شيء دون العرش بحمد ربّي جلّ جلاله، وهي الساعة التي يصلّي فيها عليَّ ربّي، ففرض الله عليّ وعلى أمتي فيها الصلاة وقال: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾[1] وهي الساعة التي يُؤتى فيها بجهنّم يوم القيامة، فما من مؤمن يوافق تلك الساعة أن يكون ساجداً أو راكعاً أو قائماً إلا حرّم الله جسده على النار».

وأمّا صلاة العصر فهي الساعة التي أكل آدم فيها من الشجرة فأخرجه الله من الجنّة، فأمر الله ذريّته بهذه الصلاة إلى يوم القيامة واختارها لأمّتي، فهي من أحبّ الصلوات إلى الله عزّ وجلّ، وأوصاني أن أحفظها من بين الصلوات، وأمّا صلاة المغرب فهي الساعة التي تاب الله على آدم عليه السلام وكان بين ما أكل من الشجرة وبين ما تاب الله عليه ثلاثمائة سنة من أيّام الدنيا، وفي أيام الآخرة يوم كألف سنة ما بين العصر إلى العشاء، فصلّى آدم ثلاث ركعات: ركعة لخطيئته، وركعة لخطيئة حوّا، وركعة لتوبته، فافترض الله هذه الثلاث ركعات على أمّتي، وهي الساعة التي يُستجاب فيها الدعاء، فوعدني الله

---

(١) الإسراء: ٧٨.

أن يستجيب لمن دعاه فيها، وهي الصلاة التي أمرني ربي بها في قوله: ﴿فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.[١]

وأمّا صلاة العشاء الآخرة: فإنّ للقبر ظلمة وليوم القيامة ظلمة، أمرني الله بهذه الصلاة وأمتي لتنوّر وليُعطيني وأمّتي النور على الصراط، وما من قدم مشت إلى صلاة العتمة إلاّ حرّم الله جسدها على النار، وهي الصلاة التي اختارها الله للمرسلين قبلي.

وأمّا صلاة الفجر: فإنّ الشمس إذا طلعت تطلع على قرن شيطان، فأمرني الله أن أصلّي قبل طلوع الشمس صلاة الغداة وقبل أن يسجد لها الكافر، لتسجد أمّتي لله عزّ وجلّ، وسرعتها أحبّ إلى الله، وهي الصلاة التي تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار.[٢]

وعلّة فرض الصلوات الخمس ما رواه الفقيه أيضاً عن الحسين بن أبي العلاء، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «لمّا هبط آدم عليه السلام من الجنة ظهرت به شامة سوداء في وجهه [فطالت] من قرنه إلى قدمه، فطال حزنه وبكاؤه على ما ظهر به، فأتاه جبرئيل فقال: له ما يُبكيك يا آدم؟ فقال: لهذه الشامة التي ظهرت بي، قال: قُم يا آدم فصلّ، فهذا وقت الصلاة الأولى، فقام فصلّى فانحطّت الشامة إلى عنقه، فجاءه في الصلاة الثانية فقال: يا آدم قم فصلّ، فهذا وقت الصلاة الثانية، فقام فصلّى فانحطّت الشامة إلى سرّته، فجاءه في الصلاة الثالثة فقال: يا آدم قم فصلّ فهذا وقت الصلاة الثالثة. فقام فصلّى فانحطّت الشامة إلى رُكبتيه، فجاءه في الصلاة الرابعة، فقام فصلّى فانحطّت الشامة إلى قدميه، فجاءه في الصلاة الخامسة فقال: يا آدم قم فصلّ فهذا وقت الصلاة الخامسة. فقام فصلّى فخرج منها، فحمد الله وأثنى عليه، فقال جبرئيل: يا آدم مثل ولدك في هذه الصلاة كمثلك في هذه الشامة، من صلّى من ولدك في كلّ يوم وليلة خمس صلوات، خرج من ذنوبه كما خرجتَ من هذه الشامة».[٣]

---

(١) الروم: ١٧.

(٢) من لا يحضره الفقيه ١: ٢١١ - ٢١٤/ ح٦٤٣؛ بحار الأنوار ٩: ٢٩٤ - ٢٩٦/ ح٥.

(٣) من لا يحضره الفقيه ١: ٢١٤/ ح٦٤٤.

هذا وقد استوفينا موضوع الصلاة في المجلّد الثاني من كتابنا «الجواهر الروحية» تحت عنوان (الصلاة وطرق التقدّم الثلاث)، وفي المجلّد الأول من كتابنا «شرح رسالة الحقوق» وفي كتابنا «علي والأسس التربويّة» فلتُراجع.

الخامس: [الزكاة فريضة واجبة]

(إيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة) والاتيان بالوجوب بعد الفرض لمحض التأكيد، والاشارة إلى تأكّد وجوبها، نظير قوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.(١)

فإنّه سُبحانه بعد الأمر بها بالجملة الخبريّة التي هي في معنى الانشآء، عقّبه بقوله «فريضة» تأكيداً للوجوب.

قال الزجّاج: فريضة منصوب على التوكيد، لأنّ قوله: إنّما الصدقات لهؤلاء جارٍ مجرى قوله فرض الله الصدقات لهؤلاء فريضة، وذلك كالزجر عن مخالفة هذا الظاهر.

قال رفاعة بن موسى: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ما فرض الله على هذه الأمة أشدّ من الزكاة، وفيها تهلك عامّتهم.(٢)

أو الفريضة من الفرض بمعنى القطع والتقدير، ومنه قوله سبحانه: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾(٣) أي منقطعاً محدوداً، ويُطلق الفقهاء في باب المواريث على ذوي السهام المقدّرة ذوي الفرائض باعتبار أنّ سهامهم مقدّرة معيّنة في كتاب الله سبحانه، وعلى هذا فيكون معنى قوله عليه السلام: «إنّها فريضة واجبة» أنّها شيء مقدّر منقطع متّصف بالوجوب.

---

(١) التوبة: ٦٠.

(٢) أمالي الطوسي: ٦٩٣/ ح١٤٧٤؛ بحار الأنوار ٩٣: ٢٢/ ح٥١.

(٣) النساء: ١١٨.

وقد شرّعت الزكاة لحكم كثيرة: منها ما هو نفسي، ومنها ما هو خلقي، ومنها ما هو اجتماعي مثل الصلاة.

الحكم النفسية للزكاة:

إنّ الزكاة عطاء وبذل، ومواساة ومعاونة، والنفس بطبيعتها تهتزّ للكرم، وتفرح بالجود، وتجد الراحة والاطمئنان في مواساة الغير وإدخال السرور عليه، وهذا هو السبب في أنّ بعض الناس يقومون بمساعدة المحتاجين ومعاونة المعوزين دون رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب.

وكما أنّ المعطي يهتزّ للجود والندى، فإنّ الآخذ لا يقلّ عنه فرحاً واغتباطاً. سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن أفضل الأعمال فقال: «إدخال السرور على المؤمن، قيل: وما إدخال السرور على المؤمن؟ قال: سدّ جوعته، وفكّ كربته، وقضاء دَينه».[1]

أثرها في الاخلاق:

والانسان يحبّ المال بطبعه، وهذا الحبّ يدعو صاحبه إلى البُخل والحرص والجشع والأنانية والأثرة وسائر الرذائل الخلقيّة. وهذه الصفات تنزل بالانسان إلى مستوى الحيوان، وإلى هذا المعنى يشير الرسول صلى الله عليه وآله فيقول: «أدوأ الداء البخل»[2] ويقول: «شرّ ما في المرء شحّ هالع، وجُبن خالع»[3] ولا يتخلّص المرء من هذه الرذائل إلاّ بالتمرين على البذل والدربة على العطاء، ومن ثمّ كانت الزكاة ضريبة إجباريّة لا يمكن المرء أن يتخلّص منها. وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها﴾.[4]

---

(١) انظر الكافي ٢: ١٩٠/ ح٧؛ ٢: ١٩٢/ ح١٦. ٤: ٥١/ ح٧.

(٢) الكامل لابن عديّ ٣: ٤٠٣.

(٣) مسند أحمد ٢: ٣٠٢.

(٤) التوبة: ١٠٣.

على أنّ في مغالبة النفس والانتصار عليها بإخراج المال المحبوب لها دليل على قوّة الايمان وكمال اليقين، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «الصدقة برهان»[1] أي دليل على قوّة الايمان والارادة... وإذا انتصرت النفس على هواها ومحبوبها مرّة بعد مرّة أصبحت مذلّلة لحكم العقل، وخاضعة لأوامر الله، وبعيدة عن الاندفاع العاطفيّ.

أسرارها الاجتماعية:

والفقراء يمثّلون الأكثريّة من أفراد المجتمع، ولا بدّ من رعاية هؤلاء المساكين والعجزة والضعفاء والمحافظة على إنسانيّتهم وكرامتهم، ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بإخراج جزء معلوم من أموال الأغنياء حتّى يكفي هؤلاء ليصبحوا أعضاء نافعين ومواطنين صالحين، وقد يكون فيهم من هو أوفر ذكاء وأقدر على النهوض بالأعمال الجسام إذا وجد ما يقوم بحاجته الضرورية من الطعام والملبس والمأوى. وفي الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بالقدر الذي يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلاّ بما يصنع أغنياؤهم، ألا وإنّ الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذّبهم عذاباً أليماً».[2]

وإذا لم يجد الفقراء والضعفاء الكفاية ممّا هو ضروريّ وتعرّضوا للجوع، حملهم ذلك على الاتيان بكلّ ضرب من ضروب الشرّ للحصول على الضروري من القوت، فإنّ البطون إذا جاعت دفعت أصحابها إلى الجرائم وارتكاب كلّ موبقة، واعتبرت ذلك عملاً مشروعاً.

وبالاضافة إلى ذلك فإنّ الجماعة التي ينتشر فيها الفقر وينشب أنيابه فيها تشتعل فيها العداوة والبغضاء، فيهتزّ كيان الأمة بما يشيع فيها من تقاطع، وتتعرّض لرواج المذاهب المتطرّفة، ولا سبيل للقضاء على شرور الفقر إلاّ

---

(١) بحار الأنوار ٨١: ٢٤٥.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ٣: ٦٢.

بإخراج حقّ الفقراء ونصيبهم الذي فرضه الله وجعله أمانة في يد الأغنياء. يقول الله سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾.[1]

ثم إنّ الزكاة تقوّي الصلات بين الأغنياء والفقراء، وتجعل منهم أسرة واحدة متعاونة على الخير وتنمية المال وتقوية الأواصر.

وهي الضمان الاجتماعي الذي يكفل التوازن بين الطبقات، ويضمن اشتراكيّة سليمة، وهي أفضل وسيلة لتوزيع المال، فهي في الوقت الذي لا يضيق بها الغني ترفع مستوى الفقير إلى حدّ الكفاية وتجنّبه شظف العيش وألم الحرمان.

وبالتالي هي من أعظم دعائم الدين، وأقوى أركان الاسلام، والكلام فيها أيضاً يقع في مقامين:

المقام الأول: في محلّ وجوبها وعقوبة مانعها:

أمّا وجوبها فكفى بذلك أنّ اكثر الآيات المتضمّنة للأمر باقامة الصلاة متضمّنة للأمر بإيتاء الزكاة، فجعل الزكاة تالي الصلاة، والأخبار في هذا المعنى فوق حدّ الاحصاء.

عن مبارك العقرقوفي قال: قال أبو الحسن عليه السلام: إنّ الله عزّ وجلّ وضع الزكاة قوتاً للفقراء وتوفيراً لأموالكم.[2]

وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام لعمّار الساباطيّ: أنت ربّ مال كثير؟ قال: نعم جُعلت فداك. قال: فتؤدّي ما افترض الله عليك من الزكاة؟ قال: نعم. قال: فتخرج الحقّ المعلوم من مالك؟ قال: نعم. قال: فتصل قرابتك؟ قال: نعم. قال: فتصل إخوانك؟ قال: نعم. فقال عليه السلام: يا عمّار إنّ المال يفنى، والبدن يبلى، والعمل يبقى، والديّان حيّ لا يموت، يا عمار إنّه ما قدّمت فلن يسبقك، وما أخّرت فلن يلحقك.[3]

---

(١) الحديد: ٧.

(٢) الكافي ٣: ٤٩٨/ ح٦.

(٣) الكافي ٣: ٥٠١/ ح١٥.

وقال عليه السلام: إنّما وُضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء، ولو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً، ولاستغنى بما فرض الله له، إنّ الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلاّ بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله أن يمنع رحمته ممّن منع حقّ الله في ماله، وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق أنّه ما ضاع مال في برّ ولا بحر إلاّ بترك الزكاة، وما صيد في برّ ولا بحر إلاّ بتركه التسبيح في ذلك اليوم، وإنّ أحبّ الناس إلى الله أسخاهم كفّاً، وأسخى الناس من أدّى زكاة ماله ولم يبخل على المؤمنين بما افترض الله لهم في ماله.(١)

وكتب الإمام الرضا عليه السلام إلى محمّد بن سنان فيما كتب إليه من جواب مسائله: إنّ علّة الزكاة من أجل قوت الفقراء، وتحصين أموال الأغنياء، لأنّ الله كلّف أهل الصحّة القيام بشأن أهل الزمانة والبلوى، كما قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾.(٢) (٣)

في أموالكم: إخراج الزكاة، وفي أنفسكم: توطين النفس على الصبر، مع ما في ذلك من أداء شكر نعم الله والطمع في الزيادة مع ما فيه من الرفادة والرأفة والرحمة لأهل الضعف، والعطف على أهل المسكنة والحثّ لهم على المواساة وتقوية الفقراء والمعونة لهم على أمر الدين، وموعظة لأهل الغنى وعبرة لهم ليستدلّوا على فقراء الآخرة بهم ومالهم عن الحثّ في ذلك على الشكر لله لما خوّلهم وأعطاهم، والدعاء والتضرّع والخوف من أن يصيروا مثلهم في أمور كثيرة في أداء الزكاة والصدقات وصلة الأرحام واصطناع المعروف.

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: من أخرج زكاة ماله تامّة فوضعها في موضعها لم يُسأل من أين اكتسب ماله.(٤)

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٧/ ح١٥٧٩.

(٢) آل عمران: ١٨٦.

(٣) من لا يحضره الفقيه ٢: ٨/ ح١٥٨٠.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٢: ٩/ ح١٥٨١.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّما جعل الله الزكاة في كلّ ألف خمسة وعشرين درهماً، لأنّ الله تعالى خلق الخلق فعلم غنيّهم وفقيرهم وقويّهم وضعيفهم، فجعل من كلّ ألف خمسة وعشرين مسكيناً [و] لولا ذلك لزادهم الله لأنّه خالقهم وهو أعلم بهم».[1]

أمّا عقوبة تارك الزكاة ومانعها فقد قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِه هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِه يَوْمَ الْقِيامَة وَلِلَّه مِيراثُ السَّماواتِ وَالأَرْض وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2] وفي سورة براءة ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها في سَبِيلِ اللَّه فَبَشِّرْهُمْ بِعَذاب أَلِيم * يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها في نار جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.[3]

ولا يخفى ما في الآيتين من وجوه الحثّ على الانفاق والوعيد على الإمساك.

أمّا الآية الاولى فجهات الانذار فيها غير خفيّة: **الأولى**: أنّه سبحانه نهى عن حسبان الممسكين إمساكهم خيراً لهم ونفعاً في حقّهم، وأكّد ذلك بالنون المفيدة للتأكيد. **الثانية**: أنّه وصف الممسكين بصفة البخل وهو صفة ذمّ، **الثالثة**: أنّ ما بخلوا به هو ممّا آتاهم الله، فاللازم عليهم أن يتصرّفوا فيه بما أمر الله ويصرفوه إلى ما أراده الله. **الرابعة**: أنّ ذلك شرّ لهم وضرّ في حقّهم. **الخامسة**: أنّهم يُطَوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: ما من ذي ذهب أو فضّة يمنع زكاة ماله إلاّ حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر، وسلّط عليه شجاعاً أقرع يريده وهو يحيد عنه، فإذا رأى أنّه لا يتخلّص منه أمكنه من يده فقضمها كما يقضم الفجل، ثم يصير طوقاً في عنقه،

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٩/ ح١٥٨٢.

(٢) آل عمران: ١٨٠.

(٣) التوبة: ٣٤ و٣٥.

وذلك قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾[1] وما من ذي إبل أو بقر أو غنم يمنع زكاة ماله إلاّ حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر، تطؤه كلّ ذات ظلف بظلفها، وينهشه كلّ ذات ناب بنابها، وما من ذي نخل أو كرم أوزرع يمنع زكاته إلاّ طوّقه الله ربعة أرضه على سبع أرضين إلى يوم القيامة.[2]

وفي الكافي باسناده عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ فقال: يا محمد ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلاّ جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب، ثم قال: هو قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ يعني ما بخلوا به من الزكاة.[3]

السادسة: أنّ ميراث السماوات والأرض كلّه لله سبحانه، بمعنى أنّه وحده يبقى وغيره يفنى، ويبطل مُلك كلّ مالك إلاّ ملكه، فإذا كان المال في معرض الفناء والزوال فأجدر بالعاقل أن لا يبخل بالانفاق، ولا يحرص على الامساك، فيكون وزره عليه ونفعه لغيره.

السابعة: أنّه سبحانه خبير بما يعمله المكلّفون، بصير بمخالفتهم لأمره، لا يعزب عن علمه بخلهم بالانفاق ومنعهم عن أهل الاستحقاق، فيُذيقهم وَبال أمرهم عند المساق إذا التّفت الساق بالساق.

وأما الآية الثانية: فقد روى الطبرسيّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه لمّا نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وآله: تبّاً للذهب والفضة _ يكرّرها ثلاثاً _ فشقّ ذلك على أصحابه، فسأله عمر: أيّ المال نتّخذ؟

---

(١) آل عمران: ١٨٠.

(٢) الكافي ٣: ٥٠٥/ ح١٩؛ من لا يحضره الفقيه ٢: ٩ - ١٠/ ح١٥٨٣.

(٣) الكافي ٣: ٥٠٤/ ١٠؛ بحار الأنوار ٧: ١٩٦/ ح٦٥.

فقال: «لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة مؤمنة تُعين أحدكم على دينه».[١]

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ما زاد على أربعة آلاف فهو كنز، أدّى زكاته أو لم يؤدّ.[٢]

وعن الصادق عليه السلام: ما أعطى الله عبداً ثلاثين ألفاً وهو يريد به خيراً. وقال: ما جمع رجل قط عشرة ألف درهم من حلّ، وقد جمعهما الله لأقوام، إذا أُعطوا القوت ورزقوا العمل الصلاح، فقد جُمعت لهم الدنيا والآخرة.[٣]

ومحصّل المعنى أنّ الذين يجمعون المال ولا يؤدّون زكاتهم فأخبرهم بعذاب موجع، وللتعبير عن ذلك بلفظ البشارة مبنيّ على التهكّم، لأنّ من يكنز الذهب والفضّة فإنّما يكنزهما لتحصيل الوجاهة بهما يوم الحاجة والتوصّل إلى الفرج يوم الشدّة، فقيل له: هذا هو الوجاهة والفرج، كما يقال: تحيّتهم ليس إلاّ الضرب، وإكرامهم ليس إلاّ الشتم.

«يوم يُحمى عليها» أي يوقد على الكنوز «فِي نَارِ جَهَنَّمَ» حتى تصير ناراً «فتكوى بها» أي بتلك الأموال والكنوز التي منعوا حقوقها الواجبة.

[كوي الجباه والجنوب والظهور]:

«جباههم وجنوبهم وظهورهم» وتخصيص هذه الأعضاء بالكيّ بوجوه:

أحدها: أنّ منظورهم بكسب الأموال وترك الانفاق ليس إلاّ الأغراض الدنيويّة، وهو حصول الوجاهة لهم عند الناس، وحصول الشبع لهم بأكل الطيّبات فينفتح منه الجنبان، ولبس ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم، فوقع الكيّ على هذه الأعضاء جزاء لأغراضهم الفاسدة.

---

(١) تفسير مجمع البيان ٥: ٤٧.

(٢) تفسير مجمع البيان ٥: ٤٧؛ بحار الأنوار ٨: ٢٤٣.

(٣) مشكاة الأنوار: ٤٧٤؛ بحار الأنوار ٦٩/ ٦٦/ ح٢٣.

الثاني: أنّ الجباه كناية عن مقاديم البدن، والجنوب عن طرفيه، والظهور عن المآخير، والمراد به أنّ الكيّ يستوعب تمام البدن.

الثالث: أنّ الجبهة محلّ السجود فلم يقم فيه بحقّه، والجنب مقابل القلب الذي لم يُخلص في معتقده، والظهر محلّ الأوزار، قال: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾.(١)

الرابع: أنّ هذه الأعضاء مجوّفة وليست بمُصمتة، وفي داخلها آلات ضعيفة يعظم التألّم بسبب وصول أدنى أثر إليها، بخلاف سائر الأعضاء.

الخامس: وهو أحسن الوجوه وألطفها: أنّ صاحب المال إذا رأى الفقير أولاً قبض جبهته وعبس وجهه، وإذا دار الفقير يوليه وجهه، وإذا دار يوليه ظهره.

[قصة تحكي عن بعض مشاهد القيامة]:

وتأتي هنا قصّة قصيرة يصوّرها سيّد قطب في كتابه (مشاهد القيامة) بين موقف الغني يوم القيامة الذي لم يشر من نفسه بماله ابتغاء مرضاة الله، ولم يتخلّص من شوائب الدنيا، وبين الفقير الذي أنس بما قسم الله له وارتضاه.

والقصة هكذا نصّها:

«تطلّع (ساتني) ذات يوم من أعلى داره فرأى جنازة رجل غنيّ تسير من ممفيس إلى الجبل في موكب حافل بالنادبات والمشيّعين ومظاهر التكريم، ثم رأى في الوقت نفسه جنازة رجل فقير مُدرَج في حصير، ولا موكب معه ولا مشيّعين، فالتفت إلى ولده وقال إنّه يرجو أن يكون له في الدار الآخرة مصير كمصير ذلك الغني لا كمصير هذا الفقير، فقال (سينوزيريس): إنّه ـ بالعكس ـ يرجو له مثل مصير الفقير لا مثل مصير الغني.

فامتعض الوالد ولحظ الولد ذلك، فأخذ بيد أبيه يريه مصير الاثنين،... وذهب بأبيه إلى مكان في جبل ممفيس، فنزل به إلى الدار التي يُحاسب فيها

---

(١) الأنعام: ٣١.

الأموات (تسمّى هذه الدار الجحيم)، فإذا هما في سبع قاعات واسعة مملوءة بناس من جميع الطبقات، فاجتازا ثلاثاً من هذه الدور، ثم دخلا الرابعة، فإذا ناس يذهبون ويجيئون، بينما حمير تأكل من خلفهم، ثم ناس يثبون على طعام معلّق فوق رؤوسهم فلا يُدركونه، فيثبون ويثبون، بينما حفّارون يحفرون تحت أقدامهم ليزيدوا مسافة ما بينهم وبينه.

ثم دخلا القاعة السادسة فوجدا أرواحاً من الأبرار لكلّ منها مكان تقيم فيه، بينما في الباب أرواح متّهمة، فهي واقفة تتضرّع، ثم رأى رجلاً منطرحاً تحت الباب على ظهره، ومحور هذا الباب مركّز في عينه اليمنى يدور عليها كلّما فُتح أو أقفل، وهو لا ينفكّ يُفتح ويقفل، والرجل لا ينفكّ يصيح من الألم.

ثم دخلا القاعة فوجدا آلهة الحساب جالسين والمنادين ينادون قضايا الأموات واحدة بعد أخرى، والإله الكبير (أوزريس) جالس على عرش من الذهب متوّج بالتاج ذي الريشتين، بينما الإله (أنوبيس) واقف إلى يساره، والإله (توت) إلى يمينه، والآلهة الآخرون الذين يتألّف منهم مجلس دار الحساب واقفون يميناً ويساراً، والميزان منصوب يزن السيّئات والحسنات، فمن رجحت سيّئاتُه حسناته أُلقي إلى الوحش (إماييت) يفترسه، ومن رجحت حسناتُه سيّئاته قيد إلى حيث الآلهة، وصعدت روحه إلى السماء، أما من تعادلت حسناته وسيّئاته، فلا يفترسه الوحش ولا ينضمّ إلى الآلهة، بل يُعيّن للخدمة.

ونظر الفتى فرأى على مقربة من (أوزريس) رجلاً حسن البزّة مرفوع المنزلة، فالتفت إلى أبيه وقال: أترى هذا الجالس بجانب (أوزريس)؟ إنه الفقير الذي شاهدته مدرجاً في حصير وليس في جنازته أحد من المشيّعين، لقد جيء به إلى هنا، ثم وُزنت سيئاته وحسناته فرجحت الثانية الأُولى، وكان الإله (توت) قد سجّل له في سجلّه أنه لم يتمتّع على الأرض بسعادة كافية، فأمر (أوزريس) أن يُعطى كلّ ما كان مجهّزاً به ذلك الغني الذي رأيت جنازته مشيّعة بمظاهر التكريم، وأن تُرفع منزلته بين الآلهة.

أما الغني فقد وُزنت سيئاته وحسناته فوجد الأُولى ترجح الثانية، فقيد إلى الجزاء، وهو الذي رأيت محور الباب يدور على عينه اليمنى، وسمعته يصيح من الألم...

ولهذه القصّة قيمتها العظمى في الكشف عن تصوّرات عالم الآخرة، والدقّة في الجزاء الذي يناله الأفراد دون النظر إلى مظاهرهم في الدنيا من مال أو جاه.

* * *

وقوله: ﴿هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي يقال لهم في حالة الكيّ: هذا هو الذي ادّخرتموه لأنفسكم، وهو تبكيتٌ لهم بأنّ المال الذي بخلتم بإنفاقه وادّخرتموه لتنتفعوا به صار عذابكم به، فكأنّكم اكتنزتموه ليُجعل عقاباً لكم، «فذوقوا» عقاب «ما كنتم تكنزون» به لا بغيره.

قال الطبرسيّ صاحب التفسير: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما من عبد له مال لا يؤدّي زكاته إلاّ جُمع يوم القيامة صفائح يُحمى عليها في نار جهنم، فتُكوى بها جبهته وجنباه وظهره حتّى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ممّا تعدّون، ثم يرى سبيله إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار.[1]

وروى ثوبان عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «من ترك كنزاً مثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان[2] يتبعه، فيقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركتَ بعدك، فلا يزال يتبعه حتى يُلقمه يده فيقضمها ثم يتبعه سائر جسده».[3]

المقام الثاني: في أسرار الزكاة ودقائق بذل المال، وهي أمور:

الأوّل: أنّ المؤمن الموحّد إذا أقر بالتوحيد باللسان لزم إذعانه به بالجنان، ومعنى التوحيد إفراد المعبود بالمحبوبية، وإخلاص القلب عمّا سواه والفراغ عن كلّ ما عداه،

---

(١) تفسير مجمع البيان ٥: ٤٨.

(٢) زبيبتان: نقطتان سوداوان فوق عيني الحيّة.

(٣) تفسير مجمع البيان ٥: ٤٨.

فإنّ المحبّة أمر لا يتقبّل الشركة، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنّها آلة تمتّعهم بالدنيا، وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أنّ فيه لقاء المحبوب، فجعل الله بذل المال امتحاناً لهم وتصديقاً لدعوتهم المحبّة له سبحانه.

[أصناف الناس]:

والناس في ذلك ثلاثة أصناف: **[الأول]** صنف صدّقوا التوحيد وحذفوا عن ساحة قلوبهم ما سوى المعبود، وبذلوا أموالهم من غير تعرّض بوجوب الزكاة، ولم يدّخروا لأنفسهم ديناراً ولا درهماً، ولم يتركوا بعدهم صفراء ولا بيضاء، وهم الذين قال الله سبحانه في حقّهم:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1] ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾.[2]

جاء في الكافي بإسناده عن محمد بن سنان، عن المفضّل قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسأله رجل: في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال عليه السلام له: الزكاة الظاهرة أم الباطنة تريد؟ فقال: أريدهما جميعاً. فقال عليه السلام: أمّا الظاهرة ففي كلّ ألف خمسة وعشرون، وأمّا الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك.[3]

[الصنف الثاني]:

وصنف درجتهم دون درجة الصنف السابق، وهم الممسكون أموالهم، المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات، فيكون قصدهم في الادّخار والانفاق على نفسه وعياله الواجب النفقة بقدر الحاجة، وصرف الفاضل إلى وجوه البرّ مهما ظهر، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة، وهم الذين في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم.

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) الإنسان: ٨.

(٣) الكافي ٣: ٥٠٠/ ح١٣.

جاء في أصول الكافي بإسناده عن أبي بصير قال: كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام ومعنا بعض أصحاب الأموال، فذكروا الزكاة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ الزكاة ليس يُحمَد بها صاحبها وإنّما هو شيء ظاهر، إنما حقن بها دمه وسُمّي بها مسلماً، ولو لم يؤدّها لم تقبل له صلاة، وإنّ عليكم في أموالكم غير الزكاة. فقلت: أصلحك الله وما لنا في أموالنا غير الزكاة؟ فقال عليه السلام: سبحان الله! أما تسمع الله عزّ وجلّ يقول في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.[1] قال: ماذا الحقّ المعلوم الذي علينا؟ قال عليه السلام: هو الشيء يعمله الرجل في ماله، يُعطيه في اليوم أو في الجمعة أو في الشهر قلّ أو كثر غير أنه يدوم عليه.[2]

وعن إسماعيل بن جابر، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أهو سوى الزكاة؟ فقال عليه السلام: هو الرجل يؤتيه الله الثروة من المال فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف والأقل والأكثر فيصل به رحمه ويحمل به الكَلّ عن قومه.[3]

وعن القاسم بن عبد الرحمن الأنصاري قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ رجلاً جاء إلى أبي علي بن الحسين عليه السلام فقال له: أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[4] ما هذا الحقّ المعلوم؟ فقال له علي بن الحسين: الحقّ المعلوم الشيء يُخرجه الرجل من ماله ليس من الزكاة ولا من الصدقة المفروضين. قال: فإذا لم يكن من الزكاة ولا من الصدقة، فما هو؟ فقال عليه السلام: هو الشيء يُخرجه الرجل من ماله إن

---

(١) المعارج: ٢٤ و٢٥.

(٢) الكافي ٣: ٤٩٩/ ح٩.

(٣) الكافي ٣: ٤٩٩ - ٥٠٠/ ح١٠.

(٤) المعارج: ٢٤ و٢٥.

شآء أكثر وإن شاء أقلّ على قدر ما يملك. فقال له الرجل: فما يصنع به؟ قال: يصل به رحماً، ويقوّي به ضعيفاً، ويحمل به كلاًّ، أو يصل به أخاً له في الله أو لنائبة تنوبه، فقال الرجل: الله أعلم حيث يجعل رسالته.[1]

هذا والمحروم: الرجل الذي ليس بعقله بأس ولم يُبسط له في الرزق.

والصنف الثالث: الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون منه، وهي أدون الرتب، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وفرط ميلهم إليه وضعف حبّهم للآخرة.

السرّ الثاني: من أسرار الزكاة أنّها مطهرة من صفة البخل، وهي صفة مذمومة من جنود النفس، قال سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها﴾[2] وقال: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[3]

الثالث: أنّ شكر النعمة واجب عقلاً وشرعاً، وهو ـ على ما قاله العلماء ـ عبارة عن صرفها إلى طلب مرضاة المنعم. فالعبادات البدنيّة شكر لنعمة البدن، والعبادات الماليّة شكر لنعمة المال، فيحكم العقل بوجوبها لكونها شكراً للمنعم، وما أخسّ من ينظر إلى الفقير وقد ضيّق عليه الرزق وامتقع لونه من مسّ الجوع ثمّ لا تسمح نفسه أن يؤدّي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العُشر من ماله.

قال الإمام الصادق عليه السلام: ومن أدّى ما فرض الله عليه فقد قضى ما عليه، وأدّى شكر ما أنعم الله عليه في ماله، إذا هو حمده على ما أنعم الله عليه فيه بما فضّله به من السعة على غيره، ولما وفّقه لأداء ما فرض الله عزّ وجلّ عليه وأعانه عليه.[4]

---

(١) الكافي ٣: ٥٠٠/ ح١١.

(٢) التوبة: ١٠٣.

(٣) الحشر: ٩؛ التغابن: ١٦.

(٤) بحار الأنوار ٩٣: ١٠/ ح٨

الرابع: أنّ النفس الناطقة لها قوّتان: نظريّة وعمليّة، فالقوّة النظريّة كمالها في التعظيم لأمر الله، والقوّة العمليّة كمالها في الشفقة على خلق الله، فأوجب الزكاة ليحصل لجوهر الروح هذا الكمال وهو اتّصافه بكونه محسناً إلى الخلق، ساعياً في إيصال الخيرات إليهم، دافعاً للآفات عنهم.

الخامس: أنّ المال سُمّي مالاً لميل كلّ أحد إليه، وهو في معرض التلف والزوال، فهو غاد ورائح، وإذا أُنفق في مصارف الخير ووجوه الله بقي بقاء لا يزول، لأنّه يوجب الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة، وإنّ لسان الصدق في الناس خير له من المال يورثه غيره، فإنّ المراد بلسان الصدق هو الذكر الجميل، قال حاتم الطائي لامرأته ماويّة:

أماويَ إنّ المال غادٍ ورائح ... ويبقى من المال الأحاديثُ والذّكرُ

لقد علم الأقوام لو أنّ حاتماً ... أراد ثراء المال كان له وفرَ[1]

السادس: أنّ كثرة المال موجبة لحصول الطغيان والانحراف عن سبيل الرحمن كما قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[2] فأوجب الله الزكاة لتقليل سبب الطغيان وجبراً لمفسدته، إلى كثير وكثير من الأسرار التي يستنبطها العقل بأدنى توجّه، والله الهادي إلى الخيرات.

* * *

السادس: [الصيام والنجاة من النار]

«صوم شهر رمضان فإنّه جُنّة من العقاب» ووقاية من النار يوم الحساب، وإنّما خصّه عليه السلام بهذه العلّة ـ مع كون سائر العبادات كذلك ـ لكونه أشدّ وقاية من غيره.

بيان ذلك: أنّ استحقاق الانسان للعقوبة إنّما هو بقربه من الشيطان وإطاعته له

---

(١) أمالي المرتضى ٤: ٦٣.

(٢) العلق: ٧ و٨.

وللنفس الأمّارة، وبشدّة القرب وضعفه يتفاوت العقاب شدّة وضعفاً، وبكثرة الطاعة وقلّتها يختلف العذاب زيادة ونقصاناً، وسبيل الشيطان على الانسان ووسيلته إليه إنّما هي الشهوات، وقوّة الشهوة بالأكل والشرب، فبالجوع والصوم تضعف الشهوة وتنكسر صولة النفس وينسدّ سبيل الشيطان وينجى من العقوبة والخذلان، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم، فضيّقوا مجاريه بالجوع.[1]

قال الغزالي في «إحياء علوم الدين» في تعداد فوائد الجوع: ومن أكبر الفوائد كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمّارة بالسوء، فقلّة الأكل يضعف كلّ شهوة وقوّة، وإنّما السعادة كلّها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه، وكما أنّك لا تملك الدابّة الجموح إلاّ بضعف الجوع، فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت، فكذلك النفس، وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد، ولذلك قيل: الجوع خزانة من خزائن الله. وبذلك يظهر كون الصوم جنّة من النار ووقاية من غضب الجبّار، وأنّ فيه من إذلال النفس وقهر إبليس وكسر الشهوات ما ليس في سائر العبادات. هو واجب بالضرورة من الدين وإجماع المسلمين ونصّ الكتاب المبين، قال سبحانه:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَياماً مَعْدُودات فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[2]

---

(١) عوالي اللئالي ١: ٢٧٣/ ح٩٧؛ بحار الأنوار ٦٠: ٣٣٢.

(٢) البقرة: ١٨٣ - ١٨٥.

قال الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية: «لذّة ما في النداء أزال تعب العبادة والعناء»[١] وفي قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا سابقاً من أنّ الصوم جنّة ووقاية، به يُتّقى من العذاب ويُنجى من العقاب.

والمستفاد من الآية الشريفة أنّ الصوم كان مكتوباً مفروضاً على الأمم السابقة، كما أنّه مكتوب على الأمّة المرحومة.

ولا خلاف في ذلك، وإنّما الخلاف في أنّ الصوم المفروض علينا بهذه الكيفيّة المخصوصة في وقته وعدده هل كان في سائر الأمم كذلك؟

ذهب بعض العامّة إلى ذلك على ما حكاه في مجمع البيان، حيث روى فيه عن الشعبي والحسن أنهما قالا: إنّه فُرض علينا صوم شهر رمضان كما كان فرض صوم شهر رمضان على النصارى، وكان يتّفق ذلك في الحرّ الشديد والبرد الشديد، فحوّلوه إلى الربيع وزادوا في عدده.[٢]

وذهب آخرون إلى أنّ التشبيه في الآية بين فرض صومنا وفرض صوم من تقدّمنا من الأمم، أي كُتب عليكم صيام أيام كما كتب عليهم صيام أيّام، وليس في ذلك تشبيه عدد الصوم المفروض علينا ولا وقته بعدد الصوم المفروض عليهم ولا وقته.

هذا هو الأقوى، ويدلّ عليه صريحاً ما رواه الصدوق عن سليمان بن داود المنقري، عن حفص بن غياث النخعي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ شهر رمضان لم يفرض الله صيامه على أحد من الأمم قبلنا، فقلت له: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٣] قال عليه السلام: إنّما فرض الله صيام شهر رمضان على الأنبياء دون الأمم، ففضّل الله به هذه الأمّة وجعل صيامه فرضاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى أمّته.[٤]

---

(١) تفسير مجمع البيان ٢: ٦؛ تفسير الصافي ١: ٢١٨.

(٢) تفسير مجمع البيان ٢: ٦.

(٣) البقرة: ١٨٣.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٢: ٩٩/ ح ١٨٤٤.

والكلام بعدُ في علّة وجوب الصوم وفضله وفضل صوم شهر رمضان خصوصاً والآداب التي يكون عليها الصائم:

أمّا علّة وجوب الصوم:

فقد جاء في الفقيه: سأل هشام بن الحكم أبا عبد الله عليه السلام عن علّة الصيام، فقال عليه السلام: «إنّما فرض الله الصيام ليستوي به الغنيّ والفقير، وذلك أنّ الغنيّ لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير، لأنّ الغني كلّما أراد شيئاً قدر عليه، فأراد الله أن يسوّي بين خلقه وأن يُذيق الغنيّ مسّ الجوع والألم ليرقّ على الضعيف ويرحم الجائع».[1]

وكتب أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى محمّد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله: «علّة الصوم عرفان مسّ الجوع والعطش ليكون ذليلاً مستكيناً مأجوراً محتسباً صابراً، ويكون ذلك دليلاً له على شدائد الآخرة، مع ما فيه من الإنكسار له عن الشهوات، واعظاً له في العاجل، دليلاً على الآجل، ليعلم شدّة مبلغ ذلك من أهل الفقر والمسكنة في الدنيا والآخرة».[2]

وروي عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم عن مسائل، فكان فيما سأله أنه قال: لأيّ شيء فرض الله الصوم على أمّتك بالنهار ثلاثين يوماً، وفرض على الأمم أكثر من ذلك؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ آدم عليه السلام لمّا أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوماً، ففرض الله على ذرّيته ثلاثين يوماً الجوع والعطش، والذي يأكلونه بالليل تفضّل من الله عليهم، وكذلك كان على آدم، ففرض الله عزّ وجلّ ذلك على أمّتي، ثم تلى هذه الآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيّاماً مَعْدُودات﴾».[3]

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٧٣/ ح١٧٦٦؛ تفسير مجمع البيان ٢: ٧.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٧٣/ ح١٧٦٧.

(٣) البقرة: ١٨٣ و١٨٤.

قال اليهودي: صدقت يا محمد، فما جزاء من صامها؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: ما من مؤمن يصوم شهر رمضان احتساباً إلاّ أوجب الله له سبع خصال: **أوّلها:** يذوب الحرام من جسده، **والثانية:** يقرب من رحمة الله، **والثالثة:** يكون قد كفّر خطيئة أبيه آدم، **والرابعة:** يهوّن الله عليه سكرات الموت، **والخامسة:** أمان من الجوع والعطش يوم القيامة، **والسادسة:** يعطيه الله براءة من النار، **والسابعة:** يُطعمه الله من طيّبات الجنّة. قال: صدقت يا محمد.[1]

وأما فضل الصوم مطلقاً:

ففي الكافي والفقيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: بُني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية.[2]

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصوم جُنّة من النار».[3]

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال لأصحابه: «ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الصوم يسوّد وجهه، والصدقة تكسر ظهره، والحبّ في الله والموازرة على العمل الصالح يقطعان دابره، والاستغفار يقطع وتينه، ولكلّ شيء زكاة، وزكاة الأبدان الصوم».[4]

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «أوحى الله إلى موسى: ما يمنعك من مناجاتي؟ فقال: يا رب أُجلّك عن المناجاة لخلوف فم الصائم، فأوحى الله إليه: يا موسى لخلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك».[5]

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٧٤/ ح١٧٦٩.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٧٤/ ح١٧٧٠؛ الكافي ٢: ١٨/ ح١.

(٣) من لا يحضره الفقيه ٢: ٧٤/ ح١٧٧١؛ الكافي ٢: ١٩/ ح٥.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٢: ٧٥/ ح١٧٧٤؛ الكافي ٤: ٦٢/ ح٢.

(٥) من لا يحضره الفقيه ٢: ٧٦/ ح١٧٧٩؛ الكافي ٤: ٦٥/ ح١٣.

وعنه عليه السلام قال: «للصائم فرحتان: فرحة حين إفطاره، وفرحة حين لقاء ربّه».[١]

وقال عليه السلام: «من صام لله يوماً في شدّة الحرّ فأصابه ظمأ وكّل الله به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشّرونه، حتّى إذا أفطر قال الله عزّ وجلّ: ما أطيب ريحك وروحك، يا ملائكتي اشهدوا أنّي قد غفرت له».[٢]

وقال عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى يقول: «الصوم لي وأنا أجزي عليه».[٣]

وتخصيصه من بين سائر العبادات مع كون جميعها لله سبحانه من جهة مزيد اختصاصه به تعالى، أمّا لأجل أنّ الصوم عبادة لم يُعبد بها غير الحقّ سبحانه، بخلاف سائر العبادات والركوع والقيام والقربان ونحوها، فإنّها ربّما يُؤتى بها للمعبودات الباطلة كما يتعبّد بها للمعبود بالحقّ، وأمّا الصوم فلم يُتعبّد به إلاّ لله سبحانه وتعالى، أو لأنّ الصوم عبادة نقيّة بعيدة عن الرياء وليست مثل سائر العبادات التي تعلّقها بالجوارح والأعضاء الظاهرة غالباً، ولذلك لم تسلم من الشرك الخفي والرياء كثيراً.

وأما فضل شهر رمضان وفضل صومه:

ففي الوسائل عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أُعطيت أمّتي في شهر رمضان خمساً لم يُعطِها الله أمة نبيّ قبلي: إذا كان أوّل يوم منه نظر الله لهم، فإذا نظر الله عزّ وجلّ إلى شيء لم يعذّبه بعدها، وخلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة كلّ يوم وليلة منه، ويأمر الله عزّ وجلّ جنّته فيقول: تزيّني لعبادي المؤمنين يوشك أن يستريحوا من نصب الدنيا وأذاها إلى جنّتي وكرامتي، فإذا كان آخر ليلة منه غفر الله عزّ وجلّ لهم جميعاً».[٤]

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٧٦/ ح ١٧٨٠؛ الكافي ٤: ٦٥/ ح ١٥.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٧٦/ ح ١٧٨١؛ الكافي ٤: ٦٤/ ح ٨.

(٣) الكافي ٤: ٦٣/ ح ٦.

(٤) وسائل الشيعة ١٠: ٣١٧/ ح ١٣٥٠١.

وعن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: رجب شهر الله الأصبّ، وشهر شعبان تتشعّب فيه الخيرات، وفي أول يوم من شهر رمضان تُغَلّ المردة من الشياطين ويُغفر في كلّ ليلة لسبعين ألفاً، فإذا كان ليلة القدر غفر الله لمثل ما غفر في رجب وشعبان وشهر رمضان إلى ذلك اليوم، إلاّ رجل بينه وبين أخيه شحناء فيقول الله عزّ وجلّ: أنظِروا هؤلاء حتّى يصطلحوا.[1]

وعن علي بن الحسين عليه السلام كان يقول: «إنّ لله عزّ وجلّ في كلّ ليلة من شهر رمضان عند الافطار سبعين ألف ألف عتيق من النار كلٌّ قد استوجب النار، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق مثل ما أعتق في جميعه».[2]

وعن الصادق عليه السلام قال: حدّثني أبي عن أبيه، عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث قال: «من صام رمضان، وحفظ فرجه ولسانه، وكفّ أذاه عن الناس غفر الله له ذنوبه ما تقدّم منها وما تأخّر، وأعتقه من النار دار القرار، وقبل شفاعته بعدد رمل عالج من مذنبي أهل التوحيد».[3]

وفي العيون باسناده عن حسن بن فضّال، عن أبيه، عن الرضا، عن آبائه، عن علي عليه السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خطب ذات يوم فقال: «أيّها الناس إنّه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيّامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات، وهو شهر دُعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب، فاسألوا الله ربكم بنيّات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفّقكم لصيامه وتلاوة كتابه، فإنّ الشقيّ من حُرم غُفران الله في هذا الشهر العظيم، واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه، وتصدّقوا على فقرائكم ومساكينكم،

---

(١) وسائل الشيعة ١٠: ٣١٥/ ح١٣٤٩٥.

(٢) وسائل الشيعة ١٠: ٣١٧/ ح١٣٥٠٢.

(٣) وسائل الشيعة ١٠: ٢٤٣/ ح١٣٣٢١.

ووقّروا كباركم، وارحموا صغاركم، وصِلوا أرحامكم، واحفظوا ألسنتكم، وغُضّوا عمّا لا يحلّ النظر إليه أبصاركم، وعمّا لا يحلّ الاستماع إليه أسماعكم، وتحنّنوا على أيتام الناس يُتحنّن على أيتامكم، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم، وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلوتكم، فإنّها أفضل الساعات ينظر الله عزّ وجلّ فيها إلى عباده، يُجيبهم إذا ناجوه، ويُلبّيهم إذا نادوه، ويُعطيهم إذا سألوه، ويستجيب لهم إذا دعوه.

أيّها الناس إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكّوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخفّفوا عنها بطول سجودكم، واعلموا أنّ الله تعالى أقسم بعزّته أن لا يعذّب المصلّين والساجدين، وأن لا يروّعهم بالنار يوم يقوم الناس لربّ العالمين.

أيّها الناس من فطّر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عِتق نسمة ومغفرة لما مضى من ذنوبه، فقيل: يا رسول الله فليس كلّنا نقدر على ذلك، فقال صلى الله عليه وآله: اتّقوا النار ولو بشقّ تمرة، اتّقوا النار ولو بشربة من ماء.

أيّها الناس من حسّن في هذا الشهر منكم خُلقه كان له جواز على الصراط يوم تزلّ فيه الأقدام، ومن خفّف في هذا الشهر عمّا ملكت يمينه خفّف الله عليه حسابه، ومن كفّ فيه شرّه كفّ الله عنه غضبه يوم يلقاه، ومن أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه، ومن وصل فيه رحمه وصله الله برحمته يوم يلقاه، ومن تطوّع فيه بصلاة كتب الله له براءة من النار، ومن أدّى فيه فرضاً كان له ثواب من أدّى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور، ومن أكثر فيه من الصلوات عليّ ثقّل الله له ميزانه يوم تخفّ فيه الموازين، ومن تلى فيه آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور.

أيّها الناس إنّ أبواب الجنان في هذا الشهر مفتّحة، فاسألوا ربّكم أن لا يُغلقها عليكم، وأبواب النيران مغلّقة، فاسألوا ربكم أن لا يفتحها عليكم، والشياطين مغلولة، فاسألوا ربكم أن لا يسلّطها عليكم.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فقمت وقلت: يا رسول الله ما أفضل الأعمال

في هذا الشهر؟ فقال صلى الله عليه وآله: يا أبا الحسن أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله عزّ وجلّ. ثمّ بكى صلى الله عليه وآله فقلت: ما يُبكيك يا رسول الله؟ فقال: أبكي لما يُستحلّ منك في هذا الشهر، كأنّي بك وأنت تصلّي لربّك وقد انبعث أشقى الأوّلين والآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود، فضربك ضربة على قرنك فخضب منها لحيتك. فقلت: يا رسول الله وذلك في سلامة من ديني؟ فقال صلى الله عليه وآله: في سلامة من دينك. ثم قال: يا علي من قتلك فقد قتلني، ومن أبغضك فقد أبغضني، لأنّك منّي كنفسي، وطينتك من طينتي، وأنت وصيّي وخليفتي على أمّتي».[1]

[آداب الصوم]:

وأمّا آداب الصوم والحالات التي يجب أن يكون الصائم عليها فنقول:

إنّ الصوم على ثلاث مراتب ودرجات بعضها فوق بعض: الأولى صوم العموم، الثانية صوم الخصوص، الثالثة صوم الأخصّ.

أمّا صوم العموم فهو المفروض على عامّة المكلّفين، وهو الكفّ عن المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى الغروب الشرعيّ مع النيّة.

والمشهور في المفطرات أنّها عشرة: الأكل والشرب، والجماع، والبقاء على الجنابة عمداً، وفي حكمه النوم بعد انتباهتين، والغبار الغليظ، وفي حكمه الدخان كذلك، والكذب على الله سبحانه ورسوله والأئمّة عليهم السلام، والارتماس، والاستمناء مع خروج المني، والحقنة، والقيء، والتفصيل مذكور في الكتب الفقهيّة.

أمّا صوم الخصوص فهو أن يكون جامعاً لشرائط الكمال مضافة إلى شرائط الصحّة، كما أشار إليه الإمام سيّد الساجدين وزين العابدين عليه السلام في دعائه عند دخول شهر رمضان حيث قال:

---

(١) رواه الصدوق في الأمالي: ١٥٣ - ١٥٥/ ح١٤٩؛ وفي عيون أخبار الرضا ٢: ٢٦٦/ ح٥٣؛ وفي فضائل الأشهر الثلاثة: ٧٧/ ح٦١.

«اللهم صلّ على محمد وآل محمد وألهمنا معرفة فضله، وإجلال حرمته، والتحفّظ ممّا حظرت فيه، وأعنّا على صيامه بكفّ الجوارح عن معاصيك، واستعمالها بما يُرضيك، حتّى لا نُصغي بأسماعنا إلى لغو، ولا نسرع بأبصارنا إلى لهو، وحتى لا نبسط أيدينا إلى محظور، ولا نخطو بأقدامنا إلى محجور، وحتّى لا تعي بطوننا إلاّ ما أحللت، ولا تنطق ألسنتنا إلاّ بما مثّلت، ولا نتكلّف إلاّ ما يُدني من ثوابك ولا نتعاطى إلاّ ما يقي من عقابك، ثم خلّص ذلك كلّه من رياء المرائين وسمعة المسمعين،[1] لا نشرك فيه أحداً دونكَ ولا نبغي به معبوداً سواك».[2]

[شروط كمال الصوم]:

ومحصّل شروط الكمال أن لا يكون يوم صومه كيوم فطره، ومداره على أمور:

منها غضّ السمع والبصر عن محارم الله وعن كلّ ما يلهي النفس عن ذِكر الله، وكذلك حفظ سائر الأعضاء عن المعاصي والآثار.

قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: إذا صُمت فليَصُم سمعُك وبصرُك وشعرك وجلدك، وعدّد أشياء غير هذا. وقال عليه السلام: لا يكون يوم صومك كيوم فطرك.[3]

ومنها: حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والخصومة، بل عن مطلق التكلّم إلاّ بذكر الله.

روى الكافي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إنّ الصيام ليس من الطعام والشراب وحده، ثمّ قال: قالت مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾[4] ـ أي صمتاً ـ فاحفظوا ألسنتكم، وغضّوا أبصاركم، ولا تنازعوا، ولا تحاسدوا».[5]

---

(١) وفي نسخة: المستمعين.

(٢) إقبال الأعمال للسيد ابن طاووس ١: ١١٢، من دعائه عليه السلام عند دخول شهر رمضان.

(٣) بحار الأنوار ٩٣: ٢٩٢/ ح١٥.

(٤) مريم: ٢٦.

(٥) بحار الأنوار ٩٣: ٢٩٢/ ح١٦.

قال: وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله امرأة تسبّ جارية لها وهي صائمة، فدعى رسول الله بطعام فقال لها: كُلي. فقالت إنّي صائمة. فقال: كيف تكونين صائمة وقد سببتِ جاريتك؟ إنّ الصوم ليس من الطعام والشراب.[١]

قال: وقال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا صُمت فليصم سمعُك وبصرُك من الحرام والقبيح، ودع المِراء وأذى الخادم، وليكن عليك وقار الصيام، ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرك».[٢]

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من عبد صالح يُشتَم فيقول: إنّي صائم سلام عليك لا أشتمك كما تشتمني، إلاّ قال الربّ تبارك وتعالى: استجار عبدي بالصوم من شرّ عبدي، وقد أجرتُه من النار».[٣]

وبالجملة فاللازم على الصائم التحفّظ من سقطات اللسان وفضول البيان، والمواظبة على الاستغفار والدعاء وتلاوة القرآن وسائر الأذكار.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «عليكم في شهر رمضان بكثرة الاستغفار والدعاء، فأمّا الدعاء فيُدفع به عنكم البلاء، وأمّا الاستغفار فتُمحى به ذنوبكم».[٤]

وقال أبو عبد الله عليه السلام: كان علي بن الحسين عليه السلام إذا كان شهر رمضان لم يتكلّم إلاّ بالدعاء والتسبيح والاستغفار والتكبير، فإذا أفطر قال: اللهمّ إن شئتَ أن تفعل فعلتَ.[٥]

ومنها ترك شمّ الرياحين ولا سيّما النرجس.

ومنها الكفّ عن الافطار على الشبهات: روى في الوسائل عن أبي عبد الله عليه السلام

---

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٢٩٤/ ح٢٣.

(٢) بحار الأنوار ٩٣: ٢٩٢/ ح١٦.

(٣) الكافي ٤: ٨٨/ ح٥.

(٤) إقبال الأعمال ١: ٦٩؛ بحار الأنوار ٩٣: ٣٧٨ - ٣٧٩/ ح٢.

(٥) بحار الأنوار ٤٦: ٦٥/ ح٣٥.

عن أبيه قال: جاء قنبر مولى علي عليه السلام بفطره إليه، فجاء بجراب فيه سويق وعليه خاتم، قال: فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إنّ هذا لهو البخل تختم على طعامك. قال: فضحك عليه السلام ثم قال: أو غير ذلك، لا أحبّ أن يدخل بطني شيء لا أعرف سبيله.(١)

ومنها: أن لا يُكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلئ ويثقل، فما من وعاء أبغض إلى الله من بطن مملوّ.

وفي البحار عن مجالس ابن الشيخ قدس سره بإسناده عن جعفر بن محمد، عن آبائه عليهم السلام ـ في حديث طويل لإبليس مع يحيى عليه السلام ـ قال: قال يحيى: فهل ظفرت بي ساعة قط؟ قال: لا، ولكن فيك خصلة تعجبني، قال يحيى: فما هي قال: أنت رجل أكول، فإذا أفطرت أكلت وبشمت، فيمنعك ذلك من بعض صلاتك وقيامك بالليل. قال يحيى: فإنّي أُعطي الله عهداً أنّي لا أشبع من الطعام حتى ألقاه. قال له إبليس: وأنا أُعطي الله عهداً أنّي لا أنصح مسلماً حتّى ألقاه، ثم خرج فما عاد إليه.(٢)

ومنها: أن يكون قلبه بعد الافطار مضطرباً بين الخوف والرجاء، إذ لا يدري أنّ صومه مقبول فهو من المقرّبين، أو مردود فهو من المحرومين.

مرّ بعض أصحاب العقول بقومٍ يوم عيدهم وهم ضاحكون مستبشرون، فقال: إنّ الله سبحانه جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلّف أقوام فخابوا، فالعجب كلّ العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المسارعون وخاب فيه المبطلون.(٣)

وأمّا صوم أخصّ الخواص: فصوم القلوب عن الهمم الدنيويّة والأغراض الدنية، وكفّه عن التوجّه إلى ما سوى الله بالكلّية، لدوام استغراقه بالحقّ عن الالتفات بغيره، فالفطر في هذا الصوم الذي هو فيه هو الفكر فيما

---

(١) بحار الأنوار ٤٠: ٣٣٩/ ح ٢٤.

(٢) بحار الأنوار ١٤: ١٧١ - ١٧٣/ ح ١٢؛ أمالي الطوسي: ٣٤٠/ ح ٦٩٢.

(٣) روي في إقبال الأعمال ١: ٤٦٧ وبحار الأنوار ٧٥: ١١٠ عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

سوى الله واليوم الآخر وصرف الهمّة في غير طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله من أغراض النفس ومقاصد الطمع، وقد استوفينا الموضوع في المجلد الثاني من كتابنا (الجواهر الروحيّة) تحت عنوان (مدرسة الصوم).

السابع: [أثر الحج في الدنيا والآخرة]

«حجّ البيت واعتماره فإنّهما يَنفيان الفقر ويُرحضان الذنب» أي يغسلانه ويطهّرانه.

قد يبدو أنّ الحجّ عبادة رمزيّة غير معقولة المعنى، ولا ظاهرة الحكمة، وأنّ ما يأتيه الانسان من أعمال إنّما هو امتثال للأمر، وإظهار للعبوديّة، وقيام بحقّ الله، ولكنّه عند التأمّل تتجلّى أسراره وتظهر آثاره النفسيّة والخُلقيّة والاجتماعية.

أسراره النفسية:

إنّ شعائر الحجّ تُثير في النفس ذكريات عِذاباً، إذ أنّها ترتبط بالواقع التاريخي لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وخاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه.

والحجّ يُلقي على هذه الذكريات من الظلال والألوان ما يجعلها شاخصة للعيون وماثلة في الأذهان.

إنّ إبراهيم عليه السلام هو الذي رفع قواعد البيت وإسماعيل.

وهو أوّل بيت وضع لعبادة الله في الأرض. ومن ثمّ أُمر الحنفاء أن يتوجّهوا إليه كلّما توجّهوا إلى الله في صلاتهم، وأن يتلاقوا عنده كلّ عام، يحدوهم الحبّ في الله والاجتماع عليه، ليُعلنوا تضامنهم واتّفاقهم على إقامة شريعة الله الواحد.

ولا تزال النفس الإنسانية تهفو إلى مصدر إشعاعها الأوّل وتحنّ إليه، وتقيم لذلك المعالم الهادية، وتتّخذ منها حافزاً يرقى بحاضرها وينهض بها إلى حياة أهدى وأزكى.

ولقد جاشت نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وانفعلت بهذه الذكريات، فبكى وهو عند الكعبة وقال: «هنا تُسكب العبرات».[1]

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه ٢: ٩٨٢/ ح٢٩٤٥ والحاكم في المستدرك ١: ٤٥٤.

آثاره الخلقية:

والحجّ نوع من السلوك ولون من ألوان التدريب العمليّ على مجاهدة النفس من أجل الوصول إلى المثل والاندماج في حياة روحيّة خالصة تمتلئ فيها القلوب بحبّ الله، وتنطلق الحناجر هاتفة بذكره مثنية بينما يرتدي المرء ملابس الاحرام، وهي ملابس خالية من الزينة ومن كلّ ما يثير في النفس دواعي العجب والخيلاء.

يقول الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾.(١)

تشير هذه الآية إلى أنّ المرء حينما يدخل في أعمال الحجّ يجب عليه أن يعيش في جوّ من العفاف والأدب العالي، فلا يتدلّى إلى رفثٍ ولا يميل إلى فسوق ولا ينطق بكلمة طائشة، أو ينظر نظرة فاحشة. كما تشير أيضاً إلى فعل الخير، وهو عمل إيجابيّ يجمل بكلّ مؤمن أن يهتمّ به ويحرص عليه.

آثاره الاجتماعية:

يمكن تلخيص الحكم الاجتماعيّة للحجّ فيما يلي:

١ ـ إنّ الحجّ رحلة سياسيّة لتجميع أكبر عدد ممكن من أفراد الأمّة الاسلامية ليشهدوا المنافع التي تعود عليهم بالخير والبركات، سواء كانت منافع روحيّة أم منافع اقتصاديّة، أم منافع سياسيّة.

٢ ـ أنّ فيه تعارف الشعوب الإسلاميّة وتوحيد غاياتهم التي توجّههم الوجهة التي تأخذ بأيديهم إلى حياة القوّة والعزّة والعلم والعمل بما يفيده بعضهم من بعض، ومن تبادل الآراء المختلفة والثقافات المتنوعة.

٣ ـ يمكن عقد معاهدات واتفاقات في موسم الحجّ ودراسة الوسائل لتيسير التبادل الاقتصاديّ والثقافيّ ممّا تحتاج إليه هذه البلاد.

---

(١) البقرة: ١٩٧.

هذه هي بعض حِكم الحجّ وأسراره، فلننظر إلى أرض الله الواسعة ولنستحضر كلّ المؤتمرات والتجمّعات، فهل نجد مجتمعاً أطهر وأبرّ من هذا المجتمع مع هذا العدد الوفير والكثرة الكاثرة؟ وصدق الله إذ يقول: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.[1]

قال ابن عباس: يعني بالمنافع التجارات. وقال سعيد بن المسيّب وعطيّة: هي منافع الآخرة وهي العفو والغفران. وقال مجاهد: هي التجارة في الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة.

ويُشعر به المرويّ عن الصادق عليه السلام حيث قال في رواية: إنّي سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[2] فقيل: منافع الدنيا ومنافع الآخرة؟ فقال عليه السلام: الكلّ.[3]

وفي الفقيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من حاجّ يُضحي ملبّياً حتى تزول الشمس إلاّ غابت ذنوبه معها، والحجّ والعمرة ينفيان الفقر كما ينفي الكيرُ الحديدَ».[4]

وقال علي بن الحسين عليه السلام: «حجّوا واعتمروا تصحّ أبدانكم وتتّسع أرزاقكم وتُكفون مؤنات عيالاتكم».[5]

وقال عليه السلام: «الحاجّ مغفور له، وموجوب له الجنة، ومُستأنَف له العمل، ومحفوظ في أهله وماله».[6]

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحجّة [المتقبّلة] ثوابها الجنّة، والعُمرة كفّارة لكلّ ذنب».[7]

---

(١) الحجّ: ٢٧ و٢٨.

(٢) الحجّ: ٢٨.

(٣) تفسير الصافي ٣: ٣٧٤؛ منتهى المطلب للعلامة الحلّي ٢: ٧٠١.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٢٢/ ح٢٢٣٨.

(٥) الفصول المهمّة للحرّ العاملي ٣: ٢٣١.

(٦) الفصول المهمّة ٣: ٢٣١.

(٧) بحار الأنوار ٩٦: ٥٠/ ح٤٦.

وعن اسحاق بن عمّار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي قد وطّنت نفسي على لزوم الحجّ كلّ عام بنفسي أو برجلٍ من أهل بيتي بمالي. فقال عليه السلام: وقد عزمتَ على لزوم ذلك؟ قال: قلت نعم. قال :إن فعلتَ فأبقِن بكثرة المال.[1]

وعن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يحالف الفقر والحمّى مُدمن الحجّ والعمرة.[2]

وعن ابن الطيار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «حِججٌ تترى وعُمَر تسعى يدفعن عيلة الفقر وميتة السوء».[3]

والمستفاد من هذه الروايات أنّ للحجّ والعمرة بذاتها مدخليّة في زيادة المال ونفي الفقر، لا من حيث التجارة والحاصلة في موضع الحجّ وقيام الأسواق حينئذ.

الثامن: [آثار صلة الرحم الوضعية]

«صلة الرحم فإنّها مثراة في المال ومنسأة في الأجل» يعني أنّها موجبة للزيادة في المال، والتأخير في الأجل ومحلّ لهما.

قال الشارح البحراني: كونها مثراة في المال من وجهين:

أحدهما: أنّ العناية الإلهيّة قسمت لكلّ حيّ قسطاً من الرزق يناله مدّة الحياة الدنيا وتقوم به صورة بدنه، فإذا أعدّت شخصاً من الناس للقيام بأمر جماعة وكفلت بإمدادهم ومعونتهم وجب في العناية إفاضة أرزاقهم على يده وما يقوم بإمدادهم بحسب استعداده لذلك، سواء كانوا ذوي أرحام أو مرحومين في نظره، حتّى لو نوى قطع أحدهم فربّما نقص ماله بحسب رزق ذلك المقطوع، وذلك معنى كونه مثراةً للمال.

---

(١) بحار الأنوار ٩٦: ٢٥/ ح١٠٧.

(٢) الكافي ٤: ٢٥٤/ ح٨

(٣) الكافي ٤: ٢٦١/ ح٣٦.

الثاني: أنّ صلة الرحم من الأخلاق الحميدة التي يُستمال بها طباع الخلق، فواصلُ رَحِمِه مرحوم في نظر الكلّ، فيكون ذاك سبباً لإمداده ومعونته من ذوي الإمداد والمعانات كالملوك ونحوهم، فكان صلة الرحم مظنّة لزيادة المال.

وكونها منسأة في الأجل من وجهين:

أحدهما: أنّ صلة الرحم توجب تعاطف ذوي الأرحام وتوازرهم ومعاضدتهم لواصلهم، فيكون عن أذى الأعداء أبعد، وفي ذلك مظنّة تأخيره وطول عمره.

الثاني: أنّ مواصلة ذوي الأرحام توجب تعلّق هممهم ببقاء واصلهم وإمداده بالدعاء، ويكون دعاؤهم وتعلّق هممهم ببقائه من شرائط بقائه ونسأ أجله، فكانت مواصلتهم منسأة في أجله.

التاسع: [الصدقة وأنواعها]

الصدقة وهي على قسمين:

أحدهما: صدقة السرّ فإنها تكفّر الخطيئة وتُطفيء غضب الربّ سبحانه، وإنّما خصّها عليه السلام بذلك ـ مع كون سائر العبادات كذلك ـ لكونها أبعد من الرياء، وتضمّنها من الخلوص والتقرّب ما ليس في غيرها.

روي في الكافي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «صدقة السرّ تطفيء غضب الرب تبارك وتعالى».[1]

وعن عمّار الساباطي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا عمّار الصدقة والله في السرّ أفضل من الصدقة في العلانية، وكذلك ـ والله ـ العبادة في السرّ أفضل منها في العلانية».[2]

وعن معلّى بن خنيس قال: خرج أبو عبد الله عليه السلام في ليلة قد رشّت وهو

---

(١) الكافي ٤: ٧/ ح١ و٤: ٨/ ح٣.

(٢) الكافي ٤: ٨/ ح٢.

يريد ظلّة بني ساعدة، فاتبعته فإذا قد سقط منه شيء، فقال: بسم الله اللهمّ رُدّ علينا. قال: فأتيته فسلّمت عليه، فقال عليه السلام: معلّى؟ قلت: نعم جُعلت فداك. فقال لي: التمس بيدك فما وجدتَ من شيء فادفعه إلي، فإذا أنا بخبز منتثّ كثير، فجعلت أدفع عليه ما وجدت فإذا أنا بجراب أعجز عن حمله من خبز، فقلت: جعلت فداك أحمل على رأسي؟ فقال: لا، أنا أولى به منك، ولكن امضِ معي. قال: فأتينا ظلّة بني ساعدة فإذا نحن بقوم نيام، فجعل يدسّ الرغيف والرغيفين حتّى أتى على آخرهم ثم انصرفنا، فقلت: جُعلت فداك يعرف هؤلاء الحقّ؟ فقال: لو عرفوه لواسيناهم بالدُقّة _ والدُقّة هي الملح _ إنّ الله تبارك وتعالى لم يخلق شيئاً إلاّ وله خازن يخزنه إلاّ الصدقة، فإنّ الربّ يليها بنفسه، وكان أبي عليه السلام إذا تصدّق بشيء وضعه في يد السائل ثم ارتدّه منه فقبّله وشمّه ثم ردّه في يد السائل، إنّ صدقة الليل تُطفيء غضب الرب وتمحو الذنب العظيم وتهوّن الحساب، وصدقة النهار تثمر المال وتزيد في العمر، إنّ عيسى بن مريم عليه السلام لمّا مرّ على شاطيء البحر رمى بقرص من قوته في الماء، فقال له بعض الحواريّين: يا روح الله وكلمته لم فعلت هذا وإنّما هو من قُوتك؟ قال عليه السلام: فعلت هذا لدابّة تأكله من دواب الماء، وثوابه عند الله عظيم.[1]

والثاني: «صدقة العَلانية فإنّها تدفع ميتة السوء». كالغرق والحرق والهدم ونحوها.

ويدلّ عليه روايات أخر، مثل ما رواه الكليني باسناده عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ الصدقة باليد تقي ميتة السوء، وتدفع سبعين نوعاً من أنواع البلاء، وتفكّ عن لحى سبعين شيطاناً، كلّهم يأمره أن لا يفعل».[2]

وعن أبي ولاد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «بكّروا بالصدقة وارغبوا فيها،

---

(١) الكافي ٤: ٨ - ٩/ ح٣.

(٢) الكافي ٤: ٣/ ح٧.

فما من مؤمن يتصدّق بصدقة يُريد بها ما عند الله ليدفع الله بها عنه شرّ ما ينزل من السماء إلى الأرض في ذلك اليوم إلاّ وقاه الله شرّ ما ينزل في ذلك اليوم».[١]

وعن السكوني عن جعفر، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله لا إله إلاّ هو ليدفع بالصدقة الداء والدبيلة _ أي الطاعون _ والحرق والغرق والهدم والجنون، وعدّ صلى الله عليه وآله سبعين باباً من السوء.[٢]

وعن سالم بن مكرم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مرّ يهودي بالنبي صلى الله عليه وآله فقال: السّام عليك، فقال صلى الله عليه وآله: عليك. فقال أصحابه: إنّما سلّم عليك بالموت. فقال صلى الله عليه وآله: وكذلك رددت. ثم قال النبي: إنّ هذا اليهودي يعضّه أسود في قفاه فيقتله. قال: فذهب اليهودي فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله، ثمّ لم يلبث أن انصرف، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا يهودي أيّ شيء عملت اليوم؟ قال: ما عملت عملاً إلاّ حطبي هذا احتملته وجئت به، فكان معي كعكتان، فأكلت واحدة وتصدّقت بواحدة على مسكين. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بها دفع الله عنك، وقال صلى الله عليه وآله: إنّ الصدقة تدفع ميتة السوء عن الانسان».[٣]

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الصدقة لتدفع سبعين بليّة من بلايا الدنيا مع ميتة السوء، إنّ صاحبها لا يموت ميتة السوء أبداً، مع ما يُدَّخر لصاحبها من الأجر في الآخرة».[٤]

العاشر: [صنع المعروف]

«صنائع المعروف فإنّها تقي مصارع الهوان» المعروف اسم لكلّ فعل

---

(١) الكافي ٤: ٥/ ح١.

(٢) الكافي ٤: ٥/ ح٢.

(٣) الكافي ٤: ٥/ ح٣.

(٤) الكافي ٤: ٦/ ح٥.

يُعرف حُسنه بالعقل والشرع: كالاحسان والبرّ والصلة والصدقة على الناس والرفق معهم وسائر أعمال الخير. واصطناع المعروف لمّا كان مستلزماً لتأليف قلوب الخلق وجامعاً لهم على محبة المصطنع، لا جرم كان وقاية له، والناس يتّقون قتله ويجتنبون عن فعل ما يوجب الهوان به وذلّته، وهو ظاهر.

ونظير هذا الكلام ما رواه عبد الله بن ميمون القدّاح عن أبي عبد الله عليه السلام، عن آبائه قال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء».[١]

وهذا من جملة خواصّه في الدنيا. ومنها أيضاً زيادة البركة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ البركة أسرع إلى البيت الذي يمتار منه المعروف من الشفرة إلى سنام البعير، أو من السيل إلى منتهاه».[٢]

وأمّا ثمراته الأُخرويّة فكثيرة أشرت إليها في باب المعروف: ففي الفقيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أوّل من يدخل الجنة المعروف وأهله، وأوّل من يرد عليَّ الحوض».[٣]

وقال صلى الله عليه وآله: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة».[٤]

وتفسيره أنّه إذا كان يوم القيامة قيل لهم: هَبوا حسناتكم لمن شئتم وادخلوا الجنّة.

وقال الصادق عليه السلام: «أيّما مؤمن أوصل إلى أخيه المؤمن معروفاً فقد أوصل ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله».[٥]

وقال عليه السلام: «المعروف شيء سوى الزكاة، فتقربوا إلى الله عزّ وجلّ بالبرّ وصلة الرحم».[٦]

---

(١) الكافي ٤: ٢٩/ ح١.
(٢) الكافي ٤: ٢٩/ ح٢.
(٣) الكافي ٤: ٢٨/ ح١١.
(٤) الكافي ٤: ٢٩ - ٣٠/ ح٣.
(٥) الكافي ٤: ٢٧/ ح٨.
(٦) الكافي ٤: ٢٧/ ح٥.

وقال أيضاً: «رأيت المعروف لا يصلح إلاّ بثلاث خصال: تصغيره، وستره، وتعجيله، فإذا صغّرته عظّمته عند من تصنعه إليه، وإذا سترته تمّمته، وإذا عجّلته هنّأته، وإن كان غير ذلك سخّفته ونكّدته».[1]

وفي رواية مفضّل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا مفضّل إذا أردت أن تعلم إلى خير يصير الرجل أم إلى شرّ، أنظر إلى أين يضع معروفه، فان كان يضع معروفه عند أهله فاعلم أنّه يصير إلى خير، وإن كان يضع معروفه عند غير أهله فاعلم أنّه ليس له في الآخرة من خَلاق».[2]

وقد استوفينا موضوع المعروف ونكته وما ورد فيه من المزايا في فصل «المعروف» من هذا الكتاب، فراجعه.

* * *

(١) الكافي ٤: ٣٠/ ح١.

(٢) الكافي ٤: ٣١/ ح٢.

فهرست الموضوعات

المقدمة **٣**

كتاب صوت الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة ٦

نشاطات مؤسسة إحياء التراث الشيعي ٧

عملنا في الكتاب ٨

شكر وتقدير ٨

تقديم بقلم نجل المؤلف السيد صدر الدين القبانچي ٩

سياسة الإمام علي عليه السلام ٩

الأصول الثلاثة ٩

هذا الكتاب ١٠

كتابات المؤلف في الإمام علي عليه السلام ١٠

الأول: علي والأسس التربوية ١١

الثاني: مسند الإمام علي عليه السلام ١١

الثالث: صوت الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة ١١

كلمة الشكر ١٢

مقدمة وذكريات بقلم الدكتور الشيخ محمد حسين الصغير ١٣

كلمات أقطاب العلم وعباقرة الأدب حول نهج البلاغة ١٩

كلمة السيد كاظم القزويني ١٩

كلمة الحجّة آغا بزرك الطهراني ١٩

كلمة العلاّمة السيد هبة الدين الشهرستاني ٢٣
كلمة الحجّة العلاّمة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ٢٣
كلمة ابن أبي الحديد المعتزلي ٢٤
كلمة الفيلسوف الشيخ محمّد عبدة ٢٩
كلمة محمد محي الدين مصدّر شرح النهج لابن عبدة ٣١
كلمة السيد شريف الرضي ٣١
كلمة ميرزا حبيب الله الخوئي ٣٢
كلمة الأستاذ حسن نائل المرصفي المصري ٣٣
كلمة الصحافي الشهيد أمين نخلة ٣٥
كلمة نرسيسيان ٣٦
كلمة مستر كرينو الانكليزي أستاذ الآداب العربية ٣٦
كلمة الأستاذ جورج جرداق ٣٦
كلمة الشيخ محمد مهدي شمس الدين ٤٣
كلمة الأديب جبران خليل جبران ٤٤
كلمة الشيخ محمد حسن القبيسي العاملي ٤٤
كلمة روكس بن زائدة العزيزي الكاثوليكي ٤٥
العقاد ونهج البلاغة ٤٦
كلمة سبط ابن الجوزي ٤٧
كلمة الحجّة الشيخ هادي كاشف الغطاء ٤٧
كلمة الدكتور زكي نجيب محمود ٤٧
كلمة الأستاذ العلاّمة أحمد أمين الكاظمي ٤٨
كلمة الدكتور صبحي الصالح ٤٩
كلمة شبلي شميل حول نهج البلاغة ٥١

كلمة سليمان كتّاني ٥٢
نهج البلاغة في الشعر العربي ٥٣
قيل فيه شعراً ٥٣
علي ونهج البلاغة فيما ذهب إليه بعض المرجفين ٦١

مختارات من خطب وكتب
الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وشرحها

من كتاب له عليه السلام إلى الحارث الهمداني:

يوصيه بالتمسك بالقرآن وذكر الموت ونصائح أخرى عظيمة ٦٩
دخول الحارث الهمداني على أمير المؤمنين عليه السلام ٧٠
حديث علي عليه السلام مع نوف البكالي ٧٣
موعظة الإمام الجواد عليه السلام لعبد العظيم الحسني ٧٤
موعظة الإمام علي عليه السلام للحسن البصري ٧٥
مواعظ وحكم لعلي عليه السلام ٧٧
الذنوب ثلاثة ٨٠
من خطبة له عليه السلام: في صفة الإسلام والإيمان ٨١
الإيمان يدل على الصالحات ٨٢
إعمار الفقه بالإصلاح ٨٣
بالفقه يرهب الموت ٨٥
أشعار في الموت ٨٥
من خطبة له عليه السلام: في ذم قريش وبيان عظمة أهل البيت عليهم السلام ٩١
أهل البيت عليهم السلام أظلة العرش ٩٣
حرّة بنت حليمة السعدية والحجّاج الثقفي ٩٧

علي عليه السلام والأنبياء ٩٩
أسماء مباركة توسّل بها نوح عليه السلام ١٠١
مقتطفات في فضل أهل البيت عليهم السلام ١٠٣
أوجه عظمة أهل البيت عليهم السلام ١٠٥
من خطبة له عليه السلام: في وصف القرآن والاستفتاء بآياته ١٠٧
خصائص القرآن ١٠٧
آيات مفيدة لدفع الأذى والأوجاع والفقر وكلّ ضرر ١٠٩
مناظرة طبيّة بين الصادق عليه السلام وطبيب هندي ١١٦
من خطبة له عليه السلام: في معرفة الخالق وتوحيده ١١٩
ولاية أهل البيت عليه السلام شرط في التوحيد ١٢١
من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: في المعروف والانفاق ١٢٥
مواضع المعروف ١٢٦
تعاريف للمعروف ١٢٦
أنواع المعروف ١٢٩
شروط تأثير الأمر بالمعروف ١٣٠
الإمام الكاظم عليه السلام والعمري ١٣٤
المأمون وعفوه عن عمّه إبراهيم ١٣٥
الرشيد وعفوه عن الخارجي ١٣٧
معن بن زائدة وعفوه عن الأسرى ١٣٨
المروءة النادرة ١٣٨

من وصية له إلى ولده الحسن عليهما السلام:

في الدعاء والتوبة إلى الله وعفوه تعالى ١٤١
الدعاء وشرائط القبول ١٤٢

فوائد الدعاء ١٤٣
أدعية القرآن ١٤٥
فصول أربعة ١٤٦
الأول: في حقيقة الدعاء ١٤٦
الفصل الثاني: في استحباب الدعاء وفوائده ١٤٦
سؤال وجواب ١٤٧
الفصل الثالث: في اقتران الدعاء بالاهتمام والعمل ١٤٨
الفصل الرابع: في آداب الدعاء والمسألة ١٤٩
عشرون باباً ١٥١
الباب الأول: في الاستعاذة بالله سبحانه من الشياطين ١٥١
الباب الثاني: في الاستعاذة بالله من الشرور والأشرار ومن سيّئآت الأعمال ١٥١
الباب الثالث: في الاستعاذة من النار ومن عذاب الملك القهار ١٥٢
الباب الرابع: في الدعاء للأبوين ١٥٣
الباب الخامس: في الدعاء لطلب الذريّة والأولاد والأزواج ١٥٤
الباب السادس: في الدعاء للذرية والأولاد ١٥٤
الباب السابع: في الدعاء للاخوان ١٥٥
الباب الثامن: في الدعاء لعموم المؤمنين والمؤمنات ١٥٦
الباب التاسع: في الدعاء لطلب الهداية والاستقامة في الدين ١٥٦
الباب العاشر: في الدعاء لطلب الخيرات والحسنات ١٥٨
الباب الحادي عشر: في الدعاء لطلب العلم والحكمة ١٥٨
الباب الثاني عشر: لطلب الرحمة والغفران وتكفير السيئآت ١٥٩
الباب الثالث عشر: لطلب التوبة وقبول الأعمال ١٦١
الباب الرابع عشر: في الدعاء لتطلب حسن المثوى ١٦٢

الباب الخامس عشر: لطلب الرزق واليُسر في الأمور وحسن العيش..... ١٦٣
الباب السادس عشر: في الدعاء السلامة والأمان ١٦٣
الباب السابع عشر: لطلب النصر والظفر ومزيد القوّة والأنصار ١٦٤
الباب الثامن عشر: لطلب الصبر وتوفيق الثبات..... ١٦٦
الباب التاسع عشر: في الدعاء لطلب النجاة من الظالمين ١٦٦
الباب العشرون: لطلب الدخول في صفّ الأخيار ١٦٧
أدعية أهل البيت عليهم السلام ١٦٨
موت القلوب بعشرة أشياء ١٧٠
الذنوب تمنع الغيث ١٧٢
النميمة وخطرها في المجتمع ١٧٣
قصة العبد النمام ١٧٤

قال عليه السلام في خطبة له:

يوصي فيها بعدم الغفلة ويحذر من الكذب والرياء والحسد ١٧٥
ضبط الألفاظ اللغوية..... ١٧٥
المعنى ١٧٦
جهاد النفس ١٧٦
مجالسة أهل المعاصي تسلب الإيمان ١٨٠
أحاديث في النهي عن مجالسة أهل المعاصي ١٨١
الحسد وأثره النفسي ١٨٣
الحسد ومنشؤه ١٨٤
الحسد وعلله.. وآثاره ١٨٦
علة قتل قابيل لأخيه هارون..... ١٨٨
علي والحاسدون ١٩٣

معاوية ينطق بالحق ١٩٤
أعرابي يمدح علياً عليه السلام في مجلس الوليد ١٩٧
أعرابي يمدح علياً عليه السلام في مجلس معاوية ٢٠٠
من وصية له إلى ولده الحسن عليهما السلام:
في محبة الآخرين والنهي عن الظلم والعجب ٢٠٣
الشرح ٢٠٣
نفسك ميزانك ٢٠٤
العجب آفة نفسية ٢٠٦
قصيدة إيليا أبي ماضي ٢٠٧
أحاديث في ذم العجب ٢٠٨
من خطبة له عليه السلام: في وصف آل محمد عليهم السلام ٢١١
ضبط الالفاظ اللغوية ٢١١
المعنى ٢١١
الأمر الأول: أهل البيت عليهم السلام موضع سرّ الله ٢٢٠
حديثنا صعب مستصعب ٢٢٣
الثاني: أهل البيت عليهم السلام ملتجأ أمر الله ٢٢٤
أهل البيت عليهم السلام هم ولاة الأمر ٢٢٥
الدليل النقلي ٢٢٦
الدليل العقلي ٢٢٧
الثالث: أهل البيت عليهم السلام عيبة علم الله ٢٢٧
الدليل النقلي ٢٢٨
الرابع: أهل البيت عليهم السلام موئل حكم الله ٢٣٠
الخامس: أهل البيت عليهم السلام كهف الكتب السماوية ٢٣١

مناظرة الإمام رضا عليه السلام مع الجاثليق ورأس الجالوت وبقية المذاهب ٢٣٢
عدد الكتب السماوية ٢٣٧
السادس: أهل البيت عليهم السلام جبال الدين ٢٤٠
السابع والثامن: أهل البيت عليهم السلام سبب قوام الدين ٢٤١

من خطبة له عليه السلام:

يوصي بالتوقى والاعتبار بالقرون السالفة ويشير إلى المهدي ٢٤٥
ضبط الالفاظ اللغوية ٢٤٥
الشرح ٢٤٦
سليمان عليه السلام وملك الموت ٢٤٧
قصة راعي الغنم مع صاحب الزرع ٢٤٨
إجابة سليمان عليه السلام على أسئلة السماء ٢٤٩
من وصايا داود لسليمان عليهما السلام ٢٥١
نوادر أخبار ملك سليمان ٢٥١
بناء بيت المقدس ٢٥٢
صفة سليمان في ملكه وفي بدنه ٢٥٦
عرش سليمان ٢٥٨
هدايا بلقيس ٢٥٩
سيرة نبي الله سليمان وتاريخه عليه السلام ٢٦٣
حكاية سليمان مع النملة ٢٦٥
قصّة بلقيس ملكة سبأ مع سليمان ٢٦٦
ضرورة الاعتبار من التاريخ ٢٧١
تاريخ العمالقة ٢٧١
في بيان مدائن الرسّ وقصّة أصحابها ٢٧٣

الإمام المهدي عليه السلام على لسان علي عليه السلام ٢٧٤
معرفة الحكمة وتفسيرها ٢٧٥
معاني الحكمة في القرآن ٢٧٧
تبع حكيم حكيماً سبعمائة فرسخ في سبع كلمات ٢٧٨
بين إفلاطون وسقراط ٢٧٩
بزرجمهر في السجن ٢٧٩
حكمة فيثاغورس ٢٨٠
حكمة أرسطاطاليس ٢٨٠
حكاية الملك ووزراءه الأربعة ٢٨١
وصفة الحكيم لكل داء ٢٨٤
دلالة قوله عليه السلام «فهو مغترب» على الإمام المهدي عليه السلام ٢٨٦
الرد على المعتزلي ٢٨٧
الرد على ابن ميثم ٢٨٨
موضوع الإمام المنتظر عليه السلام ٢٨٩
الأول: استبعاد طول العمر ٢٨٩
الثاني: عدم الحكمة في الوجود مع الغيبة ٢٩٢
حكاية الشيخ محمد حسين الاصفهاني عن الإمام المهدي عليه السلام ٢٩٢
كلام محي الدين العربي في حق الإمام المهدي عليه السلام ٢٩٤
من خطبة له عليه السلام:
يحذر فيها من الغفلة ويبين علمه وفضله على الآخرين ٢٩٩
ضبط الالفاظ اللغوية ٢٩٩
الشرح ٣٠٠
الفصل الأول: إيقاظ الغافلين ٣٠٠

الفصل الثاني: إشارة إلى مناقب علي عليه السلام ٣٠١
إخبار علي عليه السلام بالمغيبات ٣١١
مجموعة أخرى من المغيبات ٣١٢
قصة عمرو بن حمق الخزاعي ٣١٥
دخول جويرية على علي عليه السلام ٣١٧
إخباره عليه السلام بصلب ميثم التمار ٣١٨
قصة رشيد الهجري ٣١٨
إخباره عليه السلام بمقتل الحسين عليه السلام بكربلاء ٣١٩
من كلام له عليه السلام: ينهى عن التنجيم ويدعو إلى الاستعانة بالله ٣٢١
النهي عن تعلم النجوم ٣٢٤
حقيقة السحر ٣٢٦
فصل ووصل ٣٢٩
إخبار النبي صلى الله عليه وآله بالمغيبات ٣٣١
إخباره صلى الله عليه وآله لقيس بعدم مسّه بضرر ٣٣١
إشارته إلى عائشة بأنّها صاحبة الجمل ٣٣٢

من كلام له عليه السلام على منبر الكوفة:

يدعو الناس للإستفادة من علمه ٣٣٩
الحياة في كوكب المريخ ٣٤٢
اصدقاء عالم الفضاء ٣٤٤
لسنا وحدنا في الكون ٣٤٧
طبق طائر في الكويت ٣٤٧
المنطقة العربية والأطباق الطائرة ٣٤٩
طبق طائر فوق الأراضي السوفيتية ٣٤٩

صفات مشتركة للأطباق الطائرة ٣٤٩
حديث علي عليه السلام مع ذعلب ٣٥١
كلام الإمام علي عليه السلام مع ابن الكوا ٣٥٤
علي عليه السلام وآخر الزمان ٣٥٦
من كلام له عليه السلام: في مدح الكوفة ٣٥٩
ضبط الألفاظ اللغوية ٣٥٩
الشرح ٣٥٩
الكوفة وفضلها ٣٦١
الكوفة رائدة الأدب العربي ٣٦٢
مسلم بن عقيل وأهل الكوفة ٣٦٤

من خطبة له عليه السلام:

يوصي بالوفاء وعدم الغدر ويذكر سوء عصره ٣٦٩
ضبط الالفاظ اللغوية ٣٦٩
المعنى لهذه الفقرات النيّرة ٣٦٩
وفاء السمؤل ٣٧٠
قصة المنذر بن ماء السماء ويوماه البؤس والسعد ٣٧١
آل الأشعث والغدر ٣٧٦
غدرة خالد بن الوليد ٣٧٧
قصة ثعلبة بن حاطب ٣٧٨
قصة سابور وبنت الملك الغادرة ٣٨٠
جزاني جزاء سنمار ٣٧١
من خطبة له عليه السلام: التحذير من اتباع الهوى وطول الأمل ٣٨٣
ضبط الالفاظ اللغوية ٣٨٣

المعنى ٣٨٣
إتباع الهوى ٣٨٤
مجامع الهوى خمسة ٣٨٤
طول الأمل ٣٨٥
النهي والتحذير من طول الأمل ٣٨٦

من خطبة له عليه السلام:

يدعو فيها للزهد والشكر عند النعم ٣٨٩
ضبط الألفاظ الغريبة ٣٨٩
المعنى: الحث على الزهد ٣٨٩
موكب قارون ٣٩١
موعظة علي عليه السلام لنوف صاحبه ٣٩٤
رسول الله صلى الله عليه وآله وليلة الإسراء ٣٩٥
أوجه الزهد ٣٩٦
كلام الإمام الصادق عليه السلام في الزهد ٣٩٩
من كلام له عليه السلام: يصف الدنيا ٤٠٥
ضبط الالفاظ اللغوية ٤٠٥
المعنى: عشرة أوصاف للدنيا ٤٠٥
الأول: عشرة أوصاف للدنيا ٤٠٥
الثاني: فناء في آخر الطريق ٤٠٧
الثالث: الحساب في الحلال ٤٠٧
العقوبة على المحرمات ٤١٠
السابع: الفقر يجلب الحزن ٤١١
مقام الفقراء في الجنة ٤١٣

أحاديث في فضل الفقر والفقراء ٤١٤

من خطبة له عليه السلام:

في الإهتمام بفروع الدين وصلة الرحم والانفاق ٤١٧

ضبط الالفاظ اللغوية ٤١٧

الشرح: أسباب القرب إلى الله ٤١٧

أولها: الإيمان بالله ٤١٨

الفرق بين الإسلام والإيمان ٤١٨

مراتب الإيمان ٤١٩

الثاني: الجهاد من الوسائل إلى الله سبحانه ٤٢٤

والثالث: كلمة الإخلاص ٤٢٥

والرابع: الصلاة ركن الدين وعموده ٤٢٥

أمّا علّة وجوبها في الأوقات المعيّنة ٤٢٩

الخامس: الزكاة فريضة واجبة ٤٣١

الحكم النفسية للزكاة ٤٣٢

أثرها في الأخلاق ٤٣٢

أسرارها الاجتماعية ٤٣٣

المقام الأول: في محلّ وجوبها وعقوبة مانعها ٤٣٤

كوي الجباه والجنوب والظهور ٤٣٨

قصة تحكي عن بعض مشاهد القيامة ٤٣٩

المقام الثاني: في أسرار الزكاة ودقائق بذل المال ٤٤١

أصناف الناس ٤٤٢

السادس: الصيام والنجاة من النار ٤٤٥

أمّا علّة وجوب الصوم ٤٤٨

وأمّا فضل الصوم مطلقاً ٤٤٩
وأمّا فضل شهر رمضان وفضل صومه ٤٥٠
آداب الصوم ٤٥٣
شروط كمال الصوم ٤٥٤
السابع: أثر الحج في الدنيا والآخرة ٤٥٧
أسراره النفسية ٤٥٧
آثاره الخلقية ٤٥٨
آثاره الاجتماعية ٤٥٨
الثامن: آثار صلة الرحم الوضعية ٤٦٠
التاسع: الصدقة وأنواعها ٤٦١
العاشر: صنع المعروف ٤٦٣
فهرست الموضوعات ٤٦٧

* * *